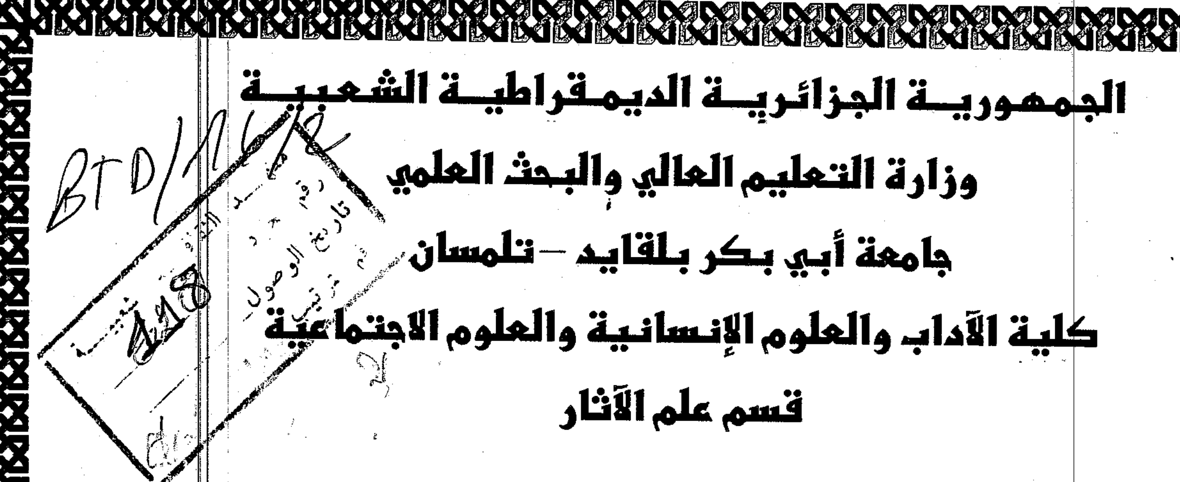


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار

أطروحة دكتوراه دولة في تاريخ العمارة الإسلامية



العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي مزاب

من خلال بعض النماذج

إعداد الطالب:

بلحاج بن بنوح معروف

إشراف الأستاذ الدكتور:

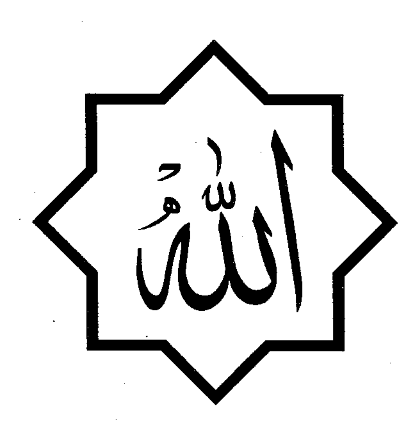
عبد الحميد حاجيات

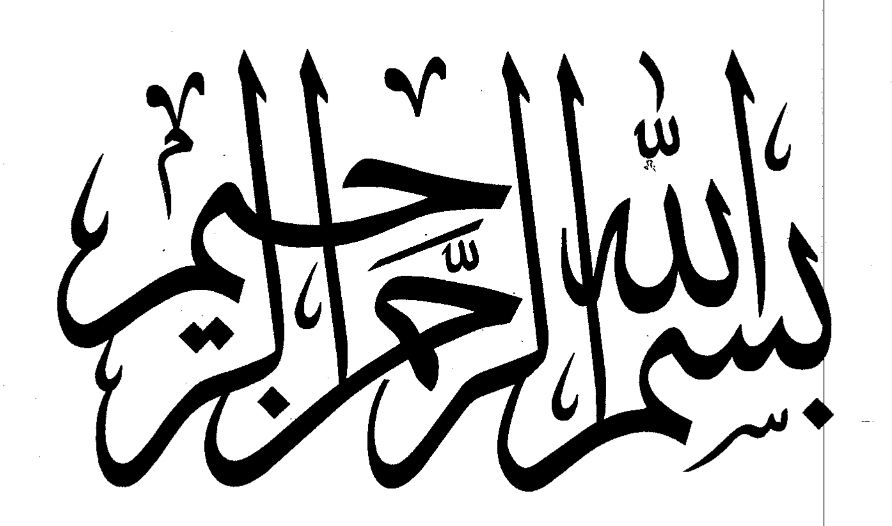
لجنة المناقشة

أ . د . عكاشة شايف	رئيسا
د . عبد العزيز لعرج	عضوا مناقشا
د . علي حملاوي	عضوا مناقشا
د . محمد مجاود	عضوا مناقشا
د . الغوثي بسنوسي	عضوا مناقشا

السنة الجامعية

1423هـ/ مارس 2002 م


الله


بسم الله الرحمن الرحيم



إلى التي حملتني وهناً على وهن... أمي العزيزة

إلى الذي سهر على تكويني ... أبي العزيز

إلى شريكتي في درب الحياة ... زوجتي الحبيبة

إلى أبنائي الأعزاء... أنور وسارة وشيماء

إلى كلّ الأصدقاء والزملاء...

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي العلمي هذه

بالحاج معروف



من باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله لا بدّ من كلمة شكر إلى كلّ الذين ساهموا في ميلاد هذا العمل العلمي، ونخصّ بالذكر أولاً أستاذنا المشرف الدكتور: عبد الحميد حاجيات الذي لم يبخل علينا بنصائحه الجمّة رغم ارتباطاته المختلفة، كما نشكر إطارات ديوان حماية وترقية سهل وادي مزاب الذين لم يتوانوا في مدّي بيد العون، كما أشكر صديقي يحي بوراس وعبد العزيز خواجة على المجهود الذي قدماه لي.... ولا أنسى أن أشكر بعض أعضاء الهيئات العرفية بمزاب على دعمهم وتسهيلاتهم المختلفة ولو بكلمة طيّبة... وأخيراً أشكر كلّ من ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاح هذا العمل....

فتقبلوا منّي فائق التحية والتقدير

مقدمة

لا شكّ أنّ لتنوّع و اختلاف البيئات وثقافات الشعوب التي دخلت تحت راية الإسلام دورا فعّالا في تشكيل العمارة الإسلامية عامّة والدّينية خاصّة ، و يجمع هذه المنجزات المعمارية في كل أقطار العالم الإسلامي طابع موحّد جسّده روح الدّين الإسلامي الحنيف .

و بفضل تظافر عدّة عوامل بيئية ودينية أنتج إباضيو منطقة وادي مزاب عمارة متميّزة تعدّ بحق نموذجا رائعا من العمارة الصحراوية ، وتبعا للقيمة التاريخية والمعمارية التي نحملها المعالم الأثرية المنتشرة في المنطقة ، تقرّر تصنيفتها من قبل منظمة اليونسكو سنة 1982 م ضمن التراث العالمي .

فالبيئة إذن كان لها أثرها في تبلور نمط معماري محلّي متميّز ، لكن هذه العمارة لا تبتعد في جوهرها عن أصول العمارة الإسلامية . و لقد جلبت هذه العمارة أنظار العديد من الباحثين و المهندسين المعماريين ومن مؤرخي الفن فانبهروا بها و قاموا بدراستها بعين ثاقبة محاولين في ذلك استنباط مميزاتها ، لكن دراساتهم اقتصرت على مجال واحد ألا وهو العمارة المدنية .

و بالرغم من دور المنشآت الدّينية الفعّال داخل المجتمع المزابي باعتباره مجتمعا متديّنا إلاّ أنّ الباحثين أهملوا هذا الجانب ، وحتى إن وُجدت بعض الدّراسات فتعدّ سطحية ومليئة بالأخطاء ، ولعلّ السبب يعود أصلا إلى عدم تمكّن هؤلاء الباحثين والمستشرقين بخاصّة من الولوج إلى داخل هذه المنشآت . و لسدّ النقص والفراغ في هذا المجال قرّرت معالجة موضوع العمارة الإباضية المزابية في شقّها الدّيني واتخذته

موضوعا لرسالة الدكتوراه ، قصد التنقيب عن جزئياته للوصول إلى نتائج تزيد في تنوير الباحثين عن مجال مازال غامضا لديهم .

لقد حفّزني انتمائي إلى المجتمع المزابي في الولوج بكل ثقة نفس في أعماق الموضوع ، و شجّعني في ذلك اشتغالي لفترة من الزمن كمحافظ للآثار في ورشة الدّراسات وترقية وادي مزاب حيث تعرّفت عن قرب على تلك المنشآت الدّينية واستغلّيت ذلك الظرف في إنجاز بعض مخطّطات هذه العمائر بالتعاون طبعا مع مهندسي الورشة .

إنّ الخوض في هذا الموضوع لا يخلو من العقبات والصعوبات فقلّة المصادر و المراجع إن لم نقل انعدامها كانت أولى العقبات واستدعى بي الأمر الاعتماد كليا على البحث الميداني رغم الصعوبات التي واجهتني بين الحين و الآخر أثناء إنجاز البحث الميداني فقد ضيّعت وقتا طويلا جريا وراء رؤساء حلقات عزابة* بعض المدن للحصول على إذن سواء للرفع المعماري أو لأخذ الصّور ، وقد باءت كلّ محاولاتي معهم للحصول على ما يشفي ضمئي من معلومات أو وثائق تتعلّق بهذه المنشآت بالفشل ، وقد زاد من صعوبة البحث انعدام الوثائق التاريخية ، وعدم وجود أيّ نصّ تاريخي على كلّ المعالم الدّينية الأثرية بمزاب . ولكن هذه العقبات لم تثبط من عزيمتي وقرّرت السير قُدما في سبيل إخراج هذه المعالم الأثرية إلى النور وإنقاذها من النّسيان .

لقد شُيّدت في كلّ مدينة من مدن مزاب السّبع منشآت دينية متنوعة منها المسجد الذي اختير له موقعا استراتيجيا في أعلى قمّة الهضبة بحيث يشرف بمئذنته الهرمية الشكل على كلّ المباني الأخرى المتدرجة فوق الهضبة . فأي الطرز من المعروفة

* تنظيم اجتماعي يتولى شؤون المجتمع المزابي من الناحية الدينية والاجتماعية ، وسأتعرّض إلى هذا التنظيم في الفصل الثاني من الباب الأول .

في عمارة المساجد طبّقت في هذه الربوع ؟ وما هي الخصائص التي تميّزها عن غيرها ؟ إنّ شكل المئذنة الهرمي كان هاجس مؤرخي الفن ، فطالما بحثوا عن جذوره ومنشئه فهل كانت إجابتهم مقنعة؟ ليبقي التساؤل مطروحا...

وتأتي المدارس في الدّرجة الثّانية ضمن العمائر الدّينية من ناحية الأهمية ، ومن هنا لم يتوانى المزابيون في بناء مثل هذه المنشآت انطلاقا من دورها التّربوي و التّعليمي . فما موقع المدرسة الإباضية المزابية من ناحية التّصميم ضمن المدارس الإسلامية ؟

من المنشآت الدّينية الأخرى نجد المصلّيات الجنائزية أو ما يعرف كذلك بمصليات المقابر التي تقف شامخة وسط المقابر الإباضية بوادي مزاب . ولا بدّ أنّ لهذه المنشآت دورا هامّا تؤدّيه داخل المجتمع المزابي ، فما وظيفتها ؟ و في ظلّ اختلاف أنواعها فهل يمكن إبراز أنماطها المعمارية ؟

تعدّ المدافن أو ما يسمّى عند المزابيين بالمقام من بين العمائر الدّينية لارتباطها الوثيق بالممارسات الدّينيةّ ، فهل تشبه أنماط المدافن أو الأضرحة المعروفة لدينا ؟ أم أنها تضيف نمطا أو طرازا جديدا إلى عمارة المدافن ؟

وتطرح الزّخرفة إشكالا كبيرا، فلا زال الباحثون يتسألون عن ذلك الانقطاع و النقلة المفاجئة من فن خلاّق ومبدع في سدراتة الإباضية إلى فن متواضع في وادي مزاب ، فما سرّ هذه النقلة ؟

إنّ طبيعة التّساؤلات التي يطرحها الموضوع تفرض علي اختيار المنهج الذي سأسلكه في البحث، ويتعلّق الأمر أولا بالمنهج التّاريخي والوصفي ، كما لا يمكن الاستغناء عن المنهج التّحليلي والمقارن الذي سيساعدنا لا محالة على إبراز خبايا هذه العمارة ومكنوناتها .

وسعيا مني للإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه وحيثياته ، رأيت من المناسب اتخاذ خطّة منهجية تنبني على مدخل وثلاثة أبواب .

ففي المدخل حاولت إبراز المحاور الأساسية التي يتضمنها العنوان من مفهوم للعمارة بشكل عام وللعمارة الإسلامية الدينية على وجه الخصوص ، كما تطرّقت إلى النسيج العمراني لمدن مزاب .

إنني لا أكتم حقيقة حاضرة أن طبيعة المنطقة وخصوصياتها فرضت نفسها عليّ بشكل كبير ، فكان من الصعوبة بمكان المرور على صفحات تاريخها وحضارتها مرورا عابرا دون تلمس لنكهته ، لذلك أوليت اهتماما متفرّدا بهذا الجانب إلى درجة أنني خصّصت لها بابا كاملا وزّعته على فصلين ، وقفت في الفصل الأول عند تاريخ موجز للمذهب الإباضي ، فتتبّعت خطوات مريديه في المشرق والمغرب الإسلاميين . ويبحث الفصل الثّاني في تاريخ منطقة وادي مزاب حيث استوقفتني شهية البحث عند بعض القضايا والمحطّات التاريخية التي أثارت فضولي سيّما ما يتعلّق منها بتأسيس مدن مزاب السّبع . و نظرا لدور التنظيمات الاجتماعية العرفية الفعّال داخل المجتمع المزابي و علاقتها المباشرة بالعمائر الدّينية ، رأيت من اللائق نقل فكرة للقارئ حول هذه التنظيمات الاجتماعية بالتركيز على نظام العزابة ومهامه داخل المجتمع وعلاقته بالمنشآت الدّينية في المدينة المزابية .

وفي الباب الثّاني انتقلت مباشرة إلى دراسة العمائر الدّينية وقمت بوصفها وصفا معماريا ، وقد اخترت لذلك نماذج لأنّ المجال لا يتّسع هنا للتطرّق إلى كلّ المباني واعتمدت في اختياري على أساسين : أساس تاريخي بحيث حاولت تغطية كل الفترات ، و أساس تنميطي بحيث يكفل هذا الاختيار إبراز الاختلافات بين المنشآت المنضوية تحت نوع واحد . و قسّمت هذا الباب إلى فصلين تناولت في الفصل الأوّل

المساجد فقط ، ثمّ أدرجت كلّ العمائر المتبقية من مدارس ومصلّيات جنائزية سواء كانت مغطّاة أو مكشوفة والمقامات في الفصل الثاني .

ومحاولة مني لاستخلاص النتائج العلمية الموضوعية من الدّراسة موضوع بحثي ، رأيت من الأنسب سلوك أسلوب التحليل والمقارنة بين العمائر المدروسة نفسها ، وبينها وبين المنشآت الدّينية الإسلامية ، ومن هنا جاءت عنونة الباب الثالث بالدّراسة التحليلية والمقارنة . وبنفس التّقسيم الذي اتّبعته في البابين الأوّلين ، وزّعت هذا الباب على فصلين ، تناولت في الفصل الأوّل منه مختلف العمائر الدّينية ودرستها دراسة تحليلية من ناحية التّصميم وقوفا عند منشأ و تطوّر كلّ نوع . وأمّا الفصل الثّاني فخصّصته للعناصر المعمارية المستعملة في المنشآت الدّينية المزابية وتعرّضت في كلّ عنصر معماري إلى أهميته ودوره داخل المنشأة ، ثمّ أنهيت هذا الفصل بمجال الزّخرفة في العمائر الدّينية الإباضية وتطرّقت في النهاية إلى مواد البناء المستعملة في هذه المباني .

وفي الأخير حوصلت نتائج الدّراسة في خاتمة استنتاجية حاولت من خلالها إبراز مميّزات وخصائص العمارة المزابية في شقّها الديني .

وأخيراً أتمنى أن يكون هذا العمل لبنة أخرى تضاف إلى رصيد المكتبة العربية الإسلامية، فإن وفقت فيه فمن عند الله، وإن أخطأت فحسبي أنّ لي أجراً على ذلك.
وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أنيب.

بالحاج بن بنوح معروف

تلمسان –26 / 03 / 2002

المدخل

1 – مفهوم العمارة

2 – العمارة الإسلامية

3 – النّسيج العمراني لمدن مزاب

1 – مفهوم العمارة :

إنّ موضوع هذه الدّراسة يحتّم علينا استعراض بعض الآراء حول ماهيّة العمارة ليتسنّى لنا تقديم تعريف مناسب يتماشى و خصوصيات العمارة التي نحن بصدد البحث في حيثياتها . و التي خضعت عبر العصور لوجهات نظر مختلفة .

لم تنشأ العمارة بكلّ ما تحمل من مبادئ وأساليب متنوّعة من لا شيء ، بل أخذت تتكوّن وتتبلور عبر المراحل التّاريخية التي قطعها الإنسان ، وحاول تصميم مسكنه وفق احتياجاته ، فعندما شعر الإنسان البدائي بحاجته الملحّة إلى مأوى يحميه من الظّروف القاسيّة للطبيعة التي يعيش في وسطها ، لجأ إلى المغارات فنظّم و رتّب فراغاتها حسب احتياجاته و نشاطاته المختلفة ، وعلى هذا الشّكل تعرّف الإنسان على المبادئ الأولى للعمارة[1] .

وإنّ انتقال الإنسان من مرحلة جمع الطّعام والصّيد إلى مرحلة تربية المواشي والزّراعة جعلته يحتاج للعيش في حياة مليئة بالاستقرار والأمن ، واستدعى ذلك منه البحث عن مسكن بالقرب من مصدر مائي يسمح له بالاشتغال بالرّعي و بممارسة نشاطه في الزّراعة ، فلجأ إلى ما تمنح له الطبيعة من مواد بناء ، فاستغلّها أحسن استغلال في بناء مسكنه ، و قام بتنظيم وتوزيع فضاءاته الدّاخلية حسب احتياجاته اليومية وأذواقه ، ونشاطاته داخل المسكن . و يبدو أنّ الإنسان قد أعطى أهمية للشّمس والقمر والمطر والعواصف ، فراقبها وصاغ مبانيه انطلاقا من تلك الملاحظات ، وعلى هذا الشّكل برزت فيما يبدو بعض مبادئ العمارة الرمزية . ومنذ تلك المرحلة أخذ أسلوب البناء والتّشييد يتطوّر وينمو ، فمن الطين وجذوع

---

[1] -رئيف مهنا ويسن بحر : نظريات العمارة ،الكتاب الأول ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1992 ، ص : 19 – 20 .

الأشجار انتقل الإنسان إلى استخدام الحجر غير المنحوت ثمّ المنحوت إلى أن ابتكر وسائل إنشائية جديدة مثل العقود والأقبية والقباب و غيرها[2] .

و بمرور الزّمن تطوّرت الأساليب الإنشائية في العمارة فبرزت بموازاة مع ذلك محاولات عديدة في مجال البحث عن سرّ العمارة وجماليتها ، فوضعت لذلك نظريات واختلفت الآراء ووجهات نظر المعماريين حول إعطاء مفهوم دقيق للعمارة .

هكذا فقد عدّها بعض الفلاسفة اليونانيون بمثابة أمّ الفنون [3]. ويظهر أنّ العمارة الدّينية داخل المجتمعات اللاّهوتية كانت المجال المناسب للفنان لإظهار قدراته و إبداعاته الفنية في الميادين الأخرى غير العمارة مثل النّحت والرّسم ، و هذا ما جعل ريمون بايير يعتبر العمارة المنبع الأصلي للفنون الأخرى والتي تجلّت نشأتها حسب رأيه على جدران المعابد [4].وذلك وفق الأقدمية التّاريخية .

ويعدّ فيتروفيوس أوّل من قدّم تعريفا علميا للعمارة في كتابه دي أرشيتكتورة De Architectura مفاده أنّها علم يشتمل على مجموعة متنوّعة من الدّراسات والمعارف تقوم باختبار نتاجات الفنون الأخرى . و تعدّ في نظره ثمرة تتأتّى ببذل مجهودين أساسيين أحدهما نظري و الآخر تطبيقي : فالنّظري يقوم بإثبات صحّة و دقّة النّسب المتوخّاة في الأشياء المعالجة . أمّا التّطبيقي فهو علاج الفكرة بالممارسة ، أي تحقيق الفعل الذي يعطي للمادّة المستعملة في الشّكل المرسوم [5].

---

(2) - رئيف مهنا و يسن بحر : المرجع السابق ، الكتاب الأول ، ص : 14 .

(3) - توفيق حمد عبد الجواد : تاريهخ العمارة والفنون الإسلامية ، ج : 3 ، القاهرة 1970 ، ص : 2 .

(4) - عبد المعطي محمد : الإبداع الفني وتذوق الفنون الجميلة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1985 ، ص : 96

(5) - سيدي محمد الغوثي بسنوسي : الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الدينية الإسلامية بالمغرب العربي ، رسالة دكتوراه دولة ، قسم الثقافة الشعبية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان 2000 ، ص : 85

عُرِّفت العمارة كذلك على أنّها تكوين فضائي يستجيب لمتطلبات المنفعة والمتانة والجمال و الاقتصاد ، وتظهر براعة المهندس المعماري في تحقيق نوع من التّوازن بين هذه العناصر الأربعة .

لقد ركّز عرفان سامي في محاولته لإعطاء مفهوم للعمارة ، على العناصر الأربعة ، فيرى أنّ العمارة هي الفن العلمي لإقامة عمائر تتوفّر فيها الشّروط الآتية : المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد و التي يمكنها تلبيّة حاجيّات الإنسان المادّية والنّفسية والرّوحية بالاعتماد على أحسن الوسائل الإنشائية المتوفّرة في ذلك العصر ، لكن شريطة أن يقوم بإنجاز ذلك المبنى معماريون لهم دراية كافيّة بالظّروف البيئية المحيطة بالمعلم [6].

أمّا المعماري الفرنسي لوكوربزييه Le Corbisier الذي كان بلا شك متأثّرا كثيرا بالعمارة القديمة والإسلامية بالخصوص ، فلقد حاول بقدر الإمكان الاستفادة من تجاربها . فرأى على ضوء مسار تاريخ العمارة أنّها لعب متقن بالكتل منظورة تحت الضّوء [7].

وتعدّ العمارة عند بعضهم بمثابة الرّوح الخلاقة التي تتطوّر عبر الزّمن تماشيّا مع الطبيعة والظّروف المحيطة بالإنسان سواء كانت بيئية أو اجتماعية .

أمّا صاحب كتاب نظريات العمارة فقد أعطى تعريفا شموليا لمفهوم للعمارة ، ذاهبا إلى أنّها انعكاس للنّشاط الاجتماعي للإنسان من كلّ جوانبه الاقتصادية والسياسية والبيئية [8]. و ما نستنتجه من هذه التّعريفات المختلفة أنّ العمارة ما هي إلاّ تلبية لحاجيات الإنسان واستجابة لممارساته الاجتماعية .

---

[6] - رئيف مهنا و يسن بحر: المرجع السابق ، الكتاب الأول ، ص :108 – 109 .
[7] - المرجع نفسه ،الكتاب الأول ، ص : 109 .
[8] - المرجع نفسه الكتاب الأول ص : 110.

2 – العمارة الإسلامية :

تطلق هذه التّسمية على العمارة التي أُنجزت في المناطق التي وصلها الإسلام ، واعتنق أهلها هذه الدّيانة وتمتدّ من المحيط الأطلسي غربا إلى الصّين شرقا و قد وصل تأثيرها إلى مشارف فرنسا .

استفاد المسلمون في بداية عهدهم بتجارب و خبرات الأمم التي دخلت في الدّيانة الإسلامية ، و من الطّبيعي أن يتأثّروا بفنون تلك الأمم ، خصوصا أنّ العرب لم يصلوا بعد إلى تلك الأساليب المتطوّرة في مجال العمارة والبناء وما يتبعها من الزخارف المتنوّعة . وهكذا تأثّر المسلمون بالفن السّاساني والبيزنطي و الهلنستي و القوطي[9] ، وهذا حال الحضارات التي تتأثّر فيما بينها ، إذ لا يمكن لأي فنّ أن ينشأ من عدم ، فلا بدّ أن يُستفاد من خبرات السّابقين ، و يُعتمد عليها في البداية ، لكي ينطلق الفن ويكوّن شخصيته ، فالفن اليوناني مثلا اعتمد في بداية ظهوره على فنون الشرق الأدنى وبصفة خاصّة الفن الفرعوني .

قام المعماري المُسلم بتطوير تلك التّجارب السّابقة وصاغها على حسب احتياجات ديانته ، فأضفى عليها بذلك طابعه الخاصّ وبمرور الزّمن أثبتت العمارة الإسلامية بخصوصيّاتها المتميّزة مكانتها ضمن العمارات الأخرى ، وأصبح من الصّعوبة بمكان محاولة تمييز تأثيرات الفنون الأخرى عليها .

وعلى الرّغم من ذلك فيجدر الذّكر أنّ هناك عاملين أساسيين ساهما في بلورة هذه العمارة وهما :

– **العامل البيئي** : انتشر الإسلام في أقاليم تختلف في بيئتها الطّبيعية من تضاريس ومناخ ، وكان لهذا أثره على تشكيل الفن المعماري الإسلامي ، وهكذا

[9] - Georges Marçais ; L' Art Musulman , 1er Ed , Presse Universitaire de France , Paris 1962 , pp : 1 –2 .

كان للعمارات المحلية نصيبا هامّا في تبلور هذه العمارة [10] ، فحيث كانت الصّحراء – باعتبار أنّ معظم الأقاليم الإسلامية تقع في بيئة صحراوية – نجد المباني قد تأثّرت بتلك البيئة الصّحراوية ، فبدت بصمات هذه البيئة واضحة عليها ، ومن هنا ظهر تنوّع في الطرز المعمارية والمدارس الفنية .

– **العامل الدّيني** : كانت لتعاليم الدّين الإسلامي أثر كبير في صياغة وتكوّن الفن المعماري الإسلامي . وبما أنّ الإسلام قد فرض إقامة الصّلاة مثلا في اتّجاه الكعبة فقد جاءت كل المباني الدّينية[11] (المساجد والمدارس والأضرحة ... الخ) مرتبطة أشدّ الارتباط بهذا الاتجاه .

بعد استيطان العرب المسلمين في المدن الحضرية واختلاطهم بالأجناس والأمم الأخرى ، ظهرت العمارة الدّينية الإسلامية في ثوب جديد ، ولكنها بقيت وفيّة لتقاليد معمارية مستوحاة من الدّين نفسه في الدّرجة الأولى ومن البيئة الصّحراوية التي نشأت في أحضانها .

بدأت العمارة الإسلامية بسيطة في بنائها ، فالجامع أخذ شكله انطلاقا من الوظيفة التي يؤدّيها . وبما أنّ صلاة الجماعة تقتضي الاصطفاف وراء الإمام في صفوف منتظمة ، و تعاليم الدّين الحنيف تحثّ المصلّي عن الاقتراب من الإمام قدر الإمكان لنيل ثواب أكثر ، فقد جاءت المساجد مستطيلة الشّكل عموما واستطالتها كانت عرضيا أي أنّ العرض أكبر من العمق[12] . أضف إلى ذلك فإنّ إجبار المصلّي التوجّه في اتّجاه الكعبة أثناء أداء الصّلاة قد أرغم المعماري المسلم على توجيه كلّ العمائر الدّينية في اتّجاه الكعبة ، وقد رمز إلى هذا الاتّجاه بوضع تجويف في جدار القبلة أطلق عليه اسم << المحراب >> .

---

(10) - رئف مهنا يسن بحر : المرجع السابق ، الكتاب الأول ، ص : 69 .
(11) - ثروت عكاشة : القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ، دار المعارف ، القاهرة 1981 ، ص : 14 .
(12) - المرجع نفسه، ص : 19 .

كانت العمارة الإسلامية ترتكز في أوّل ظهورها على مجموعة من العناصر المعمارية والزّخرفية التي تتّفق وروح الديّانة الإسلامية ، ممّا أضفى على منجزاتها طابعا متميزا يكاد يكون متشابها في كلّ الأقطار الإسلامية .

و على الرّغم من الاختلاف أحيانا بين هذه العمارات في بعض التّفاصيل أو في العناصر المعمارية الإنشائية كمنحنيات القباب والعقود والتكوينات المعمارية للمآذن أو في بعض الوحدات الزّخرفية ، فإنّ ذلك لم يثنها من الاشتراك في وحدة الرّوح الإسلامية الكامنة وراء التكوينات المعمارية و التشكيلات الزّخرفية التي أصبحت تقليدا معماريا يحفظه المعماريون المسلمون عن ظهر قلب ، و هذا ما أدّى بجورج مارسيه إلى الجزم بأنّ الوحدة اللّغوية تُعدّ عنصرا مهمّا في تكوين طابع معماري موحّد [13] .

و ممّا ساعد كذلك على وحدة الطّابع المعماري الإسلامي ما كان من تشابه في الظّروف البيئية في أغلب مناطق العالم الإسلامي ، فالحرارة شديدة عموما ، والسّماء صافية والأمطار قليلة و هذه ميزة البيئة الصّحراوية التي تغطّي مساحات هامّة من هذا العالم .

ولقد أخذ المعماري المسلم تلك الظّروف القاسية بعين الاعتبار ، فشيّد عمارة دينية ومدنية وحتّى عسكرية تتلاءم مع هذه الظروف . فخصّص فضاء مكشوفا (الصحن) محاطا في أغلب الأحيان بأروقة ، ليصبح هذا الفضاء أكثر الفضاءات أهمّية في العمارة الإسلامية نظرا للأدوار المهمّة التي يقوم بها [14].

تمتاز العمارة الإسلامية بخصائص يمكن من خلالها تمييزها بسهولة عن العمارات التي تنتمي إلى حضارات أخرى . كما يمكن ملاحظة اختلافات داخل العمارة

---

(13) - Georges Marçais : Op .cit , p : 5 .
(14) -: Ibid, p : 3 .

الإسلامية نفسها أملتها ظروف الاحتكاك بتجارب الأمم التي خضعت للإمبراطورية الإسلامية . فالفن كاللّغة فهي حيّة و التغيير من أهمّ سماتها .

و هكذا نلاحظ أنّ العمائر الإسلامية ذات طابع خاصّ ، لكنها متميّزة ، ويختلف بعضها عن بعض وفق الأقاليم والبيئات والعصور المختلفة . فالعمائر يمكن أن تختلف في مواد البناء ، وفي أنواع الأعمدة وتيجانها ، و في العقود أو الأقواس ، وفي المآذن والقباب والمقرنصات أو الدلايات وفي أنواع الزّخارف النباتية والهندسية والخطّية و في المواد المستعملة لتكسية الجدران كالجصّ والقشاني وغيرها من المواد والعناصر الأخرى ... الخ [15]

خلال قرون من الزّمن تطوّرت العمارة الإسلامية ، وظهرت عليها عناصر الاختلاف ، وقد سار هذا التطوّر في مراحل تاريخية تبعا للتّاريخ السياسي . فقد كان الفن الإسلامي في معظمه تحت خدمة السّلطان أو الأمير وحاشيتهما ، فالمعماري كان يشيّد المساجد والقصور وغيرها من العمائر بأمر من الخليفة أو السّلطان أو الأمير ومن هنا برزت المدارس الفنية المختلفة .

تنسب الطرز إلى شتّى الدول التي بسطت سلطانها على أنحاء العالم الإسلامي أو على جزء منه ، و تنسب كذلك إلى الأقاليم نفسها . لكنّه لا يمكن التعرّف بالتحديد على تاريخ نشأة أي طراز فني ، أو تاريخ زواله ، لأنّ هذه الطرز تتطوّر فينشأ بعضها من بعض ، والفصل بينها وضعي واصطلاحي إلى حدّ كبير ، كما أنّها تأثّر بعضها في بعض ، بحيث أنّ بعض الأمراء يقومون باستقدام أو بنقل الفنانين و الصنّاع من إقليم إلى إقليم آخر ، وهذا ما يفسّر ذلك التّداخل و التماثل أحيانا بين الطرز المختلفة .

من الطبيعي جدّا أن تظهر بعض الاختلافات فيما بين العمائر الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي – بالرغم من وحدة الطابع التي جسّدها الدّين الإسلامي – ، إذ

---

[15] - زكي محمد حسن : في الفنون الإسلامية ، دار الرائد العربي ، بيروت 1981 ، ص : 10 .

لا يمكن تصوّر استمرار وحدة معمارية خلال فترة زمنية طويلة تزيد عن عشرة قرون ، كما لا يمكن إيجاد هذه الوحدة في كامل الأقاليم الإسلامية التي تتّسم باختلاف عاداتها و تقاليدها . ومن هنا اتّفق معظم مؤرخي الفن على تقسيم الفنون الإسلامية بما في ذلك فنّ البناء ، إلى طرز ومدارس ، و قد اعتُمِد في هذا التقسيم إمّا على الأحداث السياسية أو على أساس إقليمي . وسأورِد فيما يأتي أهمّ المدارس الفنية المعتمدة لدى أغلب مؤرخي الفن الإسلامي . ولأنّ موضوع البحث هنا يدور حول العمارة الدّينية سأقتصر على تقديم أمثلة لمنشآت تنتمي إلى هذا النوع من العمارة .

أ – الطراز الأموي :

يدلّ هذا الطراز على ظهور أوّل مدرسة فنية إسلامية . و لقد كانت نشأته ابتداء من استيلاء الأمويين على عرش الخلافة الإسلامية وانتقال العاصمة الإسلامية من المدينة المنوّرة إلى دمشق . وكانت السيّادة في بداية الأمر للفنانين البيزنطيين و لا سيما المعماريين السوريين الذين كان لهم الفضل الكبير في تشكيل هذا الطراز ، وقد نقل الولاّة وقيّاد الجيش أساليب هذه المدرسة إلى سائر الأقاليم الإسلامية على يد البنّائين والصنّاع الذين تمّ استقدامهم من بلاد الشّام . ولكن إضافة إلى التأثيرات البيزنطية فلم يخلو هذا الطراز من التأثيرات السّاسانية .

ومن مظاهر العمارة الدّينية في هذه المدرسة قبّة الصخرة بالقدس (72 هـ / 691 م) ، والجامع الأموي بدمشق (88 هـ / 706 م) [16].

ب – الطراز العباسي :

بمجرد سيطرة العباسين على الخلافة الإسلامية سنة 132 هـ / 749 م انتقل مركز الحكم من دمشق إلى بغداد ، وكان قيام هذه الدولة بمساعدة الخراسانيين ،

---

[16] - Georges Marçais : Op. cit , pp : 15 – 21 .

و قد نتج عن هذه الأحداث السياسية تغيّر في الأساليب المعمارية والزّخرفية ، فكان التأثير الفارسي واضحا ، حيث اتّجه البنّاؤون نحو استعمال الآجر بدلا من الحجارة ، والدّعامات بدلا من الأعمدة . و لقد بلغ هذا الطراز أوجّه من الازدهار إبان القرن 3 هـ / 9 م في مدينة سامراء .

ومن أهمّ المنشآت الدّينية المرتبطة بهذه المدرسة نذكر الجامع الكبير بسامراء (234 – 238 هـ / 848 – 852 م) ، و جامع ابن طولون بالقاهرة (263 – 266 هـ / 876 – 879 م) ، و القبّة الصليبيّة (213 هـ / 828 م)[17] .

لمّا بدأت الإمبراطورية الإسلامية في الانقسام إلى إمارات مستقلّة عن السّلطة المركزية ، استقلّت كذلك فنيا ، فظهرت منذ القرن الخامس الهجري طرز وأساليب فنية جديدة في شتّى أنحاء العالم الإسلامي .

جـ – الطراز المصري السّوري :

بعد استيلاء الفاطميين على مصر وجزء كبير من بلاد الشّام ، ابتداء من سنة 359 هـ / 969 م ظهر طراز جديد يختلف نوعا ما عن المدرسة العبّاسية ، و عندئذ تطوّرت أساليب هذا الطراز في العهد المملوكي خاصّة . و ظهر عنصر التجديد في العمائر الفاطمية جليا في جامع الجيوشي الذي يعود إلى تاريخ 478 هـ / 1085 م ، أين تعلو مئذنة مركبة من جزئين مربعين و جزء مثمن الشّكل ، و يلتصق بالمبنى ضريح المؤسس[18] ،

وقبل ذلك شيّد الفاطميون عمائر عديدة مثل الجامع الأزهر (360 – 363 هـ / 970 – 973 م) و جامع الحاكم (390 – 404 هـ / 990 - 1013 م) و جامع الأقمر (519 هـ / 1125 م) . إلى جانب المساجد قاموا ببناء الأضرحة

(17) - زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص : 13 – 15 .

(18) - Georges Marçais : Op . cit , p :63 –64 .

كضريح إخوان يوسف (494 هـــ / 1100م) ، و هنا يشير جورج مارسيه إلى أنّ الفاطميين استعملوا النّوع البدائي للمقرنصات[19].

خلّف المماليك البحرية و الشركسية في مصر وبلاد الشّام بخاصّة أنواعا عديدة من المباني ، أشهرها المدارس التي ظهر التأثير السّاساني جليّا عليها ، وخاصّة ما يسمّى بالمخطّط المتعامد الذي يعتمد أساسا على عنصر الإيوانات ، و تبرز روح التجديد في العمارة الدّينية ، ببناء الأضرحة الأميرية الملاصقة للمدرسة [20]

د – الطراز المغربي الأندلسي :

بدأت ملامح هذه المدرسة في الظهور بمجرّد قيام الخلافة الأموية في الأندلس ، حيث عرفت العمارة المغربية الأندلسية عصرها الذّهبي ، وقد تجسّد ذلك في مسجد قرطبة (169 هـــ / 785 م) [21] . وعندما استولى المرابطون على الحكم في الأندلس ساد طراز معماري متأثر بالآراء الصوفية [22]. أمّا في عهد الموحدين (633 هـــ / 1235 م) فكان للأندلس ومراكش الحظّ الأوفر من البناء والتشييد ، إذ جلبت اهتمام السّلاطين الموحدين وعنايتهم .

امتاز الطراز المعماري المغربي الأندلسي بعقوده الحدوية المتنوّعة وعلى الخصوص المئذنة المربّعة التي طبعته بطابع خاصّ ، إضافة إلى الأعمدة الرّشيقة والتيجان ذات المقرنصات والفسيفساء الخزفية المعروفة بالزليج المستعمل في تغطية الجدران والأرضيات . وقد ظهرت هذه المميّزات بصورة جليّة في المساجد والمدارس و الأضرحة بصفة خاصّة[23] .

---

(19) - Georges Marçais : Op . cit , p : 64 .
(20) -: Ibid, pp :113 –114 .
(21) - Natascha Kubisch : << Espagne et Maroc (8é - 15 é) Architecture >> Art et Civilisation de l'Islam ,Konemann , Cologne , 2000 , p :218
(22) - ارنست كونيل : الفن الإسلامي ، تر : أحمد موسى ، دار صادر ، بيروت 1966 ، ص : 121 .
(23) - زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص : 16 .

هـ – الطراز الإيراني :

بظهور السّلاجقة في مسرح الأحداث السيّاسية في إيران نشأ طراز معماري جديد في عمارة المساجد ، أُطلق عليه اسم المساجد ذات الإيوانات ، وكان قصر ستيسفون بالمدائن الذي يعود إلى القرن السّادس الميلادي و الذي شيّده للسّلطان السّاساني خسرو الأوّل ، مصدر إلهام لهذا الطراز . و أقدم نموذج معروف يندرج تحت هذا الطراز جامع الجمعة بأصفهان (473 هـ / 1080 م) . و لقد أصبح هذا المخطّط النّموذج المثالي لنمط معماري ساد في مساجد إيران حتى نهاية العهد الصفوي . و لدينا نماذج عديدة أشهرها على الإطلاق جامع الشّاه بأصفهان (1021 هـ / 1612 م)[24] ، كما كان هذا التصميم إرهاصا للمخطّط المفضّل في بناء المدارس التي كان للسّلاطين السّلاجقة الفضل و السّبق في إنشاء أوّل نماذج منها .

لقد حرص الفنان الإيراني على إظهار ذلك الانسجام في عناصر المبنى ، وبرع في إنشاء القباب التي تختلف عن غيرها بمنحنياتها و تعدّد تكويناتها في مناطق انتقالها من المربع إلى الدائرة في تشكيلات مذهلة ومتعدّدة تعتمد على الخناصر المعقودة[25] .

و تقدّم لنا مدينة سمرقند نماذج جدّ رائعة من الأضرحة الإيرانية وأشهرها غورامير الذي أنجز من طرف المهندس محمد بن محمود سنة 807 هـ / 1404 م بأمر من تيمورلينك[26] .

و – الطراز التركي :

لّما أسّس العثمانيون إمارتهم في بلاد الأناضول سنة 725 هـ / 1324 م ، بدأوا في وضع الرّكائز الأولى لنمط عمارتهم التي أعطت الاهتمام والعناية الكبيرة

---

[24] -Henri Stierlin : Architecture de l'Islam , Office du Livre , Fribourg 1979 , pp : 80 – 130 .

[25] - ثروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 105 .

[26] - Henri Stierlin : Ibid , p : 107 .

لعنصر القبّة ، وقد استفادوا من تجارب البيزنطيين في مجال تشييد العمائر ذات القبّة المركزية ابتداء من سنة 736 هـ / 1335 م ، وقد كان لدخول العثمانين مدينة استانبول 857 هـ / 1453 م أثر كبير في تطوير هذا الطراز و لا سيّما على يد المهندس المعماري الفذّ سنان باشا الذي أخذ كنيسة أياصوفيا مصدر إلهام لأعماله المعمارية ، وفعلا فقد بلغت القبّة أوجّ عظمتها على يده في جامع السليمية بأدرنة ، كما يذكر ذلك بنفسه في كتابه « تذكرة البنيان »[27]

وقد بالغ الفنانون الأتراك في زخرفة المحراب وواجهات الأبواب ، حتى يخال أنّ له علاقة وطيدة بفن الباروك . ويبدو أنّ ذلك الإسراف في الزخرفة كان ناتجا حسب ثروت عكاشة عن فكر صوفي [28] .

ز – الطراز الهندي :

كان للطراز الفارسي أثر كبير على هذه المدرسة إلى درجة أنّ بعض مؤرخي الفن ضمّوها إلى الطراز الفارسي . ولكن العمارة التي أقيمت في الهند فيما بين القرن السّادس عشر والثّامن عشر الميلاديين احتفظت بخصائص معمارية متميّزة . و يعدّ عصر أكبر (973 – 1014 هـ / 1556 – 1605 م) و جهانجير (1014 – 1038 هـ / 1605 – 1628 م) وشاه جهان (1038 – 1070 هـ / 1628 – 1659 م) من أزهى العصور في مجال البناء ومن أروع ما أنجزه المعماري المغولي من العمائر تاج محل (1042 – 1065 هـ / 1632 – 1654 م)[29].

---

[27] - Baelhadj Marouf : Cezayir'de Merkezi Kubbeli Camiler – Osmanlı Dönemi –Thèse de Magister , Université d'Istanboul , Faculté des Lettres ,Département d'Histoire de l'Art ,Istanboul 1991 , pp : 14 –16 .

[28] - ثروت عكاشة : المرجع السابق ، ص : 109 .

[29] - Henri Stierlin : Op . cit , pp : 235 – 270 .

لقد ورثت هذه المدرسة عن الطرئاز الفارسي العقود والمآذن الأسطوانية والقباب البصلية الشكل ، وتتميّز المدرسة الهندية عن غيرها بالقباب الصغيرة في واجهات المباني .

ونظرا لخصوصية الموضوع الذي يدور حول محور العمارة الدّينية بكل أنواعها فيجدر بنا أن نتحدث ولو بإيجاز عن أنواع العمائر التي تدخل في هذا الإطار . فبالنّسبة للمساجد فقد طُبّق عليها نظام معماري موحّد في توزيع الفضاءات الدّاخلية عبر كل المراحل التّاريخية وفي كلّ بقاع العالم الإسلامي ، فكان لمعظمها جزء أوسط يسمّى << الصحن >> قد يكون مكشوفا أو مغطّى ، وتحيط به أربعة أقسام يطلق عليها تسمية الأروقة ، و يعدّ رواق القبلة الذي يشتمل في وسط جداره القبلي على محراب من أوسع الأروقة .لقد حدث نوع من التطوّر في تصميم هذه المساجد ، عندما ظهرت إلى الوجود المباني ذات التّصميم المتعامد .

احتاج المدرّسون إلى تخصيص بناء مستقلّ عن المسجد لأداء مهمّة التدريس ، فبرزت مبان أطلق عليها اسم << المدارس >> ، حيث شيّدت المدارس بتصميم مغاير عن المساجد ، فأصبحت تشتمل في أغلب الأحيان على صحن مكشوف أو مغطّى تحيط به أربعة إيوانات في شكل متعامد . وتشتمل الأركان الواقعة بين ضلعي الشكل الصليبي على مدخل ومنها سلّم يصل إلى الطّابق العلوي الذي يحتوي على غرف وملحقات خاصّة بالأساتذة والطلبة .

و من العمائر الدّينية كذلك الضريح الذي كان يقام على رفات ولي أو عالم أو سلطان أو أمير ، ويطلق عليه أحيانا اسم القبّة أو التّربة ، و أغلب هذه الأضرحة اتّخذت شكل المربّع في تصميمها وتعلوها قبّة ، لكن هذا التّصميم اختلف حسب اختلاف التقاليد المعمارية للأقاليم الإسلامية ، وقد أعطى هذا تنوّعا وطرزا معمارية ،

فمن ذلك الأضرحة ذات تصميم على شكل برج أسطواني يعلوها سقف مخروطي ، وكثيرا ما أُلحقت الأضرحة بالمساجد [30].

و من العمائر الدّينية التي عرفها المسلمون كذلك نجد الخوانق وهي عبارة عن دور بنيت في بعض المناطق الإسلامية بهدف إيواء الصّوفية الذين يختلون بأنفسهم لعبادة الله . و في العهد العثماني خصّص نوع من العمائر لإيواء الدراويش تحمل اسم التّكايا[31] .

كما يمكن ضمّ الأسبلة إلى صنف العمائر الدّينية ، نظرا لارتباطها الوثيق بالمساجد و المدارس وتعليق أوقاف عليها ، وغالبا ما تكون هذه الأسبلة ملتصقة بالعمائر الدّينية ، وقد تكون مستقلّة . كما أنّ الظروف الطبيعية القاسية للبيئة الطبيعية للأقاليم الإسلامية جعلت المعماري المسلم يعطي اهتماما بالغا وعناية كبرى لهذا النّوع من المباني[32] .

و تعدّ الأربطة أيضا من المعالم الدّينية التي أقيمت في البداية لتؤدّي دورا عسكريا ، فجاء تصميمها مناسبا لتلك الوظيفة . وقد انتشرت هذه المباني في بعض الجهات و بالخصوص في بلاد المغرب ، وغالبا ما تكون ذات تخطيط مستطيل الشّكل محاطة بسور مزوّد بأبراج ، وتشتمل في الدّاخل على غرف ومسجد ، وقد تغيّرت وظيفة الأربطة لتتحوّل إلى أماكن تستقطب الصّوفية من العبّاد والزهّاد [33].

3 - النّسيج العمراني للمدن المزابية :

شيّدت المدن المزابية بطريقة موحّدة ، وهذا ما يبرهن على أنّ بناءها لم يكن عشوائيا بل كان مدروسا ومخطّطا له ، ويظهر هذا التخطيط واضحا في عملية اختيار

---

(30) -أبو صالح الألفي : الفن الإسلامي ، أصوله ، فلسفته ، مدارسه ، ط: 2 ، دار المعارف بمصر ن القاهرة 1967 ، ص : 123 .

(31) - المرجع نفسه ، ص : 123 .

(32) - ثروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 52 .

(33) - حسن باشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، دار النهضة العربية ، القاهرة 1979 ، ص : 169 .

قمم الهضاب المتناثرة على ضفاف وادي مزاب كموقع استراتيجي لمدنهم مراعين في ذلك عدّة عوامل منها :

– **العامل الدّفاعي** : إنّ من عادات البربر منذ القديم تشييد مدنهم في أماكن حصينة ومنيعة ، ومن هذا المنطلق تمّ اختيار قمم الهضاب لسهولة الدّفاع عن أنفسهم في حالة تعرّضهم لهجمات الأعداء ، كما أنّ هذا الموقع يجعل المدينة بعيدة و محمية من خطر الفياضانات [14] .

– **العامل الاقتصادي** : من الصّعوبة بمكان العثور على أراض خصبة صالحة للزراعة في أعماق هذه الصّحراء الجرداء القاحلة . ومحافظة على هذه الأراضي القليلة الواقعة على ضفاف الوادي منع المزابيون إقامة مبان فوق هذه الأراضي ، فاختاروا لمدنهم تلالا صخرية قاحلة [15] .

أ – هيكلة المدينة المزابية :

تتشكّل المدن المزابية من مجموعة من المنشآت والمباني التي تتدرّج على منحدر الهضبة ، وتمثّل كتلة واحدة رغم تميّزها في الوظائف . وقد اعتمد المزابيون في عملية البناء على التدرّج في تقسيم المجالات حسب أصنافها ، و على حسب الهيكلة الاجتماعية المطبوعة بالفكر الإباضي الذي يعتمد أساسا على المبادئ والقيّم الإسلامية بداية من الخلية الواحدة للمجتمع (الأسرة) وصولا إلى القبيلة ، كما أنّه اعتمد على مبادئ أخرى يمكن أن نلخّصها فيما يلي :

(14) - ممد التريكي وخالد البوزيدي : المعمار و الممارسة الاجتماعية ، ميزاب بين الماضي والحاضر ، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة ، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية ، تونس 1989 ، ص 41.

(15) -: المرجع نفسه ، ص : 41 .

- مبدأ داخلي وخارجي : إنّ مفهوم الدّاخل والخارج عند المجتمع المزابي هو مفهوم ثقافي عقائدي لا شخصي أو ذاتي فالفضاء الدّاخلي هو المجتمع بأسره ، أمّا الفضاء الخارجي فيتمثل فيما هو خارج عنه [16].

- مبدأ العام والخاصّ : تحتوي المدينة المزابية على مجالات خاصّة وعامّة بالنّسبة لأفراد وجماعات هذا المجتمع ، فالطّرق مثلا تنقسم إلى خاصّة وعامّة [17].

- مبدأ ديني ودنيوي : إنّ كلّ ما هو ديني له سمة العلوّ والرفعة ، لذلك نجد المسجد يحتل قمّة الهضبة ، ويميّزه عن غيره من المباني الأخرى تلك المئذنة الهرمية الشّكل ، وما هو دنيوي يأخذ مكانه في أسفل المدينة ، فالسّوق التي تجري فيه المعاملات التجارية يُبعد عن الأمكنة الدّينية بقدر الإمكان وهذا لا يعني أبدا القطيعة بينهما [18].

تخضع الهيكلة العامّة للمدينة المزابية للقواعد الإسلامية العامّة لتخطيط المدينة ، لكن نظرا لعوامل اجتماعية واقتصادية ناتجة عن طبيعة البيئة ومناخها ، فإنّ المدينة المزابية تميّزت عن غيرها من المدن الإسلامية الأخرى وأصبحت ذات نمط معماري متميّز.

يبدأ الفريق المؤسّس للمدينة (حلقة العزّابة) ببناء المسجد فوق أعلى قمّة الهضبة ثم يقومون برسم حدود المدينة بأسوار وأبراج ، وبعد ذلك يشيّد السكان مساكنهم انطلاقا من محيط المسجد إلى غاية الأسوار ، وبالطّبع فإنّ بناء المساكن يتمّ على قواعد عمرانية بحتة ترتكز على الدّين بالدّرجة الأولى ثم الوظيفة الاجتماعية و الاقتصاد .

---

(16) - محمد التريكي وخالد البوزيدي : المرجع السابق ، ص : 46 .
(17) -: المرجع نفسه ، ص : 48 .
(18) -: المرجع نفسه ، ص : 48 – 49 .

تشتمل كلّ المدن على أسوار (إمّا سور بأتمّ معنى الكلمة أو مجموعة من المساكن التي تشكّل السور أحيانا بجدرانها الخارجية) وأبراج تحميها من الخطر الخارجي ، و قد فُتحت في هذه الأسوار أبواب رئيسية وثانوية تؤدّي إلى الطّرق الرئيسية .

أمّا الطّرق فتمثّل شرايين المدينة وقنوات الاتّصال فيها . وتنقسم إلى طرق رئيسية وطرق فرعية ، كما أنها تنقسم إلى طرق عامّة وطرق خاصّة ، وطرق نافذة وغير نافذة تختلف باختلاف وظائفها والمنافع المرتبطة بها . وتكون هذه الطّرق في أغلب الأحيان متعرّجة وذات انحدار شديد تماشيا مع عوامل جغرافية ومناخية .

و يحتلّ السّوق عموما مكانا قريبا إلى السّور ، ويكون مخطّطه على أشكال مختلفة . بالإضافة إلى دوره التّجاري فإنّه يؤدّي دورا هامّا في المجال الاجتماعي باعتباره أوسع مكان عمومي ، و فضاء لملاقاة السكان من الرجال لكونه يعتبر مجال رجالي .

و أمّا المقابر فإنها تحتلّ مساحات شاسعة في المحيط الخارجي للمدينة وكلّ مقبرة تخصّ عشيرة معينة دون سُواها ، وتُعدّ هذه المقابر مدينة الأموات [19].

شُيّد في كلّ مدن مزاب مسجد واحد يحتلّ قمّة الهضبة ، ويشرف على كلّ المباني الأخرى بفضل مئذنته الهرمية الشّكل ، ويعدّ مقرّ السّلطة الدّينية .

[19] - C et P Donnadieu / H et J .M Didillon : Habiter le désert , Les Maisons Mozabites , 3é Ed, Ed Pierre Mardaga , Bruxelle 1986 ,pp : 46 – 48.

الباب الأوّل

تاريخ منطقة وادي مزاب

الفصل الأول: نشأة الحركة الإباضية وتطورها.

الفصل الثاني: تاريخ وحضارة وادى مزاب

الفصل الأوّل

نشأة الحركة الإباضية وتطوّرها

أولا: نشأة الحركة الإباضية

ثانيا: ظهور ونشاط الإباضية بالمغرب الإسلامي

أولا : نشأة الحركة الإباضية بالمشرق

تعود جذور الحركة الإباضية إلى بداية ظهور الانقسامات والخلافات داخل المجتمع المسلم ، وكانت واقعة صفّين التّاريخية المنعرج الخطير في مسار التّاريخ الإسلامي ، ففيها برزت فكرة التحزّب السياسي والتنصّر لفريق دون الآخر .

1 – ظهور الحركة :

قد كان مقتل الخليفة عثمان بن عفان منعرجاً خطيراً في التّاريخ الإسلاميّ، إذ كانت هذه الحادثة البذرة الأولى لظهور الخلاف ونشأة الفرق الإسلاميّة التي اختلفت في بداية أمرها حول منصب الخلافة [1].

يتّفق المؤرّخون على أنّ أصول الفرقة الإباضية تعود إلى واقعة صفّين التّاريخية، عندما انقسم المسلمون إلى فئتين ؛ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وأتباعه من جهة ومعاوية بن أبي سفيان وأنصاره من جهة أخرى . فبعد أن اختير علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه لتولّي الخلافة كان لابدّ عليه أن يواجه مشكلتين أساسيتين : إحداها إعادة الاستقرار والأمن للدولة الإسلامية التي هدّدها اندلاع الفتنة ، وثانيها القصاص من قتلة عثمان بن عفان ، و بعد إخضاع ثوار واقعة الجمل بقيادة طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، توجّه صوب الشّام لإجبار معاوية بن أبي سفيان للعدول عن رأيه والرجوع إلى جماعة المسلمين لكنّ معاوية أصرّ على موقفه معتمداً على تأييد أهل الشّام له وأدّى هذا الوضع إلى ملاقاة الطرفين في واقعة صفين سنة 36 هـــ /

[1]- عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، مطابع دار الشعب، 1982، ص : 49

656 م ، واستمرّ القتال في شكل مناوشات بين الطرفين حتّى محرم 37 هـ / 657 م[2].

و قد ترتّب عن المكيدة التي لجأ إليها معاوية والمتمثّلة في رفع المصاحف والنّداء إلى حقن دماء المسلمين والتحكيم إلى كتاب الله، ما يعرف في التاريخ بحادثة التحكيم التي كانت سبباً في انقسام صفّ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه إلى مناصر له وهم الشيعة ورافض للتحكيم وهم الخوارج الذين خرجوا عن علي وبقوا أعداء لمعاوية وأتباعه من الشّاميين .إنّ عليّا قد انتبه إلى مكيدة معاوية، لكن أمام إصرار أتباعه رضي بالتحكيم[3] .

و لمّا استقلّ الخوارج برأيهم في قضية التحكيم والإمامة ورفعوا شعار << لا حكم إلاّ لله >> نزلوا قرية حروراء قرب الكوفة ومن هنا لُقّبوا عند بعض المؤرخين بالحرورية أو المحكّمة . و ولّوا عليهم عبد الله بن وهب الرّاسبي * إماما[4] دعا المحكمة مؤيديهم للملاقاة في النّهروان بينما أراد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه استمالتهم إلى صفّه لمحاربة العدوّ المشترك معاوية بن أبي سفيان بعد فشل قضية التحكيم، فرفضوا طلبه، ونزولا عند رغبة أنصاره قرّر علي الاتّجاه نحو النّهروان لمحاربة المحكّمة، فانتصر عليهم سنة 38 هـ /658 م[5].

---

[2] - إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط :2،جمعية التراث، القرارة 1993، ص 73.
[3]- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج :01 ، ط :05، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1985، ص : 161
[4] - عوض خليفات : المرجع السابق، ص 52 – 53.
[5] - ابن الأثير : المصدر نفسه ، ج . 1 ، ص : 165،177..

إنّ هذه الهزيمة كانت بمثابة ذكرى أليمة حفزت الباقون من المحكمة للثأر على قاتل أصحابهم وتوالت ثوراتهم ضدّ علي إلى أن قتل على يد عبد الرحمان بن ملجم الخارجي[6].

بعد معركة النّهروان تفرّق الخوارج ، وقامت جماعات منهم بثورات متعدّدة ضدّ السلطة الأموية في الكوفة والبصرة، لكن حركاتهم باءت بالفشل نظرا لافتقارهم للوحدة والتنظيم ولتطرّف بعض أتباعهم ممّا أثار غضب أهالي المدينة عليهم[7].

و في المقابل كانت هناك جماعة بزعامة أبي بلال مرداس بن أدية التميمي* انشقّت من النّهروان واتّخذت البصرة مقرّا لها وآثرت حياة السّلم وعدم اللّجوء إلى السيوف قصد فرض آرائها، وقد أنتجت هذه الفرقة ما يسمى بالإباضية.

وقد استعمل أبومرداس طريق الإقناع والمناقشة لنشر آرائه وأفكاره ، فانضمّ إليه عدد كبير من الناس جلّهم من بني تميم فازداد عدد أنصاره وتكاثروا ومن بينهم الفقيه المعروف جابر بن زيد** إلى درجة أنهم ابتنوا مسجدا خاصّا بهم في البصرة[8].

---

[6] - ابن الأثير: المصدر السابق ، ج . 1 ، ص : 187 -188

[7] - عوض خليفات : المرجع.السابق ، ص : 64

* عبد الله بن وهب الراسبي هو عبد الله بن وهب بن راسب بن يدعان بن مالك بن نصر من قبيلة الأزد.أدرك النبيﷺ وشارك في فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، كان من أنصار علي كرّم الله وجهه في معركة صفين، ثم أنكر التحكيم.بايعنه المحكمة سنة 37 هـ / 657 م ، وقتله هانئ بن خطاب الأرجي وزياد بن حفص في سنة 38 هـ /658 م في معركة النهروان.يعتبره الإباضية من أئمتهم. ينظر فرحات الجعبري : البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية ، ج :01، جمعية التراث، القرار، 1987، ص 47.

** جابر بن زيد الأزدي الجوفي البصري العماني يلقب بأبي الشّعثاء،أصله من فرق (بلدة من أعمال نزوى) ولد سنة 21 هـ / 642 م، رحل في طلب العلم وصاحب عبد الله بن العباس وأخذ عنه العلم، كما أخذ عن عدد كبير من الصحابة إذ يقول : أدركت سبعين رجلا من أهل بدر فحويت ما بين أظهرهم من العلم إلاّ البحر الذي يعني به أبي العباس رضي الله عنه. لقد.استقر في البصرة ونسب إليها، ويعدّ أصل المذهبي الإباضي، له ديوان مفقود جمع فيه الأحاديث. أخذ عن جابر العلم عدد كبير من الطلبة أبرزهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وعنه روى الربيع بن حبيب في كتابه الجامع الصحيح الذي يعدّ عمدة المذهب الإباضي، وقد توفى سنة 93 هـ / 710 – 711 م.

لقد أنكر الخوارج المتطرّفون قعود أصحابهم والتجائهم إلى السّلم فأطلقوا عليهم اسم << القعدة >> 9

اتّبع عبيد الله بن زياد مباشرة بعد تعيينه واليا على العراق سنة 53هـ / 672 م سياسة العنف ضدّ الخوارج جميعا دون تمييز بين المتطرّفين منهم والمعتدلين، فلذلك اضطرّ المعتدلون إلى تبنّي سياسة جديدة لحركتهم، تتمثّل في التنظيم السرّي . فأصبحوا يعقدون اجتماعاتهم سرّا للدّعوة إلى مذهبهم والنّظر فيما يساعدهم في تحقيق أهدافهم . ولكن رغم الاضطهاد الذي تعرّض له هؤلاء ، إلاّ أنّ مرداس أعلن عدم تجريد السيوف وعدم مقاتلة أحد إلاّ في حالة دفاع عن أنفسهم، وتمكّن ابن زيّاد من القضاء على مرداس وصحبه سنة 61 هـ / 680 م[10].

لقد كانت مشاركة الخوارج إلى جانب عبد الله بن الزبير في حربه ضدّ بني أمية آخر واقعة يجتمع فيه الخوارج لهدف مشترك[11]. إذ بقيت حركة جابر بن زيد وعبد الله بن إباض تترقّب الأحداث إلى أن تحوّل قول نافع بن الأزرق إلى عمل، فتبرّأت منه واعتبرته خروجاً عن الدّين[12].

ينظر: جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي منذ القرن الأوّل الهجري إلى العصر الحاضر ، مج : 2 ، المطبعة العربية ، غرداية 1999 ، ص : 217 – 223 .

[8] - عوض خليفات :الأصول التاريخية للفرقة الإباضية ،عمان – الأردن د . ت ، ص : 6 - 7

[9] - فرحات الجعبري : المرجع السابق ، ص : 53.

[10] - عوض خليفات نشأة الحركة.... ، ص : 70.

[11] - المرجع نفسه ،: ص: : 70

[12] فرحات الجعبري : المرجع نفسه ، ص: 53

في نهاية الرّبع الأخير من القرن الأوّل الهجري انقسم القعدة بدورهم إلى فرقتين الصفرية والإباضية[13].

2 – تطوّر الحركة الإباضية :

تشير معظم المصادر التاريخية إلى أنّ اسم الفرقة مشتّق من عبد الله بن إباض، ويبدو أنّ هذه الفرقة ظهرت كجماعة مستقلة سنة 65 هـ / 684 م عندما انفصل عبد الله بن اباض نهائياً عن الخوارج . و لكن المصادر الإباضية تنسب إلى عبد الله بن إباض دورا ثانويا في الحركة مقارنة مع جابر بن زيد الأزدي العمّاني الذي تعتبره إمام المذهب ومؤسّس فقههم ومذهبهم، كما تذكر أنّ أقوال وأفعال عبد الله بن إباض إنما كانت تصدر عن جابر[14].

و يبدو أنّ جابراً كان بالفعل الإمام الروحي وفقيه الإباضية، بينما كان عبد الله ابن إباض المسؤول عن الدّعوة والدّعاة في شتّ الأقطار الإسلامية . إذ إنّ المتتبّع للتّاريخ الإباضي يلاحظ أنّ ظاهرة إشراك الأشخاص البارزين والمجتهدين في المسؤولية إلى جانب الإمام الأكبْر كانت موجودة ، ويمكن ملاحظة ذلك حتّى في زمان أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي أناط المهام المالية والعسكرية والإشراف على سير الدّعوة خارج البصرة إلى مودود حاجب الطائي . ونظراً لاستعمال جابر التقية الدّينية، فلم يظهر في مسرح الأحداث، بل كان معروفا لدى البصريين بكونه أحد التابعين المحدثين الثّقاة، ومن أشهر فقهاء البصرة آنذاك .

---

[13] - عوض خليفات : الأصول التاريخية....، ص :9

[14] - إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 74-75

و لقد كان دور جابر في الدّعوة خفيّا . لذا فقد نسبوا المذهب إلى ابن إباض، لكونه يتكلّم باسمهم ، ويناظر أعداءهم . كما أنّ مراسلاته مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان سببا لجعله إمام ومؤسّس الفرقة الإباضية[15].

وفي هذا الصّدد يرى محمّد علي دبوز أنّ الأمويين هم الذين أطلقوا على هذه الفرقة تسمية الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض ، لأنّه كان أحد علمائهم والمناظر باسمهم . كما أنّ الأمويين لا يريدون نسبة المذهب إلى جابر بن زيد خوفا من جلب الأنظار إليهم ولكن لا يبدون في هالة جابر المشرقة فتميل إليهم النّفوس[16]. والدّليل على ذلك أنّ أتباع هذه الفرقة كانوا يطلقون على أنفسهم قبل ذلك تسمية المسلمين أو جماعة المسلمين أو أهل الدعوة . ونلاحظ ذلك في المصادر الأولى الإباضية مثل مدونة أبي غانم الخرساني[17]. لكن يبدو أنهم تقبّلوا تسمية الإباضية مع مرور الزمن ، نظراً لإصرار مخالفيهم على تسميتهم بهذا الاسم .كما أنهم يرفضون بشدة انتمائهم إلى الخوارج .

بعد أن ظهر ابن إباض في مسرح الأحداث السياسية بعد انقسام القعدة إلى فرقتين الصفرية والإباضية كما ذكرنا ذلك سابقاً ، واختارته الفرقة التي كانت تلقّب نفسها بأهل الدّعوة ليكون المناظر باسمها ضدّ مناوئيهم من الخوارج وغيرهم ،كما

[15] - عوض خليفات : الأصول التاريخية...، ص :9 - 10.

[16] - محمّد علي : دبوز : :تاريخ المغرب الكبير، ج :03 ، ط :01، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1963 ، ج 2، ص : 398 - 399.

[17] - أبو غابم الخرساني، درس بالبصرة وأخذ عن تلاميذ أبي عبيدة (ق 02هـ/ 08م) وألف كتباً من أهمّها المدونة الكبرى تحوي أقوال تلاميذ أبي عبيدة في الفقه. رجل في أواخر القرن الثاني للهجرة إلى تيهرت . وقد نُسخت هذه المدونة من طرف عمروس بن فتح... ينظر: فرحات الجعبيري: المرجع السابق ، ص :105

فعل في مراسلاته مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، لكنّه اختفى بعد ذلك ولا تذكر المصادر التاريخية زمان ومكان وفاته[18].

بعد وفاة ابن إباض أقلع الإباضية عن المناقشة العلنية والجدل الكلامي مع مناوئيهم ومخالفيهم، ولجأوا إلى السريّة المطلقة في تنظيم دعوهم ، فكان لجابر بن زيد دور تنظيميّ هام في التنظيم خلال هذه المرحلة التي تعرف في التاريخ الإباضي بطور الكتمان . لقد ارتكز جابر في تنظيم وتطوير الحركة أثناء زعامته للفرقة على القواعد الأساسية الآتية:

- لم يشأ الانسحاب من المجتمع الإسلامي مع بقية أتباعه . فقد كان ينشر آراءه وأفكاره بين النّاس من خلال أحاديثه وفتاواه وأجوبته على المستفسرين في داخل البصرة وخارجها، ولكن يستعمل لذلك التقية الدّينية للوصول إلى هدفه.

- كان يتجنّب كلّ احتكاك معاد للسّلطة ، و لم يُؤْثر عنه أنّه تعرّض لأذى قبل تولّي الحجّاج السّلطة في العراق[19].

وتشير المصادر إلى تلك العلاقة بين جابر والحجّاج والتي كانت في البداية ودّية، وكان ليزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج دور كبير في هذه العلاقة[20].

و نظرا لانتمائه إلى قبيلة الأزد فقد وجّه جهوده نحو إقناع بعض أفراد قبيلته للانضمام إلى الحركة، وقد نجح إلى حدّ كبير . إذ تبعه عدد كبير من الأزد وفي

---

[18] ـ عوض خليفات :نشأة الحركة...، ص : 84.
[19] -المرجع نفسه.، ص :85 - 96.
[20] - عوض خليفات : الأصول التاريخية....، ص :24 - 25.

مقدّمتهم أفراد الأسرة المهلبية، كما تشير المصادر إلى أنّ عدداً كبيراً من أهل عمان موطن الأزد وحضرموت واليمن انضمّ إلى الإباضية[21].

و نتيجة لجهود جابر التي بدلها في سبيل نشر المذهب أصبحت الحركة تضمّ عناصر من قبائل عربية مختلفة ، كما انضمّ إليها عدد كبير من الموالي فلم يمت جابر حتّى أصبحت الدّعوة الإباضية عبارة عن حركة إسلامية شاملة. وكان العمل الذي قام به جابر إرهاصا لما سيتمّ في عهد خلفه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة من تدريب للدّعاة الذين عرفوا باسم <<حملة العلم >>[22].

إنّ التطوّرات التي طرأت في المشرق خلال العقد الثّامن من القرن الأوّل الهجري جعلت العلاقات بين الحجّاج وجابر بن زيد وأتباعه تتوتّر . إذ ثار أزد عمان بزعامة الأخوين سعيد وسليمان أبناء الجلندي ، فأرسل الحجّاج عدّة حملات لقمع هذه الثورة التي كان مآلها الفشل ، فعمد إلى وضع زعماء الأزد بالعراق ومن بينهم جابر تحت المراقبة الشديدة ، ثمّ أمر بسجنه مع عدد من أصحابه ، ثمّ أطلق سراحه ونفاه إلى عمان رفقة صديقه وأحد المشايخ الإباضية هبيرة القرشي . ولكنه لم يبق طويلا في منفاه ، فرجع إلى البصرة وواصل عمله على طريقته إلى أن وفاه أجله. وقد بقى مشايخ الإباضية الآخرون في السجن حتّى توفى الحجاج سنة 95 هـ/ 173 م[23].

---

21 - عوض خليفات : الأصول التاريخية .. ، ص : 25.
22 - تاديوز ليفيكي : جماعة المسلمين بالبصرة ونشأة الإمامة افباضية ، تر يوسف أطفيش ، محاضرة مرقونة ، بني يزقن 1985 ، ص 2.
23 - أبو القاسم عمرو بن مسعود الكباري : الربيع ابن حبيب محدثا، المطبعة العربية، غرداية 1994، ص : 140 - 141.

يذكر تاديوز ليفيكي أسبابا أخرى جعلت الحجاج يغيّر سياسته اتّجاه الإباضية منها :

- وفاة عبد الملك بن مروان الذي كان متعاطفا مع الإباضية.

- ما كان من إباضية البصرة في ربط العلاقة مع آل المهلب ممن كان يحقد عليهم الحجاج.

- تصلّب موقف إباضية البصرة وتغلّب العناصر الثورية (الشرّاة)[24].

خلف أبو عبيدة مسلم* جابراً في زعامة الدّعوة بعد وفاة الحجاج وخروجه من السجن واتّفق ذلك مع اعتلاء سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة (96 - 99 هـ/ 715 -717 م) وكان على علاقة وطيدة بالمهالبة زعماء الأزد[25].

لقد آثر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99 -101 هـ /16 م) أسلوب المناقشة والحوار مع معارضيه ومن بينهم الإباضية ، فحاول أبو عبيدة ومشايخ الإباضية بالبصرة التقرّب من الخليفة ، وأرسلوا إليه وفدا برئاسة جعفر بن السمّاك ورجع الوفد راضيا عن سياسته وسلوكه[26].

إذن فإنّ العلاقات اتّسمت بالودّ بين الإباضية والسّلطة في عهد الخليفتين سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز لقد استغلّ أبو عبيدة هذه المرحلة أحسن

---

24 ـ تاديوز ليفيكي : المرجع السابق، ص :2.

* هو أبو عبيدة مسلم بن كريمة، توفي حوالي 145هـ/ 762م كان تميمياً بالولاء، أخذ العلم عن جابر بن زيد وجعفر السّمّاك صحار العبيدي وبإشارة منه أسّس الإباضية دولا مستقلة في كلّ من المغرب وحضرموت وتخرّج على يده عدد من حملة العلم الذين نشروا المذهب في مختلف البلاد الإسلامية.... ينظر: فرحات الجعبيري: المرجع السابق ، ص : 104

25 ـ جمعية التراث: المرجع السابق ، ج :04 ، ص : 874

26 ـ عوض خليفات : الأصول التاريخية....، ص :34.

استغلال في تنظيم حركته من أجل تأسيس إمامة الظّهور. فقام بتطوير تنظيمات المجالس السرّية التي كانت تقام بالبصرة، ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من المجالس السرّية :

أولا – المجالس العامّة : كان يحضرها كلّ شخص من أهل الدّعوة وتعقد سرّا في بيت أحد المشايخ أو في سراديب أرضية تقدم فيها دروسا في العقيدة[27].

ثانيا – مجالس المشايخ : يحضرها فقط زعماء الإباضية، تقرّر فيها السياسة التي يجب اتّباعها تُجاه المستجدات ويقوم المجلس بدور تخطيط أو تنظيم الحركة[28].

ثالثا – مدارس حملة العلم : قام أبو عبيدة بإنشاء مدرسة يتلقّى هؤلاء الطلبة الدّروس مباشرة من أبي عبيدة . وكان ظاهر هذه المدرسة معمل لصناعة القفاف وهو عبارة عن سرداب وضع على مدخله سلاسل حديدية ففي حالة ما إذا ما سمع صلصلها اشتغلوا بصناعة القفاف فلا يشتبه في أمرهم[29].

و إثر وفاة عمر بن عبد العزيز انقلبت الأوضاع على الإباضية ، ممّا أدّى إلى تغيير موقفهم السياسي وانبعاث نزعات ثورية من داخلهم . فبعد اعتلاء يزيد بن عبد الملك العرش (101 - 105 هــ /719-723 م) حدثت تطورات سياسية أدّت إلى بروز طائفة متطرّفة من بين الإباضية تنادي بوجوب الثورة[30].

لكن بعد تعيين الخليفة هشام بن عبد الملك (105 -125 هــ /724 – 742 م) خالداً القسري واليا على العراق اتّبع هذا الأخير سياسة اللّين والتّسامح ضدّ

---

27 ـ تاديوز ليفيكي : المرجع السابق، ص : 4.
28 ـ عوض خليفات : الأصول التاريخية....، ص :39.
29 ـأبو القاسم عمرو بن مسعود الكباري :المرجع السابق، ص : 150 - 151.
30 ـ عوض خليفات: المرجع نفسه ، ص 42

معارضيه و قد حاول أبو عبيدة إقناع أصحابه الذين يطالبونه بضرورة الخروج بالتحلّي بالصبر . و لكن يبدو أنّ أبا عبيدة اقتنع بعد ذلك بضرورة الانتقال إلى إمامة الظهور ، فاتّخذ لذلك خطوات تنظيميّة جديدة كان لها أثرها في انتصار الدّعوة وإعلان إمامة الظهور ليس في البصرة ، و لكن في الأمصار الأخرى البعيدة عن مركز الخلافة . لذا فقد ركّز جهوده وجهود دعاته على إقناع سكان الولايات الواقعة في أطراف الإمبراطورية الإسلامية[31].

نتيجة للتنظيمات الدقيقة والذكية وانطلاقا من روح الأخوّة والتّسامح والتّعاون السّائد بين أفراد أتباع هذه الحركة في طورها الأوّل وتتويجاً لنشاط حملة العلم استطاعت حركتهم أن تنتصر وتحرز نجاحاً كبيراً في أماكن عديدة من الدولة الإسلامية.

إنّ من يلقّبون بحملة العلم كانوا يُختارون عادة من بين أهل الولايات التي سيتمّ إرسالهم إليها أو من مناطق قريبة منها لمعرفتهم بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم، وبالتّالي يسهّل عليهم مخاطبتهم مع حسن اختيار الظّروف الملائمة والأماكن المناسبة لإقامة مراكز الدّعوة لنشر أفكارهم وعقيدتهم في تلك البلاد . كما يمكن انضمام دعاة من أماكن بعيدة وذلك طبقا لما تقتضيه الظروف، كما حدث مع حملة العلم بالمغرب[32].

---

[31] - عوض خليفات : : الأصول التاريخية ....، ص : 44 - 46.
[32] - المرجع نفسه.، ص :40.

قام أبو عبيدة بتنظيم الاتّصال بين مركز الدّعوة وحملة العلم ، وأوصاهم بالرّجوع إلى مشايخ البصرة في حالة حدوث خلاف بينهم[33].

في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري استغلّ مشايخ الإباضية في البصرة الظّروف التي كانت تمرّ بها الدولة الأموية، فأوعزوا إلى دعاتهم وحملة العلم فيهم إلى إعلان إمامة الظهور في كلّ من حضرموت واليمن وعمان وبلاد المغرب[34].

ثانيا – نشاط الحركة الإباضية بالمغرب وتطوّرها :

بسبب الظّروف السياسية التي كانت سائدة في المغرب الإسلامي ، انتشر المذهب الإباضي إلى جانب المذهب الصفري بسرعة فائقة في أوساط سكان شمال إفريقيا ، إذ في خلال سنوات قليلة ازداد عدد مريدي المذهب الإباضي بشكل ملفت للانتباه .

1 – انتشار المذهب الإباضي بالمغرب الإسلامي :

تعتبر المصادر التّاريخية سلمة بن سعد* أوّل داعية إباضية نشط في شمال إفريقيا . ويمكن حصر فترة قدومه إلى بلاد المغرب الكبير بين سنة 95 - 110 هـ/

---

33 -عوض خليفات : الأصول التاريخية ....ص : 41.

34 -المرجع نفسه ، ص :51.

* سلمة بن سعد بن علي بن أسد الحضرمي اليمني عالم وداعية إباضي أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وعن ضمام بن السائب، يعدّ أول داعية قدم إلى بلاد المغرب لنشر المذهب الإباضي رفقة الداعية الصفري عكرمة مولى بن عباس اعتمادا على تاريخ وفاة عكرمة الذي يقع 100 -110 هـ . ويذكر بعض المؤرخين أنّ أقدام سلمة وطئت بلاد المغرب بين سنة 95 - 105 هـ وقد توفى أثناء عودته إلى المشرق لأداء فريضة الحج.
ينظر : جمعية التراث : المرجع السابق ، ج 3، ، ص : 391 -392. و عوض خليفات النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ط:1، عمان 1982، ص: 16 - 17.

713 – 728 م ، ويبدو أنّ وفوده إلى المنطقة تزامن مع مجيء عكرمة مولى بن عباس الدّاعية الصفري[35].

لقد تميّزت السياسة التي كان ينتهجها بعض الولاّة من بني أمية في بلاد المغرب لا سيّما في عهدي يزيد بن أبي مسلم الثّقفي وعبيد الله بن الحبحاب السّلولي اتّجاه البربر بالشدّة والظّلم والجور . حيث اعتبروهم فيئا من المسلمين، وخمّسوهم، واتخذوا منهم حرسا وبطانة وطالبوهم بدفع الجزية[36]، لقد ساهمت هذه التصرّفات بشكل فعّال في تقبّل البربر أفكار الدّعاة القادمين ولا سيّما أنهم كانوا يدعون إلى المساواة والعدل بين المسلمين جميعا ولا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتّقوى.وهذه صفات تعود بالإسلام إلى نقائه الأوّل . ومن هنا كانت حركتهم كردّ فعل للانحراف ومحاولة جادّة لتصحيح بعض أوضاع المسلمين ، فاتخذوا هذا مبّررا دينيا وشرعياً للثّورة ضدّ الولاة الأمويين.

كانت مهمّة سلمة بن سعد تتمثّل في ترغيب عدد من أفراد البربر للتوجّه نحو المشرق لتلقي العلم على يد إمام الإباضية ، ويبدو أنّه نجح إلى حدّ كبير. إذ اعتنق المذهب عدد من أهل جبل نفوسة ، فتوجّهوا نحو البصرة ومن أشهر هؤلاء أبو عبد الله محمّد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني الذي تولّى مهمّة نشر الدّعوة بعد وفاة سلمة ابن سعد. فانتشر المذهب الإباضي بسرعة مذهلة بين قبائل هوارة وزناتة وسدراتة ولواتة[37].

---

35 ـ عوض خليفات : نشأة الحركة...، ص : 143.

36 ـ موسى لقبال : المغرب الإسلامي، ط :1، مطبعة البعث، قسنطينة 1969، ص : 155 – 157 .

37 ـ عوض خليفات: المرجع نفسه ، ص : 136

2 – تأسيس الدولة الإباضية في المغرب الإسلامي:

لقد حاول الإباضية بالمغرب تأسيس أوّل دولة إباضية في طرابلس سنة 122 هـــ / 739م بقيادة الإمام عبد الله بن مسعود التجيبي، لكنّها لم تدم طويلا ، إذ تمكّن إلياس بن حبيب الذي ولاّه أخوه عبد الرحمان على طرابلس من القضاء عليها سنة 129 هـــ / 746م[38].

اختار إباضية طرابلس بعد مقتل الحارث وعبد الجبار إسماعيل بن زياد النّفوسي إماماً جديداً. وقد نجح في الاستيلاء على مدينة قابس ، و لكن سرعان ما تمّ القضاء عليه من قبل جيش عبد الرحمان بن حبيب، فتمّ استرجاع طرابلس مرّة أخرى[39]. ولكن الإباضين سرعان ما بايعوا الحارث بن تليد الحضرمي وقاضيه عبد الجبار بن قيس المرادي فالتفّت القبائل البربرية من حولهما وتمّ للإباضية الاستيلاء على طرابلس كلّها ، ولم يتمكّن والي إفريقية عبد الرحمان بن حبيب الفهري القضاء عليهما إلاّ باستعمال الحيلة فاغتالهما[40].

ربما يكون هذا الإخفاق سببا في إيفاد الدّعاة الإباضيين بعثات علمية إلى المشرق للتفقّه في الدّين والسياسة، فانتقوا رجالا كفءا ينتمون إلى قبائل بربرية مختلفة ، حتّى يتسنّ لهم إقناع قبائلهم لتقبّل هذا المذهب بعد رجوعهم. بناء على هذا اتّجهت أوّل بعثة علمية منظمة من المغرب نحو البصرة سنة 135 هـــ متكوّنة من إسماعيل بن درار الغدامسي وعبد الرحمان بن رستم من القيروان وعاصم السّدراتي

---

[38] - سالم يعقوب : تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، تونس 1986، ص : 60.

[39] - محمّد علي دبوز : المرجع السابق، ج : 3 ، ص : 188 - 195.

[40] - سعيد زغلول : المرجع السابق ، ص :322

وداود القبلي النفزاوي . وأثناء وجودهم في البصرة توطّدت العلاقة بينهم وبين أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري . ونظرا لتشديد الخناق على حضرموت واليمن من طرف العبّاسيين، قرّر أبو الخطاب الانضمام إلى الطلبة الأربعة المغاربة والتوجّه معهم إلى بلاد المغرب[41].

لا تذكر المصادر الإباضية وغيرها سوى سنة رجوعهم وهي 140 هـ بعد أن قضوا خمس سنوات في البصرة . و أنشؤوا بعد عودهم مجالس سريّة خاصّة لتعليم المذهب وبعد وقت قصير برز عدد من العلماء الإباضيين من خريجي هذه المدارس ولقبوا بتلاميذ حملة العلم.

و يبدو أنّ حملة العلم قد استشاروا شيخهم أبا عبيدة حول إمكانية تأسيس دولة إباضية في حالة توفّر الظروف المناسبة ، فأشار إلى مبايعة أبي الخطاب وذلك لكفاءته[42].

بعد عودة حملة العلم إلى بلاد المغرب وجدوا الظّروف مناسبة لتأسيس الدولة إباضية التي طالما كافح من أجلها أهالي طرابلس فأخفقوا في تجسيدها ، كما ذكرنا ذلك سابقا . و لكنّ ذلك الاستعداد الذي كان لدى إباضية المغرب الأدنى جعلهم لا يتأخّرون عن مبايعة أبي الخطاب عبد الأعلى إماما ، وهذا الأخير عيّن ابن درار الغدامسي قاضيا وعبد الرحمان بن رستم عاملاً على سرت .

[41] ـ محمّد علي دبوز المرجع السابق :03 ، ص 195

[42] ـ المرجع نفسه ، ج :03 ، ص :197.

لمّا علم أبو الخطاب بتصرّفات قبيلة ورفجومة الصفرية في مدينة القيروان قرّر السير إليها فتمكّن من استرجاع القيروان من أيديهم ليعيّن ابن رستم واليا عليها لتصبح إفريقية تابعة للدولة الإباضية بطرابلس[43].

لقد ساء الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور انفصال إفريقية عن الإمبراطورية الإسلامية، فأرسل جيشا بقيّادة محمّد بن الأشعث لاسترجاعها ، فتمّ له القضاء على أبي الخطاب وجيشه وبالتّالي القضاء على الدولة الإباضية بطرابلس[44].

كانت الفرقة الإباضية بعد مقتل أبي الخطاب في حاجة ماسّة إلى كيان سياسي وجغرافي يجمعها ويكون بمنآى عن النّفوذ العباسي . فكانت مدينة تيهرت التي ستصبح عاصمة الدولة الإباضية الجديدة الموقع المناسب لتلبية هذه الرغبة.

فعلا فبعد إفلات عبد الرحمان بن رستم من قبضة ابن الأشعث واستقراره بجبل سوفجّج المنيع هاجرت إليه فلول الإباضية بما في ذلك علماؤها وفقهاؤها من مناطق عديدة من المغرب الإسلامي ، فشيّدوا مدينة تيهرت مابين سنة 156 - 160 هـ/ 772-776م[45]. وأعلنوها عاصمة لدولتهم الجديدة التي سمّيت بالدولة الرستمية.

يكاد يكون نمو هذه المدينة أسطوريا ففي ظرف ثلاث سنوات انتقلت من قرية صغيرة تتقبّل المساعدات من إباضية المشرق إلى مدينة غنية قوية وحاضرة من الحواضر الكبرى بالمغرب الأوسط.ويقول ابن الصغير في هذا الصّدد : << ليس أحد يترل بهم

---

43 - موسى لقبال : المرجع السابق،ص :228 -233

44 - إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 66 - 67

45 - المرجع نفسه ،ص: 84، 85.

من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين ظهرانهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في الرعي.>> [46]

إنّ الرّوح السّمحة التي امتاز بها إباضيو تيهرت كفلت تضامنا للمجتمع التيهرتي وساعدته على التئام الجراح التي سببتها الانقسامات والانشقاقات أحيانا كثيرة طيلة أيام الدولة الرستمية. و كثرة هذه الانقسامات والصّراعات بين أفراد المجتمع أدّت إلى تقهقر الدولة، فأصبحت لقمة سائغة أمام الفاطميين[47] الذين تمكّنوا من القضاء عليها دون عناء كبير .

وكما كانت معركة مانو التي هزم فيها الإباضيون أمام أبي العباس بن إبراهيم الأغلبي سنة 283 هـــ /896 م[48] السّبب المباشر لضعف الجيش الرستمي واستسلامه بسهولة للفاطميين سنة 296 هـــ / 909 م. وبسقوط الدولة الرستمية تلاشت جموع الإباضية وبدأ عدد أتباعها في تقلّص مستمرّ.

3 – الإباضية بعد سقوط تيهرت :

خرج يعقوب بن أفلح من تيهرت مع أهله وبعض أتباعه نحو الصحراء هروباً من الجيوش الفاطمية في اتجاه مدينة وارجلان. وخوفاً من أن يتمكّن هذا الإمام من جمع شتات الإباضية مرّة أخرى ، أرسل أبو عبد الله الشيعي وراءه جيشاً بقيّادة

[46] ـ ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمّد الناصر، ابراهيم بحاز ، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986، ص :32،31.

[47] ـ إحسان عباس : << المجتمع التاهرتي في العهد الرستم.،>> مجلة العلم والإيمان، ع 31 و32، تونس 1972، ص 69-70.

[48] ـأبو زكرياء يحي بن أبي بكر : كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تر: عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس 1985، ص: 150 - 154.

الحجاني[49]. يروي أبو زكرياء أنّ الإمام يعقوب كان يتصدّى الجيش الفاطمي حتّى يبتعد أصحابه ثم يلتحق بهم ، وهكذا حتّى وصلوا مدينة وارجلان .

و لمّا دخل يعقوب هذه المدينة استقبله أهلها على رأسهم الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان ، وأرادوا مبايعته وطلبوا منه إحياء الدولة المندثرة، فأبى وقال قولته المشهورة <<لا يستتر الجمل بالغنم>> فأصبحت هذه الفكرة مشاعة بين المشايخ الإباضية[50]. وتدلّ على اعتزال السياسة وتجنّب الاحتكاك بالدول المتعاقبة على المغرب الكبير، وعدم تأسيس دولة إباضية جديدة .

لم يكن فرار الإباضية من تيهرت نحو مدينة سدراتة ووارجلان فقط ، بل يبدو أنّ الهجرات كانت إلى مدن أخرى عديدة في منطقة الزاب وقسطيلية وقفصة وبشرة وسوماطة وجبل نفوسة .و لاشكّ أنّ عددا كبيرا من الإباضية بقوا في مدينة تيهرت[51]. و لقد لاحظ بعض الجغرافيين اكتظاظ بعض المناطق بالإباضية في تلك الفترة ، فابن سعيد يذكر أنّ معظم سكان جبل الأوراس من قبائل لواتة و كانوا إباضية[52].

---

49 ـ مسعود مزهودي : الإباضية في المغرب منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة الهلاليين إلى بلاد المغرب، ج01، رسالة الماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، القاهرة، 1988، ص :14

50 ـ علي يحي معمر : الإباضية في موكب التاريخ، ج :2 ، الحلقة الثانية، ط:1 ، مكتبة وهبة ، القاهرة 1964 ص: 229 -230.

51 ـ مسعود مزهودي : المرجع السابق، ج :01، ص: 24.

52 ـ أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافية، تح: اسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص:144.

و كان من الطّبيعي أن تقوم ثورات إباضية ضدّ الوجود الفاطمي كردّ فعل لسقوط عاصمة دولتهم تيهرت . لذا فقد حاولوا عدة مرات النهوض ضدّ السلطة الحاكمة منها :

- ثورة أبي يزيد النكّاري : لمّا قرّر أبو يزيد الثّورة ضدّ الفاطميين ، انضمّ إليه جمع من البربر وبعض من الإباضية الوهبية . فتمكّن من قسطيلة سنة 333 هـ . كما فتح تبسة ومجانة، فأُهدي له حمارا وأصبح يلقّب بصاحب الحمار . واستطاع الدّخول إلى تونس ورقادة، ووصل إلى القيروان واستولى عليها ، ثم قام بمحاصرة عاصمة الدولة الفاطمية المهدية ، و لكنه فشل في الاستيلاء عليها نظرا لتشتّت قوّاته. لم يتمكّن الفاطميون من القضاء عليه إلاّ في عهد المنصور سنة 336 هـ / 947 م.

و بعد وفاته حاول ابنه الفضل بمساعدة سعيد بن خزر الزّناتي إعادة هيبة الإباضية النكّار، لكنه انهزم أمام الجيوش الفاطمية وقتل سنة 336 هـ /947 م. وانتهت بذلك أعظم ثورة للإباضية النكّار التي كادت أن تقضي على الحكم الفاطمي ، لولا تدخّل الجيش الصنهاجي بقيادة زيري بن مناد[53].

- حاول إباضيو نفوسة بقيادة خزر يعلى بن زلتاف الواسياني وأبي نوح سعيد ابن زنغيل الثأر من الفاطميين لمقتل شيخهم أبي القاسم يزيد بن مخلد في واقعة باغاي سنة 354هـ / 965 م، فطلبوا الاستعانة بأقرانهم في وارجلان وبأمويي الأندلس . لكن ثورتهم باءت بالفشل، فطلبوا الأمان من السّلطان منصور بن بلكين[54].

---

[53] - عبد الرحمان حسب الله الحاج أحمد: جماعات الخوارج في بلاد المغرب حتى القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه في الآداب، كلية البنات جامعة، عين شمس، القاهرة، 1987، ص :233-252.

[54] - المرجع : نفسه ، ص :252.

بعد فشل هذه الثّورات قرّر الإباضية استبعاد فكرة الثّورة وإقامة دولة جديدة ومحاربة الحكام عن أذهانهم، بل عمد مشايخها إلى الاهتمام بالمجتمع الإباضي وتنظيمه. فسنّوا لذلك أنظمة اجتماعية تسيّر المجتمع دينيا واجتماعيا واقتصاديا ، واعتنوا خاصّة بالجانب التّربوي والتعليمي.

أ – الفرق الإباضية :

لقد انقسم الإباضية إلى عدّة فرق ، خاصّة في عهد الدولة الرستمية، لكنّها لم تعمر طويلا منها:

– النكّاريّة :كانت نشأتها سياسية محضة ، يتزعّم هذه الفرقة أبو قدّامة يزيد بن فندين الذي أنكر إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم ، وقد انضمّ إليه شعيب بن معروف . وقام هؤلاء بالهجوم على مدينة تيهرت ، فقُتل ابن فندين وفرّ ابن معروف إلى ليبيا، فانضمّ إليه عبد الله بن يزيد الفزازي القادم من المشرق . وقد قامت هذه الفرقة بقيادة أبي يزيد صاحب الحمار بثورة عارمة ضدّ الحكم الفاطمي بأفريقية[55].

– الحسينيّة : كان زعيمها أبو زيّاد أجمد بن الحسين الطرابلسي عاش خلال القرن الثالث الهجري امتزج نشاطها الفكري مع النكّارية ، و ربما أيدا بعضهما في محاربة الإباضية[56].

---

[55] - علي يحي معمر: الإباضية مذهب إسلامي معتدل، بكير أحمد بن سعود السياسي، ط3، المطبعة العربية، غرداية، 1994، ص :42-43

[56] - المرجع نفسه، ص :44

- السكّاكيّة : كان زعيمها عبد الله بن السكّاك اللوّاتي ، كان من الأثرياء الكبار ، فأراد الظهور ، لذلك خالف الإباضية والمسلمين . فحكم عليه الإباضية وعلى أتباعه بالشّرك، نظرا لإنكاره السنّة والإجماع والقياس[57].

- النفّاتية :كان زعيمها فرج بن نصر النفّاتي ، كان عالما واسع الإطلاع ، أخذ العلم على بعض الأئمة الرستميين في تيهرت . ولكن عندما لم يتم تعيينه واليا على طرابلس ، سخط على الإمام أفلح بن عبد الوهاب وانتقد سياسته وسلوكه ، ممّا جعل الإمام يأمره بالكفّ عن مقولاته، فرحل إلى المشرق ، حيث السّلطة المركزية العباسية،ثمّ عاد إلى وطنه . و من آرائه أنه أنكر خطبة الجمعة التي كان يراها بدعة[58].

- الفرتيّة : كان زعيمها أبو سليمان بن يعقوب بن أفلح ، عالم أراد الظهور في فترة كثر فيها العلماء وقد أفتى في مسائل مخالفة للفقه الإباضي[59].

- الخلفيّة : كان زعيمها خلف بن السمح بن أبي الخطاب المعافري، لما توفّى والده طلبت منه جماعة من الرعية بتوليه مكان أبيه فقبل دون الرجوع إلى مركز السّلطة، وبدأ يتصرّف فيها. و لمّا بلغ الخبر الإمام عبد الوهاب قام بعزله ، و لكن خلف أوامره ، وأعلن استقلال ليبيا عن الدولة الرستمية وتبعه عدد من النّاس. واستمرّت حركته فترة طويلة ، حتّى تمكّن الإمام من التّغلب عليه، فانتهى أمره[60].

---

[57] - علي يحي معمر: الإباضية مذهب إسلامي معتدل ... ، ص : 44-45.
[58] - المرجع نفسه ، ص : 45، 46
[59] - المرجع نفسه ، ص : 46
[60] - المرجع نفسه ، ص : 46 - 49

ب – العقيدة الإباضية :

لابدّ أن نستعرض بعض آراء الإباضية العقدية التي جعلت منه مذهبا مختلفا عن المذاهب الأخرى وتتلخص هذه الآراء فيما يلي :

إنّ مصادر التّشريع الإباضي هي : القرآن والسنّة والإجماع والقياس والاستدلال.

الأصل العام في العقيدة الإباضية التتريه المطلق للبارئ جل جلاله ، وكل ما أوهم التشبيه من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الثّابتة، ويجب تأويله بما يناسب المقام ولا يؤدّي إلى التشبيه.

- الإيمان عند الإباضية يتكوّن من ثلاثة أركان ؛ الاعتقاد والإقرار والعمل.
- صفات البارئ جلّ وعلا ذاتية.
- الله تبارك وتعالى صادق في وعده ووعيده.
- الخلود في الجنة أوفي النار أبدي ولا توجد مترلة بين المترلتين.
- إنكار معلوم من الدّين بالضرورة شرك.
- القرآن كلام الله نقل بالتواتر وإنكار شيء منه شرك.
- الإنسان حرّ في تصرفاته مكتسب لعمله ليس مجبرا عليه ولا خالقا لفعله.

- ولاية المطيع والبراءة من العاصي واجبتان.

- شفاعة الرسول ﷺ ثابتة[61].

[61] - علي يحي معمر : الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم، المطبعة العربية، غرداية 1985، ص : 57 - 64.

الفصل الثاني

تاريخ وحضارة بني مزاب

أولا : تاريخ منطقة وادي مزاب

ثانيا : النزوح الإباضي وتأسيس المدن

ثالثا : التنظيم الاجتماعي لمدن مزاب

أولاً– تاريخ منطقة وادي مزاب :

قبل أن نبدأ في سرد أحداث تاريخ منطقة وادي مزاب ونزوج الإباضيين نحوها واستقرارهم بها ، لابدّ من أن نتعرف أوّلاً على الموقع الجغرافي وطبيعة مناخ المنطقة ، لكي يتسنّى لنا إدراك الصّعوبات التي لم تثبّط من عزيمة سكان بني مزاب في سبيل النّهوض بالمنطقة وإنشاء حضارة عريقة في أرض جرداء قاحلة.

1 – الموقع الجغرافي :

ينتمي وادي مزاب إلى الحوض الشرقي للصّحراء الجزائرية الذي يحدّه شمالاً جبال الأطلس الصحراوي، ومن الغرب والجنوب الغربي قورارة وتوات، ومن الجنوب الأهقار والطاسيلي ، ومن الشرق الحمادة الحمراء ومنطقة غدامس[1] .

تقع التجويفة البيضاوية لوادي مزاب في الشمال الغربي لهذا الحوض بين خطّي عرض °32 و°33 '20 شمالا، وبين خطّي طول °0 '4 و °2 '50 شرقا[2]. تبلغ مساحة الوادي 8000 كلم^2 ، ويتراوح علوّها عن سطح البحر ما بين 300 م و 800 م[3]. و يبتعد مركز منطقة وادي مزاب –غرداية – عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كلم.

على بعد 110 كلم جنوب الأغواط وبالضّبط ابتداء من تلغمت تظهر القواعد الأولى لسلسلة من الهضاب الصخرية المتقطّعة في أماكن عديدة ، وهذا ما سمح ببروز واحات غير منتظمة .

---

[1]- Marth et Edmond Gouvion :Kharidjisme ; Monographie du M'zab ,Imprimerie Vigie Marocarine , Casablanca, Paris, 1926, p : 175.

[2]- Ibid , p : 177.

[3]-A. Coyne : Le M'zab , Ed : Adolphe Jourdan , Alger 1879 , p : 3

و يبدو مركز شبكة وادي مزاب على شكل فوّهة بركان عظيمة ذات هياكل داخلية مائلة ومنحدرة انحداراً شديدا في بعض الأحيان . و تتشكّل بداخلها تجويفة تبدأ من الجهة الشمالية الغربية وتتّجه نحو الجهة الجنوبية الشرقية، و يسيل خلالها وادي مزاب[4]. وسط مهرجان من الصخور ، ويبلغ طول الوادي 18 كلم وعرضه 2كلم تتدرج القرى الإباضية الخمسة فوق هضاب صخرية صغيرة.

تستقبل أربع واحات مياه هذه الهضبة وهي واحة وادي متليلي وواحة وادي مزاب وواحة وادي النّسَا وواحة وادي زغرير[5].

تنتمي الترسّبات الجيولوجية إلى العصر الرّابع من الزّمن الكريتاسي الأوسط تتكوّن الهضبة الصخريّة من مجموعة كبيرة من الأخاديد والأودية الجافة التي تتقاطع فيما بينها مكوّنة ما يشبه الشبكة ، ومن هنا أعطت للمنطقة اسم << شبكة وادي مزاب>> .[6] تتكوّن هذه الهضبة من طبقات كلسية أفقيّة تقريباً رمادية تميل إلى اللّون الأسود ، بينما تميل الطّبقة الكلسية العلوية منها إلى اللّون الأسمر الضارب إلى البنيّ أو اللّون الأسمر الضارب إلى الصّفرة . و تختلط هذه الطبقة الكلسية في الأخاديد بالجبس، وهذه الصخور الجبسية الكلسية تستغلّ كمادّة في البناء[7].

يتقاطع وادي مزاب مع عدد من الأودية المحلية ، فبدخوله المنطقة من الجهة الشمالية الغربية يلتقي بوادي توزوز في بداية واحة غرداية ثم يواصل طريقه ليلتقي

---

[4]- Marth et Edmond Gouvion : Op. cit , p : 178
[5]- A. Coyne : Op. cit , p : 4
[6]- Charles Kleincknecht : Monographie de L'Arrondissement de Ghardaia , Ministére du Sahara Département des Oasis , Paris 1962 , p : 2
[7]- Ville : Exploration : Géologique du Beni - M'zab du Sahara et de la Région des Steppes de le Province d'Alger, Paris, 1872, p : 58

بوادي أنتيسا ، حيث تمتدّ واحة بني يزقن ،' ثم يتقاطع مع وادي أزويل في بنورة ليستمرّ على شكل واد ضيّق ثم يتّسع بعد ذلك عند التقائه بوادي نميرات ووادي نيمل ليصل إلى زلفانة إلى أن ينتهي في سبخة على بعد 16 كلم من نقوسة شمالي ورقلة[8].

تمتاز منطقة وادي مزاب عموما كباقي المناطق الصّحراوية الأخرى بمناخ جاف. لذا فإنّ الأمطار تكون شحيحة جدًّا وفي فترات غير منتظمة ، تصل كميّة التّساقط السنوية إلى حوالي 130,7 مم. كما يمتاز مناخ المنطقة بتباعد الحدّين الحراريين في اليوم الواحد وبين الصّيف والشتاء . إذ تبلغ درجة الحرارة صيفا 48° وتنزل إلى درجة 0° .

تهبّ على المنطقة رياح شمالية وشمالية غربية تكون باردة وتسمح بتساقط كمية من الأمطار في فصل الشتاء ، وقد تكون غربية . و أمّا في فصل الصّيف فتهبّ في غالب الأحيان ريّاح جنوبية تكون جافّة وحارّة وهي المسؤولة عن الحرارة الشديدة التي تجتاح المنطقة في هذا الفصل[9].

2 – مزاب قبل النزوح الإباضي :

لقد استبعد الباحثان مارسيل مرسيي [10] ومارت غوفيون[11] فكرة وجود استيطان إنساني في منطقة وادي مزاب في عصور ما قبل التاريخ ، وقد علّلا ذلك

---

[8]- Marth et Edmond Gouvion : Op . cit , p : 179.
[9]-Marcel Mercier : La Civilisation Urbaine au M'zab , Ghardia la Mystérieuse, Ed : P . A . D ,Alger. 1932 , p : 38.
[10]- Ibid , p : 40
[11]- Marth et Edmond Gouvion : Ibid , p : 217 .

لعدم عثورهما على دليل مادّي يؤكّد وجود نشاط إنساني في المنطقة . و لكن فيما بعد توصّل الباحثان بيار روفو Pierre Roffo [12] وجويلو أبونو Joël Abonneau [13] عند قيامهما بدراسات تخصّ فترة ما قبل التاريخ في بلاد مزاب إلى نتائج جدّ هامّة تدلّ دلالة قطعية على أنّ الإنسان استقرّ في المنطقة في عصور ما قبل التاريخ . وذلك من خلال عثورهما على عدد كبير من الأدوات الحجرية ، ورسومات صخرية في محطّات عديدة ترجع إلى ما قبل التاريخ . وتحمل هذه الصخور المتناثرة حول ضفاف الأودية والوهاد رسومات حيوانية وهندسية ورسوما لبعض أعضاء الجسم البشري مثل اليد والرجل .

وممّا يؤكّد استقرار الإنسان في هذه المنطقة خلال عصور ما قبل التاريخ ما نقله إبراهيم متياز في مخطوطه حول تاريخ وادي مزاب نقلا عن بعض شيوخ المنطقة أنّ أجدادهم عثروا على ستّ مغارات واسعة في سفوح الجبال فدفنوها خوفا من التجاء العدوّ إليها[14] يبدو أنّ هذه المغارات كانت مأوى لمجموعة من السّكان كانوا يقطنون بالمنطقة.

و أمّا في العهد الرّوماني فإنّ مزاب لم تكن سوى منطقة عبور لقوافل القبائل الزناتية ، لأنّ الرّومان لم يصلوا بتاتا إلى هذه الربوع ، فلم يتجاوزوا خطّ وادي جدي في الصّحراء الجزائرية.[15]

---

[12] - ينظر: Pierre Roffo : Contribution à l'Etude de la préhistoire du Sahara Septentrional, Ancienne Imprimerie ; Alger ; 1934

[13] - ينظر: Joël Aboonneau ; Préhistoire du M'zab , Thèse de 3éme Cycle en Archéologie, Paris I, sorbonne , 1983 .

[14] - إبراهيم متياز : تاريخ وادي مزاب، مخ ، ص : 4

[15]-Marth et Edmond Gouvion : Op. cit , p :217

إنّ بقايا أثار وأطلال القصور القديمة المتناثرة في منطقة وادي مزاب تدلّ دلالة واضحة على أنّ المنطقة كانت عامرة بالسّكان قبل مجيء الإباضيين إليها . فمن هم هؤلاء السّكان الذين استقرّوا في المنطقة قبل القرن الخامس الهجري ؟.

ويتحدث عبد الرحمان بن خلدون عن هؤلاء السّكان في قوله << من بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطر في القبلة لما دون الرّمال على ثلاثة مراحل من قصور بني ريغة وهذا الاسم للقوم الذين اختطّوها ونزلوها من شعوب بادين وضعوها في أرض حرّة على إحكام وخراب ممتنعة في مسارحها بين الأرض المحجرّة المعروفة بالحمادة في سمت العرق، متوسّطة فيه، قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة ، وسكانها لهذا العهد شعوب زناتة ، وإن كانت شهرتها مصاب..." [16]

إذن فاعتمادا على ابن خلدون الذي تحدّث بشكل دقيق وواضح عن موقع قصور بني مزاب ، فإن المنطقة كانت منذ القديم مستقرّا لجماعات بربرية يلقّبون ببني مصاب فما علاقة مصاب بمزاب التي اشتهرت بها المنطقة ؟ وما أصل هذه التسمية ؟

لقد اختلف المؤرّخون في آرائهم حول أصل تسمية مزاب ، فابن خلدون يذكر أنّ مصاباً فرع من قبيلة زناتة البربرية ، وهم مصاب بن بادين بن جانا ، وبنو بادين من ولد زرجيك الذي ينسب إليه بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو زردال وكلّهم ينتمون إلى بادين ويعدّ بنو راشد من إخوانهم ، لأنّ راشدا أخو بادين.[17] ويقصد ابن خلدون ببني مصاب هنا بني مزاب . ونتساءل كيف تمّ تحريف التّسمية ؟ فبناء على

---

[16] - عبد الرحمان بن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج : 7، دار العلم للجميع، بيروت، د.ت، ص: 59.

[17] - :المصدر نفسه، ص :58

قواعد اللّهجة المزابيّة التي يتمّ فيها استبدالُ حرف الصّاد زاي مفخّمة في الكلمات وخاصّة العربية مثل الصّوم الذي يصبح (أزومي) ، والصّلاة التي تصبح (تزاليت) ، تصبح كلمة مصاب مزاب .

أمّا محمّد أطفيش فيرى أنّ كلمة مزاب مشتقّة من مضاب بضاد معجمة وعلّل سبب تحريفها أنّ الضاد يقرب مخرجها وصوتها من مخرج الزاي[18].

وهناك من المؤرّخين الإباضيين من اختار استعمال اسم بني مصعب الذي يعدّ في نظرهم أصل تسمية بني مزاب ، ولا سيّما إذا علمنا أنّها أقدم تسمية ذكرت في المصادر التاريخية الإباضية ، إذ وردت في كتاب السيرة لأبي زكرياء بادية بني مصعب[19] وعلّلوا تحريفها بأنّ البربر لا يستطيعون النّطق بالعين التي ينطقونها بهمزة أو يسهّلونها بألف ، ويلاحظ ذلك في بعض المخطوطات الإباضية القديمة التي تضمّ أسماء مثل : أمّي سعيد وأمّي عيسى عوضا عن عمّي سعيد وعمّي عيسى[20]. إذا كان هذا الرأي صحيحا ، فلماذا لم تستبدل عين سعيد وعيسى؟ ويبدو لي أنّ هذه التسمية لا تعدو أن تكون سوى تحريفا لكلمة أمازيغية تم تعريبها كباقي أسماء المدن المزابيّة .

كما أنّ هناك من الكتّاب من يستعمل لفظ بني ميزاب ، ويقصد به أصحاب الميزاب . وترجع أصل هذه التّسمية حسب الرواية إلى قصّة وقعت لأحد المشايخ الإباضيين الأوائل، ويتعلّق الأمر بأبي بلال مرداس الذي سبق الحديث عنه في الأعلى ، فعندما دخل ذات ليلة الحرم في مكّة ، و جلس تحت ميزاب الكعبة يدعو

18 ـ محمّد أطفيش : الرسالة الشافية، مخ بمكتبة الحاج صالح لعلي ببني يزقن ، ص : 20

19 ـ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: المصدر السابق ، ص 255

20 ـ يوسف الحاج سعيد : تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، المطبعة العربية ، غرداية 1992 ، ص :13

الله أن يظهر له صحّة دينه، فإذا بقطرات منْ الماء تترل عليه من الميزاب . فعدّ ذلك استجابة لدعائه ، ومن ثمّ أصبح الإباضية يقفون أثناء الطواف اتجاه ميزاب الكعبة للدّعاء[21] ومن ثمّ لقّبوا بأصحاب الميزاب.

يظهر أنّ هذا التّفسير مستبعد لكونه يطرح سؤالا جوهريا . فإذا كان أصحاب الميزاب يقصد بهم الإباضية انطلاقا من القصّة لأنّ أبو مــرداس إباضي المذهب . فلماذا لم تطلق هذه التّسمية على الإباضية كلّهم في جربة وجبل نفوسة وعمّان وزنجبار ؟ و اقتصرت على بني مزاب دون سواهم؟.

و يبدو من خلال الآراء التي سردناها سابقا حول التّسمية الأصلية أنّ أرجح التّسميات المقبولة لسكّان هذه المنطقة هي بنو مزاب التي حرّفت من مصاب . لذا فإننا سنستعمل اللّفظ مزاب في كامل دراستنا وسنستغني عن باقي التّسميات الأخرى.

إنّ بني مزاب و إخوتهم من بني بادين : بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو زردال وهم من الطّبقة الثّانية منْ قبيلة زناتة البربرية لمّا فشلت ثوراتهم ضدّ قبيلة كتامة ، ثم من بعدهم صنهاجة التي طبّق ملوكها توصيات المعزّ لدين الله الفاطمي في النّصف الأخير من القرن الرّابع الهجري نزحت زناتة إلى شمال الصّحراء فانتشروا في ما بين الزّاب و ملويّة حتى الجنوب واستقرّوا بها وعمروها[22].

---

[21] - محمّد أطفيش : المصدر السابق ، ص: 84 - 85.

[22] - إبراهيم متياز: المصدر السابق، ص 7

لقد شيّد بنو مزاب الذين كانوا علىٰ مذهب المعتزلة الواصلية * قبل نزوح الإباضية إلى المنطقة قصورا صغيرة ، اندثرت كلّها و لم يبق منها سوى بعض الأطلال وقد عدّها الدكتور جون هيغي[23] بنحو خمسة وعشرون قصرا اعتماداً على مصادر إباضية لم نتمكّن من الاتّصال بها .

من أهمّ هذه القصور :

1. **قصر بوكياو** : يقع في قمّة جبل يشرف على بعد 100 م تقريباً من سدّ بني يزقن على الواحة. شيّده بنو مغراوة حوالي القرن الرّابع الهجري ، كانوا على مذهب المعتزلة . فهاجره سكّانه ، وانضمّوا إلى مدينة بني يزقن ، فاندثر القصر و لم يبق منه سوى بعض الأكوام من الحجارة[24].

2. **قصر أقنوناي** : شيّد على ضفّة وادي أنتيسا على مقربة من سدّ بني يزقن الحالي ، و لم يبق له من أثر ولعلّ أثاره قد غمرتها أوحال الوادي داخل السدّ[25].

3. **قصر تلات** : يُعدّ من القصور القديمة في وادي مزاب ، و يقع في الجنوب الغربي من واحة بني يزقن ولا تزال بعض أثاره باقية إلى حدّ اليوم. و يذكر إبراهيم متياز أنّ هذا القصر أسّسه الإخوان عدون وبكلي[26].

---

* الواصلية: هم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال الألثغ كان تلميذ للحسن البصري . وبالمغرب منهم شرذمة في بلد إدريس بن عبد الحسني الذي خرج في أيام أبي جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية واعتزالهم يدور حول أربع قواعد: القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والقول بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين قوله في الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين، ينظر: أبي الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني: الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا، علي حسن فاعود، ط6، ج1، دار المعرفة، بيروت، 1997، ص 59-63.

[23]-J. Huguzt : << Le Pays du M'zab >> in Bull de la Société de Géographie d' Algérie , Imprimerie Typographique et Lithographique Sélion , Alger 1898 , p : 153.

[24] - إبراهيم متياز : المصدر السابق، ص 16

[25] - المصدر نفسه، ص 17 .

[26] - المصدر نفسه ، ص 17 - 18.

4. **قصر تريشين** : كان يسكنه المعتزلة ثم لجأ إليه الإباضية من نفوسة ومن المغرب واستقرّوا فيه ، ثمّ انضمّوا إلى مدينة بني يزقن في أواخر القرن التّاسع الهجري ، فانقرضت المدينة و لم يبق منها سوى أثار لمصلّى[27].

5. **قصر موركي** : يقع في الجهة الغربية من مدينة بنورة عند تقاطع وادي أنتيسا بوادي مزاب . وقد شيّد فوق هضبة تشرف على وادي مزاب، و اندثر و لم يبق منه إلاّ أكواما من الحجارة[28].

6. **قصر تافلالت** : أسّس فوق قمّة الهضبة التي شيّدت عليها مدينة بني يزقن فيما بعد ، وكان يقطنه سكّان من سجلماسة ، نزحوا إلى مزاب حسب إبراهيم متياز في أوائل القرن السّادس الهجري ، وقد انضمّ إلى هذا القصر سكان تلات وبكياو وأقنوناي وترشين وبعض سكان موركي[29]، فاتّسع عمرانه ليصبح نواة وحيّا من أحياء مدينة بني يزقن ، ومازالت أثار هذا القصر كالمسجد والسّوق شامخة إلى يومنا هذا.

7. **قصر الأحنش** : يقع على مقربة من مدينة بنورة في الجهة الجنوبية الشرقية. يعدّ من بين أقدم قصور المنطقة ، وكان يقطنه جماعة من زناتة ومغراوة[30] وقد انطمست معالمه وعلى حسب الأسطورة التي نقلها هيغي من مصادر قديمة فإنّ

---

[27] - إبراهيم متياز: المصدر السابق ، ص 18

[28] - المصدر نفسه ، ص : 14 - 15

[29] - المصدر نفسه ، ص : 5.

[30] - المصدر نفسه، ص :13.

القصر كان يحتوي على إحدى وعشرين مسكنا ومسجدا وقد قتل سكانه إثر هجوم مجموعة كبيرة من الأفاعي عليهم[31].

8. **قصر تميزرت** : كان يقع بين مليكة وبنورة في واحة تيغزرت عند ملتقى وادي مزاب ووادي أزويل يرجع إلى نفس فترة قصر تالزديت ويُقال أنّ العلاّمة باسعيد بن بكر هو مؤسّسه[32].

9. **قصر أغرم نوداي (القصر السفلي)**: يقع أسفل مدينة مليكة في الضفّة اليسرى لوادي مزاب. وشيّد سنة 334 هـــ / 945 م من طرف أجداد مشيّدي مليكة . واندثر بسبب النّزاعات بين المعتزلة والإباضية على حسب هيغي[33].

10. **قصر تالزديت** : ومعناه قصر الصّوف ، يبدو أنّ أهله كانوا يشتهرون بالصناعات الصّوفية . و يقع هذا القصر على بعد ستّة كيلومترات من مدينة العطف بعد السدّ الحالي للمدينة . و يُعد من القصور القديمة التي كان يقطنها معتزلة بني مزاب ، و لم يبق منه سوى بقايا جدران لثلاثة أو أربعة مساكن .

ويقدم هيغي[34] نقلا عن مصادر قديمة روايتين مختلفتين عن خراب القصر ، فيروي في الأولى أنّ القصر كان يحكمه شيخ . فإذا ما عزم شخص أن يتزوج فلا يحقّ له الدخول على عروسه إلاّ بعد أن يدخل عليها شيخ القصر . وفي أحد الأيام

---

[31]--J Huguet : Op.cit , p : 178

[32] يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 18

[33]- J. Huguet : << Les Villes Mortes du M'zab >> in Bull et Mémoires de la Société d ' Ethnographie ,1909 , p : 585.

[34] - ينظر J. Huguet: Les Villes... , p :586

مرّ على القصر سعيدي يقود جملا فوقه هودج بداخله عروسه فأمره الشيخ أن يقدّم له عروسه ليدخل عليها قبله، فأبى السعيدي ولم يتوان الشيخ في قتله . وكانت هذه الحادثة سببا في قيام حرب بين أهل تالزديت والسعيدين وكانت النتيجة خراب القصر. و أمّا القصّة الثانية فتذكر أنّ أولاد ناصر هم الذين خربوا القصر[35].

ويبدو لي أنّ خراب معظم هذه القصور المزابيّة القديمة كان بسبب الانقسامات والانشقاقات الدّاخلية التي أدّت في أحايين عديدة إلى الصّراع والتّطاحن والاقتتال بين أهالي هذه القصور من جهة وبينهم وبين النازحين الإباضيين من جهة أخرى .

ثانيا – النّزوح الإباضي وتأسيس مدن مزاب :

يظهر أنّ معتزلة بني مزاب كانوا آخر بقايا المعتزلة في بلاد المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري، وقد تمكّنوا من الاحتفاظ بمذهبهم نظرا لقساوة الطبيعة وصعوبة العيش في المنطقة لذلك كانوا في منأى عن أطماع الغزاة[36].

تحدثت المصادر الإباضية[37] عن انضمام المزابيين إلى المذهب الإباضي ، وتركهم للمذهب المعتزلي بفضل مجهودات العلاّمة الإباضي أبي عبد الله محمّد بن بكر الفرسطائي* .

---

[35]-J. Huguet : Les Villes … , p :586.

[36] - ابراهيم بحاز : <<الميزابيون المعتزلة - قراءة جديدة لنصوص قديمة - >> مجلة الحياة، العدد 1، المطبعة العربية، نشر جمعية التراث القرارة، غرداية جانفي 1998، ص : 131.

[37] - أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر : المصدر السابق، ص : 255

* أبو عبد الله محمّد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي النفوسي يعتبر أحد أقطاب الإباضيين، والمصلحين الدينيين والاجتماعيين في بلاد المغرب.ولد بفرسطاء في جبل نفوسة سنة 345 هـ /956 م أخذ مبادئ التعليم في مسقط رأسه ثم ارتحل إلى الحامة وجربة طالبا الإستزادة في العلم على أكابر المشايخ الإباضية وغيرهم منهم أبي زكرياء فصيل بن أبي ميسور وأبي نوح بن زنغيل وانتقل بعد ذلك إلى مدينة القيروان للتبحر في علوم اللّغة العربية، لما اضطلع في العلم توجه إلى بلدته وشيد فيها مسجدا لازال يحمل اسمه. كان أبو عبد الله كثير التجوال، إذ كان يتنقل من منطقة إلى

لقد كان على الإباضين البحث عن كيان جغرافي يوحّدهم بعد شتاتهم في أرجاء المغرب الكبير، ويحميهم ويحمي مذهبهم وعقيدتهم من الضّياع والفناء . فلمّا انعقد مؤتمر أريغ حوالي سنة 420 هـ / 1029 م للنّظر في مسائل تخصّ الإباضيين االلاجئين المهاجرين الجدد ، واكتظاظ منطقة أريغ بهم . فاتّفق الإباضية على انتداب أبي عبد الله محمّد بن بكر للبحث عن منطقة تأوي جمع الإباضية المهاجرين وإباضية أريغ الذين كانوا يعانون من ملاحقة سلاطين الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط واضطهادهم لهم[38].

أخذ أبو عبد الله يتجوّل مع ابنه وغلامه في جنوب الصّحراء بحثا عن منطقة تكون بعيدة عن أطماع الملوك ، فوقع اختياره على منطقة وادي مزاب بالرّغم من قساوة طبيعتها وصعوبة العيش فيها، ويذكر أبو زكرياء أنّ أبا عبد الله كان يقضي شتاءه في أريغ ويتوجّه في فصل الربيع إلى بادية مزاب[39]. و يبدو من هذا أنّه كان يتنقل باستمرار إلى المنطقة قصد إقناع سكان المنطقة باعتناق المذهب الإباضي.

يظهر من خلال ما ذكره محمّد أطفيش أنّ الاستجابة لم تكن بالأمر السّهل بالنّسبة لدعوة أبي عبد الله، إذ أنّ معتزلة وادي مزاب قتلوا أحد أبنائه وهو إبراهيم عند تنقّله إلى المنطقة.كما أنّ الاستجابة لم تكن جماعية ، فقد ظلّ عدد كبير من بني مزاب على مذهبيته لفترة من الزمن ، وقد حدثت بين الطّرفين مناوشات ونزاعات

أخرى، حتى أنه كان يتردد على منطقة وادي مزاب.ومن أهمّ ما قام به هذا العالم الإباضي تأسيس نظام اجتماعي يسمى نظام العزّابة.وقد توفى سنة 440 هـ / 1048م. ينظر أبو زكرياء : المصدر السابق، ص : 173 - 182 . وينظر كذلك الشيخ أبي العباس أحمد الدرجيني : كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي ،ج: 2، مطبعة البعث، قسنطينة، ص : 377 - 391.

[38] - إبراهيم متياز: المصدر السابق، ص 62

[39] - أبو زكرياء يحيى : المصدر نفسه ، ص : 255.

عديدة ، أدّت في بعض الأحيان إلى اندثار قصر بكامله ، كاندثار قصر أغرم نواداي (القصر السّفلي)[40].

بعد أن اعتنق بنو مزاب كلهمّ أو بعض منهم المذهب الإباضي، بدأت تتوالى على المنطقة الهجرات الجماعية أو الفردية من بقاع مختلفة من شمال إفريقيا ويمكن أن نرجع سبب هذه الهجرات المتتالية إلى سببين رئيسيين :

- نظرا لاستمرار الجفاف في بداية القرن الخامس الهجري في منطقة ورقلة وما جاورها ، ومنها قرّر بعض السكّان الالتجاء إلى مكان آخر وخاصّة أصحاب الماشية ، فاستقرّ رأيهم على بادية مزاب[41].

- إنّ انقراض دولة بني مدرار في سجلماسة سنة 366 هـ / 976 م ، ووصول الهجرات الهلالية إلى شمال إفريقيا سنة 443 هـ / 1050 م، والتخريب الذي تعرّضت له مدينة سدراتة سنة 467 هـ / 1075 م على يد المنصور بن الناصر الحمّادي، ثم التخريب الثّاني سنة 626 هـ / 1229 م على يد يحيى بن إسحاق الميورقي المرابطي المشهور بابن غانية، والتخريب النّهائي لسدراتة سنة 672 هـ / 1274 م ، كانت سببا سياسيا مباشراً[42] لانتقال جموع الإباضية إلى وادي مزاب هروبا بمذهبهم وعقيدتهم .

كانت الهجرات جماعية أو فردية على مرّ القرون من أنحاء شتى ، من سدراتة و من وارجلان ووادي ريغ ونفوسة وجربة وجبل عمّور وقصر البخاري والمدية

---

[40]- J. Huguet : Les Villes Mortes… , 588.

[41] - علي يحيى معمر : الإباضية في الجزائر، ج 2، المطبعة العربية ، غرداية 1987 ، ص : 436.

[42] - يوسف الحاج سعيد : المرجع السابق، ص : 26 - 27.

وسجلماسة وفقيق والساقية الحمراء ومن غيرها من المناطق المختلفة ، وقد كان هؤلاء المهاجرون إمّا إباضية أو أنهم اعتنقوا المذهب الإباضي عند استقرارهم بالمنطقة ، فأصبحت تسمية بني مزاب تشمل حتى هؤلاء المهاجرين الجدد الذين ساهموا بقوّة رفقة سكان المنطقة في تشييد مدن وادي مزاب السّبعة ، وبفضل جهودهم وتضحياتهم وصبرهم على شظف العيش وكدّهم المستمرّ تمكّنوا من إحياء أراض موات في أرض قاحلة جرداء . فحفروا الآبار وبنوا السدود لينشئوا واحات من النخيل بجانب كلّ مدينة .كما سنّوا تنظيمات اجتماعية حافظت على تماسك المجتمع المزابيّ وجعلت منه مجتمعا راقيا متحضرا، فكوّن لنفسه نمطاً حضارياً متميزاً .

1- نشأة مدن وادي مزاب السّبع :

لم تشيّد المدن الخمس الموجودة على ضفاف وادي مزاب كما يدّعي بعض المؤرخين في فترة قصيرة قُدّرت في بعض الأحيان بنصف قرن فقط . إذ من غير المعقول أن يتمّ بناء خمس مدن بهذا القدر من السّرعة نظرا لطبيعة مناخ المنطقة وأرضيتها الصّلبة . و لكن يمكن أن نحصر فترة التشييد في ظرف ثلاثة قرون ونصف من الزّمن.

لّما اكتظّت المنطقة بالسكّان لجأ المزابيّون إلى إحداث مدينتين جديدتين خلال القرن السّابع عشر ميلادي ، و تبعدان عن مركز وادي مزاب (غرداية) بمسافة تتراوح ما بين 45 و120 كلم ويتعلّق الأمر بمدينتي القرارة وبريان .

أ- **العطف :**

تقع مدينة العطف على بعد 9 كلم من مركز مزاب غرداية ، على خطّ عرض "28 '28 °32 شمالا وخط طول "56 '36 °1 شرقا في الضفّة اليمنى من وادي مزاب في المنعطف الذي يكونه الوادي ، ومن هنا أخذت المدينة اسمها[43]. لكن محمّد أطفيش يذكر أنّ المدينة كانت تسمّى العطفاء ثم حرّفت ، لكون النّسبة التي تتداول في المخطوطات هي عطفاوي وهذه النّسبة تكون من عطفاء وليس من عطف[44].

و يطلق على المدينة كذلك اسم تاجنينت باللّهجة المحلية وتطلق هذه التّسميّة على نوع من آنية تستعمل للشرب ، وكان أهلها يسقون بها غروسهم ، نظرا لقرب الماء من وجه الأرض[45]. تعتبر العطف أوّل مدينة يؤسّسها بنو مزاب مع النازحين إلى المنطقة ، وقد شيّدها حسب الرواية الشيخ خليفة بن أبغور* سنة 404 هـ / 1014 م** فوق هضبة صخرية.

تتكوّن المدينة من ثلاثة عروش رئيسية وهم أولاد خلفي وأولاد جنان وأولاد أحريز[46]، وقد انقسمت في فترة من الزّمن إلى صفين متنازعين ومتصارعين مما أدّى إلى تقسيم المدينة إلى قسمين بواسطة جدار مازالت آثاره قائمة ، وبناء مسجد ثان في

43-Marth et Edmond Gouvion : Op.cit , p : 226 - 227.

44 - محمّد أطفيش : المصدر السابق، ص : 25.

45 - ابراهيم متياز : المصدر السابق، ص :10-11

* لا يعرف عن هذه الشيخ خليفة بن أبغور سوى أنه اشتهر في الرواية الشعبية كونه مؤسس مدينة العطف فلا شكّ إذن أنّه عاش خلال القرن الخامس الهجري.

** هناك من المؤرخين من قدّم سنة 1011 م كتاريخ لتأسيس المدينة. ينظر José Gers : Op.cit , p : 110

46-Marth et Edmond Gouvion : Ibid , p : 226.

المدينة[47]، لتصبح المدينة الوحيدة بين المدن المزابيّة الأخرى التي تضمّ مسجدين منذ القديم .

ب – بنورة :

تأسّست في الفترة الممتدة بين سنة 438 – 458هــ/ 1046 - 1065 م* فوق رأس هضبة، و تقع المدينة على خطّ عرض °32 '28 "32 وخطّ طول °1 '35 "28 ، عند تقاطع وادي أزويل بوادي مزاب الذي يواصل سيره إلى جانب منحدر يبلغ ارتفاعه ستّة أمتار، على بعد 1800 م شمال بني يزقن[48] وعلى هذا المنحدر يرتفع سور المدينة مما أعطى لها شكل قلعة من قلاع العصور الوسطى الحصينة.

شيّدت بنورة من طرف قبيلة بني مطهر القادمة مع النازحين الإباضيين من وارجلان ، وبعد فترة من الزمن طلبت قبيلة أولاد عبد الله التي تمّ طردها من مدينة مليكة اللجوء إلى بنورة قصد الاستقرار فيها ، فرحّب بهم أهلها ، و لكن ذلك لم يدم طويلا وبضغط من أهل مليكة تمّ طرد بني مطهر اللاجئين إليها من أولاد عبد الله بالقوّة وقتلوا منهم نفرا كثيرا . و فرّ الباقون إلى مدينة العطف . لم تمر هذه الجريمة بسلام فقد اتّفقت المدن المزابية باستثناء مليكة على معاقبة بني مطهر أشدّ العقاب ، فقاموا بتهديم بنورة القديمة التي لم يبق منها حاليا إلاّ المسجد وبعض بقايا جدران المساكن والسور

---

[47]-- J. Melia : Op.cit , p : 57

* يوجد اختلاف بين المؤرخين في تحديد تاريخ تأسيس المدينة فبعضهم يرجعها إلى سنة1048 م لكن البعض الآخر يرى أن تاريخ التأسيس يعود إلى سنة 1065 م، وبما أنّ هذه التواريخ متقاربة فإننا رجحنا أن تكون سنة التأسيس محصورة في هذه الفترة.

[48]-Dr Charles Amat : Le M'zab et les Mozabites , Ed Challamel et Cie , Paris 1888 , p : 48

وتمّ تجديد المدينة فوق منحدر الهضبة مِن طرف أولاد عبد الله العائدين إليها[49] وأبي إسماعيل النازحين الجدد. يذكر كلينكنخت Kleincknecht أنّ هذه الحادثة وقعت سنة 1164 هـ / 1750م[50].

وأمّا أصل تسمية المدينة ببنورة فيرجعها الشيخ محمّد أطفيش إلى امرأة تبيع الورد تسمى نورة [51] . و لكن هذا التفسير مستبعد ومن المرجّح أنها سميت باسم قبيلة استقرّت بها وهي آت بنور البربرية علما أنّ المدينة تسمّى باللّهجة المزابيّة آت بنور.

جـ - غرداية :(تغردايت)

تقع مدينة غرداية على خطّ عرض "36 '28 °32 شمالا وخطّ طول "54 '33 °1 شرقا.تتدرّج المدينة فوق هضبة في الضفّة اليسرى لوادي مزاب[52]، وتغطّي مساحة قدرها 1.50 كلم².

يتّفق معظم المؤرخّين في أنّ محمّد بن يحيى* وأخاه سليمان هما اللذان قاما بتأسيس المدينة سنة 439 هـ / 1048 م وحسب الأسطورة المتداولة تروي أنّ محمّد بن يحيى القادم من فقيق إلى وادي مزاب ضرب خيامه على ربوة ، فكان يلاحظ في كلّ ليلة ضوءا ينبعث من مغارة في أعلى قمّة الجبل فأرسل رفيقه باعيسى اوعلوان* إلى عين المكان ليستطلع له الأمر . وجد باعيسى اوعلوان امرأة تسكن الغار تسمى

---

[49]-Lieutenant D'Armignac : Le M'zab et le Pays Chaamba , Baconnier, Alger 1934 , pp : 106 -107

[50]-Charles Kleincknecht : Op.cit p : 12

[51] - محمّد أطفيش : المصدر السابق، ص23

[52]-M. et Ed Gouvion : Op.cit p : 221

* ستأتي ترجمته لاحقا عندما أتناول المسجد الجنائزي الذي يحمل اسمه.

* او تعني في اللّهجة المحلية ابن ، ومن هنا يصبح الاسم المذكور أعلاه باعيسى بن علوان

داية تخلّت عنها القافلة التي قدمت معها، وكانت تسترزق بما تجود عليها القوافل المارّة على المكان . ونقل الشيخ أخبار المرأة إلى صديقه محمّد بن يحيى الذي تقرّب منها وتزوجها، فقرّر إنشاء مدينة من حوالي الغار وسمّيت بغار داية أي أنها تتركّب من كلمتين[53].

ولكن إبراهيم متياز يرى أنّ غرداية أسّسها المعتزلة سنة 222 هـــ، وتمّ تجديد عمرانها وتوسيعها سنة 447 هـــ / 827 م ، ويروي إبراهيم متياز قصّة تأسيس المدينة بشكل مختلف نوعا ما عن القصّة المعروفة التي أوردناها سابقا، فيذكر أنّ جماعة من الهلاليين نزلوا إلى مزاب من منطقة الزّاب في منتصف القرن الخامس الهجري فتصادموا مع بني مزاب و فرّوا هاربين إلى الأغواط وقد كان من بين الأسرى امرأة عجوز تسمّى داية، فآوت إلى غار بالجبل ثم التقت بالشيخين محمّد بن يحيى وباعيس اوعلوان . وعندما وقع الصّلح بين بني هلال وبني مزاب الذين قاموا مع النازحين الجدد بتجديد عمران المدينة فاتّسع من حوالي الغار و لم تسمّى المدينة إلاّ بعد وفاة العجوز داية فقيل غارداية[54].

أمّا التّفسير البربري لكلمة تغردايت فيعني الأرض الصّالحة للزّراعة على ضفاف الوادي، وقيل إنها تصغير لكلمة أغرداي ومعناه الجبل[55].

تعدّ غرداية من أهمّ مدن وادي مزاب وأصبحت بمرور الزّمن عاصمة الاتحاد الفدرالي المزابيّ . و كانت المدينة تضمّ آنذاك ثلاث مجموعات سكنية مختلفة

---

[53]-Lieutenant D'Armignac :Op . cit , pp : 67- 68 .

[54] - إبراهيم متياز : المصدر السابق، ص : 64.

[55] - يوسف الحاج سعيد : المرجع السابق، ص : 22 .

بحيث تشكّل كلّ واحدة منها مدينة لوحدها ففي الشرق يوجد حي اليهود الذي فصل عن الحي المزابيّين بواسطة جدار ، و أمّا وسط المدينة فيقطنه بنو مزاب ، وفي الجنوب الغربي يوجد حي المدابيح الذي فصل كذلك بواسطة سور[56].

د – بني يزقن : أو بني يسجن (آت يسجن)

أطلق عليها المستشرقون اسم المدينة المقدّسة وتمتاز بتناسق وانسجام عمرانها وبنظافة شوارعها. لذا عدّها غوفيون Gouvion كالقيروان بالنسبة لإفريقية وفاس بالنسبة للمغرب الأقصى مقارنة بالمدن المزابيّة الأخرى[57]. تقع مدينة بني يزقن على خطّ عرض °32 '28 "12 وخطّ طول شمالا °1 '34 "48 شرقا [58] ، وقد شيّدت المدينة على هضبة عند نقطة تقاطع وادي انتيسا بوادي مزاب في الضفّة اليمنى لهذا الأخير ، وبسبب تدرج العمائر على الهضبة ظهرت المدينة جميلة و أنيقة.

أسّست بني يزقن في فترة تتراوح بين عام 1321 - 1347 م*. و يعدّ قصر تافلالت الذي يقع في أعلى نقطة في المدينة – وقد سبق وأن تحدثنا عنه – النواة الأولى للمدينة ، ثمّ انضمّ إلى ذلك القصر سكان قصور بوكياو وأقنوناي وترشين وموركي فاتّسع عمرانه وأُعطي له اسم مدينة بني يزقن[59]. وتتحدث الرواية الشعبية

---

[56]-J. Melia : Op.cit , p88 - 91

[57]- Marth et Edmond Gouvion : Op.cit , p : 224.

[58]-Charles Amat : Op.cit , p: 47

* اختلفت المصادر التاريخية حول تأسيس مدينة بني يزقن، فبعضها أرجعت سنة النشأة إلى سنة 1321 م و البعض الآخر يذكر سنة 1347 كتاريخ لبناء المدينة، وبما أنّ الفرق بين التاريخين يقدر بستة وعشرين عاما فقط، يمكن القول أن الآخر رأى أنّ تشييد المدينة تم في الفترة الممتدة بين التاريخين.

[59] - محمد أطفيش : المصدر السابق، ص : 20.

عن جهود الشيخ بامحمّد بن عبد العزيز اليسجني وفضله في توحيد القصور الخمسة وتأسيس مدينة بني يزقن.

أمّا فيما يتعلّق بالتسمية فإنّ الشيخ محمّد أطفيش يقدم تفسيرين : فيذكر في الأوّل أنّ في أعمال قسنطينة قوم يسمّون بأولاد يزقن بالزاي أو بالسّين ، فانتقلت طائفة منهم إلى هذه المدينة واستقرّت بها ثم نسبت إليها المدينة[60]. و يشير في التفسير الثّاني إلى أنّ بني يزقن تحريف لكلمة بربرية هي "يسجن" ومعناها النّصف ، و قد سميت بهذا الاسم نظرا لانتقال عرش أولاد سليمان بن يحيى من غرداية نحو بني يزقن ، ويعدّ هؤلاء نصف سكّان غرداية ، مع العلم أنّ النّصف الآخر يتكوّن من عرش أولاد عمّي عيسى بن عيسي[61]، وقد تمّ هذا الانتقال بعد اصطدام العرشين فيما بينهم وتمّ طرد عرش سليمان بن يحيى بعد انهزامهم.

تتكوّن مدينة بن يزقن من ثلاثة عروش رئيسية و هي أولاد عنان وأولاد موسى وأولاد يدر ، وقد عرفت هذه العروش بفضل حنكة أعيانها كيف تتعايش فيما بينها على عكس ما كان سائدا في المدن المزابيّة الأخرى من نزاعات وانشقاقات داخلية أدّت في أغلب الأحيان إلى التّصادم[62].

---

[60] - محمّد أطفيش : المصدر السابق ، ص : 21.

[61] - المصدر نفسه ، ص : 20.

[62]-Marth et Edmond Gouvion : Op.cit , p : 223 , 224.

هـ- مليكة : (أتمليشت)

مدينة صغيرة تقع على خطّ عرض 32° '28 "30 شمالا، وخطّ طول 1° '34 " 52 شرقا [63] ، بنيت على قمّة جبل صغير، في الضفّة اليسرى من وادي مزاب على بعد نصف كيلومتر من غرداية شيّدت سنة 756 هـ / 1385 م[64]. من طرف رجال ينتمون إلى قبيلة مليكش البربرية حسب الشيخ أطفيش[65] مع العلم أنّ هذه القبيلة تنتشر في الشرق الجزائري . وتعدّ مليكة آخر مدينة من المدن الإباضية الخمسة التي تحتضنها حفرة وادي مزاب .

و قد نزل هذه المدينة إضافة إلى أولاد ويرو من بني بادين وأولاد سبع وأولاد مطهر من بني عبد الواد الشيخ سيدي عيسى من أولاد نايل القادم من الهضاب العليا الجزائرية ، وقد اعتنق المذهب الإباضي بعد استقراره في وادي مزاب ، و بفضل جهود هذا الشيخ الذي أراد نشر ثقافة التّسامح بين السكّان الإباضيين والمالكيين ، انضمّ إلى مليكة عدد من الأسر من شعانبة برزقة المالكية من مدينة متليلي وذلك إثر اتّفاق بين المدينتين، وهؤلاء الشعانبة كانوا فيما سبق يحاربون كمرتزقة إلى جانب مليكة[66].

[63]-Charles Amat : Op.cit , pp : 46 , 47.
[64]- Marth et Edmond Gouvion : Op . cit , p : 225.

[65] - محمّد أطفيش : نفس لمصدر السابق ، ص : 22.
[66] - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 60، 61

و- القرارة :

تقع مدينة القرارة على خطّ عرض °34 '9 "43 شمالا وخطّ طول °2 '10 "52 شرقا على بعد مائة كلم تقريبا شمال شرق مركز وادي مزاب شيّدت المدينة فوق ربوة[67].

في أواخر القرن السّادس عشر الميلادي تمّ طرد عشيرتين أولاد نوح وأولاد باخّة من مدينة غرداية إثر اصطدام بين الصفين الشرقي والغربي ، فتوجّهت العشيرتان إلى مدينة الأغواط . ولكن لم يدم مقامهما طويلا في هذه المدينة ، فبعد ستّ سنوات وبسبب نشوب خلاف بينهما وبين سكان الأغواط الذين أرادوا القضاء عليهم . هربت العشيرتان الإباضيتان إلى منطقة بوتركفين ، و لكن أهالي الأغواط التحقوا بهما فأجهزوا عليهم وقضوا على معظمهم ، ثمّ فرّ الباقون مشتّتين اتّجاه وادي مزاب ثم التقوا جميعا في منطقة تسمّى ملاقاة ابن سيدوم عند تقاطع وادي الكبش ووادي النّسَا. ولّما أحسّوا بأنفسهم ضعفا وعدم مقدرتهم على مجابهة العدوّ ، توجّهوا إلى وادي زغرير هروباً من بطش قطّاع الطّرق، فشيّدوا قصر المبرتخ الذي أخذ يزدهر وينمو بسرعة[68].

لم يدم الأمن والاستقرار طويلا في القصر حتى عصفت عليه رياح الفتنة والحرب فتصارعت العشيرتان أولاد نوح من جهة ، وأولاد باخّة من جهة أخرى ،

---

[67]- Marth et Edmond Gouvion : Op.cit, p : 229.
[68]-: Ibid, p : 229.

فكان النّصر حليف أولاد نوح . فطُرد المنهزمون الذين لجؤوا إلى غرداية وطلبوا من أهلها السّماح لهم بالإقامة، فأذنوا لهم[69].

قصد الانتقام من أولاد نوح قرّر أربعون رجلا من أولاد باخّة التوجّه إلى الجزائر العاصمة للعمل في التّجارة وجمع الأموال اللازمة لذلك . بعد سنين طويلة تمكّنوا من جمع الأموال والأسلحة اللاّزمة ،ثمّ اتّجهوا إلى منطقة وادي زغرير وبقيادة حمو بن طوبال اختاروا مكانا يسمى << كدية العقارب>> فحطّوا رحالهم ثم بدءوا ببناء سور يحميهم من ضربات الأعداء وشيّدوا مساكن لإيواء عائلاتهم . و هكذا وضعت الأسس الأولى لبناء مدينة القرارة وقد طلبوا في نفس الوقت من سلطان بني جلاب محاصرة قصر المبرتخ مقابل مبلغ من المال[70].

بعد رحيل بني جلاب من المنطقة تصارع الطرفان حتى تدخّل أولاد سيدي عبد الله من الأشراف ، فعقدت هدنة بين المتصارعين لمدّة ثلاث سنوات . و استغلّ أولاد باخّة هذه الهدنة في بناء مدينتهم وتطويرها، وأطلقوا عليها اسم القرارة وذلك سنة 1041هـــ / 1631 م ، رحّب أولاد باخّة بأولاد سيدي عبد الله في مدينتهم فوضعوا اتّفاقية معهم تسمح بموجبها لأولاد عبد الله بتطبيق شعائرهم الدّينية وفق مذهبهم بكل حرية ، كما قدّم لأولاد عبد الله 1/46 من الأراضي، ولا يحقّ لهم بموجبها المحاربة إلى جوار أعدائهم ،كما تفرض عليهم الاتّفاقية الامتثال إلى أنظمة المدينة[71].

69- De Motylinski : << Notes Historiques sur le M'zab ; Guerara Depuis sa Fondation >> , In. R Africaine, O.P.U, Alger 1884 , pp : 378 -381.

70- Marth et Edmond Gouvion : Op.cit , pp :230 , 231.

71- De Motylinski : Ibid , p : 386.

بعد انتهاء الهدنة اشتعلت نار الحرب، من جديد بين سكّان القرارة و سكّان قصر المبرتخ . و بعد أشهر من الاقتتال تمكّن أولاد باخّة في هذه المرّة من الدّخول إلى القصر وهدمه وتخريبه[72]، فهرب النّاجون من أولاد نوح والعفافرة إلى منطقة أخرى ليشيّدوا بدورهم فيما بعد مدينة تنضمّ إلى الاتحاد المزابيّ.

و أمّا أولاد باخّة فبعد انتقامهم من أعدائهم أولاد نوح والعفافرة اهتمّوا بالبناء والتشييد ، فأضحت مدينتهم مزدهرة وراقية مما جعل بعض الأسر من وادي مزاب تهاجر إليها للاستقرار فيها.

و بعد قرن من الأمن والاستقرار عمّت الفوضى المدينة من جديد بسبب انقسامها إلى صفين الصفّ الشرقي والصفّ الغربي كباقي المدن المزابيّة الأخرى . و أدّى هذا الصّراع إلى معارك طاحنة أودت بحياة العديد من الأهالي ويطرد المنهزم في كلّ مرة.

هـــ - بريان :

تقع مدينة بريان على خطّ عرض °32 '51 "20 شمالا وخطّ طول °1 '27 "32 شرقا على بعد 45 كلم شمال غرداية[73]. لمّا هُدّم قصر المبرتخ الذي كان يقطنه أولاد نوح والعفافرة كما أشرنا إلى ذلك في الأعلى بسبب نزاعهم مع أولاد باخّة (أهالي القرارة) ، فرّ من بقي من أولاد نوح العفافرة بحثا عن مكان يستقرّون وينعمون فيه بالأمن ، فوقع اختيارهم على منطقة تقع عند تقاطع وادي السّودان بوادي بلوح .

[72]- Marth et Edmond Gouvion : Op.cit , p : 231.
[73]- Ibid , p : 288 .

و لكن هذه المنطقة كانت ملكا لقبيلة أولاد يعقوب الذين يأتون إليها في فصل الشتاء والربيع طلبا للكلأ والمرعى ، وبتدخّل من رئيس القبيلة تمّ السّماح لمهاجري قصر الميرتخ بالاستقرار في المنطقة شريطة دفع تعويضات عن الأراضي التي يتم تشييد المدينة فوقها، فقبلوا ذلك وبدءوا في تأسيس المدينة سنة 1090هـ / 1679 م[74]. ونظرا للمعاملة الحسنة التي تلقّاها الإباضيون من قبل رئيس قبيلة أولاد يعقوب الذي يسمى بن ريان، وعرفانا له بالجميل سميت المدينة باسمه وقيل بريان[75]

و يقدم الشيخ أطفيش تفسيرا آخر في أصل تسمية بريان لا يتعد كثيرا عن التفسير الأول فيقول << وسمي البلد بريان أي بئر كثير الماء ويقال أصله بئر ريان لأن فيه بئرا معروفة إلى الآن بأنها بئر لرجل حفرها اسمه ريان >> [76].

و هناك رأي آخر فيما يخصّ التسمية ولا يمكن أن نغضّ الطرف عنه، إذ من الممكن جدّا أن تكون التسمية بربرية مشتقّة من << آت ابرقان>> بمعنى أصحاب الخيم الصوفية لأنّ <<ابرقان >>معناه الخيمة المصنوعة من الوبر أو من شعر الماعز[77].

3 – الوضع السّياسي بمزاب :

تكوّن هذه المدن السّبع فيما بينها اتحادا فيدراليا ، لكنها كانت تعيش في حالة فوضى وعدم استقرار بسبب الفتن الدّاخلية والخارجية المستمرّة . فقد يكون النّزاع

---

[74]-J. Melia : Op.cit , pp : 29 , 30.
[75]-M. Zeys : Voyage d'Alger au M'zab , in Tour du Monde , Paris 1887 , p :306 .
[76] - محمد أطفيش : المصدر السابق، ص : 30.
[77] - بكير بن سعيد أوعشت : وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، دينيا، تاريخيا، اجتماعيا، المطبعة العربية، غرداية 1991، ص : 70.

داخل المدينة الواحدة أو بين مدينة وأخرى ، وقد تنجرّ كلّ المدن وتشارك في النّزاع مقسّمة نفسها إلى صفين أو حزبين : غربي وشرقي .

و يبدو أنّ هذا الانقسام يعود إلى عامل تاريخي، إذ أنّ وادي مزاب استقبل عددا كبيرا من النّازحين من أنحاء مختلفة من شمال إفريقيا . فبعضهم قدم من الشرق من سدراتة وورقلة وجبل نفوسة ووادي ريغ وجربة...الخ فكوّنوا ما يسمّى بالصفّ الشرقي ، والبعض الآخر قدم من الغرب من جبل عمّور وبلاد بني مطهر ومن فقيق ومن سجلماسة...الخ وكوّنوا ما يسمّى بالصفّ الغربي[78]. ولعلّ هذا الانقسام كان بين الأصليين والنّازحين كما في المناطق الأخرى .

إنّ منشأ هذا الصّراع كان في مدينة غرداية التي كانت تركيبة سكانها تتشكّل في الأساس من قبيلتين رئيسيتين وهما أولاد عمّي عيسى من جهة ، وأولاد باسليمان من جهة أخرى وتنضوي تحت هاتين القبيلتين باقي التشكيلات الاجتماعية . فالقبيلة الأولى لقّبت نفسها بالصفّ الغربي والقبيلة الثانية لقبت نفسها بالصفّ الشرقي ، ولكون مدينة غرداية تعدّ الأمّ بالنسبة للمدن الأخرى فإنّ كلّ قبيلة جرّت إلى صفّها قبائل من المدن الأخرى ، فبذلك أصبح الصفّ الغربي يضمّ أولاد عمّي عيسى والعفافرة والمذابيح من غرداية وأولاد موسى وأولاد يدر من بني يزقن ، وأولاد عبد الله من العطف و من بنورة وكافة سكان مليكة ، وأولاد علاهمّ وآل بالة والعطاطشة من القرارة . و أمّا الصفّ الشرقي فيضمّ أولاد باسليمان والنشاشبة وأولاد يونس من

---

[78]-E. Masqueray : Formation des Cités Chez les Populations Sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djerdjera, Chaouia de l'Aourés, Beni_Mzab) Thèse Lettres, Leroux, Paris 1886, p : 212.

غرداية ، وأولاد عنان من بني يزقن ، وأولاد مُحلفي وأولاد زيت من القرارة ، وكافة سكان بريان[79].

و يمكن القول أنّ هذا الانقسام كان طبيعيا وتقليدا لما كان يجري في المناطق المجاورة سواء في الصّحراء أو في الهضاب العليا . حيث ينقسم السكان إلى صفين : صفّ شرقي وصفّ غربي دون أن يكون هناك سبب واضح ولعلّ فكرة الأصلي والتريل كانت وراء هذا الانقسام[80].

شهدت مدن مزاب باستثناء بني يزقن التي عرفت - نظرا لقوّة مؤسّساتها الاجتماعية - بتحكّمها في الوضع ، في أغلب الفترات فتنا داخلية وحروبا أهلية. يحاول كلّ صفّ الاستنجاد بحلفائه وبالمرتزقة من قبائل الشعانبة والمذابيح والعطاطشة. فبمجرّد بروز فتنة صغيرة في مدينة من المدن المزابيّة السّبع ، فإنّ هذه المدن تنقسم إلى صفين أو حزبين وعندما ينتصر صفّ في مدينة ما عن الصفّ الآخر ، يقوم بنهب وسلب ممتلكات الصفّ المنهزم ، ثمّ يتمّ طردهم من المدينة كخطوة ثانية ، ومن هذا المنطلق قسّمت مدينة العطف كما ورد سابقا إلى قسمين بواسطة سور وبني مسجد ثان في المدينة .كما هدّمت مدينة بنورة الأولى ، وطُرد أولاد نوح وأولاد باخّة من مدينة غرداية . ويمكن أن نورد فيما يلي أمثلة عن بعض الفتن الداخلية :

- وقع نزاع بين المدن : بن يزقن وغرداية ومليكة في شهررمضان من سنة 810 هـ / 1408م.

---

79 - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 71

80 - المرجع نفسه ، ص 71-72

- وقعت في مدينة بنورة حرب أهلية، سنة 814 هـ / 1412 م بين أولاد إسماعيل وأولاد عبد الله قتل فيها نفر من السكان[81].

- في سنة 990 هـ / 1582 م قام الصفّ الشرقي بمباغتة الصفّ الغربي وقتلوا منهم ثمانين رجلا . وأُبعِد الصفّ الغربي من غرداية لمدّة أربع سنوات .كلما استقدم الصفّ الغربي المدابيح لمناصرتهم والانتقام من الصفّ الشرقي[82].

يمكن أن نرجع هذه الفوضى السياسية الدّاخلية إلى أسباب عديدة منها :

- قساوة الطبيعة التي أثرت نفسيا على سلوكات السكّان وجعلتهم يتصارعون فيما بينهم لأتفه الأسباب.

- الانحطاط الثّقافي الذي كان يسود المغرب العربي عامّة ووادي مزاب ،إلى حدّ أنهم لجؤوا في بعض الأحيان إلى استقدام العلماء من مناطق أخرى كعمّي سعيد الجربي.

- غياب سلطة تنفيذية رادعة كالشرطة وعدم وجود جيش نظامي يتدخّل لاستتباب الأمن[83].

- ويمكن إضافة عامل آخر يبدو في نظري أساسيا و مهمّا ، وهو حبّ السّلطة والتملّك لدى شعوب البربر عامّة .

---

[81] -يوسف الحاج سعيد : نفس المرجع السابق ، ص : 73.

[82] - المرجع نفسه ، ص : 73

[83] - المرجع نفسه، ص : 71

بالإضافة إلى هذه النّزاعات والصّراعات الدّاخلية تعرّضت مدن مزاب أحيانا إلى الغزو الخارجي من طرف البدو الرحل من القبائل الهلالية التي كانت تعيش على النّهب والسّطو أو من بعض حكام الإمارات الصغيرة المجاورة . و نقتصر بذكر مثالين فقط

- قامت مجموعة من العرب من جبل عمّور سنة 1061 هـ / 1651 م بهجوم على مدن مزاب وقتل عدد كبير من الطرفين[84].

وفي سنة 1166هـ/ 1783م هاجمت طائفة من بني الأغواط الشعانبة ومجموعة من العرب على مدينة بني يزقن فاقتتلوا وقتل عدد كبير من الطرفين[85].

و على الرّغم من الإجراءات الردعية التي اتخذها مجلس عزّابة وادي مزاب الأعلى في عدّة اتّفاقات إلاّ أنّ الحرب الأهلية بين المدن المزابية استمرّت حتى الغزو الفرنسي للمنطقة سنة 1882 م . فقد اتّفق نفس المجلس سنة 1052 هـ / 1643 م على معاقبة تتمثل في غرامات مالية ضدّ حاملي السّلاح الأبيض وحتى على من يتفوّه بكلام بذيء ضدّ أخيه[86].

قام بنو مزاب بمساعدة الشّريف محمّد بن عبد الله بالعدد والعدّة الحربية والمؤن الغذائية في حربه ضدّ الاستعمار الفرنسي . لذا قرر الجنرال راندون عدم شراء الحبوب من بني مزاب في أسواق التلّ ، إلاّ أنّ هذه الإجراءات لم تمنع بنو مزاب من تقديم يد

84 - يوسف بن حمو بن حمدون: بيان بعض التواريخ التي علمت بها في زماني ، مخ بمكتب الاستقامة ببني يزقن ، ص : 2

85 - المصدر نفسه ، ص : 2

86-L. Millot : Recueil de Délibération des Djmaas du M'zab , Extrait de la R. d'Etudes Islamiques , Librairie Orientale , Paul Gautier , Paris 1930. p : 198

المساعدة لمحمد الشّريف . إذ ساعدوه في الهروب من قبضة فرنسا بعد أن خاض معركة ضدّ الجنرالين بيليس ويوسف ، ونتيجة لهذا منح راندون مهلة شهرين لبني مزاب لإبرام معاهدة الحماية مع فرنسا[87].

بعد احتلال الأغواط سنة 1853 م عرض الوالي العام للجزائر الجنرال روندون على جماعة بني مزاب في رسالة مؤرخة في جانفي 1853 م استعداده لتأمين القوافل المزابيّة ، مقابل خضوعهم ودفعهم ضريبة تقدر بخمسة وأربعين ألف فرنك لفرنسا والتي ارتفعت فيما بعد لتصبح تقريبا خمسون ألف فرنك[88].

انقسم بنو مزاب إلى قسمين : قسم مؤيد لإبرام المعاهدة وقبول شروط فرنسا، وقسم رافض للانصياع و يدعو إلى المقاومة يترأسه الشيخ محمّد أطفيش الذي وقف ضدّ هذه المعاهدة وأعلن براءته من الوفد الذي تفاوض مع أهل الكفر[89].

في الأخير اتّفق بنو مزاب (مجلس وادي مزاب) سنة 1269 هـ / 1853 م بإرسال جماعة متكوّنة من أعيان المدن السّبعة إلى مدينة الأغواط قصد إبرام المعاهدة مع فرنسا ، فتمّ ذلك في أفريل ستة 1853 م[90].

لقد انتظرت فرنسا حتى سنة 1882 م لاحتلال مدن مزاب تحت غطاء إرجاع الأمن والاستقرار للمنطقة ، والقضاء على الفوضى والنّزاع[91]، لكن قرار إلحاق وادي مزاب إلى الأراضي الفرنسية المحتلّة كان في الحقيقة للأسباب الآتية :

---

87 - يوسف الحاج سعيد : المرجع السابق، ص 98

88- Robin (Commandant) : Le M’zab et son Annexion à la France , Ed Typographie Adolphe Jourdan ,Alger 1884, p:43.

89 - يوسف الحاج سعيد : المرجع نفسه ، ص98

90-J.Melia : Op.cit. p.60

- قتل اليهودي يتح الذي عينته فرنسا أغا على مزاب سنة 1860 م[92]

- تقديم المساعدات للثائرين ضدّ فرنسا من الأسلحة والذخيرة الحربية والأغذية ، كما أصبح مزاب ملجأ لهؤلاء الثائرين.

-امتناع مدن بني يزقن والعطف ومليكة وبنورة سنة 1960 م من إرسال نوّاب لهم إلى الجزائر لاستقبال الإمبراطور نابليون الثالث[93].

و بوصول قوّاتها إلى وادي مزاب وطئت فرنسا أقدامها تحت قيادة الجنرال دي لاتور دوفرغ De la tour d'auvergua وأعلن إلحاق مزاب إلى الأراضي المحتلّة في 30 نوفمبر سنة 1882 م[94].

ثالثاً – التّنظيم الاجتماعي في مدن مزاب :

سنّ المزابيّون منذ نشأة المدن الخمس الأولى أنظمة اجتماعية تقوم بتسيير أمور المجتمع وتسهر على حلّ كلّ مشاكله الدّينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في سبيل النّهوض والرقي بهذا المجتمع.

1 – الأنظمة المدنية :

نجد في كلّ مدينة تنظيمااجتماعيا يطلق عليه اسم << العشيرة >> وتتكوّن من مجموعة من الأسر و العائلات وهذه العشيرة انبثقت من العرش ، و تقوم هذه

---

[91]-Charles : Kheincknecht, Op.cit p :9

[92] - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 100

[93]-Louis Watin : << Les Tolbas du M'zab , Organisation Actuel des Tolbas du M'zab >> in Archives de la Direction du personnel des Territoire du Sud 1913 , p : 6

[94]-Charles : Kheincknecht, Ibid , p :9

المؤسّسة بأمور العائلات المنضوية تحتها ،، فتتكفّل باليتامى والأرامل والفقراء والمساكين وهي ملزمة بالاعتناء بكل فرد ينتمي إليها ، كما أنها تشرف على حفلات الأعراس ، ومن مهام هذا المجلس كذلك فضّ النّزاعات بين أفرادها وإصلاح ذات البين . و تكون كلّ العائلات ممثّلة من طرف وجهائها في مجلس العشيرة.

كما نجد في كلّ مدينة مجلسا للعوام أو ما يسمّى بمجلس الأعيان الذي يشرف على الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كلّ مدينة ، كما يقوم بفضّ النّزاعات التي يمكن أن تنشب بين عشيرة وأخرى . و تكون كلّ عشيرة في المدينة ممثّلة بنائب منتخب من طرفها، كما لمجلس العزّابة نواب له في مجلس الأعيان .

2 – الأنظمة الدّينية :

يسيّر شؤون المجتمع المزابي وينظّم حياته الدينية والاجتماعية أنظمة ذات صبغة دينية تتزعّمها تنظيم حلقة العزابة . وهذه التنظيمات كلّها لها علاقة وطيدة بالعمائر التي أنا بصدد دراستها .وانطلاقا من هذه الأهمية جاءت ضرورة الحديث عن هذه التنظيمات ولو بشكل مقْتضب .

أ – نظام العزابة :

يعدّ هذا التنظيم الحارس الأمين لكلّ المباني الدّينية و يتّخذ من المسجد مقرّا رسميا لجلساته ، ومن هنا تبرز أهميته داخل المجتمع المزابي ، لذا أفردت له جزءا مهمّا لتبيين أصوله ومهامه في الوسط المزابي .

يجب علينا قبل كلّ شيء البحث عن المعنى اللّغوي لكلمة العزّابة . فلقد ورد في لسان العرب لابن منظور أنّ أعزب رجل ، عزب ومعزّابة ومعناه لا أهل له ، وعزبت الإبل أي ابتعدت في المرعى ، وأعزبها صاحبها وأعزب إبله أي بيتها في المرعى و لم يرحها[95]. ومن هنا فإنّ كلمة العزّابة إذن مأخوذة من عزب عن أهله أي انفرد وانقطع عنهم .

- و أمّا المعنى الاصطلاحي فيقصد به الاعتزال والغربة والبعد عن الشهوات الدنيوية وكمالياتها خدمة للدّين الإسلامي الحنيف وخدمة للمجتمع ، انطلاقا من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر مبتعدا عن مفاتن الدنيا[96].

ظهر هذا النّظام لغايات تعليمية بحتة هدفه تكوين التلاميذ الذين كانوا يجلسون إلى شيخهم في شكل حلقة ومن هنا أخذ هذا النظام اسم الحلقة . و لكنّ هذه الحلقة تطوّرت حسب الظروف الزمانية والمكانية وحسب العوامل الدّاخلية والخارجية وتجلّى هذا التطور لا سيّما بعد نشأة المدن المزابيّة ، فأصبح نظام العزّابة متكاملاً بأتمّ معنى الكلمة يهتمّ بكل نواحي الحياة الفردية والجماعية من الجانب الديني والاجتماعي والاقتصادي .

أ – 1 نشأة حلقة العزّابة :

يعود تاريخ ظهور هذا النّظام إلى القرن الرّابع الهجري ، فبعد أن شعر الإباضية في قصطيلية وأريغ وجربة وجبل نفوسة وورقلة أن لا حول ولا قوّة لهم لتكوين إمامة

[95] - ابن منظور : لسان العرب، ج :1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1968، ص :79 -81.

[96] - فرحات الجعبري : نظام العزّابة عند الإباضية الوهبية في جربة ، المعهد القومي للآثار والفنون، المطبعة العصرية ، تونس 1875 ، ص :68.

الظهور، فكّر شيوخهم مليّاً في إنشاء نظام، يتماشى وطور الكتمان الذي ارتضوه لمذهبهم ، ويحفظ كيانهم ، ويجمع شملهم ، وذلك دون أن يعرّضهم لهجمات السلاطين الذين كانوا يخشون ثوراتهم[97].

و تذكر المصادر الإباضية أنّ أبا زكرياء* لما تولّى زعامة جزيرة جربة الإباضية، فكّر مليّا في إنشاء نظام يقوم بتسيير المجتمع الإباضي، فأرسل سنة 408 هـ / 1018 م ولديه زكرياء ويونس ضمن جماعة من الطلبة إلى تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمّد بن بكر ، وألحّ عليهم التفكير رفقة أستاذهم في سنّ النظام الذي يتصوّره . لبّى أبو عبد الله رغبة طلبته، وطلب منهم مهلة للتفكير في إرساء دعائم نظام تربوي وديني، وبعد أربعة أشهر من التفكير أسّس أبو عبد الله محمّد بن بكر نظام حلقة العزّابة بمسجد المنيّة سنة 408 هـ / 1018 م ولقّبوا هذا النّظام بالسيرة المسورية البكرية . و انتقل أبو عبد الله إلى بني مغراوة فجهّز غارا خصّصه للتدريس وفي هذا المكان أرسى معالم النّظام الجديد ووضع قوانينه[98].

خصّ أبو عبد الله المنضمين إلى الحلقة بعلامات ليتميزوا عن سواهم ، فمن بين هذه الخصوصيات حلق الشعر وارتداء ثوب ذي لون أبيض وتغطية الرأس بلحاف ، ويشترط في اللّباس أن يكون نقيّا ونظيفا وطاهرا . كما يشترط في عضو العزّابة أن يكون أديباً كيّساً ومستعدّاً للتّضحية في سبيل الله ، وأن يسعى في طلب العلم ، ولا

---

[97] - فرحات الجعبري : نظام العزّابة ... ، ص : 25.

* فيصل بن أبي مسور يجان بن يوجين اليهرسني الملقب بأبي زكرياء من أفذاذ علماء جزيرة جربة بتونس تلقى العلم عن أبيه ثمّ عن الشيخ أبي خزر بن زلتاف تولى التدريس وإليه يرجع الفضل في التخطيط لإنشاء نظام العزّابة وانتقى لتجسيد فكرته أبا عبد الله محمّد بن بكر. توفي ما بين 420-440هـ/ 1029-1048م، ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، مج 4 ، ص 707-708.

[98] - الدّرجيني : المصدر السابق،ج1، ص :: 167-169.

يكثر دخول الأسواق ، وأن يكون حافظاً للقرآن الكريم ، ويشترط عليه أيضا اتّباع سلّم الارتقاء ضمن الهيئات داخل نظام العزّابة[99]. ويمكن لأي شخص أن يلتحق بالحلقة إذا توفرت فيه هذه الشروط .

إنّ نظام الإمامة أثناء فترة الظّهور عند الإباضية يقوم على أساس الشورى واعتمادا على هذا المبدأ أصبحت حلقة العزّابة في فترة الكتمان بمثابة مجلس الشورى ، و لكن السّلطة التنفيذية تختلف من وقت إلى آخر ، كون فترة الكتمان تقتضي الحرص وتجنب كلّ ما من شأنه أن يجلب الهلاك للجماعة الإباضية وللمذهب بالخصوص . في حالة عدم وجود ضرر في تطبيق حدود الشريعة الإسلامية فإنهم يقيمونها ، أمّا في حال العكس فإنهم يكتفون بمبدأ الولاية والبراءة وهذه طبعا سنّة أسلافهم في البصرة إبّان المرحلة السرية التي تحدثنا عنها سابقا.

أ – 2 هيئة العزّابة :

تُعدّ المساجد مقرّاً رسمياً لهذه الهيئة و يعتقد أنّ أول من اتّخذ المسجد مقرًّا الشيخ أبو زيد عبد الرحمان بن المعلى[100]. تعدّ هذه الهيئة أعلى سلطة تنفيذية وتشريعية وقضائية في المدينة المزابيّة ، ولها سلطة روحية على العامّة . تتألّف الهيئة من اثنا عشر عضواً كحدّ أدنى اقتداء بمؤسّس الحلقة ويمكن إضافة أعضاء آخرين إذا ما تطلبت الظّروف مراعاة للمصلحة العامّة ليصل في بعض الأحيان إلى أربعة وعشرين عضوا . و لكلّ عضو ينتمي إلى الحلقة مهامه وواجباته.

[99] - فرحات الجعبري : نظام العزابة ...، ص: 70.

[100] - عوض خليفات: النظم الاجتماعية ...، ص : 31.

كيف يتمّ إدماج عضو جديد في حلقة العزّابة ؟ فبعد أن يقع الاختيار على العضو الذي توفّرت فيه الشروط اللاّزمة، فالحلقة حسب عوض خليفات تعيّن مرافقا له بطريقة سرية للتأكّد من سلامة سلوكه قولاً وعملاً ، وفي حالة التأكّد من ذلك يجتمع المجلس ليقرّر بشكل نهائي التحاقه بالحلقة ، ولا يمكن للعضو الجديد رفض المنصب إلاّ بعذر مقبول . و بعد قبول العضو الجديد يتمّ استدعاءه رسميا إلى المقرّ (المسجد) ، فيقوم الشيخ بتعريفه بالمهمّات والواجبات التي ستسند إليه ، ثمّ يطلب من سلفه في الرتبة ملازمته لمدّة ثلاثة أيام متتالية حتى يتدرّب على وسائل خدمة العزّابة ، ويعلمه الآداب والسلوكات التي سيتوجب عليه ممارستها دون كلل أو ملل[101].

تتوزّع الوظائف داخل الحلقة كما يأتي :

الشيخ : يعدّ رئيس الحلقة و يشترط فيه التّقوى والورع والصّلاح والذّكاء والفطنة ، ويجب أن يكون متضلّعاً في العلوم الدّينية . يترأس كلّ اجتماعات الحلقة التي لا يمكن أن تجتمع بدونه ، ويعدّ المرجع الأول في الفقه الإباضي ، فإليه ترجع الفتوى في المدينة ، ويبقى في منصبه مدى الحياة. يقوم الشيخ باختيار أربعة أعوان من أعضاء العزّابة لمساعدته في بعض المهمات[102].

الأعوان :عددهم أربعة يختارهم الشيخ ، ويكونون في الدّرجة الثانية في العلم والورع والتّقوى ويشكّل هؤلاء ما يسمّى باللّجنة الاستشارية داخل الحلقة ، إذ يقوم الشيخ باستشارتهم في كلّ الأمور، و ينوب أحد هؤلاء عن الشيخ في حالة مرضه أو

101 عوض خليفات: النظم الاجتماعية ، ص: 39-40.
102 - المرجع نفسه ، ص35.

تعذره القيام بواجباته ، و يعدّ الأعوان مع الشيخ بمثابة الإمام لذلك يرجع إليهم الحلّ والعقد في كلّ قضية ، ومن بينهم يتمّ اختيار إمام الصلاة والمؤذن ووكلاء الأوقاف . و يحتفظ هؤلاء الأعوان بمنصبهم مدى الحياة.

الإمام : يؤمّ النّاس في الصّلاة ، و يشترط فيه أن يكون حافظا للقرآن الكريم ومجيدا لتلاوته وعالما بفرائض الصّلاة وسننها وشروطه ا. و من بين مهامه كذلك تحرير عقود الزواج.

المؤذّن : وظيفته القيام بالآذان وينوب عن الإمام في بعض الأحيان في تحرير عقود الزّواج . و يشترط في المؤذّن أن يكون أمينا ورعا وعارفا بأوقات الصّلاة بدقّة ويتحدّى كلّ الظّروف الطبيعية في سبيل إنجاز مهامه ويكون المؤذن أحياناً من ضمن الأعوان الأربعة.

وكلاء الأوقاف : عددهم اثنان يجب أن تتوفّر فيهما شروطا إضافية نظرا لخطورة وظيفتهما ومن بين الشروط أن يكونا من الطبقة ذات الدخل المتوسّط ، وقليلي الأولاد ، لكي لاتلهيهما ثروتهما وأولادهما عن أداء واجباتهما . ووظيفتهما الإشراف على بيت مال العزّابة والبحث عن سبل تنميته وإدارته ، وكذا الإشراف على الأوقاف المتعلّقة بالحلقة والمسجد والمدرسة والمقابر ، ومن مهامهما أيضا المحافظة على المسجد ونظافته ويعدّان المسؤولان في كلّ الأمور المادّية المتعلقة بالمسجد . و يمكن لهؤلاء الوكلاء الاستعانة ببعض الأشخاص من طبقة العوام في أداء بعض أعمالهما[103]

[103] - عوض خليفات: النّظم الاجتماعية ...، ص 36-37.

المعلّمون : عددهم ثلاثة ويزداد أو ينقص حسب الاحتياج . يشرفون إلى جانب الشيخ على كلّ شؤون المدارس التّابعة للعزّابة.

الغسّالون : عددهم خمسة ، تتمثّل مهامهم في غسل الموتى الإباضيين ، وتجهيزهم والصّلاة عليهم .كما يشرفون على تنفيذ وصايا الموتى وتقسيم التركات طبقا لمبادئ الشّريعة الإسلامية ، ولا يتولّون الإشراف على الإباضيين الذين هم في براءة المسلمين[104].

تؤدّي حلقة العزّابة مهاما عديدة إزاء المجتمع الإباضي منها :

المهام الدّينية : تتمثل في الإشراف على الجوامع والمساجد والمصلّيات الجنائزية والمدارس الحرّة وكل ماله صلة من قريب أو من بعيد بالدين ، كما يسهرون على تطبيق الشريعة الإسلامية طبقا لتعاليم المذهب الإباضي ، ويقومون كذلك بتعيين القضاة في المدينة لإقامة العدل والمساواة بين كلّ الناس ، ومن المهام كذلك إرسال الوعّاظ والمرشدين إلى المناطق التي يتواجد فيها الإباضيون دون وجود حلقة العزّابة فيها ، ويقومون أيضا بمهمّة تأليف ونسخ الكتب الدينية.

المهام الاجتماعية : تأتي في الدّرجة الثانية من حيث الأهمية ، إذ يتدخّل المجلس في مختلف أوجه الحياة اليومية للمجتمع الإباضي ، بسبب ارتباطها الوثيق بالدّين ، إذ لا يصلح الدّين إلاّ بصلاح الأمّة ، ومن هذا المنطلق فإنّ المجلس يشرف على كلّ المناسبات التي تقام في المدينة كالأعياد الدّينية وحفلات الأعراس والأفراح ، وفي هذا

[104] - بكير بن سعيد أعوشت:: وادي ميزاب في ظلّ الحضارة الإسلامية: دينيا تاريخيا اجتماعيا ، المطبعة العربية ، غرداية، 1991، ص105.

الصّدد فإنّ حلقة العزّابة تحدّد المهور وتحرر عقود الزّواج ، كما أنها تشرف على المآتم.

المهام الاقتصادية : يشرف المجلس على كلّ الأوقاف والحبوس في المدينة ويعمل على تنميتها . ومن المهام الاقتصادية الأخرى الإشراف على السّوق العامّة لمراقبة عملية البيع و الشراء وضمان سلامتها من الوجهة الشرعية ، لذلك فإنّ عملية البيع والشراء لا تبدأ إلاّ بحضور عضو العزّابة المسؤول بالإشراف على عملية البيع والشراء في السوق.

المهام السياسية : مهامها محدودة في هذا الجانب ولا يتعدّى عمل حلقة العزّابة في هذا المجال ربط العلاقات مع المدن الإباضية الأخرى[105].

ب – المجلس الأعلى للعزّابة :

بما أنّ المدن المزابيّة السّبعة تشكّل اتّحادا فيدراليا فيما بينها ، فكان لابدّ لها من إنشاء مجلس أعلى يسهر على حماية هذا الاتحاد من الزوال وحماية الجماعات الإباضية المتواجدة في المنطقة . و يقوم هذا المجلس بفضّ النّزاعات والخلافات التي تتكرّر باستمرار بين هذه المدن، كما ينظّم العلاقات بين منطقة مزاب والمناطق الأخرى بالجزائر وخارجها واعتبارا لهذا كان يشرف على شؤون الحجاج المزابيّن . و لهذا المجلس حقّ عقد اتّفاقيات أو معاهدات مع الأطراف الخارجية.

---

105 - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 31-32

و يضمّ المجلس الأعلى ثلاثة أعضاء مُن كلّ مدينة (الشيخ والإمام والثالث يُنتخب من بين أعضاء العزّابة الآخرين) ، و يكثر أو يقلّ عدد أعضاء المجلس تبعا لعدد المدن المنضوية تحته .

تقوم لجنة متكوّنة من سبعة فقهاء (يتمّ اختيارهم من بين أعضاء المجلس أو من العلماء المشهورين في مزاب) بمساعدة المجلس للنّظر في بعض القضايا الخلافية[106].

لا يُعرف تاريخ تأسيس هذا المجلس ولكن الشيء المؤكّد أنّه كان موجودا في بداية القرن التّاسع الهجري والدّليل على ذلك أنّ أقدم اتفاقية وصلت إلينا تعود إلى أوّل رجب سنة 807 هـ / 1405 م[107].

جـ - هيئة إروان (قدماء التلاميذ) :

لا ينضمّ إلى هذه الهيئة إلاّ من كان ضمن هيئة إمصوردان (الشباب) ، و يشترط أن يكون العضو في هذه الهيئة حافظا للقرآن الكريم عن ظهر قلب ، ويكون مستعدّا لمواصلة دراسته وخاصّة في الفقه وأصول الدّين وقد خصص لهم مقرّ في المسجد لهذا الغرض و يطلق عليها اسم <<دار إروان>> ، و تضمّ مكتبة معتبرة وينقسم أعضاء هذه الهيئة إلى ثلاثة أقسام :[108]

106 - عوض خليفات: النظم الاجتماعية،... ص 53-54

107-L.Millot : Op.cit. p.173- 174

108 - يوسف الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 32

د – هيئة إمصوردان (الشباب) :

للانضمام إلى هذه الهيئة يشترط حفظ القرآن الكريم ، و تهتمّ هذه الهيئة بالحراسة في المدينة والواحة لضمان الأمن للسكان وتخضع الهيئة في هذا الصّدد إلى نظام خاص إذ تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- إمصردان من الدّرجة الأولى : تتكوّن من الرجال المسنين الذين يقومون بتسيير وتنظيم الشباب في الدّرجات الأخرى ، وتوزيع المهام عليهم كالحراسة في الواحة والمدينة وكذا تنظيف المساجد وما جاورها والمقابر

- إمصوردان من الدّرجة الثانية : يلقّبون كذلك بالوسطاء، ويتكون هذا القسم من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و 50 سنة ،إذ توكّل إلى هؤلاء مهمّة تنظيف الأماكن الدّينية وملحقاتها ، كما يقومون بنقل الأحجار التي تستعمل في عملية الدفن ، ويُكلّفون من طرف الوكيل بتوزيع الأوقاف (اللحم والخبز والتمر والكسكس..الخ) في المساجد أو في المقابر ، ويشاركون طبعا في الحراسة الليلية في الواحة والمدينة .

- إمصوردان من الدّرجة الثالثة : يتكوّن من الشباب الذين لا توكّل إليهم أيّة مهمّة ، بل يُسمح لهم بالمشاركة فقط في قراءة القرآن الكريم في المساجد والمقابر .

وإضافة إلى مهمّة الحراسة تقوم الهيئة بأعمال تدخل في الصّالح العام ، كما أنّها في حالة وقوع خلاف بين أعضاء حلقة العزّابة تتدخّل لفضّ النزاع والمصالحة فيما بينهم . أمّا إذا استعصى عليهم الأمر و لم يصلوا إلى نتيجة ترضي جميع الأطراف ، فإنّ

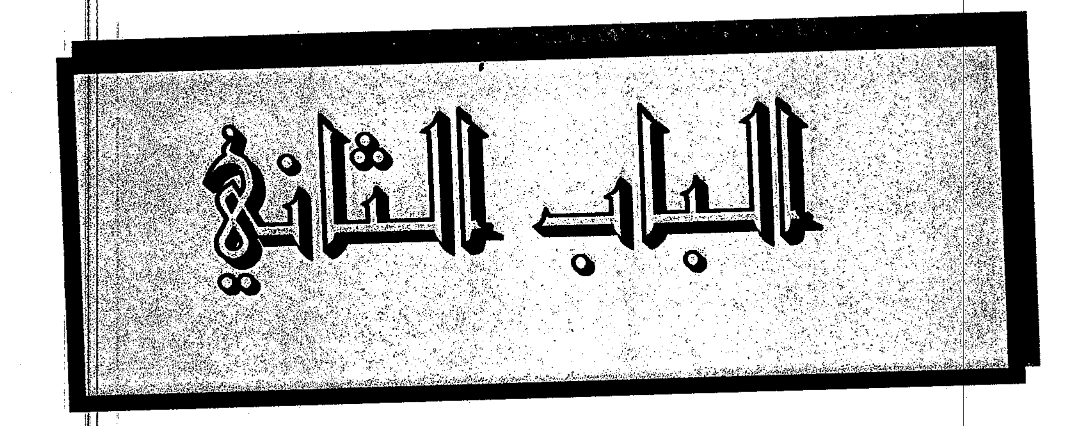
هيئة إمصوردان تقوم بحلّ هيئة العزّابة الموجودة واستبدالها بهيئة جديدة ، لكن إذا صوّتت الأغلبية على هذا الحلّ[109] .

هـــ - هيئة تمسردين (الغسالات) :

إلى جانب حلقة العزّابة الخاصّة بالرجال هناك هيئة العزّابة الخاصّة بالنّساء في كلّ المدن المزابيّة و يطلق عليها اسم << تمسردين >> ، و تضمّ الهيئة نساء ورعات وعالمات ذوات الحنكة والدّراية في الشؤون العائليّة ، و يتمّ تعيينهن من طرف حلقة العزّابة بعد اختيارهن من كلّ عشائر المدينة (واحدة من كلّ عشيرة) . و تقوم هذه الهيئة بتربية النّساء تربية إسلامية وتعمل على محاربة البدع والخرافات التي تتفشّى داخل المجتمع النسوي ، كما تشرف على حفلات الأعراس ومراقبة المهور اعتمادا على قرارات حلقة العزّابة . و أهمّ عمل تقوم به هذه الهيئة غسل الأموات من النساء اللاتي لسن في براءة المسلمين ، ومن هنا جاءت تسميتهن بالغسّالات[110] .

[109]-C.M. Vizouroux : << la Garde de Nuit à Ghardaia >> In Bull de Liaison Saharienne , N° 9 , 05 / 1952 ; pp. 11-12

[110] - بكير بن سعيد أعوشت: وادي ميزاب في ظلّ الحضارة الإسلامية: ...، ص 109-111



نماذج من العمائر الدينية الإباضية في مزاب

- دراسة تاريخية وأثرية -

الفصل الأوّل : المساجد

الفصل الثّاني : المدارس والمصليات الجنائزية والمقامات

الفصل الأول

المساجد

1 – المسجد القديم ببنورة

2 – المسجد العتيق بغرداية

3 – مسجد بني يزقن

4 – المسجد العتيق بالقرارة

5 – مئذنة مسجد بريان

المساجد

يُقصد بالمسجد شرعا كل موضع يُسجد فيه وقد جُعلت الأرض كلّها مسجدا باستثناء الأماكن المتيقّن من نجاستها ، وهذه خاصية انفردت بها الأمّة المحمدية دون سواها من الأمم الأخرى التي عيّن لها أماكن خاصّة للصّلاة كالبِيَّع اليهودية والكنائس المسيحية .

أمّا المسجد اصطلاحا فيقصد به المكان المخصّص للصّلوات الخمس ، ومنه جاءت تسمية المسجد الجامع الذي اختير لإقامة الصّلوات الخمس بالإضافة إلى صلاة الجمعة ، واختصّ دون سواه بوجود المنبر ، ويعرف باسم الجامع . وباعتبار أنّ المسجد هو المنشأة الإسلامية الأولى التي ظهرت إلى الوجود ، فيمكن عدّها مهد الفن الإسلامي ، وقد حملت المساجد الأولى بذور هذا الفن الذي انتشر في ما بعد في جزء كبير من العالم .

1 – المسجد القديم ببنورة :

يعدّ هذا المسجد من أقدم المساجد في منطقة وادي مزاب ، إذ تزامن بناؤه مع تأسيس قصر بنورة القديم أي خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، ويبدو أنّها البناية الوحيدة التي نجت من التخريب والدّمار الذي تعرّض له القصر في القرن 17 م ، ويحتلّ المسجد موقعا في مركز القصر القديم (اللوحة رقم : 02) ، فوق قمّة الهضبة التي تتدرّج من حولها مباني مدينة بنورة . وقد تمّ إعادة بناء وترميم بعض أجزاء

المسجد ، ولا سيّما المئذنة في سنة 1983 من قبل المهندس المعماري الإسباني Gabord وتحت إشراف ورشة حماية وترميم وادي مزاب [1].

أ – لمحة تاريخية :

يمتاز المسجد بأبعاده القصيرة مقارنة بالمساجد الأخرى التي أتناولها بالدّراسة ، ويبدو أنّ ذلك راجع إلى أنّ القصر كان يقطنه عدد قليل من السكّان قبل اندثاره . ولم يبق من المسجد سوى قاعة الصّلاة والمئذنة وبيت الوضوء واندثر الصحن نظرا لتعرّض القصر للتخريب كما سبق وأن ذكرنا عندما تحدثنا عن تاريخ بنورة[2] .

إذا أخذت بعين الاعتبار ذلك النصّ الكتابي الذي تحمله اللّوحة الحجرية (اللوحة رقم : 09) ، فيمكن القول أنّ المعلم شيّد في سنة 750 هـ / 1349 م . ولكن هل هذا التاريخ يعكس فعلا تاريخ تأسيس المسجد ؟ لا شكّ أنّ لهذا التاريخ قيمة في المسار التاريخي لهذا المبنى ، لكنه لا يعبّر في نظري عن تاريخ تأسيس المسجد ، بل يشير إلى تاريخ تنفيذ الكتابة ، ففي اعتقادي أنّ المسجد قديم قدم مدينة بنورة وشيّد مع تأسيسها أي في سنة 430 – 458 هـ / 1046 – 1065 م* .

أ – بيت الصلاة :

يظهر بيت الصّلاة بمخطّط غير منتظم الشكل ، وتبلغ مساحته الإجمالية حوالي 100 م^2 ، ويتمّ الدّخول إلى بيت الصّلاة عن طريق بابين ؛ فالباب الأوّل يقع في الجدار الشّمالي الشرقي ، وهو مصنوع من جذوع النخيل ويبلغ عرضه 0,88 م ، وارتفاعه 1,66 م . وأمّا الباب الثّاني فيقع في الجدار الشّمالي الغربي ويبلغ عرضه 0,70 م ، وارتفاعه 1,75 م .

---

[1] - وثيقة حول ترميم مسجد بنورة القديم من ديوان حماية وترقية سهل وادي مزاب .

[2] -- تناولنا قضية تخريب القصر القديم لمدينة ينورة في الفصل الثاني من الباب الأول . ينظر : الباب الأول ، ص : .

*لقد تطرّقنا إلى تأسيس مدينة بنورة سابقا وللعودة إلى هذه القضية ينظر الفصل الأول من الباب الأول ص:.59– 60.

يتألّف بيت الصّلاة من ثلاثة أساكيب موازية لجدار القبلة وثماني بلاطات عمودية على نفس الجدار (الشكل رقم : 2) . إنّ البوائك السائرة في اتجاه مواز وعمودي نحو جدار القبلة تستند على مجموعة من الدّعامات ذات الأشكال المختلفة مربعة ومستطيلة وغير منتظمة الشكل ، كما ترتكز هذه العقود في الجدار الجنوبي الشرقي والشّمالي الغربي على مجوعة من الدّعامات الجدارية . وتعمل كلّ هذه الدّعامات على حمل الأقبيّة بواسطة عقود حدوية ونصف دائرية ، ويبدو أنّ هذه الأخيرة حديثة العهد .

يتوسّط جدار القبلة محراب يبدو على شكل تجويف ذي مخطّط مضلّع الشكل (الشكل رقم : 2) عرضها 0,88 م ، وعمقها 0,98 م ، أمّا ارتفاعها فيبلغ 1,79 م وتنتهي التجويفة في الأعلى بجنية ذات عقد حدوي ، ولا يكتنف المحراب عمودان كما جرت العادة في المساجد الإسلامية (اللوحة رقم : 10) ، ويشكّل المحراب بروزا نحو الخارج .

ويمتاز المحراب بالبساطة في البناء والزخرفة (اللوحة رقم : 10) ولا وجود حتى للمنبر الذي يعدّ من العناصر الأساسية في المسجد ، ولا للفتحة التي يُدخل إليها .

تقوم فتحات صغيرة الحجم وقليلة العدد بإدخال الضّوء والهواء إلى داخل المبنى و يتراوح عرض هذه الفتحات ما بين 0,15 م و0,20 م ، وأمّا ارتفاعها فلا يزيد عن 0,40 م . وإلى جانب هذه الفتحات هناك كوّات صغيرة الحجم في الجدران تستخدم لوضع الأحذية ونوى التمر الذي يقدّم في أوقات معينة لدارسي القرآن الكريم والوافدين إلى المسجد .

تقوم ثلاثة دعامات مساندة بتدعيم الجدار الجنوبي الغربي من الخارج .

إنّ ما يلفت الانتباه هنا تلك اللّوحة الحجرية (اللوحة رقم : 9) التي توجد إلى جانب المحراب من الجهة اليسرى ، وتحمل كتابة بخطّ رديء محفورة حفرا غائرا . يبلغ طول اللوحة 0,75 م ، وعرضها 0,36 م . وجاء نصّها في ثلاثة سطور كالآتي:

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الكلام (يأكل)(الحس

(نات) كما تأكل النار الحطب الرقيق (صدق رسول الله

كا(تب) هذا البلد محمد الطالب خير الله هذا وهو أبو زكرية >>.

سنة خمسين بعد سبع مائة .

يوجد إلى جانب المدخل الشّمالي الغربي سلّم صاعد يتكوّن من 13 درجة يؤدّي إلى سطح بيت الصّلاة .

ب – المئذنة :

تقع المئذنة في الجانب الأيمن من المدخل الرئيسي لبيت الصّلاة (اللوحة رقم : 8) . وقد تعرّضت للسّقوط في بداية القرن العشرين ، وبالضّبط بين 1902-1903 [(3)]، ولم يتم إعادة بنائها إلاّ في سنة 1983 من قِبَل البنّاء الحاج إبراهيم دودو* ، وبمساهمة المهندس المعماري الإسباني Gabord وتحت إشراف ورشة حماية وترميم وترقية سهل وادي مزاب .

تبدو المئذنة من الخارج على شكل هرم ناقص (الشكل رقم : 3 واللوحة رقم : 8) ، إذ تميل واجهاها الأربعة نحو الدّاخل في شكل انسيابي وتضيق كلّما ارتفعت نحو الأعلى مشكّلة بذلك هرما ناقصا . ويبلغ الارتفاع الكلّي للمئذنة —

* ليست لدينا أية معلومات عن هذا الخطاط ، ولا يعرف عن نسبه شيء

(3) - Yves Bonet : << Notes sur l'Architecture Religieuse du M'zab >> in Cahier des Arts et Techniques , n° : 6 Toulouse 1960 , p :86 – 92 .

* من عائلة تشتغل في البناء ومارست هذه المهنة أبا عن جدّ

بعد الترميم وإعادة البناء – من الأرض إلى قمّة الأعمدة الصغيرة 12,50 م . وتشكّل القاعدة هنا ممرّا يؤدّي إلى بيت الوضوء (الشكل رقم : 2) .

يوجد مدخل المئذنة في سطح المسجد يؤدّي إلى الطّابق الأوّل مباشرة ، ويتمّ الصّعود إلى هذا المدخل عن طريق سلّم خارجي صاعد يتكوّن من عشر درجات ، ويفضي هذا المدخل إلى داخل المئذنة بواسطة باب خشبي مصنوع من جذوع النّخيل .

تتألّف المئذنة من الداخل من قاعدة وثلاثة طوابق (الشكل رقم : 4) وتشكّل القاعدة ذات المخطّط القريب من المربع (4,60 × 4 م^2) ممرّا يتّجه نحو بيت الوضوء . ويبلغ سمك جدران القاعدة 0,70 م . وأمّا الطّابق الأوّل فيشتمل على نواة مركزية مربعة الشّكل (الشكل رقم : 3) يبلغ طول ضلعها 0,80 م ، يلتفّ حولها سلّم صاعد يؤدّي إلى الطّوابق العليا .

وتنتهي المئذنة في الأعلى بجوسق مغطّى بقبّة صغيرة يبلغ قطرها 1,35 م . والتي ترتفع عن أرضية الجوسق بحوالي 2,30 م . يتمثّل دور هذه القبّة في وقاية المؤذّن من الحرارة الشديدة ومن الأمطار ، زيادة إلى وظيفتها في عملية تردّد الأصوات . تتوسّط جدران الجوسق الأربعة فتحة معقودة بعقد نصف دائري ، يبلغ عرض كل فتحة 0,75 م ، وارتفاعها 0,80 م . وتعمل هذه الفتحات على إخراج صوت المؤذّن وإيصاله إلى كلّ جهات المدينة .

و تنطلق من الأركان الخارجية الأربعة للجوسق أعمدة صغيرة الحجم وقصيرة وهي عبارة عن نتوءات منتفخة في الأسفل وضيقة في الأعلى على شكل شرّافات ، ويبلغ ارتفاعها 1 م . وقد فُتحت في جدران المئذنة بعض الفتحات الصغيرة الحجم

التي تعمل على إدخال الضّوء والهواء ، ويبلغ عرض هذه الفتحات حوالي 0,15 م ، وارتفاعها حوالي 0,35 م .

جـ - بيت الوضوء :

يقع بيت الوضوء في الرّكن الشّمالي لبيت الصّلاة (الشكل رقم : 2) ، ويحتلّ مساحة مربعة يبلغ طول ضلعها 9 م . ويتمّ الدّخول إليه عن طريق مدخل يقع في الجانب الأيمن من المدخل الرئيسي لبيت الصّلاة وهو نفس مدخل قاعدة المئذنة التي سبق ذكرها في الأعلى ، والمدخل عبارة عن باب خشبي مصنوع من جذوع النّخيل يبلغ عرضه 0,70 م ، وارتفاعه 1,50 م ، يؤدّي إلى ممرّ ملتو يشكّل قاعدة المئذنة .

ويشتمل بيت الوضوء على ستّ حجرات صغيرة مستطيلة الشّكل يبلغ عرضها 1,20 م ، وطولها 1,50 م . وتستعمل خصيصا للطّهارة الكبرى والاستنجاء . وتوجد تسع فتحات صغيرة على جدران القاعة ، فتحتان في الجدار الجنوبي الغربي والجنوبي الشرقي ، وخمس فتحات في الجدار الشّمالي الشرقي . وتعمل كل هذه الفتحات على إدخال الضوء والهواء نحو الدّاخل .

2- المسجد العتيق بغرداية :

يحتلّ المسجد موقعا استراتيجيا فوق قمّة الهضبة التي تتدرّج فوقها مباني مدينة غرداية ، وتعدّ من بين أهمّ المساجد في المنطقة لما تحمله من قيمة تاريخية وأثرية .

أ - لمحة تاريخية :

شيّد المسجد في منتصف القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي ، وإذا أخذنا بالرواية الشعبية التي ترجعه إلى تاريخ تأسيس مدينة

غرداية [4] ، وباعتباره أقدم مسجد في المدينة ، فيمكن القول إنّه شيّد سنة 447 هـ / 1053 م بعد استقرار بابه اوجمة وباعيسى اوعلوان مباشرة بالمنطقة ، وترجع الرواية الشعبية بناء المسجد الأوّل إلى الشيخ باعيسى اوعلوان .

وقد مرّ المسجد على عدّة مراحل توسّعية كان آخرها سنة 1998 م ، فأوّل توسّع شهده المسجد حسب الذاكرة الشعبية كان في عهد الشيخ عمّي سعيد الجربي فيما بين 889 – 898 * هـ/ 1484 - 1492 م . لكن التوسّعات المتتالية الأخرى تبقى مجهولة التّاريخ لدينا ، لعدم تمكّننا من الاتّصال بالوثائق التي من خلالها يمكن تحديد تاريخ كلّ توسّع بشكل دقيق ، وأنا على يقين بأنّ هناك وثائق ، إذ من غير المعقول إجراء أيّ توسّع دون شراء فضاء مجاور للمسجد ، ليتمّ التوسّع نحوه ، وفي أغلب الأحيان فإنّ هذا الفضاء يكون عبارة عن مسكن مجاور للمسجد وفي حالات قليلة يكون الشّارع المحاذي ، ثمّ يتمّ بعد ذلك ضمّ تلك الفضاءات إلى الكتلة المعمارية . ولا بدّ أنّ عملية الشّراء تتمّ بوثيقة تتمثّل في عقد شراء المسكن . وفي ظلّ هذه الضبابية ، وصعوبة الحصول على الوثائق اعتمدت في محاولة تحديد تواريخ الإضافات على تقنية البناء وطراز العناصر المعمارية .

ب – الصحن :

يتمّ الدّخول إلى صحن المسجد العتيق بغرداية عن طريق مدخلين رئيسيين (الشكل رقم : 5) ؛ الأوّل يقع في الجدار الشّمالي الشرقي ، يبلغ عرضه 1,65 م ، وارتفاعه 2,55 م . ويشتمل هذا المدخل على باب خشبي ذو دفتين ، ويتمّ الصّعود

---

[4] - لقد سبق الحديث عن تأسيس مدينة غرداية في الفصل الثاني من الباب الأول ، للاستزادة أكثر يرجى العودة إلى ص : 60 – 61 .

* لقد حصرنا التوسّع الأول في الفترة الممتدّة فيما بين 889 – 898 هـ اعتمادا على أنّ تاريخ قدوم الشيخ عمي سعيد الجربي إلى منطقة وادي مزاب كان سنة 889 هـ ووفاته كانت في سنة 898 هـ . فلا بدّ إذن أنّ التوسّع الذي أجراه في المسجد كان خلال فترة استقراره بالمنطقة .حول تاريخ الشيخ عمي سعيد ينظر الفصل الثاني من هذا الباب ص : 150 – 152 .

إلى الصحن بواسطة سلّم يتكوّن من خمس درجات ، نظرا لوجوده في مستوى أعلى من الشّارع . وأمّا المدخل الثّاني فيقع في الجدار الشّمالي الغربي على محور محراب الصحن . ويشتمل هذا المدخل على باب خشبي مصنوع من جذوع النخيل يبلغ عرضه 1,35 م ، وارتفاعه 1,90 م . ويؤدّي الباب إلى ممرّ طوله 8 م وعرضه 1,80 م ، يتفرّع الممرّ في النّهاية إلى ممرّين ملتويين ينتهيان عند مؤخّرة الصحن . ويضمّ الممرّ في جداره الأيسر مدخل المئذنة الكبيرة ، ويشتمل في جداره الأيمن على مدخلي المحضرتين (المدرستين) .

الصحن ذو مخطّط شبه منحرف ، تحيط به من الأروقة من كلّ الجهات باستثناء جهة القبلة (الشكل رقم : 5) ، ويختلف عدد الأروقة من جهة إلى أخرى . ففي المجنّبتين ثلاثة أروقة من اليمين ورواقان من الجهة اليسرى ، أمّا المؤخّرة فتضمّ رواقا واحدا .

تقوم أعمدة ذات قنوات و دعامات بحمل سقوف هذه الأروقة . ولكن اعتمادا على صورة قديمة لمنظر الصحن وردت في كتاب الحضارة العمرانية في مزاب ، وتعود إلى بداية القرن العشرين الميلادي [5] (اللوحة رقم :11) ، يتبين أنّ الصحن كان محاطا برواق واحد من كلّ الجهات باستثناء جهة القبلة ، كما يبدو من خلالها أنّ الأعمدة ذات القنوات ليست أصلية ، بل أُضيفت أثناء إجراء توسّع بالمسجد ، وممّا يزيد في تأكيد ما اتّجهنا إليه هنا أنّ الأعمدة لم تُستعمل بتاتا كركائز في العمارة الدّينية الإباضية بالمنطقة ، واعتمادا كذلك على الصّورة المأخوذة في العشرينيات يمكن أن أحدّد بوضوح أثار توسّع تمّ في نهاية النّصف الأوّل من القرن العشرين ،

[5] - Marcel Mercier : Op.cit , p : 80 .

يتمثّل في الأروقة المضافة إلى المجنّبتين . إذن فالأعمدة تدلّنا بشكل واضح على الحدود القديمة للصحن وأروقته .

يتوسّط جدار القبلة في الجزء المكشوف من الصحن محرابان (الشكل رقم :5) ، ينتهيان في أعلاهما بحنية معقودة بعقد نصف دائري ولا يكتنفهما عمودان. فالمحراب الأيمن يبلغ عرضه 0,65 م ، وعمقه 0,80 م . وأمّا المحراب الأيسر فيبلغ عرضه 0,85 م ، وعمقه 0,65 م .

ما يستوقفني هنا وجود محرابين متجاورين ، فلماذا فُتح محرابان ولم يُكتف بمحراب واحد ؟ ربّما كان الأمر مجرّد إضافة فاستحدث محراب جديد ، مع المحافظة على المحراب القديم ، لما له من قيمة دينية وتاريخية ، ولكن أعتقد أنّ هناك أسباب أخرى مجهولة ، خاصّة أنّ المسافة بين المحرابين قصيرة جدّا وتقدر بـــ 2,10 م ، وهذا يستدعي منّي البحث وتقصي الحقيقة داخل أعماق المجتمع المزابي وسأتعرّض إلى هذه القضية لاحقا .

وقبل الانصراف من الصحن لا بدّ من الإشارة إلى اللّوحة الحجرية التي ثبتّت على الجدار القبلي بجانب المدخل الأيمن المؤدّي إلى الصّلاة ، وتحمل اللّوحة نصّاً كتابياً منفذاً بطريقة الحفر الغائر، واستعمل فيه اللّون البنيّ الممزوج أحيانا باللّون الأخضر (اللوحة رقم: 55) ، وقد كُتب النصّ الذي يحمل آية قرآنية وحديثاً نبويّاً شريفاً بخطّ معربيّ، وقد جاء النصّ مرتباً في ستّة سطور كالآتي:

بسم الله محمّد رسول الله

يأيّها الذين امنوا اتقوا الله ولتنظر

نفس ما قدّمت لغد واتقوا الله إنّ الله ...(تواب رحيم)

لا كلام في المسجد

الكلام في المسجد ياكل الحسنات

كما تاكل النار الحطب الرقيق اليابس

جـــ – بيت الصلاة :

أخذ بيت الصّلاة موقعه في المسجد متقدما الصحن من جهته الجنوبية الشرقية وراء المحرابين مباشرة (الشكل رقم : 5) ، ويتمّ الدّخول إليه عن طريق ثلاثة أبواب خشبية ذات دفتين يبلغ عرض الأبواب 0,70 م ارتفاعها 1,80 م . ونظرا لوجود بيت الصّلاة في مستوى منخفض يقدر بـــ1,30 م عن أرضية الصحن ، فإنه يتمّ النّزول إليها بواسطة سلّم نازل يشتمل على أربع درجات .

لقد شهد بيت الصّلاة عدّة إضافات في فترات تاريخية مختلفة ، وبالرّغم من عدم وجود وثائق تاريخية تعطي لنا فكرة عن هذه التوسّعات ، إلاّ أنّ ميزة المحافظة على العناصر المعمارية القديمة لا سيّما المحراب والتي تمتاز بها بعض الجماعات الإباضية بمنطقة وادي مزاب[6] ، سمحت لي بمحاولة تحديد الإضافات المختلفة اعتمادا على تقنية ومواد البناء . ومن هنا يمكن القول أن النّواة الأولى لبيت الصّلاة كانت تتمثّل في الجزء الموجود وراء الصحن مباشرة ، وكانت تتكوّن من ثلاثة أساكيب موازية على جدار القبلة واثني عشرة بلاطة عمودية على جدار القبلة . وإنّ ما يثير الانتباه في النّواة

(6) - لعل المحافظة على المحراب وعدم التعرض له بالهدم أثناء الإضافات يعود أسا إلى مسألة فقهية نابعة من الفكر الإباضي وهذا ما يفهم من الأبيات الشعرية للبطاشي الآتية :

ومن يكن أســـــّس مسجدا وقد ... أراد بـــعد ذلك أن يـــزد
أو أنه قبـــــلا صـغيرا كــــانا ... وشاد أن يوسـع الأركـــانا
فذاك جـــائز ولـــو أن يــــهدما ... جميعه ولو لمــحراب سما
وذا هو الصحيح والبعض يرى ... يهدم من جوانبه زمن ورا
لا من أمــــامــــه وقـــيل إلاّ ... محرابه لا يهــدمن أصــلا

ينظر البطاشي : سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب ، ج : 4 ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، د . ت . ، ص : 326 .

الأولى وجود محرابين متجاورين (الشكل رقم: 5) على غرار ما شهدناه سابقا في الصحن ، وتفصل بينهما مسافة تقدر بـــ 2,50 م . إن قرب المسافة بينهما ، وعدم توسّط أيّ منهما هذا الجزء من بيت الصلاة يجعلني أستبعد عامل التوسّع ، وبالخصوص بعدما لاحظت إجراء عملية تخفيض في حنية المحراب الأيسر في زمن متقدّم ، ويدلّ على ذلك اختلاف تقنية بناء الجزء المنخفض عن فتحة المحراب نفسها ، ومن هنا فإنّ التّساؤل عن تجاور المحرابين يبقى مطروحا ، مما يستدعي البحث أكثر في أعماق المجتمع المزابي، لعلّ المعرفة العلمية الحقّة تكمن في ذلك . والمحرابان عبارة عن تجويفين ذي مخطّط نصف دائري ينتهيان في الأعلى بحنية ذات عقد نصف دائري ولا يكتنفهما عمودان .

لقد تمّ توسيع بيت الصّلاة للمرّة الأولى حسب الذّاكرة الشّعبية في عهد الشيخ عمّي سعيد الجربي * ، وكانت الزيادة نحو الجهة الجنوبية الشرقية ، إذ أُضيف إلى الجزء القديم خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة وسبع بلاطات عمودية عليه . الشّيء الملاحظ هنا أنّ المحراب قد بُني بحيث يتوسّط تماما الإضافة ، وأصبح على محور المحراب الأيمن للنواة الأولى .

وقد تمّ توسيع بيت الصّلاة للمرّة الثانية نحو الجهة الجنوبية الغربية في فترة تاريخية مجهولة ، وذلك بإضافة ثلاثة أساكيب موازية لجدار القبلة ، كما أضيفت أسكوبين آخرين في نفس الجهة في زمن لاحق ، ويظهر ذلك جليّا من خلال تقنية بناء سقفهما التي تختلف عن تقنية السقوف الأخرى ، إذ استعمل في هذا الفضاء أقبية نصف برميلية ، بدلا من السّقوف المسطّحة والأقبية المتقاطعة والقباب المفلطحة المضمرة في السقف .

* ستأتي ترجمة هذه الشخصية لاحقا عندما نتناول المصلى الجنائزي الذي يحمل اسمه .ينظر الفصل الثاني من هذا الباب ص :

وقد توسّعت بيت الصلاة كذلك في قسمها القديم (الشكل رقم : 5) في مرحلة تاريخية غير معروفة ، نحو الجهة الشّمالية الشرقية على غرار الصحن ، وذلك على حساب الشّارع المجاور للمسجد .

وفي سنة 1986 م وُسّعت بيت الصّلاة بإضافة أسكوب واحد نحو النّاحية الجنوبية الشرقية أي نحو القبلة لتغطّي جزءا من الشّارع المحاذي للمسجد من تلك الجهة .

وأخيرا ففي نهاية الثمانينيات تمّ توسيع بيت الصّلاة في الجزء الذي يعود إلى عهد الشيخ عمّي سعيد نحو الجهة الشّمالية الشرقية بإضافة أربعة أساكيب موازية لجدار القبلة . كما وُسّع الجزء الذي يمثّل النواة الأولى نحو الجهة الجنوبية الغربية .ومازالت هناك إضافات حديثة العهد في نهاية التسعينيات .

يبدو للنّاظر عند دخوله إلى بيت الصّلاة كأنه في غابة كثيفة من الدّعامات التي تحمل عقودا ، إمّا حدوية أو نصف دائرية ، وأظن أنّ المهندس المزابي لجأ إلى هذا الكمّ الهائل من الدّعامات لمساندة السّقف بالدرجة الأولى ، و تماشيا مع ما يتوفّر لديه في بيئته من مواد البناء المستخدمة في عملية التسقيف ، ولنفس السّبب تمّت في نظري عملية توجيه مسار البوائك ، إذ إنّ البوائك هنا تسير موازية وعمودية على جدار القبلة فشكّل فضاءات ضيّقة الأبعاد تتناسب ومواد البناء المتوفّرة في المنطقة .

وتبرز من الأجزاء العلوية للدّعامات رفوف صغيرة في شكل نصف دائري ، تستخدم لوضع القناديل الزيتية . لكن معظم هذه الرفوف طمست معالمها أثناء إجراء إصلاحات وتعديلات في المسجد .

و تتمّ إضاءة وتهوية بيت الصّلاة عن طريق إحدى وأربعين نافذة ، إحدى وثلاثين منها موزّعة على جدار القبلة . صمّمت هذه النوافذ على شكل فتحات

مستطيلة يبلغ عرضها حوالي 0,40 م ، وارتفاعها 0,50 م . وإلى جانب هذه النّوافذ هناك أربع فتحات في سقف بيت الصّلاة ، عند مفتاح القبّة .

ونظرا للتوسّعات المتتالية في بيت الصّلاة ، فقد تعدّدت المحاريب ، إذ بالرّغم من التوسّعات العديدة التي كانت في اتّجاه القبلة ، إلاّ أنّ المزابيين لم يقوموا بهدم المحاريب القديمة بل حافظوا عليها ، وذلك لمعرفتهم لقيمتها وأهميتها الدّينية والتاريخية، ولعلّ تعاليم الفقه الإباضي كانت وراء هذا التصرّف .

وبناء على ذلك فإنّنا نلاحظ أربعة محاريب في بيت الصّلاة ؛ اثنان في الجزء القديم ، وهنا لا بدّ من الوقوف عند المحراب الأيمن الذي تعلوه حنية تضمّ بداخلها فتحتين صغيرتين (اللوحة رقم : 14) لا يتعدّى ارتفاعهما 0,15 م وتستخدم فيما يبدو لإضاءة وتهوية المحراب ، ومحراب ثان في جزء عمّي سعيد ، وآخر مستعمل حاليا يعود إلى سنة 1986 م .

تمتاز كلّ هذه المحاريب بالبساطة في البناء ، وهي عبارة عن تجويفات ذات مخطّط نصف دائري تنتهي في أعلاها بحنيات معقودة بعقد نصف دائري، ولا يكتنفها أيّ عمود . وما يميّز المحرابين الأخيرين إحاطتهما بشريط بارز نوعا ما عن كتلة البناء ، لكنه خال من أية زخرفة . ويبدو أنّ هذه المحاريب كانت تشكّل بروزا نحو الخارج ، وفيما يخصّ مقاساتها فيمكن ملاحظتها من خلال هذا الجدول الآتي :

المحراب	العرض	العمق	الارتفاع
المحراب الأيمن في الجزء القديم	0,70 م	0,75 م	1,80 م
المحراب الأيسر في الجزء القديم	0,60 م	0,70 م	1,40 م
محراب عمي سعيد	0,70 م	0,50 م	1,80 م
المحراب الحديث	0,90 م	0,50 م	2,22 م

د – المــئذنــة :

تعلو في المسجد العتيق بغرداية مئذنتان متجاورتان ، الأولى صغيرة الحجم وقليلة الارتفاع والأخرى كبيرة وذات ارتفاع شاهق .

د – 1 – **المئذنة الصغيرة** : (اللوحة رقم 18) تقع في الجهة الشّمالية الغربية على محور المحراب متقدمة المئذنة الكبيرة تبدأ في الارتفاع من سطح المسجد ، نظرا لإزالة جزئها السّفلي المتمثل في القاعدة . وتنطلق المئذنة في الارتفاع بحيث تميل واجهاتها الأربعة كلما زادت في العلو ، لتعطي في الأخير شكل هرم ناقص (اللوحة رقم : 18) على غرار المئذنة المجاورة لها ، ويبلغ ارتفاعها الحالي 4,50 م .

يتمّ الدّخول إلى المئذنة عن طريق باب خشبي مصنوع من جذع النّخيل ، يبلغ عرضه 0,49 م ، وارتفاعه 1,10 م . وتتألّف في الدّاخل من نواة مركزية مستطيلة الشّكل طولها 0,25 م ، وعرضها 0,15 م (الشكل رقم : 35) ، يلتفّ حولها سلّم صاعد يتكوّن من سبع درجات على شكل حلزوني ويبلغ ارتفاع الدّرجات حوالي 0,25 م ، باستثناء الدّرجة الأخيرة التي ترتفع بحوالي 0,50 م ، نظرا لاستعمالها من طرف المؤذّن كمقعد للجلوس أثناء ترقّب أوقات الصّلاة .

و تنتهي المئذنة في الأعلى بجوسق مغطّى بقبيبة في شكل إناء من الفخار، ويبلغ قطر هذه القبيبة 0,45 م ، وعمقها 0,35 م .يبدو أنّ وظيفة الفخار تتمثّل في تردّد صوت المؤذّن الذي ينتقل إلى الخارج عبر أربع فتحات مستطيلة يعلوها عقد نصف دائري ، ويبلغ عرض هذه الفتحات 0,40 م ، وارتفاعها 0,30 م .

تنطلق من الأركان الخارجية للجوسق نحو الأعلى أربعة أعمدة صغيرة على شكل نتوءات منتفخة في الأسفل وضيقة في الأعلى (اللوحة رقم : 18) ، يبلغ ارتفاعها 1 م . وتتمّ تهوية داخل المئذنة وإضاءتها بواسطة فتحتين صغيرتين فقط .

د - 2 - **المئذنة الكبيرة** :تحتلّ موقعا وراء المئذنة الصغيرة ومجاورة لها (اللوحة رقم 17 و18) في الجهة الشّمالية الغربية من المسجد على يمين الدّاخل من المدخل الشمالي الغربي . وتتألّف من قاعدة ذات شكل مربع منحرف نوعا ما ، تميل واجهاتها الأربعة كلّما ارتفعت نحو الأعلى في شكل انسيابي لتعطي في النهاية شكل هرم ناقص . وبهذا الشّكل فإنّها تضيق كلّما زاد ارتفاعها نحو الأعلى ، كما يقلّ سمك جدرانها ، إذ يبلغ سمكها عند القاعدة 1 م ، ليصل في القمّة عند الجوسق إلى 0,30 م ، ويبلغ علو المئذنة الإجمالي حوالي 24,50 م . يمكن للنّاظر أن يلاحظ من الخارج ميلان المئذنة نحو الجهة الشمالية (اللوحة رقم : 17) ، وقد اعتبر بعض المهندسين المعماريين أنّ هذا الميلان كان مقصودا من قبل المعماري المزابي ، إذ يرون أنّه كان يهدف من خلال ذلك مواجهة الرّياح القادمة من الشمال وبالتّالي إعطاءها القدرة والقوّة للتصدّي لها ، وجعل المعلم في معزل عن تأثيراته التي قد تؤدّي إلى نتائج وخيمة . قد يكون هذا التفسير صحيحا ، ولا سيّما إذا علمنا أنّ هذه الرّياح تكون شديدة ومستمرّة لمدّة تزيد عن خمسة أيام في بعض الأحيان خلال فترة محدّدة من السنة . والظاهر أنّ المهندس لم يكن يقصد ذلك ، بل كانت هذه الظاهرة نتيجة نقص في الإمكانات الإنشائية لديه .

شيّدت المئذنة استنادا إلى ما تناقلته الرواية الشعبية خلال القرن الثّالث عشر الميلادي ، ويعود بناؤه بلا شكّ إلى عامل توسّع المدينة الذي يتماشى وازدياد عدد السكّان بسبب الهجرات المتتالية أو النمو الديموغرافي . ومن الطبيعي أن تصبح المئذنة

الصغيرة لا تؤدّي دورها المنوط بها . لذلك لجأ الأهالي إلى بناء مئذنة أكبر منها حجما وعلوا بهدف إيصال صوت المؤذن إلى كلّ أطراف المدينة .

تتكوّن المئذنة من قاعدة غير منتظمة الشّكل (الشكل رقم : 7) فأضلاعها جاءت كالآتي : 3,80 م ، 5,10 م ، 5,10 م ، 4,20 م . يتمّ الولوج إلى داخل المئذنة عبر باب عرضه 0,80 م ، وارتفاعه 1,90 م . وتتألّف في الدّاخل من نواة مركزية ذات مخطّط غير منتظم الشكل يبلغ طول أضلاعها ابتداء من الضّلع الجنوبي الغربي كالآتي : 0,80 م ، 1 م ، 1,05 م ، 1,50 م . وتشتمل على طابق أرضي وتسعة طوابق (الشكل رقم :6) ، ويتمّ الانتقال من طابق إلى آخر عن طريق سلّم صاعد يتألف من 114 درجة يلتفّ حول نواة مركزية بشكل حلزوني ، ولقد قيل حول هذا العدد أنه يمثّل عدد سور القرآن الكريم ، ربّما يكون هذا التفسير معقولا ولا سيما أنّ العدد صحيح ، لكن لا يمكن أن نعرف ما إذا كان المهندس كان فعلا يقصد ذلك وخطّط له . تتخلّل الدّرجات بسطات يتراوح عرضها ما بين 0,70 م و1 م ، كما يستند الدّرج على أقبية نصف برميلية .

و تنتهي المئذنة في الأعلى بجوسق يبلغ علوّه 2,50 م ، وتغطيه قبيبة مثبّت في مركزها (المعروف بمفتاح القبّة) إناء من الفخار يمتاز بخاصّية تردّد الصوت . يخرج صوت المؤذن عن طريق أربع فتحات معقودة بعقد نصف دائري مفتوحة في الجدران الأربعة للجوسق يبلغ عرض الواحدة 1,20 م ، وارتفاعها 1 م .

وتنطلق من أركان الجوسق الأربعة الخارجية أعمدة في شكل نتوءات منتفخة في الأسفل وضيقة في الأعلى متوّجة المئذنة (اللوحة رقم : 17) . ويصل علو هذه الأعمدة 1,30 م .

فُتحت على جدران المئذنة الأربعة فتحات صغيرة لا يتعدّى عرضها 0, 15 م ، وارتفاعها 0,25 م ، تقوم هذه الفتحات بإدخال الضوء والهواء إلى داخل المئذنة ، ويدلّ صغر حجم هذه الفتحات إلى الدّور الدّفاعي الذي تؤدّيه المئذنة إلى جانب دورها الديني .

هـ – بيت الصّلاة للنساء :

أُعدّ بيت للصّلاة خصّيصا للنساء ، وتأخذ موقعا تحت البلاطات الأولى لبيت الصّلاة الأصلي ، بحيث يكون منعزلا تماما إلى درجة أنّ مدخله يقع في طريق غير نافذة ، بعيدة عن أعين الرجال . ويبدو مخطط هذا المكان في شكل غير منتظم مقسّم إلى فضاءات صغيرة تحدّدها دعامات مختلفة الأشكال والأبعاد ، يتراوح علوها ما بين 1,20 م و1,60 م ، تحمل هذه الدّعامات صفوفا من العقود . وقد غطّيت هذه المساحات الصغيرة بأقبية نصف برميلية .

وفُتحت على جدران بيت الصّلاة للنساء كوّات تستغلّ لوضع الأحذية والمصاحف وغير ذلك من الأشياء التي لها علاقة بأداء الصّلاة .

و – بيت الوضوء :

كانت الميضأة الأولى في النّاحية الشّمالية الغربية ويتمّ الدّخول إليها بواسطة باب موجود في مؤخّرة الصحن . وكانت تتكوّن من قاعة مستطيلة الشكل طولها 7 م وعرضها 6 م ، وتشتمل على دكّة حجرية مستطيلة في الوسط تستخدم للجلوس عليها أثناء الوضوء ، وتسع حجرات صغيرة تستعمل للطّهارة الكبرى والاستنجاء فقط ،

تقع الميضأة الثّانية تحت بيت الصّلاة في الجهة الجنوبية الغربية وتعتبر هي الميضأة الأصلية للمسجد ، إذ كانت في البداية كملحق للمسجد ، وبسبب التوسّعات المتتالية أصبحت ضمن الكتلة المعمارية للمسجد ، وقد أعيد بناؤها سنة 1983 م .

ويتمّ الدّخول إلى الميضأة عن طريق بابين : الأوّل من بيت الصّلاة عرضه 1,30 م ، وارتفاعه 2 م ، نظرا لتواجدها تحت بيت الصّلاة فيمكن الوصول إليها عن طريق سلم نازل يتألّف من تسعة وعشرين درجة . أمّا الباب الثاني فمن خارج المسجد في الجهة الجنوبية الشرقية داخل الرواق الذي يحمل البلاطة الأولى من بيت الصّلاة .و يبلغ عرض هذا الباب 1,20 م ، وارتفاعه 1,95 م .

و الميضأة عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل يبلغ طولها 16 م ، وعرضها 9,54 م ، وتشتمل على دكّتين حجرتين ، وتسعة وعشرين حجرة صغيرة تُؤدّى فيها الطّهارة الكبرى والاستنجاء . وقد كانت لهذه الميضأة غرفة للتّسخين تعلوها قبّة مازالت قائمة إلى حدّ اليوم ، وتُرى هذه القبّة بارزة من سطح المسجد (اللوحة رقم :56) .

ز – السطح :

يتمّ الصّعود إلى السطوح عن طريق سلمين ؛ الأوّل يقع في المجنبة الشّمالية الشرقية ، والثّاني يقع في المؤخّرة (الشكل رقم : 5) . ويشتمل السّطح على فضاءات مغطّاة تستغلّ لتخزين التّمور الواردة من الأوقاف والحبوس ، كما تُعقد داخل هذه الفضاءات جلسات حلقة عزابة مدينة غرداية . ويبقى الجزء الأكبر من السّطح مكشوفا ، يتقدّمه في الجهة الجنوبية الشرقية العترة ، مما يدل على إقامة الصّلاة في هذا السّطح في الليالي الصيفية الحارّة .

3 – مسجد بني يزقن

يعدّ مسجد بني يزقن من بين أهم المساجد الإباضية بمنطقة وادي مزاب من النّاحيتين التاريخية والأثرية ، ويعدّ من أحسن النّماذج التي يمكن أن تقدم لنا صورة واضحة عن عمارة المساجد بالمنطقة ، باعتبار أنّ المسجد حافظ على نمطه المعماري القديم ، رغم مرور قرون على تأسيسه . .

أ – لمحة تاريخية :

إنّ هذا المسجد لم يُتناول بالبحث والدّراسة بالرغم من أهميته ، لكن هذا لم يمنع من وجود بعض الإشارات الخفيفة في بعض الدّراسات التي تطرّقت إلى العمارة الدّينية بالمنطقة ، إلاّ أنها كانت خاطئة في وصفها وتحليلها ، نظرا لاعتمادها على دراسات جوزيف شاخت (7) Josef Schacht الذي يبدو من خلال دراسته التي تضمّ مخطط المسجد (الشكل رقم : 33) ، أنّه لم يقم بأية زيارة للمبنى ، وإنما اعتمد على ما نقلته إليه ألسنة الأهالي .

يحتلّ المسجد مكانا استراتيجيا في أعلى قمّة الهضبة التي تتدرّج فوقها مباني المدينة ، على غرار المساجد الإباضية في المنطقة ، وذلك انطلاقا من قاعدة دينية تجعل من المسجد المكان المقدّس الذي يشرف على كل المباني الأخرى ولكونه مقرا للسّلطة الرّوحية (حلقة العزابة) في المدينة ، فلابدّ أن يبسط سلطته معماريا .

لقد تمّ تشييد المسجد العتيق مباشرة بعد تشكيل وحدة فيما بين القصور الخمسة (بوكياو وأقنوناي وترشين وموركي وتافلالت) المتناثرة – حسب ما أشرت إلى ذلك في الفصل الثّاني من الباب الأول – وتأسيس مدينة بني يزقن

---

(7) - Josef Schacht : << Notes Mozabites >> In Andalus , N° 22 , 1957, pp . 5

وذلك فيما بين سنة 720 – 748 هـ / 1321 – 1347 م *، إذ بعد هجرة سكان القرى الخمس إلى تافلالت * التي كوّنت النّواة الأولى للمدينة الجديدة ضاق مسجدها – مازالت آثاره باقية إلى يومنا هذا – بالمصلين ، فكان من الضّروري بناء مسجد أكبر حجما ، بإمكانه استيعاب المنضمين الجدد ، فاختاروا موقعا مناسبا لا يبعد عن تافلالت إلاّ بأمتار ، ويبدو أنّ هذا المبنى ظهر إلى الوجود بهذه الطريقة .

لقد مرّ المسجد الكبير بعدّة توسّعات على غرار توسّعات المدينة ، فربما يتمّ توسيع المسجد كلّما توسّعت المدينة ، أي كلّما ازداد عدد السكان سواء بالنمو الديموغرافي أو بالهجرات المتتالية نحو المدينة خلال فترات تاريخية مختلفة ، عندها اضطرّ أهاليها إلى توسيع المسجد . ولكن ما يلفت الانتباه أنّ الإضافات المتتالية لم تؤثّر في أصالة المبنى ، ولم تعرّض الأجزاء القديمة للضرر والتّشويه ، بل بالعكس فقد حافظت على أصالة العناصر المعمارية القديمة مثل المحراب ، وهذا ما سمح لي بالتعرّف على مراحل التوسّعات وتمييزها ، اعتمادا على تقنية البناء ، وعلى أنواع العقود وتعدّد المحاريب ، وعلى هذا تمكّنت من تمييز أربع توسعات كان آخرها سنة 1892 م .

يتربّع المسجد على مساحة إجمالية تقدر بحوالي 1600 $م^2$ ، ويتألّف من طابق أرضي وسطح . ويشتمل الطّابق الأرضي على صحن وبيت للصّلاة ، إضافة إلى الملحقات الأخرى مثل قاعة الوضوء وغرف إيواء الطلبة .

* أعتقد أنّ بناء المسجد الحالي واكب تاريخ تأسيس مدينة بني يزقن ، وذلك لضيق مسجد تافلالت القديم واكتظاظه بالمصلين بعد توحيد القصور الخمسة .

* سبق الحديث عن هذا القصر عندما تطرقت إلى القصور المندثرة في منطقة وادي مزاب ، باعتبار أنّ هذا القصر اندمج مع المدينة الجديدة (بني يزقن) وأصبح حيا من أحيائه .

يتمّ الدّخول إلى المسجد عبر مدخلين رئيسين يؤدّيان إلى الصحن ؛ فالأوّل موجود في الجهة الجنوبية الشرقية متجه نحو الغرب ، يبلغ عرضه 1,16 م ، وارتفاعه 2 م ،و الثّاني يقع في الجهة الشّمالية الغربية يبلغ عرضه 1 م وارتفاعه 2 م . و هذه المداخل عبارة عن أبواب خشبية .

ب – الصحن :

يؤدّي المدخلان السّابق ذكرهما إلى صحن ذو مخطّط غير منتظم الشكل قريب من المستطيل (الشكل رقم : 8) ، يبلغ عرضه 5,30 م وطوله 7,80 م . يحيط بالصحن رواق من الجهتين الجنوبية الشرقية والشّمالية الشرقية ، ورواقان من الجهتين الأخريين . يغطّي هذه الأروقة سقف يرتكز على مجموعة من الدّعامات مستطيلة الشكل مختلفة الأبعاد (اللوحة رقم : 19) يتراوح طولها ما بين 0,80 م و0,25 م ، وعرضها ما بين 0,40 م و0,20 م . وتربط هذه الدّعامات عارضات خشبية من جذوع النّخيل . وإنّ ما يسترعي الانتباه هنا موقع هذا الصحن بالنّسبة لبيت الصّلاة ، إذ يقع في لجهة الشّمالية الشرقية (الشكل رقم : 8) بدلا من أن يكون على محور المحراب ، كما فتح في جدار القبلة فتحتان تشكلان محرابين ذي مخطط نصف دائري ، بارزين من الخارج ، تفصلهما مسافة تقدر بحوالي 5 م ، تشكّل الفتحتان في أعلاها عقدا نصف دائري . يبلغ عرض الفتحة اليسرى 0,75 م ، وعمقها 0,74 م ، أمّا الفتحة اليمنى فيبلغ عرضها 0,88 م ، وعمقها 0,63 م .

تطرح هاتان الفتحتان إشكالية لمؤرّخي الفن تتمثّل في وجود محرابين متجاورين في الصحن بدلا من محراب واحد . وهل هذه الوضعية ظهرت بعد إجراء إضافات في المسجد أم أنّ هناك خصوصيات أخرى تخص المجتمع المزابي ؟

يبدو أنّ هذه الظّاهرة ناتجة فعلا من جراء توسّع أُجري في المسجد ، خاصّة إذا علمنا أنّ ما يميز المجتمع المزابي احترامه الكبير لتقاليد أجداده وتعلّقه بها ، مما جعله يحافظ على تراثه المعماري ، ولا سيّما إذا ما تعلّق الأمر بالمباني الدينية ، وانطلاقا من هذا فقد حافظ البنّاؤون اليزقنيون على العناصر المعمارية عامّة وعلى المحراب لاسيّما في شكلها القديم ، دون إدخال أيّ تعديل عليها ، بالرّغم من بناء عناصر جديدة إلى جانبها تؤدّي نفس الوظيفة .

و من هذا المنطلق تمّت المحافظة على المحراب القديم في الصحن إلى جانب المحراب الجديد . ولكن هذا لا يمنع إمكانية وجود عوامل أخرى ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في بروز هذه الظاهرة ، وهذا يستدعي بالطّبع البحث والتقصّي داخل المجتمع اليسجني نفسه ، أمّا الوظيفة التي يؤدّيها المحراب في الصحن فهي نفسها في بيت الصّلاة . إذ إنّه يسمح بأداء صلاة الجماعة في الصحن خاصّة في الليالي الصيفية الحارة .

وتجدر الإشارة إلى أنّ صحن المسجد العتيق ببني يزقن لا يحتوي على فسقية ولا على حوض مائي ، كما هو الشأن في معظم المساجد الإسلامية الأخرى . ولقد فُتحت في جدران الصحن كوّات وفتحات مختلفة الأحجام والأبعاد تؤدي أغراضا وظيفية معينة ، فالكوّات تستعمل لوضع أحذية المتردّدين على المسجد أو لوضع نوى التمور التي توزّع على دارسي القرآن الكريم من المصلين . أمّا الفتحات فلغرض التهوية والإضاءة ، إلاّ أنني لا أرى ضرورة لوجودها ، لأنّ الصحن مكشوفا ومنفتحا نحو السماء .

لا يمكن أن أنصرف من الصحن دون أن أتعرّض إلى النّخلة التي تجاور المدخل الرئيسي الجنوبي الشرقي والتي تقابل مدخل بيت الصّلاة نظرا لأهميتها

الاقتصادية البالغة . لقد كان هذا المكان مخصّصا إلى وقت غير بعيد لتعليق أواني مصنوعة من جلد الماعز تدعى باللّهجة المحلية (لَبْطَانْ) ، مخصّصة لتبريد مياه الشّرب وتمّ الاستغناء عنها في بداية الثمانينيات ، ونظرا لندرة المياه في المنطقة فقد تّم غرس نخلة إلى جانب هذه الآنية ، لاستغلال القطرات التي يمكن أنّ تتدفّق منها في سقي هذه النّخلة ، وذلك حرصا من ضياع هذه المياه القليلة الناذرة .

جـ - بيت الصّلاة :

تؤدّي إلى داخل بيت الصّلاة ثلاثة مداخل ؛ فالمدخل الرئيسي يقع على يسار المدخل الجنوبي الشرقي للمسجد ، في أقصى يسار جدار القبلة ، ويتكوّن من باب خشبي ذي دفتين ، يبلغ عرضه 2 م ، وارتفاعه 1,90 م . أمّا المدخل الثّاني فيتوسّط الجدار الشّمالي الشرقي ، بينما المدخل الثّالث يقع في أقصى يمين جدار القبلة (الشكل رقم : 8) ويسمح بالدّخول من الشّارع مباشرة نحو بيت الصّلاة .

و بما أنّ أرضية بيت الصّلاة تقع في مستوى أعلى عن أرضية الصحن والشارع ، فإنّه يتمّ الصّعود إليها عبر الأبواب بواسطة سلالم صاعدة تشتمل على عدد من الدّرجات المتفاوتة الارتفاع .

إنّ ما يلفت انتباه الناظر لأوّل وهلة عند دخوله إلى بيت الصلاة ذلك الكمّ الهائل من الدعامات ، وكأنها غابة كثيفة من الدعامات التي تقوم بتقسيم هذه المساحة الشاسعة إلى فضاءات صغيرة .

نقدّم بيت الصلاة مخطّطا يتّسع عرضيا (الشكل رقم : 8) ، وتتألّف من اثني عشر أسكوبا موازيا لجدار القبلة ، وستّة وعشرين بلاطة عمودية على جدار

القبلة . يتقلّص عدد الأساكيب إلى ثمانية على يمين المحراب الأول في المسجد ،. إذاً فالبوائك هنا تسير في اتجاهين ؛ عمودي وموازي لجدار القبلة . ترتكز صفوف العقود على دعامات مختلفة الأبعاد والأشكال ، يتراوح ارتفاعها ما بين 1,50 م و1,90 م .تعمل هذه الدّعامات بحمل ثقل السّقف بواسطة العقود ، وبتقسيم بيت الصّلاة إلى فضاءات صغيرة متفاوتة الأبعاد وغير منتظمة في شكلها ، نظرا لانعدام التّناسق والانسجام بين الدعامات .

يكون اتجاه البوائك في المساجد ذات الأعمدة والدّعامات عادة ، إمّا في اتجاه عمودي أو موازي لجدار القبلة باستثناء بعض النّماذج القليلة . وفي نفس الإطار ، لابدّ من الإشارة إلى أنّ عقود بيت الصلاة تختلف في أنواعها بين الحدوي والنّصف الدائري . فالعقد الحدوي استعمل في الجزء القديم من بيت الصّلاة أي في القسم الذي يمثّل النواة الأولى للمسجد فقط . أمّا النوع الثاني فقد استعمل في كلّ الأجزاء الأخرى المتبقية . تُربط هذه العقود فيما بينها أحيانا بروابط خشبية ، وذلك لإعطاء متانة وصلابة للمبنى .

وقد تولّد عن تقاطع البوائك العمودية بالموازية في بيت الصّلاة فضاءات معمارية ضيقة مغطّاة بأقبية ، إمّا نصف برميلية أو متقاطعة أو بقباب صغيرة مفلطحة مضمرة في السقف . ولكن هذا لم يمنع من وجود بعض الفضاءات الواسعة التي يطلق عليها باللهجة المحلية اسم (المجالس) وعددها ثلاثة ؛ فالمجلس الموجود على يسار المحاريب يسمى بالمجلس القرآني وهو مخصّص لتدارس القرآن الكريم (الشكل رقم : 8 واللوحة رقم : 20) ، والمجلس الثّاني يقع بجانب قاعدة المئذنة ويسمّى بمجلس الميراث وهو مخصّص لتدريس مادّة الميراث ، ولا يمكن أن ينضمّ إلى هذا المجلس إلاّ من ينتمي إلى هيئة قدماء التلاميذ أو ما يسمّى باللّهجة

المحلية (إِيرْوَانْ) . يقوم بتدريس هذه المادّة عريف إِيرْوَانْ ولا ينشط هذا المجلس إلاّ في شهر رمضان . أمّا المجلس الثّالث (الشكل رقم : 8 ، واللوحة رقم : 24) فخاصّ بالوعظ والإرشاد ويوجد على يمين المحراب الأيمن .

يمكن من خلال أنواع العقود وكذا تقنيات البناء من تمييز التوسّعات التي أُجريت في بيت الصّلاة ، فالنواة الأولى تحدّدها صفوف من العقود الحدوية ، وتتألّف من سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة ، وثماني بلاطات عمودية على جدار القبلة ، ويعدّ المحراب الأيمن الذي يتوسّط هذا الجزء ، هو الأصلي للمسجد الأول (اللوحة رقم : 21) . وقد تمّ توسيع المسجد الأوّل في فترة لم أتمكن من تحديد تاريخها ، نظرا لعدم تمكني من الحصول على الوثائق التي تثبت ذلك ، كان هذا التوسّع نحو الجهة الشّمالية الشرقية ، بإضافة خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة ، ونحو الجهة الشمالية الغربية ، بإضافة أسكوبين موازيين لجدار القبلة ، ويشمل هذا التوسّع كذلك المجلسين القرآني والميراث . أمّا التوسّع الثّاني فقد كان في اتجاه الشّمالي الغربي والجنوب الغربي ، ويبدو أنّ هذه الإضافة تمّت في عهد الشيخ عبد العزيز الثميني * أي ما بين 1201 – 1223 هـ / 1786 – 1808 م ، ويعدّ التوسّع الثّالث والأخير الذي أجري في شهر محرم من سنة 1229 هـ /

*عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد العزيز التميني المشهور باسم << ضياء الدّين >> ، علم من كبار علماء مدينة بني يزقن وُلد بها سنة 1130 هـ /1718 م . وقد أخذ مبادئ العلم في مسقط رأسه ، ثمّ سافر إلى ورقلة لإدارة أملاك والده حتى بلغ سنّ الثلاثين وبقدوم أبي زكرياء بن يحي بن صالح الأفضلي إلى مزاب رجع إلى التحصيل العلمي ولازم حلقاته إلى أن نبغ في علوم اللغة العربية والشريعة والمنطق ، وكافح إلى جانب شيخه في سبيل إصلاح مجتمعه ، وصار على رأس حلقة عزّابة ببني يزقن سنة 1201 هـ / 1786 م ، وقد مارس مهامه لفترة من الزمن ثمّ اعتزل للتفرّغ للتدريس والفتوى والتأليف ولازم داره مدّة خمس عشرة سنة وتوفى في 11 رجب 1223 هـ / 1808 م تخرّج من حلقات الشيخ عدد من العلماء منهم إبراهيم بيحمان ويوسف بن حمو بن عدون وقد أثرى المكتبة بمؤلفات عديدة من أهمّها كتاب النيل وشفاء العليل .
ينظر جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، مج 3 ، المطبعة العربية ، غرداية 1999 ، ص : 532 – 536 .

1892 م [8] ، أكبر توسّع تمّ في مسجد بنيْ يزقن ، وكان نحو الجهة الجنوبية الغربية .

بسبب هذه التوسّعات المتتالية فقد أضيف إلى بيت الصّلاة محرابان آخران في جدار القبلة وبهذا أصبح لدينا ثلاثة محاريب (الشكل رقم : 8) يمكن مشاهدتها من خارج المسجد بفضل البروز الذي شكّلته في الجدار القبلي ، وما يميّز هذه المحاريب بساطة طرازها المعماري وخلوّها من أيّة زخرفة ، وهي عبارة عن تجاويف ذات مخطّط نصف دائري (اللوحة رقم : 21 و22) تنتهي في الأعلى بحنية ذات عقد نصف دائري ، ويتراوح عرض هذه المحاريب ما بين 0,93 م و1,11 م ، وعمقها ما بين 0,62 م و1,10 م ، وأمّا ارتفاعها فيتراوح ما بين 1,80 م و1,90 م ، و لا تكتنفها أعمدة من الجانبين مثلما هي العادة في معظم المساجد الإسلامية أين وُلّي لعنصر المحراب عناية فائقة ، نظرا لأهميته الكبيرة كعنصر معماري متميز . ويوجد في الجزء العلوي لحنية المحراب فتحتان صغيرتان من اليمين واليسار أغلب الظنّ أنهما كانتا تستعملان لإضاءة المحراب أو لمراقبة الساحة المجاورة للمسجد من الناحية الجنوبية الشرقية ، خاصّة إذا ما علمنا أنّ هذه السّاحة كانت عبارة عن سوق في مرحلة من مراحل تطور المدينة إذ تعرف عند العامة إلى حد اليوم باسم << سوق المسجد >> ، كما أنّ من بين أعمال حلقة العزّابة حسب ما أشرت إليه سابقا [9] ، افتتاح ومراقبة عملية البيع والشراء في السّوق .

وما يستوقفني هنا وجود محرابين متجاورين (الشكل رقم: 8) تفصل بينهما مسافة قصيرة لا تتجاوز المترين . وفي حالة ما إذا افترضنا أنّ الإضافات المتتالية كانت السّبب في وجودهما متجاورين ، كما يذكر ذلك معظم

---

[8] - يوسف بن حمو بن عدون : نفس المصدر السابق ، ص : 5 .

[9] - بالنسبة لدور أعضاء حلقة العزابة داخل المجتمع المزابي ينظر الباب الأول ، الفصل الثاني ص :72 - 79 .

الباحثين [10] ومن جمعنا شهادتهم من أهاليّ المدينة ، وهذا في تصوري أمر مستبعد ، إذ يبدو أنهما ينتميان إلى نفس الفترة انطلاقا من أنّ تقنية البناء متشابهة ، وأغلب الظنّ أنّ الأمر يستلزم المزيد من البحث والتنقيب في أعماق المجتمع المزابي ، وهو ما أشرت إليه في موضع سابق في معرض تناولي لمحرابي الصحن .

إنّ ما يمكن ملاحظته في بيت الصّلاة غياب المنبر إلى جانب المحراب ، وحتى الغرفة التي تأوي هذا المنبر ، مع العلم أنّ المنبر دليل على إقامة صلاة الجمعة في المسجد من عدمها . وغياب المنبر يعود في الأساس إلى الفكر الإباضي في قضية الجمعة ، إذ يرى أنّ صلاة الجمعة غير واجبة في غياب الإمام العادل ، وسيكون ذلك جوهر موضوع بحثي لاحقا عندما تناولي للمنبر كعنصر معماري في المسجد .

د – المـــئـــذنـــة :

تقع مئذنة مسجد بني يزقن في الجهة الشّمالية الغربية من بيت الصّلاة على محور المحراب الأوسط (الشكل رقم : 8) إنّ المئذنة هنا كغيرها من المآذن الإباضية في منطقة وادي مزاب تختلف في طرازها عن المآذن المعروفة في العمارة الإسلامية ، إذ أنها تنطلق من قاعدة مربعة تقريبا وتأخذ جدرانها في الميل نحو الداخل كلما ارتفعت إلى الأعلى ، لتعطي الشّكل الهرمي النّاقص (اللوحة رقم : 23) الذي أصبح ميزة ورمز العمارة الإباضية في مزاب .

تتألّف المئذنة من الداخل من طابق أرضي يمثل القاعدة وسبعة طوابق (الشكل رقم : 11) يؤدّي إلى داخل الطابق الأرضي باب عرضه 0,77 م . يتألّف هذا الطابق من نواة مركزية مستطيلة الشّكل يبلغ طولها 0,85 م ، وعرضها

---

(10) - Willems Didier : Recherches sur Quelques Grandes Mosquees du M'zab et du Soudan Central , Paris 4 , Sourbonne , These de D . E . A , Institut d'Histoire de l'Art et D'Archeologie , 1991 , p : 81 .

0,62 م (الشكل رقم : 12) . لكن ما يسترعي الانتباه عدم وجود سلّم يربط القاعدة بالطّوابق العليا الأخرى ، بل هناك انفصال ، فالسّقف يفصل بينها لتبقى الجدران والنواة المركزية الرابط فيما بين هذه الهياكل .

وبما أنّ القاعدة منفصلة عن الطّوابق الأخرى ،كان لابدّ من إحداث باب يتمّ بواسطته الولوج إلى داخل هيكل المئذنة ، لهذا الغرض فُتح في الطّابق العلوي للمسجد باب عرضه 0,66 م ، وارتفاعه 1,25 م (الشكل : 9) . ويفضي الباب الخشبي المصنوع من جذوع النّخيل إلى داخل الطابق الأول للمئذنة التي تتكون من نواة مركزية مستطيلة الشكل تقريبا طوله 0,85 م ، وعرضها 0,70 م ، ويُصعد إلى الطّوابق العليا بواسطة سلّم يتكوّن من 65 درجة يدور حول النواة المركزية بشكل حلزوني . وتتقارب الدّرجات في ارتفاعها ، باستثناء الدّرجة الأخيرة . ويتناقص عرض المئذنة كلّما صعدنا نحو الأعلى (الشكل رقم : 11) . وفُتحت على جدران المئذنة فتحات ضيقة تسمح بمرور الضوء والهواء إلى الداخل .

وتنتهي المئذنة في الأعلى بجوسق يصل ارتفاعه إلى حوالي 1,80 م ، تغطّيه قبّة صغيرة (الشكل رقم : 11) تحوي في مركزها آنية فخارية ، و يبدو أنّ وظيفتها تتمثّل في عملية تردّد صوت المؤذّن ، لأنّ الفخار مادّة ممتازة لترديد الأصوات . أمّا القبّة نفسها فتعمل على حماية المؤذن من حرارة الشمس صيفا وبرودة الجو شتاء .

وفُتح وسط كل ضلع من أضلاع الجوسق فتحة معقودة بعقد نصف دائري ، يبلغ عرضها 0,60 م وارتفاعها 0,65 م .

تنطلق من الأركان الخارجية للجوسق نحو الأعلى أربعة أعمدة صغيرة في شكل نتوءات منتفخة في الأسفل وضيقة في الأعلى بمثابة الشرّافات (اللوحة رقم : 23) . ويصل ارتفاع هذه الأعمدة إلى 1,70 م متوّجة بذلك المئذنة . ويبدو أنّ هذه الأعمدة تبيّن الاتجاهات الأربعة ، وربما ترمز إلى عبادة تعود إلى عهود تاريخية قديمة (العبادة الذكرية) ، كما يروق لبعضهم ذكرها . ولكن أندري رافيرو يرفض هذا الاعتقاد [11]، ويبقى هذا النّوع من الزّخرفة يحتاج إلى دراسة وبحث دقيق للوصول إلى الحقيقة العلمية .

قبل أن أنتقل إلى عنصر معماري آخر لابدّ أن أشير إلى الحالة الصحية الخطيرة للمئذنة ، إذ يمكن أن تؤدّي إلى انهيار أجزاء منها ، وذلك بسبب للتّشققات والتّصدعات (اللوحة رقم : 23) التي يمكن ملاحظتها على جدرانها وخاصّة في الأجزاء العليا مما يستدعي التدخل السريع لإنقاذها .

- أمّا ما يخصّ الشكل الهرمي للمئذنة (اللوحة رقم : 23) ، ففي اعتقادي أنّ هذا الشكل هو الأنسب لإعطاء المتانة والقوّة اللاّزمة للمبنى لمقاومة مختلف الظواهر الطبيعية مثل الرياح الشديدة التي تعصف على المنطقة في فترات مختلفة من السنة . أمّا عن مصدر الشكل فسأتناوله في الباب الأخير .

ليس الآذان هي الوظيفة الوحيدة لمئذنة مسجد بني يزقن فإضافة إلى ذلك تستخدم المئذنة كبرج للمراقبة ومن هنا جاءت التسمية المحلية << أعساس >> ومعناها الحارس ، إذ إنّ المئذنة هنا تشرف على كلّ المدن المزابية المجاورة وعلى واحة بني يزقن بأكملها ، ويبلغ ارتفاعها حوالي 22 م .كانت الإشارة الضوئية

---

(11) - Andre Ravereau : le M'zab une Leçon d'Architecture , Ed : Sindbad , Pareis 1981 , P : 190 – 191 .

(النّار) في القديم ، هي وسيلة الاتّصال بين الأبراج المتناثرة في الواحة لإنذار الأهالي في حالة قدوم عدوّ أو وقوع فيضان في الوادي .

هـ - السّطوح :

تؤدّي السّطوح وظيفة هامّة في عمارة الصّحراء ، سواء في المساكن أو في المساجد ، فنظرا لما يمتاز مناخ المنطقة من حرارة شديدة صيفا ، فإنّ فضاءاتها تستغلّ في الليالي الصيفية . فالفضاء الذي يعلو أروقة صحن المسجد مثلا يُستغلّ لأداء الصلوات (صلاة المغرب والعشاء والفجر) في فصل الصيف وما يؤيّد ذلك وجود فتحتان في هذا الفضاء المعماري تشكّلان محرابين (الشكل رقم : 9) ، وهما ذات مخطّط نصف دائري يبلغ ارتفاعهما عن أرضية السّطح بحوالي 0,70 م ، ونلاحظ من الخارج أنّ الفتحتين جاءتا امتدادا لمحرابي الصحن اللذين يبرزان في السطح على هيئة العنزة . ويتمّ الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلمين ؛ ينطلق الأوّل من الصحن إلى جانب المدخل الشّمالي الشرقي لبيت الصّلاة ، أمّا الثّاني فمن داخل بيت الصّلاة ويقع إلى جنب المدخل الرئيسي .

إنّ السلّم الصاعد إلى السّطح من جهة الصحن يتفرّع في أعلاه إلى فرعين (الشكل رقم : 9) ، فرع يؤدّي مباشرة إلى السّطح الذي يعلو الصحن ، وقد سبق الحديث عنه في الأعلى ، والآخر يتّجه نحو مجموعة السّطوح التي تعلو بيت الصّلاة ؛ وهي عبارة عن ثلاثة سطوح متتالية ، ويتمّ الانتقال من سطح إلى آخر عبر أبواب خشبية مصنوعة من جذوع النّخيل . و تنقسم هذه السّطوح إلى جزأين ؛ جزء مغطّى ، والآخر مكشوف ، حيث ترتكز سقوف الأجزاء المغطّاة على دعامات بواسطة عقود نصف دائرية (واللوحة رقم :25 و56) .

- توجد في الجدار الخارجي للجزء المكشوف من السّطح الأوّل حنية نصف دائرية تشكّل العترة ، وهي امتداد لأحد المحاريب الثّلاثة في بيت الصّلاة ، ويضمّ الجزء المغطّى من هذا السّطح مدخل المئذنة الذي يؤدي إلى الطوابق العليا للمئذنة .

أما السّطح الثّاني (الشكل رقم : 9 واللوحة رقم : 56) فيتكوّن من جزء مكشوف تحيط به من الجهتين الشّمالية الغربية والشّمالية الشرقية أروقة مغطّاة بسقف مسطّح يدخل في بنائه جذوع النّخيل وجريدها ، ويرتكز سقف هذه الأروقة على مجموعة من الدّعامات بواسطة عقود نصف دائرية . وتقوم جدران قصيرة بتقسيم هذه الأروقة إلى فضاءات صغيرة عبارة عن أحواض تستعمل لوضع التمور التي تأتي من الأوقاف والحبوس والصدقات . ترتفع الجدران القصيرة عن الأرضية بحوالي 0,45 م ، كما صمّمت في الأرضية مجاري أو سواقي متّصلة بالأحواض لتستقبل العسل الذي يسيل من التّمر . ويطلق على هذا السّطح باللّهجة المحلية اسم << تَامْنَايْتْ >> ، وقد كان مخصّصا لاجتماعات حلقة العزّابة نظرا لحصانته وبعده عن الأنظار ، وذلك لضمان سرية الاجتماعات التي تعدّ م بيت الشروط الأساسية في نظام حلقة العزّابة .

يتكوّن السّطح الثّالث (الشكل رقم : 9) من جزء مكشوف محاط برواق من كلّ الجوانب ، باستثناء الجهة الجنوبية الشرقية . وقد قُسّم هذا الرواق كسابقه إلى أحواض لتخزين التّمور . ويوجد في الرواق الشّمالي الغربي باب يفضي إلى غرفة مغطّاة بسقف مسطح يرتكز على دعامتين بواسطة عقود نصف دائرية .

و – بيت الصّلاة للنّساء :

يوجد هذا البيت في الطّابق الأوّل فوق بيت الصّلاة من الجهة الشّمالية الغربية ، ويصعد إليه بواسطة سلّم يتكوّن من تسع درجات . إنّ بيت الصّلاة الخاص بالنّساء عبارة عن غرف غير منتظمة الشّكل تقع في مستويات مختلفة ، وذلك تماشيا مع مستويات بيت الصّلاة السفلية (الشكل رقم : 10) .

ويتمّ الانتقال من غرفة إلى أخرى عبر فتحة معقودة بعقد نصف دائري ، عن طريق درجتين أو ثلاثة . وتقوم الدّعامات هنا بحمل سقف هذه الغرف بواسطة عقود نصف دائرية . وما يجلب انتباهي تلك الفتحات ذات الشبكة الخشبية التي تطلّ على بيت الصّلاة ومتّجهة نحو المحراب ، إذ من خلالها تتمكّن النّساء من سماع صوت الإمام ، كما أنها تسمح لهن برفع مظالمهن إلى حلقة العزّابة بالمسجد ولا يقوم الإمام للصّلاة إلاّ بعد إرجاع الحقّ إلى نصابه أو أن يضمن أحد من المصلين في القضية . ويطلق على هذه العملية باللّهجة المحلية اسم << أَرْجَالْ >> .

يوجد في أحد أركان الغرفة الثالثة سلّم صاعد يؤدّي إلى غرفة واسعة حديثة البناء خاصّة للنّساء ، أغلب الظنّ أنها كانت عبارة عن سطح يعلو بيت الصّلاة ويجاور السطوح الأخرى التي سبق الحديث عنها .

إنّ عملية فصل بيت النّساء عن بيت الرجال ميزة العمارة المزابية عامّة سواء المدنية منها أو الدّينية وعمارة المساجد على الخصوص ، إذ خصّص مدخل منعزل للنّساء وبعيد عن المداخل الأخرى للمسجد والمخصّصة للرجال ، ويبدو أنّ هذا الانفصال كان اتّقاء لملاقاة الجنسين ، ومخافة سماع صوت المرأة الذي يمكن أن

يصل إلى مسامع الرجل ، باعتبار صوت المرأة عورة اعتمادا على الفقه الإباضي ، والإباضية ينطلقون في فقههم من مبدإ اتقاء الشبهات مخافة الوقوع في الخطأ .

ز – الميضأة :

شيّدت حديثا ، وتوجد في مستوى منخفض عن أرضية المسجد وهي عبارة عن دهليز أو قبو نترل إليه عن طريق ثلاثة أبواب ، باب من الصحن ، والثّاني من بيت الصّلاة ، أمّا الثّالث فمن الخارج . يتمّ الترول إلى الميضأة عن طريق هذه الأبواب بواسطة سلالم نازلة . وتتوسّط الميضأة دِكّة حجرية مرتفعة عن الأرض بحوالي 0,50 م يستخدمها المصلون للجلوس أثناء تناول الوضوء . وتصطفّ حول هذه الدكّة ثلاث عشرة حجرة صغيرة ذات أبواب خشبية يبلغ طولها 1,25 م ، وعرضها 0,90 م ، وتستعمل هذه الغرف للطّهارة الكبرى أو الاستنجاء .

وأمّا الميضأة القديمة فقد حُوّلت إلى قاعة لاجتماعات حلقة عزابة المسجد ، ومازالت تحتفظ ببعض فضاءاتها المعمارية القديمة كالغرف المخصّصة للطّهارة الكبرى والاستنجاء .

استعملت عدّة مواد بناء مختلفة في بناء هذا المعلم ، لكنها كلّها مستخرجة من منتجات البيئة المحلية لتلائم وتقاوم الطبيعة ، وقد ساهمت هذه المواد في تحديد مساحة الفضاءات داخل المبنى وإعطاء الشكل النهائي للبناء . ومن هذه المواد نجد الحجارة والتمشنت والجير والنخيل بجريده وسعفه .

3 – مسجد العتيق بالقرارة :

يحتلّ المسجد العتيق كما هو الحال بالنّسبة لكلّ مساجد مزاب الإباضية قمّة الهضبة التي تأسّست فوقها مدينة القرارة ، وهذا ما جعله يشرف مع مئذنته الهرمية الشكل على مباني المدينة كلّها .

يتربّع المسجد بكلّ إضافاته التي طرأت عليه في فترات زمنية مختلفة إلى سنة 1998 على مساحة إجمالية تقدر بحوالي 2630,80 م^2 .

أ – لمحة تاريخية :

شُيِّد المسجد مع تأسيس المدينة سنة 1040 هـ / 1630 م ، ويشير أبو اليقظان أنّ سكان القرارة الأوائل لما استقرّوا بالمدينة الجديدة ، قاموا بحفر بئر عميقة نسبت إلى ابن عليف ثم اختطّوا بجانبها مسجد المدينة [14] . وعلى الرّغم من انعدام الوثائق التي يمكن من خلالها تحديد الإضافات و التوسّعات المتتالية على المسجد ، إلاّ أنّني اعتمدت في ذلك على طرز وتقنية بناء العناصر المعمارية كالمحراب والدّعامات والعقود ، وانطلاقا من هذا يمكن تحديد أربع توسّعات أُجريت على مستوى بيت الصّلاة والصحن .

شّيِّد المسجد بمخطّط غير منتظم الشّكل يقترب من المستطيل ، وتمتدّ واجهته الجنوبية الغربية على مسافة تقدّر بحوالي 91,10 م ، وتضمّ مدخلين يؤدّيان إلى الصحن . وأمّا الواجهة الشّمالية الغربية فيبلغ طولها 23,80 م وتضمّ مدخلا خاصّا للنّساء يؤدّي إلى الطّابق العلوي للصحن ، بينما تمتدّ الواجهة الشّمالية الشرقية على مسافة تقدر بحوالي 87,85 م فتشتمل هذه الواجهة على مدخلين ؛ أحدهما يؤدّي إلى الصحن بينما الآخر يؤدّي إلى بيت الصّلاة مباشرة . ويمتدّ جدار القبلة على

---

(14) - إبراهيم أبو اليقظان : عنوان الحضارة فيما يتعلق بأحوال بلد القرارة ، مخ ، ص : 8

مسافة تقدر بـــ 36,92 م ، تتعرّض هذه الواجهة للهدم باستمرار ، بسبب التوسّعات المتتالية التي يتمّ معظمها نحو هذه الجهة وكان آخرها سنة 2001 .

ب – الصحن :

يتمّ الدّخول إلى الصحن عن طريق مدخلين رئيسيين ؛ يقع الأوّل في الجهة الشّمالية الشرقية يبلغ عرضه 3 م يضيق نحو الدّاخل ليصبح عرضه 2 م ، أمّا المدخل الثّاني فيقع في الجهة الجنوبية الغربية ويبلغ عرضه حوالي 2,50 م . ونظرا لوجود المسجد في مستوى أعلى من الشّارع ، فإنّه يتمّ الصّعود إلى الصحن بواسطة سلّم صاعد يحتوي على خمس درجات بالنّسبة للمدخل الأوّل وستّ درجات في المدخل الثّاني . هناك مدخل آخر ثانوي في الجهة الغربية عبارة عن ممرّ صاعد عرضه 1,80 م يُستعمل فيما يبدو بالخصوص لنقل التمور المتعلقة بالأوقاف والواردة إلى المسجد بواسطة الدواب .

أعتقد أنّ فكرة بناء المسجد في مستوى أعلى من الشارع تعود أصلا إلى إبعاد المقدّس من المدنّس وجعل الأماكن الطّاهرة معزولة عن الأماكن المدنّسة .

الصحن ذو مخطّط منحرف الشّكل ، يتّسع طوليا (الشكل رقم : 13) ، فيبلغ طول ضلعيه الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي 21,40 م ، وضلعه الجنوبي الشرقي 12,40 م ، أمّا ضلعه الشّمالي الغربي فيبلغ 17,40 م . ويحيط بالصحن رواق من المجنبتين ومن المؤخّرة ورواقان من جهة القبلة (الشكل رقم) وقد شُيّد على نفس التّصميم طابق آخر من الأروقة (اللوحة رقم : 26) فوق الأروقة الأرضية . وترتكز سقوف هذه الأروقة على دعامات مستطيلة ومربعة الشكل بواسطة عقود نصف دائرية . استغلّ الطّابق الأوّل من الأروقة كبيت للصلاة خاصّ للنّساء .

إذا ما ألقينا نظرة على شكل وتقنية بناء دعامات الرواق الجنوبي الشرقي ، فنجد أنها تختلف عن الدّعامات الأخرى التي تبدو من حيث تقنية بنائها أنها حديثة العهد ومن هنا نستنتج أنّ الصحن قد تعرّض لعملية توسيع ، ولكن لا يمكننا تحديد هذه الإضافة بالضّبط . وما يمكن قوله هنا أنّ الرواق الجنوبي كان يمثّل الجزء القديم من الصحن . وعلى غرار المساجد الإباضية في مزاب ، يحتوي الجدار الموالي لبيت الصّلاة لهذا الرواق على محراب عبارة عن تجويف عرضها 0,85 م ، وعمقها 1,08 م .

جـ – بيت الصلاة :

يتمّ الدّخول إلى بيت الصّلاة عن طريق أربعة مداخل ؛ ثلاثة منها من جهة الصحن أي من الجهة المقابلة لجدار القبلة ، ويتراوح ارتفاع هذه الأبواب 2,10 م و2,25 م ، وتتكوّن من باب ذي دفتين خشبيتين ، وأمّا المدخل الرّابع فيقع في وسط الجدار الشّمالي الشرقي لبيت الصّلاة ويسمح للوافد إلى المسجد بالدّخول مباشرة إلى بيت الصّلاة دون المرور على الصحن .

تتربّع بيت الصّلاة ذات المخطّط المستطيل الشّكل على مساحة تقدر بحوالي 1753,43 م^2 ، وتنقسم إلى ثلاث وعشرين أسكوبا موازية لجدر القبلة وتسع بلاطات عمودية عليه ، ممّا يعطي منظرا متميزا أساسه عنصر الدّعامات ، بحيث تجعل المرء يندهش أمام ذلك العدد اللاّمتناهي من الدعامات ، ويحسّ نفسه داخل غابة كثيفة من الدعامات . وتقوم البلاطة الوسطى المستعرضة أو ما يطلق عليه اسم المجاز القاطع (الشكل رقم : 13 واللوحة رقم : 27) بتقسيم بيت الصلاة إلى قسمين .

لقد تعرّضت بيت الصّلاة لعدّة إضافات يمكن تحديدها اعتمادا على تقنيّة البناء والعناصر المعمارية وهذا في ظلّ غياب الوثائق . واستنادا على عنصر المحراب القديم وطراز العقود (اللوحة رقم : 29) تمكّنت من تحديد معالم النواة الأولى لبيت الصّلاة التي كانت تتألّف من سبعة أساكيب موازية على جدار القبلة وأربع بلاطات عمودية عليه . وقد تمّ توسيع بيت الصّلاة في فترة زمنية مجهولة ، إذ أُضيف إلى النواة الأولى أسكوبان نحو الجهة الجنوبية الشرقية وبلاطة واحدة من الجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية (الشكل رقم : 13) . كما توسّعت بيت الصّلاة – فيما يبدو – في بداية القرن العشرين نحو الجهة الجنوبية الغربية ، بإضافة أربع بلاطات ويشير أبو اليقظان إلى هذه الإضافة في إحدى قصائده التي نظّمها سنة 1929 م بقوله :

لـــكن مسجـــدنا غدا يتطوّر	الأحوال لا يكفي لنيل مرام
فتشاوروا في الأمر فاتفقوا عـــلى	رأي سديد لم يشب بخصام
قاموا كـــفرد واحد بالجـــدّ في	تحسين بيت المالك العلاّم [15]

أُجريت ثلاثة توسّعات بعد ذلك في بيت الصّلاة في فترة تولّي الشيخ إبراهيم بيوض رئاسة حلقة العزّابة في مدينة القرارة . وكلّ هذه الإضافات كانت نحو جهة القبلة، ثمّ تلاها توسّع أخير سنة 2001 م .

تسير البوائك داخل بيت الصّلاة خاصّة في الجزء القديم منه في اتّجاه عمودي وموازٍ لجدار القبلة محدّدة بذلك فضاءات صغيرة مغطّاة بأقبية في الأجزاء القديمة ، بينما غطّيت الأجزاء الحديثة بسقوف مسطّحة ، استعملت في بنائها مواد حديثة مثل الإسمنت والحديد . .وترتكز هذه الصفوف من العقود مباشرة على

---

[15] - أبو اليقظان : نفس المرجع السابق ، ص : 36 – 37 .

مجموعة هائلة من الدّعامات المستطيلة والمربّعة الشّكل ، يبلغ ارتفاع الدّعامات القديمة حوالي 0,65 م ، بينما يتراوح ارتفاع الدّعامات الحديثة ما بين 1,80 م و0,85 م .

تُرك في الجهة الشمالية الشرقية من الجزء القديم فضاء واسع مغطّى بسقف مسطّح يدخل في تكوينه جذوع النخيل وجريده . يستغلّ هذا الفضاء لمدارسة وتلاوة القرآن الكريم في شكل حلقة .

تتقدّم المداخل الثلاثة المؤدّية إلى للصحن قباب صغيرة مفلطحة مضمرة داخل السّقف . يزين القبّة الوسطى من الدّاخل آنية فخارية صغيرة بحيث تتجمّع أربعة أواني صغيرة عند مفتاح القبة وتحيط بها مجموعة أخرى من الأواني الفخارية التي تتألّف من أربعة أواني (اللوحة رقم : 28) ، وتزين حافة القبّة خطوط منكسرة . وهنا لا بدّ من الإشارة إلى تلك القبّتين الصغيرتين المضلّعتين اللتين تبرزان فوق السطح ، بحيث تقدّمان صورة مشوّهة لمنظر المسجد العام ، لكونهما لا تنسجمان مع النّمط المعماري الأصلي .

يتوسّط جدار القبلة محراب حديث العهد ، عبارة عن تجويف ذو مخطّط مضلع الشّكل يبلغ عرضه 1,50 م وعمقه 1,26 م ، وإلى يمين المحراب يوجد منبر خشبي مع فتحته التي تأويه . وبالرّغم من التوسّعات المتتالية نحو جهة القبلة ، إلاّ أنّ البنّاء حافظ على المحراب الأصلي ولو بجزء منه ، فيظهر على شكل فتحة نافذة معقودة بعقد نصف دائري ، ويبلغ عرضها 0,90 م ، وارتفاعها 1,90 م (اللوحة رقم : 29) . وهنا يؤدّي بنا الحديث إلى طرح تساؤل نراه مهمّا حول ما آلت إليه بقية المحاريب الأخرى ؟ ولماذا تمسّك إباضية القرارة بالمحراب الأصلي فقط وتخلّوا عن المحاريب الأخرى ؟ فمن المفروض حضور محاريب أخرى تبعا

للإضافات نحو جهة القبلة ، لكن يبدو أنّ البنّاء أراد هنا المحافظة فقط على المحراب الأصلي الذي يعدّ في نظره دليل تاريخي لأصالة المسجد ، ويحمل قيمة تاريخية بالنّسبة للمجتمع القراري ، ومن هذا المنطلق أهمل بقية المحاريب ولم يتردّد في هدمها ومحوها نهائيا . ولم نعثر على ما يدلّنا على وجود المنبر في الأجزاء القديمة من المسجد ، بينما نلاحظ حضوره إلى جانب المحراب في الجزء الحديث .

فُتحت في جدران الجزء الحديث من المسجد نوافذ مستطيلة الشّكل كبيرة الأبعاد قصد الاستفادة من الضوء والهواء بقدر كاف . كما فُتحت كوّات عديدة في جدران الجزء القديم من بيت الصّلاة وفي بدن الدّعامات ، وتستعمل هذه الكوّات لوضع نوى التّمور التي توزّع على دارسي القرآن الكريم ، وكذلك التيمّم والمصاحف والأحذية . كما تبرز في الأجزاء العليا لدعامات الجزء القديم نتوءات في شكل رفوف صغيرة تستخدم لوضع آنية الإنارة .

د – المـــئذنـــة :

بسبب النّزاعات والصّراعات التي نشبت بين أولاد باخة (مؤسّسو القرارة) وأهالي قصر المبرتخ والتي انتهت بتخريب كلّي لقصر المبرتخ ، تبرأ سكان وادي مزاب (المدن الخمسة) من أولاد باخة ، ولهذا رفض أعضاء عزّابة هذه المدن حضور وضع الحجر الأساس لبناء مئذنة المسجد ، إذ يعدّ حضورهم هذا الاحتفال بمثابة اعتراف بالقصر الجديد . ونظرا لهذا تمّ تأجيل بناء هذا المعلم لمدّة أربعين سنة بعد تأسيس مدينة القرارة بعد أن أدّوا الدّيات المفروضة عليهم ، ورفعت البراءة عنهم ، وقد شيّدت المئذنة سنة 1080 هـــ / 1670 م [16].

[16] - يوسف الحاج سعيد : نفس المرجع السابق ، ص : 62 - 63

تقع المئذنة في الرّكن الشّمالي للمسجد ، ولمسايرة نمط مآذن وادي مزاب أخذت شكلا انسيابيا من الخارج ، فتبدو الجدران الأربعة للمئذنة مائلة نحو الدّاخل ، بحيث تضيق المئذنة كلّما ارتفعت نحو الأعلى (اللوحة رقم : 30) ، وتنفتح في جدرانها عدّة فتحات صغيرة على هيئة مزاغل تعمل على إدخال الضّوء والهواء إلى الدّاخل . ويبلغ الارتفاع الكلّي لهذه المئذنة 21,90 م .

وتتألّف المئذنة من الداخل من قاعدة تقترب من الشّكل المربّع (5,40 × 5 م^2) وستّة طوابق (الشكل رقم : 14) . ويتمّ الولوج إلى داخل المئذنة بواسطة مدخلين ؛ الأوّل من الرواق الجنوبي الشرقي للصحن ، والثّاني من سطح المسجد . وتتكوّن المئذنة في الدّاخل من نواة مركزية مستطيلة الشّكل (1,50 × 1 م^2) (الشكل رقم : 15) وتضيق هي الأخرى كلّما زادت في الارتفاع ليصل أبعادها في الأعلى إلى (0,35 ×0,35 م^2) ، ويلتفّ حول هذه النواة سلّم صاعد يشتمل على 83 درجة، يؤدّي إلى الطّوابق العليا .

وتنتهي المئذنة في الأعلى بجوسق مغطّى بقبّة صغيرة يبلغ قطرها 0,70 م ، يوجد في مركزها (مفتاح القبّة) قبيبة في شكل إناء فخاري قطره 0,40 م وعمقه 0,25 م . وفُتحت على جدران الجوسق أربع فتحات معقودة بعقد نصف دائري يتمثّل دورها في إيصال صوت المؤذّن إلى كلّ أرجاء المدينة . ويبلغ عرض هذه الفتحات 0,40 م ، وارتفاعها 0,50 م .

وتنطلق من أركان الجوسق أربعة أعمدة صغيرة على شكل نتوءات منتفخة في الأسفل وضيّقة في الأعلى متوّجة المئذنة (اللوحة رقم : 30) ، ويبلغ ارتفاعها حوالي 1,20 م .

تقع المئذنة في الرّكن الشّمالي للمسجد ، ولمسايرة نمط مآذن وادي مزاب أخذت شكلا انسيابيا من الخارج ، فتبدو الجدران الأربعة للمئذنة مائلة نحو الدّاخل ، بحيث تضيق المئذنة كلّما ارتفعت نحو الأعلى (اللوحة رقم : 30) ، وتنفتح في جدرانها عدّة فتحات صغيرة على هيئة مزاغل تعمل على إدخال الضّوء والهواء إلى الدّاخل . ويبلغ الارتفاع الكلّي لهذه المئذنة 21,90 م .

وتتألّف المئذنة من الداخل من قاعدة تقترب من الشّكل المربّع (5,40 × 5 م^2) وستّة طوابق (الشكل رقم : 14) . ويتمّ الولوج إلى داخل المئذنة بواسطة مدخلين ؛ الأوّل من الرواق الجنوبي الشرقي للصحن ، والثّاني من سطح المسجد . وتتكوّن المئذنة في الدّاخل من نواة مركزية مستطيلة الشّكل (1,50 × 1 م^2) (الشكل رقم : 15) وتضيق هي الأخرى كلّما زادت في الارتفاع ليصل أبعادها في الأعلى إلى (0,35 ×0,35 م^2) ، ويلتفّ حول هذه النواة سلّم صاعد يشتمل على 83 درجة، يؤدّي إلى الطّوابق العليا .

وتنتهي المئذنة في الأعلى بجوسق مغطّى بقبّة صغيرة يبلغ قطرها 0,70 م ، يوجد في مركزها (مفتاح القبّة) قبيبة في شكل إناء فخاري قطره 0,40 م وعمقه 0,25 م . وفُتحت على جدران الجوسق أربع فتحات معقودة بعقد نصف دائري يتمثّل دورها في إيصال صوت المؤذّن إلى كلّ أرجاء المدينة . ويبلغ عرض هذه الفتحات 0,40 م ، وارتفاعها 0,50 م .

وتنطلق من أركان الجوسق أربعة أعمدة صغيرة على شكل نتوءات منتفخة في الأسفل وضيّقة في الأعلى متوّجة المئذنة (اللوحة رقم : 30) ، ويبلغ ارتفاعها حوالي 1,20 م .

4 – مئذنة مسجد بريان :

تعدّ هذه المئذنة العنصر المعماري الوحيد الذي نجا من الهدم لذا أردت إدراجه ضمن الرسالة كوسيلة للمحافظة عليه قبل أن يلقى نفس المصير .

يحتّل مسجد بريان القديم موقعا إستراتيجيا كباقي مساجد المنطقة في أعلى قمّة الهضبة التي تتدرّج فوقها مباني المدينة .ولكنّه تعرّض للهدم الكلّي وأُعيد بناؤه من جديد خلال الخمسينيات ، ولم يبق من ذلك المسجد القديم سوى المئذنة التي رمّمت سنة 1941 م لهذا فقد اقتصرت دراستي لهذا المسجد على المئذنة فقط .

يذكر مارت وايدموند غوفيون M et E Gouvoin أنّ المئذنة كانت تحمل لوحة تذكارية كتبت بخط رديء ، وتحوي النقيشة نصّا كتابيا يشير إلى تاريخ تشييد المئذنة الذي يعود إلى سنة 1101 هـــ / 1688 م [17] لكنّنا لم نجد لهذه اللّوحة من أثر ، فيبدو أنّها طمست معالمها أثناء عملية الترميم ، عندما تمّت تكسية جدران المئذنة .

تقع المئذنة في الجهة المقابلة لجدار القبلة أي في الجهة الشّمالية الغربية ، وتأخذ في مظهرها الخارجي شكلا هرميا ناقصا ، وذلك ناتج عن ميلان واجهاتها الأربعة نحو الدّاخل في شكل انسيابي وهكذا تتقلّص أبعادها كلّما ارتفعت نحو الأعلى (اللوحة رقم : 31) . ويبلغ ارتفاعها الكلّي حوالي 19,50 م .

وتتكوّن المئذنة من الداخل من قاعدة مربّعة وستّة طوابق (الشكل رقم : 16) . ويتمّ الدّخول إلى داخلها عن طريق بابين ؛ الباب الأوّل يؤدّي إلى داخل الطّابق الأرضي (القاعدة) الذي يمثّل القاعدة ، ويبلغ عرضه 0,61 م ، وارتفاعه 1,68 م ، أمّا الباب الثّاني فيسمح بالدّخول إلى الطّابق الثّاني من سطح بيت الصّلاة .

---

[17] - Marth et Edmond Gouvion : Op.cit , p : 228 .

و القاعدة ذات مخطّط غير منتظم الشّكلُ (الشكل رقم : 17) يتراوح طول أضلاعها من الدّاخل ما بين 2,70 م و2,47 م ، وتتألّف من نواة مركزية غير منتظمة الشّكل يتراوح أضلاعها ما بين 0,66 م و1,12 م .

ويتمّ الصّعود نحو الطّوابق العليا بواسطة سلّم صاعد يشتمل على 86 درجة ، يلتفّ حول النواة المركزية بشكل حلزوني . وتغطّي الدّرج سقوف عبارة عن أقبية نصف برميلية .

وتنتهي المئذنة في الأعلى بجوسق مغطّى بقبّة صغيرة تشكّل عند مفتاحها عبارة عن تجويف عن إناء فخاري ، يبلغ قطره 0,32 م ، وعمقه 0,25 م (الشكل رقم : 16) . وتتمثّل وظيفة هذا الإناء في ترديد صوت المؤذّن الذي يخرج عن طريق أربع فتحات منفّذة في جدران الجوسق ، ويبلغ عرض هذه الفتحات 0,58 م ، وارتفاعها 0,42 م ، ويصل علو الجوسق إلى 2 م .

الفصل الثاني

المدارس والمصليات الجنائزية والمقامات

أولا : المدارس

ثانيا : المصلّيات الجنائزية

1 – المصلّيات المغطّاة

2 – المصلّيات المكشوفة

ثالثا : المقامات

أوّلا : الـــــمدارس

منذ أن استقرّ الإباضيون بمنطقة وادي مزاب عملوا على نشر تعاليم الدّين الإسلامي الحنيف وتعاليم مذهبهم بخاصّة وتعليم اللّغة العربية وفنونها ، و قد اعتمدوا في ذلك على نظام تربوي خاصّ ، وشيّدوا لذلك منشآت أُطلق عليها اسم المدارس أو المحاضر ، ويقوم بتكريس هذا النّظام و السّهر على السّير الحسن للمناهج المسطّرة داخل المؤسّسات التعليمية هيئة إدارية وتدريسية سنتطرّق إليها في الباب الثالث . وقد اعتمدت هنا على نموذجين ممّا تبقّى من هذه المنشآت .

1- مدرسة بلحسن :

تعدّ من ملحقات مسجد غرداية العتيق وتقع على يمين الدّاخل إلى المسجد من المدخل الشّمالي الغربي ، و يبقى تاريخ تشييد هذه المدرسة مجهولا إلاّ أنني بعد ملاحظتي لجذوع النخيل المستعملة في التسقيف تبيّن لي أنّ هذه المادّة استقدمت من أماكن بعيدة وحسب الرواية الشعبية فقد جيء بها من مدينة ورقلة ، ويدلّ على ذلك تلك الثّقوب الموجودة عليها و التي تستعمل لتمرير الحبل و ربطه على ظهر الجمل ، فهذه المادّة تجعلني أتساءل لماذا جلب المزابيون هذه المادّة من أماكن بعيدة رغم توفرها في المنطقة ؟ . يبدو أنّ المزابي لم يلجأ إلى منطقة بعيدة لجلب هذه المادّة إلاّ لعدم توفّرها أو قلّتها في المنطقة ، وهذا ما يؤكّد أنّ مدينة غرداية كانت في بداية نموّها ، و من هنا نستنتج أنّ المدرسة شيّدت بالتقريب فيما بين القرن 5 هـــ و 6 هـــ / 11 م و 12 م .

وفيما يخصّ إطلاق تسمية مدرسة بلحسن على هذا المعلم الأثري ، فقد حاولت البحث عن أصل التّسمية ، و قد قُدّم لي تفسير من طرف مسؤول المدرسة

مفاده أنّ بلحسن تعني الحَسَن و الخير . ولكن هذا التّفسير لم يشف فضولي ، بل أعتقد أنّ التّسمية تعود إلى شخصية عالمة أصبحت في ذاكرة النّسيان بمرور الزّمن .

تتألّف المدرسة من طابقين : طابق أرضي و طابق علوي .

أ – الطابق الأرضي :

يتمّ الدّخول إلى داخل الطّابق الأرضي عن طريق مدخل يبلغ عرضه 1م ، وارتفاعه 1,80 م ، ويقع عند تفرّع ممرّ المدخل الشّمالي الغربي للمسجد (الشكل رقم 5) . ويفصل بين المدخل و الفضاء المركزي للطّابق الأرضي جدار عبارة عن ستار يحجب عين النّاظر من المارّة عمّا يجري في الدّاخل ، و ذلك كما هو الحال في عمارة المساكن و يقوم هذا الجدار بعزل الطلبة عن الوافدين من المصلّين إلى المسجد.

ويتكوّن الطّابق الأرضي من فضاء مركزي ، وتنفتح نحوه فضاءات غير منتظمة الشّكل من ثلاثة جوانب (الشكل رقم : 18) . وهنا تطلّ هذه الفضاءات نحو الفضاء المركزي بواسطة عارضات خشبية تتكوّن من جذوع النخيل ، وترتكز على دعامات و دعامات جدارية .

يوجد إلى جانب الدّعامة الجدارية في أحد أركان الفضاء المركزي ، دكّة مبنية من الحجر يجلس عليها الشيخ لإلقاء الدّروس على الطلبة . كما تحاذي أغلب جدران الطّابق السفلي دكّة حجرية مبنية بالحجارة (اللوحة رقم 31 و 32) .

ويبدو أنّ تقسيم الطّابق السّفلي إلى فضاءات منعزلة تطلّ على فضاء مركزي ، كان تبعا للنّظام التّربوي المتّبع لدى المزابيين و الذي يوزّع الطلبة حسب أعمارهم ومستوياهم العلمية إلى ثلاثة مجموعات .

و إلى جانب الدّعامات الجدارية تقوم دعامتان غير منتظمتي الشّكل بحمل ثقل السّقف الذي يدحل في تكوينه جذوع النخيل وجريدها والتّربة الطينية .

إنّ ما يلفت الانتباه هنا عدم وجود أيّة فتحة على جدران المدرسة ، فكيف إذن تتمّ تهوية و إضاءة المكان ؟ إنّ المنفذ الوحيد للهواء يتمثّل في الفتحات الأربعة الموجودة في الطّابق الأرضي و هذه الفتحات غريبة في شكلها و لا نجد لها مثيلا في عمارة مزاب سواء في المساكن أو في المساجد ، وهي عبارة عن فتحين مستطيلتين و متجاورتين و أخريين أقلّ حجما محاذيتين للدّعامة أي بعدد أربعة (الشكل رقم : 18) ، و لهذه الفتحات أغطية فريدة من نوعها ، مصنوعة من جذوع النّخيل لها مقبض حديدي (الشكل رقم : 20) .

وقد فُتحت على جدران الطّابق الأرضي عدد من الكوّات إمّا معقودة بعقد نصف دائري أو مستطيلة الشكل ، و تستعمل لأغراض مختلفة منها ما هو مخصّص لوضع الكتب ، ومنها ما هو مخصّص لوضع الأحذية أو لوضع قناديل الإنارة .

إنّ ما يمكن ملاحظته في هذا الطّابق ، الأرضية ذات المستويات المختلفة فالجانب الجنوبي الغربي يوجد في مستوى أعلى عن أرضية الفضاء المركزي . وأمّا الجانب الشّمالي الغربي فيوجد في مستوى أدنى . لقد تغلّب المعماري المزابي بالرّغم من نقص الإمكانات الإنشائية لديه على مشكل اختلاف المستويات الناتج عن طبيعة الأرض الصخرية التي شيّد المعلم فوقها ، و ذلك بإنشاء سلالم صاعدة أو نازلة تتكوّن من درجة أو درجتين .

وأخيرا لابدّ من الإشارة إلى ذلك الموقد الذي يتوسّط الفضاء المركزي ، ويستعمل إمّا للإنارة أو للتّدفئة في الأيام الباردة من فصل الشتاء .

ب – الطّابق العلوي :

يتمّ الصعود إلى الطّابق العلوي عبر سلّم يتكوّن من عدد من درجات .

يشتمل الطّابق العلوي (الشكل رقم : 19) على فضاء مفتوح نحو السّماء ، محاط من الجوانب الثّلاثة بثلاث فضاءات (أروقة) ذات مستوى منخفض مقارنة بأرضية الفضاء المفتوح ، وهذه الفضاءات مفتوحة نحو الفضاء المركزي المكشوف بواسطة العارضات التي تقوم بمساندة السّقوف ، و ترتكز هذه العارضات على دعامات على شكل حرف L اللاّتيني أو شبه منحرفة ، كما تستند السّقوف المتكوّنة من جذوع النّخيل و جريدها من جهة أخرى على دعامات جدارية . لقد شُكّلت في جدران هذا الطّابق عدّة كوّات ذات أبعاد مختلفة ، و تكون إمّا مستطيلة الشكل أو معقودة بعقد نصف دائري ، وتُستغلّ هذه الكوّات لوضع أغراض مختلفة .

2- مدرسة السّاسي :

- تقع مدرسة السّاسي على يمين الدّاخل إلى المسجد من المدخل الشّمالي الغربي ، وتجاور مدرسة بلحسن السّابق ذكرها . إنّ تاريخ تشييد هذه المدرسة يبقى مجهولا حتى في الذّاكرة الشّعبية ، و لكن من خلال تقنية بنائها يتبيّن أنّها حديثة العهد مقارنة بمدرسة بلحسن ، و يبدو أنها شيّدت في نفس تاريخ بناء المئذنة الكبيرة ، و من هنا يمكن القول إنّ المدرسة تعود إلى القرن التّاسع الهجري الخامس عشر الميلادي . وأمّا بالنّسبة إلى التّسمية فلا يعرف عن أصلها شيء ، حتى في الذّاكرة الشّعبية . و لا أظنّ أنها مجرد تسمية فقط ، فمن هو السّاسي و لماذا سميت بهذا الاسم؟ لقد حاولت البحث و الإجابة عن هذه الأسئلة إلاّ أنني لم أصل إلى إجابة مقنعة ، لتبقى هذه الأسئلة تحتاج إلى البحث والتقصّي .

- تتألّف المدرسة من طابقين : طابق أرضي و طابق علوي (الشكل رقم : 21 و 22) .

أ – الطّابق الأرضي :

يتمّ الدّخول إلى الدّاخل عن طريق باب يقع في الجانب الأيمن من الممرّ الشّمالي الغربي المؤدّي إلى صحن المسجد .

ويقوم جدار مقابل للمدخل بحجب عين المارّة من المصلّين الوافدين إلى المسجد (اللوحة رقم : 33)، عمّا يجري داخل المبنى .

تشتمل المدرسة على فضاء مركزي تحدّده الدّعامات المختلفة الأشكال و الأبعاد التي يصل ارتفاعها إلى 1,76 م . تحيط بالفضاء المركزي أربعة فضاءات أخرى (الشكل رقم :21) ، فثلاثة منها منفصلة عن بعضها ؛ فضاءان في الجهة الجنوبية الغربية ، و واحد في الجهة الشّمالية الغربية، و كلّ فضاء هنا مخصّص لفئة معيّنة من الطلبة ، أمّا الفضاء المركزي و الفضاء المجاور له في الجهة الجنوبية الشرقية ، فيستغلّ لجلسات الشيخ مع الطلبة . وتنفتح الفضاءات الجانبية نحو الفضاء المركزي بواسطة عارضات من جذوع النّخيل تستند إلى دعامات جدارية .

فُتحت على جدران الطّابق الأرضي كوّات مختلفة الأحجام و الأبعاد (اللوحة رقم: 36) يتراوح عرضها ما بين 0,15 م و0,90 م . تؤدّي هذه الكوّات أدوارا مختلفة فهي مخصّصة لوضع الأثاث أو الكتب أو الأحذية . لا تحتوي جدران هذا الطّابق على أيّة فتحة نحو الخارج ، فكيف تتمّ إذن تهوية و إضاءة المكان ؟ تؤمّن هذين العنصرين (الإضاءة والتهوية) ثلاث فتحات مستطيلة الشّكل نُفّذت في سقف الطّابق الأرضي : فتحتان في سقف الفضاء المركزي و واحدة في سقف الفضاء الجنوبي الغربي، ويتراوح عرض هذه الفتحات ما بين 0,45 م و0,75 م ، وأمّا طولها فيبلغ 1 م ، وقد استعمل في عملية التسقيف جذوع النّخيل التي وُضعت طوليا أو عرضيا .

ب - الطّابق العلوي :

يتمّ الصّعود إلى الطّابق العلوي عن طريق سلّم صاعد يوجد في الرّكن الشّمالي الغربي، ويضمّ عددا من الدرجات .

يتألّف هذا الطّابق من فضاء مفتوح نحو السّماء والذي تحدّده دعامات على شكل حرف L اللاّتيني (اللوحة رقم 36) . ويحيط من الجهات الجنوبية الشرقية والشّمالية الغربية رواق مغطّى بسقف مسطّح ، وقد استعمل في بنائه جذوع النّخيل وجريده ، ويرتكز هذا السّقف على أربع دعامات بواسطة عارضات خشبية متكوّنة من جذوع النّخيل . ويوجد فضاء آخر معزول مفتوح من جهة واحدة نحو الفضاء المكشوف (الشكل رقم : 22) ، و يرتكز سقفه على الدّعامات الجدارية بواسطة عارضات خشبية . وتتكوّن هذه العارضات من لوحين خشبيين من جذوع النّخيل .

أعتقد أنّ هذه الفضاءات تُستغلّ للتّدريس في أيام الشّتاء الباردة للاستفادة من ضوء الشمس وحرارتها .

فُتحت على جدران هذا الطّابق أيضا كوّات مختلفة الأحجام و الأبعاد ، يتراوح عرضها ما بين 0,15 م و 0,30 م ، ولا يتعدّى ارتفاعها 0,25 م .

إنّ المدرسة محصّنة كأنها حصن صغير وسط قلعة ، إذ يبلغ سمك جدرانها 0,70 م ، و ليس لديها أي اتّصال مع الخارج - نظرا لانعدام الفتحات - إلاّ عن طريق المدخل .

ثانيا : المصلّيات الجنائزية

أقصد بها تلك المصلّيات التي شيّدت وسط المقبرة ، و غالبا ما تحمل اسم أكبر فقهاء و علماء المدينة الذين ترأسوا حلقة العزّابة في مدينتهم لفترة زمنية معيّنة ، وقدّموا خدمات جليلة لمجتمعهم في ميدان التّعليم وإصلاح المجتمع ، ويكون ممثّلا لأحد الأعراش المشكّلة لمجتمعه ، لذلك نجد هذه المصلّيات تنتشر بكثرة في كلّ مدن المنطقة .

إنّ كلّ العشائر التي تنتمي إلى هذا الجدّ العالم تقوم بدفن موتاها في المقبرة المحيطة بالمصلّى من كلّ الجهات باستثناء جهة القبلة .

يمكن ملاحظة نوعين من المصلّيات الجنائزية في منطقة وادي مزاب .

النّوع الأوّل :عبارة عن مصلّيات جنائزية مغطّاة .

النّوع الثّاني :عبارة عن مساحات مكشوفة محاطة بسياج جداري قصير، يمكن أن نطلق عليها اسم المصلّيات الجنائزية المكشوفة

I – مصلّيات المقابر المغطّاة :

يتعلّق الأمر هنا بالمصلّيات المتواجدة وسط المقابر ، وتكون إمّا مغطّاة كلّيا ، أو جزئيا ، وتنتشر في كلّ مدن مزاب .

1– مصلّى عمّي إبراهيم :

يقع داخل مقبرة تحمل اسم عمّي إبراهيم وتقع بجوار مدينة العطف

أ – لمحة تاريخية :

ينسب هذا المصلّى الجنائزي إلى إبراهيم بن مناد من علماء مدينة العطف عاش في النّصف الأوّل من القرن 6 هـ / 12 م . عاصر الشيخين باعبد الرحمان الكرثي * و أبا جعفر مسعود * اجتهد في نشر المذهب الإباضي بمنطقة وادي مزاب باعتبار أنّ بعض السكان الأصليين كانوا إلى ذلك العهد على مذهب الواصلية المعتزلة [19].

و تنسب إلى هذا المصلّى رواية شعبية نقلها مانويل روش Menuelle Roche في كتابه مزاب ، و يروي أنّ بامسعود سُجن في جزيرة بعيدا عن أهله الذين كانوا يعتقدون أنّه ميتا ، و بعد أن صلّى صلاة العشاء نام ، و خلال نومه رأى رؤيا عظيمة . إذ رأى شيخا يمسك بيده عصا يقول له : << يا بامسعود ، أنا سيدي إبراهيم لقد أصبحت في ذاكرة النّسيان بعد وفاتي ، و لا أحد يتذكّرني . فهل تريد العودة إلى أهلك يا بامسعود ، فإذا أعطيتني عهدا من الله سأعطيك حريتك ، وآخذك إلى أهلك في مزاب .>> ويسترسل سيدي إبراهيم في حديثه << فإذا أصبح الغد أخذوك إلى ساحل البحر للعمل ، و سوف يقدمون لك حراسك اللّحم فاحتفظ به . و عندما يبتعدوا عنك أسرع بكل قوّاك في اتجاه البحر و أثناء فرارك ارم اللّحم للكلاب التي تتبعك ثمّ واصل السير نحو البحر ، واغمض عينيك [20] .

* هو عبد الرحمان الكرثي المصعبي المشهور باسم با عبد الرحمان ، يعدّ حسب المصادر الإباضية علماء الإباضية الأوائل بوادي مزاب عاش خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي ، كان يمارس نشاطه التعليمي والإصلاحي في مدينة مليكة ، لا يزال المصلى الجنائزي الواقع في الجنوب الشرقي لمليكة يحمل اسمه .
ينظر جمعية التراث ، المرجع السابق ، مج : 3 ، ص : 512 – 513 .

* هو أبو جعفر مسعود الزناتي ولد ونشأ في فساطو بجبل نفوسة (ليبيا) انتقل مع أخيه الحاج محمد سنة 470 هـ / 1077 م إلى وادي مزاب . طلب منهم أهالي مدينة العطف النزول بينهم للاستفادة من علمه الغزير ، فأقام فيها سنتين ثمّ انتقل إلى مدينة غرداية ، وكان يتنقل يوميا إلى مليكة لإلقاء الدروس في مسجدها ليستقرّ فيها ويصبح سنة 485 هـ / 1092 م شيخ عزّابتها فُقد الشيخ في حادث غرق لباخرة الحجاج بالقرب من جزيرة مالطة سنة 501 هـ / 1107 م ، ليعود إلى وادي مزاب بعد خمس وعشرين سنة ، يعدّ هذا الشيخ جدّ عشيرة ويرّو .
ينظر جمعية التراث : المرجع نفسه ، مج : 4 ، ص : 867 – 868 .

(19) - المرجع نفسه ، مج : 2 ، ص : 64 .

(20) - Manuelle Roche : Le M’zab , Arthaud , Paris 1970 , 93 – 94

و مقابل ذلك تعطيني عهدا أنّك عندما تصل إلى مدينة العطف تصعد نحو أعلى الهضبة و ترمي عصا في الهواء ، و حيثما تستقرّ تشيّد عليها مصلّى سيحمل اسمي >> .

لقد طبّق بامسعود كلّ ما قاله الشيخ في المنام ، و عندما استيقظ بعد ما غمض عينيه سمع من حوله صوت دارسي القرآن الكريم ، و لكنه لا يعلم مكان تواجده ، وكان بامسعود متدثرا بجلابيته و متكئا على دعامة . وبعد زمن قصير دخل الإمام إلى المسجد ، و عندما سمع صوته علم أنّه متواجد في مسجد مليكة ، و تقدّم الإمام ثمّ توقف وسط المسجد قائلا: << إنّ بيننا أحد إخواننا و أشمّ رائحة بامسعود >> . فقيل له مستحيل إنّ بامسعود مسجون منذ عشرون سنة ، و هو ميّت . و كرّر الإمام مقولته ثمّ أخذ ينتزع أغطية الرأس عن المصلّين الجالسين ، و حين وصل عند بامسعود ، أخذ هذا الأخير يقبّل يد الإمام فأنبهر النّاس لهذا الأمر [21].

و عندما قصّ عليهم بامسعود رؤياه تجمّع فريق من البنّاءين و توجّهوا معه إلى مدينة العطف ، فصعدوا إلى قمّة التلّ ، ثمّ رمى بامسعود بالعصا في الهواء فانغرست فوق تلّ رملي . فاحتار البناءون في كيفية البناء فوق تلّ رملي ، و في صباح الغد رأى البنّاءون أنّ التلّ الرملي أُزيح و بقيت العصا مغروسة فوق الصخر، فقرّروا في الحال بداية بناء المصلّى[22] و بهذا الشّكل بُني مصلّى عمّي إبراهيم حسب الأسطورة .

ب – الوصف المعماري :

يتقدّم المصلّى من واجهته الشّمالية الغربية ساحة ذات مخطّط غير منتظم الشكل محاطة بسياج جداري (اللوحة رقم : 38) .

---

(21) - Manuelle Roche : Op.cit , p : 95 .
(22) - Manuelle Roche : Ibid , p : 96 .

نظرا لوجود المصلّى في مستوى أعلى من أرضية الساحة ، فإنّه يتمّ الصعود إلى الداخل بواسطة سلّم صاعد يتكوّن من درجتين .

المصلّى ذو مخطّط غير منتظم الشّكل (الشكل رقم : 23) يتّجه طوليا نحو القبلة ، ينفتح المصلّى نحو السّاحة المكشوفة بواسطة بائكة تتكوّن من ثلاثة عقود نصف دائرية (اللوحة رقم : 39) ترتكز على دعامتين مربعتين طول ضلعهما 1 م.

وينقسم بيت الصّلاة في الدّاخل إلى أربع بلاطات عمودية على جدار القبلة ، ونلاحظ هنا أنّ البوائك تسير في اتّجاه واحد و هو الاتّجاه العمودي . وترتكز البوائك المتكوّنة من عقود نصف دائرية على دعامات مربعة و مستطيلة الشّكل . وما يلاحظ في وضعية الدّعامات أنها غير منسجمة و غير متناسقة ، ربما يعود ذلك إلى فكرة توزيع الفضاءات المعمارية حسب الوظيفة . إذ جعل المهندس صفّ الدّعامات الأوسط يتقهقر نحو الخلف ليترك فضاء واسعا أمام جدار المحراب (الشكل رقم : 23) و هذا ما ولّد في نظري عدم التناسق والانسجام . و ما يدلّ على ذلك ، أنّ المسافات بين الدّعامات متقاربة، وتتراوح بين 0,85 م و 0,95 م . إنّ هذا الفضاء المعماري يُستعمل كمجلس قرآني ، ومن العادة أنّ المجالس القرآنية ولا سيّما تلك التي يجلس فيها أعضاء حلقة العزّابة لا تعترضها عارضة من دعامة أو عنصر معماري آخر وذلك انطلاقا من أنّ مدارسة وتلاوة القرآن الكريم عند الإباضية تتمّ في شكل حلقة ، وربما يرمز ذلك إلى الوحدة التي تجمع أعضاء الحلقة .

يستمرّ المصلّى في التوسّع نحو الجهة الجنوبية الغربية ، وقد أُضيفت لهذا الغرض دعامتان تقومان بتدعيم السّقف بواسطة عقود نصف دائرية . ولتحديد جهة القبلة فُتح محراب عبارة عن تجويف ذي مخطّط نصف دائري يبلغ عرضها 1,30 م ، و عمقها 0,61 م، أمّا ارتفاعها فيبلغ 1,50 م .

فُتح على جدران القاعة عدد هائل من الكوّات وضعت في صفّ أو صفين (اللوحة رقم : 40) و تُستعمل لوضع أغراض مختلفة .

استعمل في عملية تسقيف بيت الصلاة جذوع النخيل وجريدها .

– **الحجرات** : نشاهد في الجهة الجنوبية الغربية للمصلّى حجرتين متراكبتين الواحدة فوق الأخرى ، الحجرة السّفلى ذات مخطّط مربع الشكل (الشكل رقم : 23) ، يبلغ طول ضلعها 3 م . و نظرا لوقوع هذه الحجرة في مستوى أدنى من أرضية المصلّى ، فإنّه يتمّ الترول إليها عن طريق سلّم يشتمل على أربع درجات .

تقوم دعامتان مربّعتا الشّكل تقريبا ($0,80 \times 0,75$ م^2) بتقسيم هذه الحجرة إلى أسكوبين . وتعمل الدّعامتان اللّتان يصل ارتفاعهما إلى 1,28 م على حمل السّقف الذي هو عبارة عن أقبية نصف برميلية بواسطة ثلاثة عقود نصف دائرية .

يتوسّط جدار القبلة داخل الحجرة محراب عبارة عن تجويف مضلعة يبلغ عرضها 0,82 م ، وعمقها 0,83 م ، أمّا ارتفاعها فيصل إلى 1,55 م . وقد فُتحت على الجدران كوّات يبلغ عرضها 0,28 م ، وارتفاعها 0,22 م ، أمّا عمقها فيصل إلى 0,24 م . وتوجد داخل حنية المحراب كوّة يبلغ عرضها 0,32 م وعمقها 0,22 م ، أمّا ارتفاعها 0,33 م .

ويتمّ الدّخول إلى الحجرة العليا بواسطة مدخل عرضه 1,10 م ، و ارتفاعه 1 م . وتقوم دعامتان مستطيلتا الشكل ($0,41 \times 0,31$م^2) بتقسيم هذه الحجرة إلى قسمين (الشكل رقم : 24) . وتعمل الدّعامتان اللّتان يبلغ ارتفاعهما 0,45 م على مساندة السقف المتكوّن من جذوع النّخيل وجريدها بواسطة ثلاثة عقود نصف دائرية . و ما يلاحظ في هذه الحجرة أنّ سقفها المنخفض لا يزيد ارتفاعه عن

1,28 م ، وتساهم الفتحات الخمس المفتوحة في جدران الحجرة على إضاءة وتهوية المكان ، وأغلب الظنّ فإنّ هذه الحجرة كانت بمثابة خلوة لأحد الشيوخ .

– وفي الأخير لابدّ من الإشارة إلى المدخل الثّانوي الذي يوجد في الواجهة الشّمالية الغربية على محور مدخل الحجرة السّفلى ، يبلغ عرض هذا المدخل 1,20 م ، وارتفاعه 1,90 م ، ونظرا لتواجد أرضية المصلّى في مستوى أدنى من المدخل ، فإنّه يتمّ النزول إلى المصلّى عبر سلّم يشتمل على ثمانية درجات ، كما يجب أن أشير إلى أنّ كلّ المداخل ليست لها أبواب ، فيبقى بذلك التّساؤل مطروحا حول ما إذا كانت فعلا بدون أبواب منذ تأسيسها أو أنّها جرّدت منها .

2 – المصلّى الجنائزي بامحمد :

يقع وسط مقبرة يطلق عليها اسم بامحمد وتقع في جنوب شرق مدينة بني يزقن في سفح جبل بُوعْمَيّدْ .

أ – لمحة تاريخية :

صنّف محمد أطفيش الشيخ بامحمد ضمن أهل الخمسين الثّانية من المائة الثّامنة وهو محمد بن عبد العزيز المصعبي [23] الملقب بـــ [بامحمد]* بينما صنّفه الأب لويس دافيد ضمن علماء و مشايخ القرن الثّامن الهجري الرّابع عشر الميلادي [24].

و يقول محمد أطفيش عن جدّه الشيخ بامحمد : << قد كان جدّي محمد بن عبد العزيز ذا مال كثير و دفع دية عن بني يسجن ، فقالوا له : اشترط ، فاشترط

(23) - محمد أطفيش : الرسالة الشافية الكبرى ، مخ بمكتبة الحاج صالح لعلي ، ص : 80

* تضاف كلمة << با >> إلى الاسم في اللهجة المزابية لتعبّر عن السيد أو الشيخ وليست لها أية علاقة بالأسماء الخمسة

(24) - Louis David : Les Mechaichs du M'zab , Beni- Isguen et ses Mechaichs , Manuscrit Dactylographié , p : 1 ,

أمورا منها ؛ أنّ بناته و بنات بنيه ما تناسلوا إذا طلّق واحدة زوجها يعطيها ريالة ، أمّا البقية فصداق ، وإمّا متعة ، فلا بدّ أن يزاد عليها إن كان قدره أكثر >>[25] .

ويحكى أيضا حسب محمد أطفيش كذلك أنّ عدوا قصده فأورثه شجرة العنب . فيقال أنّ ذريته إلى الآن لا يحترقون حطب شجرة العنب[26] .

وقد اشتهر هذا العالم بالورع والتقوى وإليه تنسب الرواية الشعبية قضية توحيد القرى التي كانت متناثرة في واحة بني يزقن ، و بالتّالي تأسيس مدينة بني يزقن . ففي حالة ما إذا أخذنا بهذه الرواية ، يمكن القول إنّ الشيخ بامحمد قد عاش خلال القرن الثّامن الهجري وليس التّاسع الهجري كما ذكر محمد أطفيش . و ينسب إلى الشيخ بامحمد كذلك تأسيس المجلس التشريعي لوادي مزاب .

إنّ تاريخ تشييد هذا المبنى غير معروف ، لكن اعتمادا على الرواية السّابق ذكرها والتي توعز تأسيس مدينة بني يزقن إلى الشيخ بامحمد يمكن القول إنّ هذا المصلّى شيّد في نهاية القرن الثّامن الهجري و بداية التّاسع الهجري .

لقد طرأت على المبنى عدّة توسّعات و إضافات في فترات تاريخية غير معروفة ، لكن بملاحظة تقنية البناء يمكن تمييز ثلاثة مراحل بارزة .

إنّ النّواة الأولى للمصلّى في نظري تتمثّل في القاعة المعروفة باسم << قاعة بستشرى >> * لما تحمله من أوصاف مشابهة مع أغلبية المصلّيات الجنائزية الأولى في وادي مزاب ثمّ أضيف إليها جزءا من الجهة الشّمالية الشرقية المتّصل بها ، و أخيرا زيد في توسيعها إلى نفس الجهة لتعطي الشّكل النّهائي الحالي.

---

(25) - محمد أطفيش : المصدر السابق ، ص : 80 .

(26) - المصدر نفسه ، ص : 80

* باستشري بن أيوب بن عدون أصله من وارجلان ، وقيل من تافلالت المغربية ، وفد إلى بني يزقن وتولى مشيختها خلفا للشيخ بايزيد سنة 646 هـ / 1548 م وينسب إليه إنشاء قرية موركي و كان عالما وقد خلفه بعد وفاته في بداية القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي الشيخ بامحمد في مشيخة بني يزقن .
ينظر جمعية التراث : المرجع السابق ، مج : 2 ص: 154 – 155 .

أعتقد أنّ الشيخ اتّخذ قاعة بستشرى (الشكل رقم : 25) مكانا للتّدريس تقليدا لأسلافه من الإباضية و خاصّة إنّ هذه القاعة تمثل في تصميمها مصلّى حقيقيا ، كما أنّ بعد المكان عن التجمّع السكّاني يقتضي حمايته من كلّ طارئ ، لذلك كان لابدّ من إحاطته بجدران قويّة ، و هذا ما جعل المبنى يظهر على شكل حصن في حجم صغير ، وخاصّة إذا علمنا أن مدينة بني يزقن لم تصل بعد في ذلك العهد إلى حدود التوسّع الثاني* .

كما أنّ المجالس – في حالة ما إذا أخذنا بعين الاعتبار رواية استعمال المصلّى مقرّا لمجلس تشريعي – تقتضي السريّة وانغلاق المكان الذي يحتضن مثل هذه الاجتماعات . و بناء على هذا أعتقد أنّ الأجزاء المفتوحة نحو الصحن قد أضيفت بعد أن أصبح المكان يحتضن مقبرة ، وذلك بعد وفاة الشيخ باحمد وليس قبلها .

ب – الوصف المعماري :

يتربّع مصلّى باحمد على مساحة تقدر بحوالي 680 م^2 ، و يشتمل على الصحن وبيت للصّلاة وأروقة جانبية (الشكل رقم : 25) و سأتناول هذه الأجزاء كل على حذا.

ب-1 – الصحن :

يختلف الصحن هنا عمّا نعرفه عن الصحون في المساجد العادية ، إذ يظهر على شكل ساحة غير منتظمة الشكل تقدر مساحتها حوالي 130 م^2 ، يحيط بها سياج جداري لا يزيد ارتفاعه عن 0,70 م . ولوجود هذا المصلّى في مستوى أعلى من أرضية الممرّات المؤدّية إليه ، فإنّه يتمّ الدّخول إلى المصلّى بواسطة سلّم صاعد عبر

* شهدت مدينة بني يزقن أربع توسّعات في فترات تاريخية مجهولة ، ففي القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي امتدّت قرية تافلالت (النواة الأولى) إلى النّاحية الشّمالية الشرقية و الشرقية والجنوبية الشرقية ووصل حدود هذا التوسّع إلى شارع السّور ، أين يوجد مدخل يسمى بباب الغابة .

مدخلين؛ الأوّل في الجهة الجنوبية الغربية ، والثّاني في الجهة المقابلة له أي في الجهة الشّمالية الشرقية .

يتوسّط الصحن عمود على شكل هرم ، منتفخ في القاعدة ويضيق كلما زاد في الارتفاع نحو الأعلى . و يبلغ ارتفاع هذا العمود حوالي 2,50 م ، وقد غرست في قسمه العلوي أوتاد خشبية ، و يستغلّ هذا العمود لتعليق الأثاث الذي يستخدم أثناء أداء الشعائر الدينية * في هذا المصلّى .

ب-2 – بيت الصلاة :

يتكوّن بيت الصّلاة من قسمين (الشكل رقم : 25) ؛ فالقسم الأوّل عبارة عن قاعة تحدّدها جدران ، ويطلق عليها اسم << قاعة بستشري >> ، وأمّا القسم الثّاني فعبارة عن قاعة عريضة مفتوحة نحو الصحن بصف من البوائك من الجهتين الشّمالية الشرقية و الجهة الجنوبية الشرقية (اللوحة رقم : 44) .

<u>الجزء الأول من بيت الصلاة :</u> يتمّ المرور إلى داخل القسم الأوّل عن طريق مدخلين ، يتوسّط المدخل الأوّل تقريبا الجدار الشّمالي الغربي و يقع على محور بلاطة المحراب (الشكل رقم : 25) ويبلغ عرضه 0,80 م و ارتفاعه 1,50 م . ويؤمّن هذا المدخل الانتقال من الصحن إلى داخل القاعة . أمّا المدخل الثّاني فيتوسّط الجدار الشّمالي الشرقي و يبلغ عرضه 1,10 م ، و ارتفاعه 1,60 م ، و هذا المدخل يربط القاعة بالأجزاء الجانبية ، وأغلب الظنّ أنّ هذا المدخل فُتح بعد إضافة الأجزاء الجانبية .

* من عادات سكان وادي مزاب تلاوة القرآن الكريم في المصلّيات الجنائزية من شروق الشمس إلى غروبه في كل يوم الجمعة خلال فترات زمنية معينة من السنة ، وقد عُلق على هذه المصليات أوقاف وصدقات تقدم لدارسي القرآن الكريم والوافدين من عامة الناس .

يشكّل بيت الصّلاة مخطّطا غير منتظم الشّكل (الشكل رقم : 25) و تبلغ مساحته حوالي 150 م^2 وينقسم إلى سبعة أساكيب موازية لجدار المحراب وخمس بلاطات عمودية عليه ابتداء من المدخل الشمالي الشرقي .

تسير البوائك في اتّجاهين عمودي و موازي لجدار القبلة وتستند على مجموعة كبيرة من الدّعامات المستطيلة و المربّعة الشكل .

تتقاطع صفوف العقود العمودية بالموازية عند الدّعامات لتعطي فضاءات صغيرة غير منتظمة في شكلها بسبب غياب الانسجام و التّناسق في بناء الدّعامات . وقد غطّيت هذه المساحات الصغيرة بأقبية .

إلى جانب هذه الفضاءات الصغيرة يوجد فضاء واسع تبلغ مساحته حوالي 15 م^2 مغطّى بسقف مسطّح . ويسمح هذا الفضاء باستيعاب المجلس القرآني الذي يضمّ عادة كل أعضاء حلقة العزّابة ، ولعلّ هذا الفضاء كان يستخدم في المرحلة الأولى من بناء المعلم كمكان خاصّ لتقديم الدّروس للتلاميذ من طرف الشيخ باحمد .

يتوسّط جدار القبلة محراب عبارة عن تجويف ذي مخطط نصف دائري ، يبلغ عرضها 0,80 م ، وعمقها 1,30 م ، و يصل ارتفاعها إلى 1,85 م . وتتشكّل حنية المحراب في الأعلى من عقد نصف دائري .

فُتحت على جدران بيت الصّلاة ثمانية عشرة كوّة متفاوتة الأحجام في مستويات مختلفة يتراوح عرضها ما بين 0,35 م و 0,45 م ، و عمقها ما بين 0,45 م و 0,50 م ، أمّا ارتفاعها فيتراوح ما بين 0,45 م و 0,50 م ، وتُستخدم هذه الكوّات لوضع الأحذية أو الأثاث و حتى المصاحف .

ويتراوح سمك جدران هذا الجزء من بيت الصّلاة ما بين 0,40 م و 0,80 م .

الجزء الثّاني من بيت الصّلاة : لقد ذكرنا فيما سبق أنّ هذا القسم من بيت الصّلاة مفتوح نحو الصحن بواسطة بوائك (اللوحة رقم : 44) و يتألّف من مجموعة كبيرة من البوائك السائرة في اتجاه عمودي ومواز لجدار القبلة مما أعطى عددا كبيرا من البلاطات والأساكيب . و ما يزيد المرء اندهاشا ذلك العدد الهائل من الدعامات (اللوحة رقم : 44 و 45) وكأنها غابة داخل مصلى عنصرها الأساسي الدّعامات .

ينفتح هذا القسم في جزئه الشّمالي الشرقي نحو الصحن ببائكة تتكوّن من ثمانية عقود نصف دائرية ترتكز على ثمانية دعامات (اللوحة رقم : 44) ، بينما ينفتح الجزء الجنوبي الشرقي نحو الصحن ببائكة تتكوّن من خمسة عقود نصف دائرية ، تقطعها عارضتان ترتكز هذه العقود و العارضتان على سبعة دعامات (اللوحة رقم : 44) .

إنّ ما شدّ انتباهي تلك الفتحات المربّعة الشّكل التي تعلو الدّعامات المواجهة للصحن في الجزء الجنوبي الشرقي . و إنّ هذه الظّاهرة تقتصر على الواجهة الجنوبية الشرقية و لا تتكرّر في الواجهة الشّمالية الشرقية ، وتذكرنا بتلك الفتحات التي تعلو دعامات جامع ابن طولون[27] . و تعمل هذه الفتحات على توزيع ثقل السّقف على الركائز والعقود .

لقد أدّى تقاطع البوائك العمودية بالموازية عند الدّعامات إلى بروز فضاءات صغيرة مغطّاة بأقبية متقاطعة و نصف برميلية ، باستثناء الفضاء الذي يتوسّط واجهة الأروقة الجنوبية الشرقية ، أين استعمل السّقف المسطّح و أسلوب العارضات .

[27] - ينظر ثروت عكاشة : المرجع السابق، ص : 160 .

ويتبيّن من تقنية التسقيف المختلفة هنا تماما عن الفضاءات الأخرى أنّه قد تعرّض في زمن غير بعيد لتعديل من طرف الأهالي ، و قد أعطى هذا الترميم وجها مشوّها لهذه الواجهة أفقدها ذلك التّناسق المعماري (اللوحة رقم : 44).

فُتح في الجهة اليسرى من جدار القبلة محراب عبارة عن فتحة مجوّفة ذات مخطّط مضلّع يبلغ عرضه 0,70 م ، و عمقه 0,70 م ، أمّا ارتفاعه فيصل إلى 1,65 م . وينتهي المحراب في الأعلى بعقد نصف دائري .

وفُتحت في الجدران مجموعة كبيرة من الكوّات التي تستعمل لوضع الأحذية و الأثاث و قد جلب انتباهي تلك الكوّة التي توجد في الجدار الشّمالي الشرقي و التي يصل عمقها إلى 2, 05 م و يبدو من غياب التّكسية من على جدرانها و عدم صقلها ، أنّها كانت عبارة عن غار صغير أسفل الجبل استغلّ لوضع الأثاث المتعلّق بالشعائر الدّينية . وأمّا الكوّات الأخرى فيتراوح عرضها ما بين 0,35 م و0,45 م ، و عمقها لا يتعدّى 0,50 م . ولا يفوتني الإشارة إلى تلك الفتحات الصغيرة على مستوى مفاتيح بعض الأقبية .

يتمّ الصّعود إلى سطح المصلّى عن طريق سلّمين صاعدين يضمّان عدّة درجات يتواجدان في الجهة الجنوبية الغربية و الشّمالية الشرقية .كما يوجد إلى جانب الدّرج الشّمالي الشرقي صهريج مبني مباشرة في سفح الجبل تحت مستوى الأرض ليستقبل مياه الأمطار المنحدرة من الجبل و كانت هذه المياه تستغلّ للشّرب أثناء أداء الشعائر الدّينية في المصلّى و لاسيّما أنّ هذه الشعائر تقام في فصل الشتاء و لا أنسى تلك المراحيض التي تبعد عن المصلّى بحوالي 100 م .

3- مصلى عمّي سعيد :

يقع مصلّى عمّي سعيد شمال شرق مدينة غرداية ، وسط مقبرة في سفح هضبة تطلّ على وادي مزاب .

أ – لمحة تاريخية :

ولد عمّي سعيد بن علي بن يحي بن يدر سليمان بن عثمان الجربي ثمّ الخيري في أجيم بتونس ، كما جاء في ديباجة رسالة له سنة 825 هـ / 1421 م ، و بدأ تحصيله العلمي في مسقط رأسه ثمّ تتلمذ على يد الشيخ ابن النّجاة التعاريتي* . كما أخذ العلم عن أبي بكر بن عيسى البّرادى[28] .

لقد مرّت فترة عصيبة على إباضية وادي مزاب ، إذ تفشّى فيهم الجهل خلال القرن التاسع الهجري ، ممّا استدعى بعزّابة المنطقة إلى إرسال وفد إلى جربة بهدف استقدام عالم منها ، لمّا وصل الوفد المزابي إلى جربة قدّموا طلبهم ، فبعد تشاور العزّابة و أعيان جربة في طلب الوفد المزابي استجابوا لهم ثمّ وقع اختيارهم على الشيخ عمّي سعيد[29] .

قدم الشيخ إلى المنطقة فيما بين 884 ـــ 889 هـــ /1479 - 1484 م فانكبّ على نشر العلم و إرساء قواعده[30]. و قد شرع في التّدريس في المسجد العتيق بغرداية و في المسجد الذي يحمل اسمه بمجرّد وصوله إلى مزاب و استقراره فيه . و قد

---

* هو يونس بن سعيد بن يحي التّعاريتي الخيري الملقب بأبي النّجاة ، يعدّ من العلماء الفطاحل الإباضيين في الفتوى ، تفقه في علوم اللغة العربية وفي الشريعة الإسلامية . عاش خلال القرن العاشر الهجري ، أخذ العلم عن أبي القاسم زكرياء بن أفلح الصدغياني و أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم البرادي . تولى رئاسة حلقة العزّابة في جربة سنة 908 هـ / 1497 م . ينظر جمعية التراث : المرجع السابق ، مج : 4 ، ص : 1041 – 1042 .

(28) - بشير الحاج موسى : سعيد بن علي بن يحي الخيري الجربي ، مخطوط مرقون ، غرداية 2000 ، ص : 1 – 4 .

(29) - المرجع نفسه ، ص : 6 – 7 .

(30) - المرجع نفسه ، ص : 7 .

تخرّج من حلقاته علماء كثيرون ذكرت منهم المصادر اثنين فقط ؛ وهما ابنه صالح بن عمّي سعيد* و الشيخ أبي مهدي عيسى المليكي* .

بعد استقراره بالمنطقة فترة زمنية معيّنة تمكّن من فهم المجتمع المزابي ، و تعرّف على أسباب انحطاطه ، فشرع في إحداث نظام تعليمي للتلاميذ يضمن استمرارية الحركة العلمية ويُعرف هذا النّظام في اللّهجة المحلية باسم << إِرْوَانْ >> ، و سنّ لهذا النظام تنظيمات داخلية تقترب في جوهرها من تنظيمات حلقة العزابة يلتزم بها المنضمّون إليها ، كما خصّص لهذه الهيئة مقرّا يطلق عليه تسمية << دار التلاميذ >> [31].

قام الشيخ بنسخ عدد من الكتب منها الجامع لابن جعفر الأزكوي ، وكتاب الأفعال ، و مغنّي اللبيب عن كتب الأعاريب . و قد اقتصرت مؤلفات عمّي سعيد على جوا بات فقهية ، و رسائل إخوانية ، و منظومات شعرية في العقيدة والفقه . وربما يعود قلّة المؤلفات إلى انشغال عمّي سعيد بإصلاح المجتمع [32].

توفّى عمّي سعيد حسب ما جاء في مخطوط بخطّ ابنه عمرو بن سعيد في ليلة الاثنين 27 من جمادى الثّاني سنة 929 هـ/ 1521 م [33] .خلافا للتّاريخ الذي ذكره الأب دافيد المتمثّل في 898 هـ / 1492 م [34] .و قد عاش الشيخ عمّي سعيد حسب ما ورد في قصيدة له أكثر من 86 عاما يقول فيها ما يأتي :

---

* صالح بن عمّي سعيد بن علي بن يحي الجربي الخيري عالم من أعلام مدينة غرداية ، تولى مشيخة المدينة بعد سنة من وفاة والده . عمل على نشر العلم وإصلاح المجتمع ، وتوجد في غرداية مقبرة تحمل اسمه ، توفى سنة 949 هـ / 1542 م . ينظر جمعية التراث : المرجع نفسه ، مج 3 ص : 478 – 479 .

* ستأتي ترجمة هذا العالم عندما نتناول بالدّراسة .مدفنه الذي يقع بجوار مدينة مليكة .

(31) - بشير الحاج موسى : نفس لمرجع السابق ، ص : 9 - 10 .

(32) - المرجع نفسه ، ص : 10 .

(33) - المرجع نفسه ، ص : 2 .

(34) – Louis David : Les Mechaikhs du M’zab , IV Ghardaia , ses Mechaichs , p :2

كيف لا أنسى يا ذوي الدّين عمري ، أرذل والــشيب النذير علان

زاد عـــــمري عن الثمـــانين عاما ستة يا ذا العرش أصلح مكانا [35]

ب – الوصف المعماري :

يعود تاريخ بناء هذا المصلّى إلى ما بعد قدوم عمّي سعيد أي ما بين 889 ــ 929 هــ / 1484 - 1522 م إلى المنطقة ، إذ أتّخذ منه مكانا للتدريس . وقد أصبح بعد وفاته مقرّا لاجتماعات مجلس عمّي سعيد (مجلس العزّابة الأعلى) ، ويمكن أن يكون هذا المجلس قد حمل اسمه بعد وفاته تيمّنا و تبرّكا بالشيخ الذي يعدّ منقذ وادي مزاب من الجهل والظّلام .

ويعطي عوض خلفيات سببين أساسيين لتنظيم المجلس اجتماعاته في المصلّى :

أولا : بُعد المصلّى عن المدينة و هذا يضمن السرية للاجتماعات ، و بما أنّ المصلّى بُني في منطقة مكشوفة . فيمكن رؤية أي قادم نحو المكان و بالتّالي يحوّلون مسار نقاشهم بمجرد اقتراب الشخص القادم نحوهم .

ثانيا : نظرا لأنّ المجلس ينظر في الخلافات و النّزاعات بين المدن . فإنّ هيبة أو طبيعة المكان تذكّر دائما المجتمعين بيوم البعث و الحساب وتجعلهم يتّخذون القرارات بعدل وقسط [36].

لقد جرت بعض الإضافات و التعديلات على المصلّى خلال القرون الأخيرة . فيبدو من خلال تقنية البناء أنّ الجهة الجنوبية الشرقية و الشّمالية الشرقية من الرواق المحيط ببيت الصّلاة حديث النشأة مقارنة بالجانبين الآخرين .كما استحدثت حسب دوناديو قاعة خاصّة لغسل الموتى يعود بناؤها إلى سنة 1964 م [37] .

---

[35] - قصيدة في مدح شيخه أبي النجاة التعاريتي ، تضمّ اثنان وعشرون بيتا ، مخطوط بخطّ يد الشيخ عمّي سعيد .

[36] - عوض خليفات : النظم الاجتماعية ، ص : 54 – 55 .

[37] – C et P Donnadieu / H et J . M Didillon Op . cit , p : 91.

يتكوّن المصلّى من بيت الصّلاة و مجموعة من الأروقة المحاطة به . ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ بيت الصّلاة لم يجر عليه أي تعديل و لا إضافة بل احتفظ بنمطه المعماري ، رغم الترميمات المتواصلة على المبنى من قبل ديوان حماية وترقية سهل وادي مزاب .

يُشاهد جزء من الواجهة الجنوبية الشرقية مغمور في الأرض (اللوحة رقم : 46) ، بسبب تراكم الأتربة عليه بفعل العوامل الطبيعية . ويبلغ طول الواجهة الجنوبية الشرقية 37,50 م، ويتراوح ارتفاعها عن سطح الأرض ما بتن 0,20 م و 0,90 م . وفُتحت في هذه الواجهة فتحات عديدة عددها 16 فتحة تتفاوت في حجمها و أبعادها .

أمّا الواجهة الشّمالية الغربية فتظهر بنفس المظهر فالجزء البارز منها يصل ارتفاعه إلى 2,28 م ، أمّا الجزء المغمور منها بفعل تراكم الأتربة فيصل ارتفاعه إلى 0,28 م ، و تشتمل هذه الواجهة على عدد من الفتحات الصغيرة و يبلغ طول الواجهة 36,28 م .

ب – 1 – الممرّات الداخلية :

يتمّ الدّخول إلى المصلّى عبر خمسة مداخل ؛ فالمدخل الرئيسي يؤدّي إلى رواق طويل بواسطة سلّم يشتمل على ثلاث درجات ، ويبلغ عرض المدخل الرئيسي 1 م ، و ارتفاعه 3 م . والمدخل الثّاني يؤدّي إلى الرواق الشّمالي الغربي ويبلغ عرضه 1,60 م، و ارتفاعه 1,50 م . وأمّا المدخل الثّالث فيؤدّي إلى الرواق الشّمالي الغربي و يبلغ عرضه 1,50 م ، وارتفاعه 1,50 م . إنّ المدخل الرّابع و الخامس استحدثا مع بناء الرواقين الجنوبي الشرقي والشّمالي الشرقي و قد رُبط هذان الرواقان بالأروقة الأخرى .

يؤدّي المدخل الرئيسي إلى رواق طوله 11 م و عرضه يتراوح ما بين 1,20 م 2,35م ، وينتهي هذا الرواق عند فضاء واسع نوعا ما يبلغ طوله 40، 5 م و عرضه 3,50 م ، حيث فُتحت في جدرانه كوّات عديدة ذات أبعاد مختلفة (اللوحة رقم : 47) تستعمل لوضع الكتب أو آنية الإنارة أو نوى التّمر و يكون صغر أو كبر الكوّات على حسب الوظيفة التي تؤدّيها .

و اعتمادا على كبر مساحة هذا الفضاء وكثرة الكوّات على جدرانه يتبيّن لنا أنّ هذا الفضاء كان مخصّصا للتدريس ،كما نشاهد فتحات مختلفة الأبعاد كذلك تعمل على إدخال الضوء و الهواء إلى هذا الفضاء . و يعود اختلاف حجم هذه الفتحات في اعتقادي إلى أنّ بعضها كانت تستعمل للحراسة و المراقبة خاصّة إذا ما علمنا أنّ المبنى كان بعيدا عن التجمّع السكني للمدينة .

لا بدّ من الوقوف عند هذا الفضاء الذي خصّصه عمّي سعيد الجربي للتدريس واستُغلّ بعد وفاته لعقد اجتماعات المجلس الأعلى للعزّابة (الشكل رقم : 26 و اللوحة رقم : 47) . فلماذا اختار عمّي سعيد مكانا بعيدا عن التجمّعات السكنية لأداء مهمّة التعليم ؟ إنّ هذه الظّاهرة ترجع في جذورها إلى العهود الأولى لنشأة المذهب الإباضي إذ إنّ المشايخ الإباضية الأوائل اتّخذوا من المغارات البعيدة عن التجمعات السكّانية أماكن لتدريس تعاليم الدّين الإسلامي والفقه الإباضي هروبا من اضطهاد الولاّة لهم ، و من بين هؤلاء أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة و تقدّم لنا كتب السيّر والطّبقات أمثلة عديدة من هذه المغارات التي اتّخذها الشيوخ الإباضيون أماكن للتدريس بعيدا عن مشاغل الدّنيا ، ولاسيّما في شمال إفريقيا بعد الانتقال إلى مرحلة الكتمان .

و اقتداء بأسلافهم في الشرق فقد اختار الشيوخ الإباضيون في شمال إفريقيا مغارات كأماكن للتدريس بعيدة عن مشاغل الدّنيا و شهواتها ، و قدّم لنا أبو العباس الدّرجيني في كتاب الطّبقات أمثلة عديدة عن هؤلاء العلماء من بينهم أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النّفوسي[38] الذي اختار الاعتزال مع تلاميذه في غار تين ايسلي بوادي ريغ .

ويلي قاعة الدروس رواق يحيط ببيت الصّلاة من كلّ الجهات الأربعة . وقد غطّيت هذه الفضاءات من أروقة و قاعة الدّرس بسقف مسطّح يتكوّن عن جذوع النخيل وجريده و من جذوع الأشجار و خاصّة شجر المشمش (اللوحة رقم : 48) .

ب – 2 – بيت الصّلاة :

يتّخذ في تصميمه شكلا غير منتظم (الشكل رقم : 27) وتبلغ مساحته حوالي41 م^2 . يتمّ الدّخول إلى بيت الصّلاة عن طريق مدخل يتوسّط الواجهة الشّمالية الغربية على محور المحراب ويبلغ عرضه 0,80 م ، و ارتفاعه 1,55 م . وكان يشتمل على باب خشبي مصنوع من جذوع النّخيل ، ولكن لم يبق له من أثر .

ينقسم بيت الصّلاة إلى ثلاث بلاطات و ثلاثة أساكيب و هنا تسير البوائك المتكوّنة من ثلاثة عقود في اتجاه مواز و عمودي على جدار القبلة ، وترتكز هذه المجموعة من العقود النّصف دائرية على أربع دعامات مربّعة الشّكل يبلغ طول ضلعها 0,35 م من جهة ، و من جهة أخرى على أربع دعامات جدارية في الجهتين الجنوبية الغربية و الشّمالية الغربية بمعدل اثنتين في كلّ واجهة . ولا يتعدّى ارتفاع الدّعامات 1,30 م .

---

[38] - أبو العباس الدرجيني : المصدر السابق ، ج : 1 ، ص : 170 .

يتوسّط جدار القبلة فتحة المحراب (اللوحة رقم : 50) التي تبدو عليها البساطة في البناء و هي عبارة عن تجويف نصف دائرية يبلغ عرضها 0,80 م ، و عمقها يصل إلى 1,15م ، أمّا ارتفاعها فيبلغ 1,85 م . وتنتهي الفتحة في أعلاها بعقد نصف دائري ، وتشكّل بروزا نحو الخارج يقدر بحوالي 0,85 م .

يخلو المحراب من أية زخرفة و تحتوي الحنية في جزئها العلوي يمينا و يسارا على فتختين صغيرتي الحجم . و يبدو أنّ وظيفتهما كانت دفاعية بالدّرجة الأولى ، إذ تسمح بمراقبة المنطقة المحاذية للمبنى بسبب وقوعه في فضاء خارج أسوار المدينة ممّا يجعله عرضة لهجمات العدوّ .

لقد تولّد عن تقاطع البوائك العمودية والموازية لجدار القبلة فضاءات صغيرة تقترب من الشّكل المربع ، وغطّيت بقباب نصف كروية عموما ؛ منها ما هو مضمر وسط السّقف، ومنها ما هو بارز بروزا خفيفا من الخارج لا يتجاوز 0,20 م .

استعمل في بناء هذه القباب جريد النّخيل و التّمشنت و الرّمل و الحجر . ويتراوح سمك جدران بيت الصّلاة بين 1 م و0,35 م .

تعمل الفتحات الخمس ذات الحجم الصّغير و المفتوحة على الجدران الجانبية للمعلم على إدخال الضوء و الهواء ، بالإضافة إلى أربعة ملاقف للهواء تبدأ عند مفتاح القبّة و تبرز نحو الخارج بحوالي 0,60 م على شكل أسطواني ، يتراوح سمك هذه الملاقف بين 0,50 م و1 م، قطرها ما بين 5 سم و 10 سم . يتمثّل دورها في تلطيف الهواء داخل المبنى .

4 – مصلّى بابه والجمّة :

يقع مصلّى بابه والجمة في الشّمال الغربي لمدينة غرداية فوق قمّة هضبة

أ – لمحة تاريخية :

ينسب هذا المصلّى إلى الشيخ محمد بن يحيى المعروف باللّهجة المحلية بابه و الجمّة (صاحب البستان) أو بوقدامة ، عالم إباضي قدم حسب غوفيون Gouvion من مدينة فقيق المغربية رفقة أخيه سليمان بن يحيى ورفيقه باعيسى اوعلوان* قاصدين منطقة وادي مزاب [39] ، وبما أنّ الرواية الشّعبية تنسب إليه تأسيس مدينة غرداية في منتصف القرن الخامس الهجري ، فلا شك أنّه عاش في تلك الفترة . وتروي الرواية كذلك أنّ هؤلاء الشيوخ الثّلاثة اختاروا هضبة على مقربة من مدينة غرداية ، فضربوا عليها خيامهم . وكان محمد بن يحيى يشاهد كلّ يوم ضوءا ينبعث من غار بالجبل المقابل لهم ، فبعث رفيقه يتحرّى الأمر ، فوجد امرأة تسمّى داية تقطن ذلك الغار منذ أن تُركت من طرف رفقائها ، فطلبها بابه والجمة للزّواج فقبلت . ومنها أخذت المدينة التي تأسّست من حوالي الغار اسمها (غارداية) [40] ، و قد دُفن بابه و الجمة في الهضبة التي ضرب عليها خيامه و شُيّد فوقها مصلّى جنائزي و مقام الشيخ ليصبح مكانا للزيارة .

إنّ تاريخ تشييد هذا المبنى يبقى مجهولا حتى في الذّاكرة الشعبية ، لكن يبدو أنّه بُني بعد وفاة محمد بن يحيى في الفترة الممتدة بين القرنين 6 – 7 هـ / 12 - 13 م .

* هو عيسى بن علوان عاش خلال القرن الخامس الهجري علم من أعلام مدينة غرداية ،أحد مشائخها الأوائل اشتهر عند العامّة باسم باعيسى او علوان ، نزح إلى وادي مزاب من المغرب الأقصى عاصر العالم المصلح يوسف بن ينومر الإباضي النّفوسي . ويوجد بغرداية مصلّى جنائزي يحمل اسمه . ينظر جمعية التراث : المرجع السابق ، مج : 3 ، ص : 687 – 688 .

(39) - Marth et Edmond Gouvion : Op .cit , p : 220 .
(40) - J . Melia : Op .cit , p : 71 .

ب – الوصف المعماري :

نظرا لاحتلاله موقعا فوق هضبة صخرية فإنّه يتمّ الصّعود إليه عن طريق سلّم صاعد يتكوّن من عدد كبير من الدّرجات . ويضمّ المصلّى بيت الصّلاة و مقام الشيخ الذي يقع في الجهة الجنوبية الغربية لبيت الصّلاة .

طبّق في بيت الصّلاة تصميم على شكل حرف T اللاّتيني تقريبا (الشكل رقم : 27) ، ويتمّ الدّخول إليه عن طريق مدخل يقع في الواجهة الجنوبية الغربية ، لكنه متّجه نحو القبلة . ويشتمل المدخل على باب عرضه 0,80 م ، و ارتفاعه 1,70 م يعلوه عقد نصف دائري ، و يضمّ هذا المدخل بابا خشبيا مصنوعا من جذوع النخيل . و لوجود بيت الصّلاة في مستوى أعلى فإنّه يتمّ الدّخول إليه بواسطة درج صاعد يشتمل على ثلاثة درجات .

ينقسم بيت الصّلاة (الشكل رقم : 27) إلى خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة وثلاث بلاطات و يزيد بيت الصّلاة في الاتّساع نحو الجهتين الشّمالية الشرقية و الجنوبية الغربية ليرتفع عدد البلاطات إلى خمس . و ترتكز مجموعة العقود النّصف الدائرية على دعامات مستطيلة ومربّعة الشكل .

أدّى تقاطع البوائك العمودية بالموازية عند الدّعامات إلى بروز فضاءات صغيرة مربعة الشّكل تقريبا مغطّاة بقباب صغيرة بعضها مضمر في السّقف و بعضها يبرز نحو الخارج بعلوّ متفاوت و يتوّجها نتوء (اللوحة رقم : 51) .

يبدو أنّ المهندس المزابي لجأ إلى هذه التّقنية لإبراز عظمة وقيمة المحراب . لقد بدأ المهندس المعماري المسلم يولي أهمية وعناية للمحراب كعنصر معماري قوي و هام في عمارة المسجد منذ بناء الجامع الأموي بدمشق أين أظهر المحراب بقوّة بواسطة قبة أمام المحراب (قبّة النسر) و المجاز القاطع المتمثل في البلاطة الوسطى المستعرضة .

يتوسّط جدار القبلة فتحة المحراب . و تبدو على شكل تجويفة ذات مخطّط مضلّع يبلغ عمقها 1,25 م ، و عرضها 0,85 م ، أما ارتفاعها فيبلغ 1,80 م . ويشكل المحراب بروزا نحو الخارج بحوالي 1,20 م .

فُتحت على الجدران الشّمالية الشرقية و الجنوبية الغربية تسع فتحات في أحجام مختلفة يتراوح عرضها بين 0,15 م و 0,55 م ، و ارتفاعها يتراوح ما بين 0,30 م و 0,75 م . تعمل هذه الفتحات على تهوية بيت الصّلاة و إضاءتها ، ويؤدّي تقابل الفتحات إلى خلق مجرى هوائي ، يسمح بتكييف داخل المبنى .

لا وجود لأي عنصر زخرفي ما عدى ذلك النتوء الذي يعلو القبّة من الخارج وكذا الشرّافات التي تزين الأركان الأربعة للقسم الأمامي لبيت الصّلاة (اللوحة رقم :51) .

II – المصلّيات الجنائزية المكشوفة :

أقصد بالمصلّيات الجنائزية المكشوفة ، تلك المساحات التي تتوسّط بعض المقابر ، والتي تحاط بسياج جداري .

1 – مصلّى الشيخ بالحاج :

يعدّ بالحاج بن محمد بن سعيد اليسجني من علماء الإباضية ، عاش في النّصف الأوّل من القرن العاشر الهجري ، قدم من جربة إلى وادي مزاب حسب محمد أطفيش لإحياء النّشاط الفكري من جديد في المنطقة . ويرجع إلى هذا العالم الفضل في سنّ الختمات القرآنية بالمقابر ، وكذا الزيارات التي تقام إلى الأماكن التّاريخية مرّة في كلّ سنة [41]، و تنسب إلى الشيخ بالحاج المقبرة و المصلّى الواقعين إلى جانب المدخل الثّانوي الشّمالي الغربي لمدينة بني يزقن في أعلى نقطة بالمدينة ، و يجاوران برج بن يزقن المشهور باسم « برج بوليلة ».

تعدّ مقبرة الشيخ بالحاج آخر الجولات ضمن الختمات القرآنية التي تقام في مصلّيات المقابر ببني يزقن شتاء في أيام الجمعة . وتضمّ هذه المقبرة إلى جانب مقام الشيخ بالحاج مصلّيين مكشوفين .

أ – المصلّى الأوّل :

يقع خارج سور المدينة بجانب المدخل الثّانوي الذي يحاذي برج بوليلة ، ويكون على يمين الخارج من هذا المدخل .

و المصلّى عبارة عن ساحة غير منتظمة الشّكل (الشكل رقم : 28) محاطة بسياج جداري لا يتعدّى علوه 0,70 م . وقد فُتحت في الحائط الموالي لجهة القبلة

---

[41] - جمعية التراث : المرجع السابق ص : 162 – 163 .

محراب و هو عبارة عن فتحة ذات مخطّط نصف دائري يبلغ عرضها 1,20 م ، وعمقها 0,80 م و تشكّل ما يعرف في عمارة المساجد بالعنزة ، وإلى يمين ويسار المحراب فُتحت كوّات عديدة تستعمل لوضع الأحذية أو الأثاث .

يتوسّط المصلّى عمود منتفخ في الأسفل و يضيق كلما زاد في الارتفاع نحو الأعلى ، وغُرست في أعلاه أوتاد خشبية تستغلّ لتعليق بعض الأثاث الذي يستعمل عند تأدية الشعائر الدّينية المتعلّقة بالختمات القرآنية ، كما يمكن أن تُعلّق عليه بعض الأغراض التي يضيّعها أصحابها في نفس الفترة .

ب – المصلّى الثّاني :

يتربّع المصلّى على مساحة تقدر بحوالي 800 م^2 ويقع على بعد أمتار من المصلّى الأوّل في الجهة المقابلة للمدخل الثّانوي مباشرة . و بما أنّ المصلّى يتواجد في مستوى منخفض ، فإنّه يتمّ النزول إليه عن طريق سلّم يضمّ أربع درجات .

إنّ هذا المصلّى كسابقه عبارة عن ساحة كبيرة غير منتظمة الشّكل (الشكل رقم : 29) محاطة بسياج جداري يبلغ علوه 0,80 م . فُتح في الجدار القبلي محراب عبارة عن فتحة (العنزة) ذات مخطّط نصف دائري تشكّل بروزا نحو الخارج . ويبلغ عرض المحراب 0,90 م ، وعمقه 0,60 م .

وفُتحت على يمين و يسار المحراب سلسلة من الكوّات المستطيلة الشّكل غير النّافذة بعضها مخصّص لوضع الأحذية والبعض الآخر للمصاحف أو الأدوات المتعلّقة بأداء الشعائر الدّينية الخاصّة بالمصلّى .

بني فيما بين المصلّيين الأوّل و الثّاني مجموعة من المراحيض التقليدية .

ثالثا – المقـــــام :

عبارة عن مصطبة مستطيلة تبنى فوق قبر عالم و فقيه إباضي ، إنّ المذهب الإباضي يحرّم تحريما قطعيا تشييد أضرحة لتخليد الأولياء و العلماء أو السّلاطين و الملوك ، لكن يبدو أنّ هذه المبادئ اخترقت ، و لغرض تشريف العلماء المصلحين و الفقهاء و شيوخ العزّابة الذين قدّموا خدمات جليلة لمجتمعهم بالدّرجة الأولى و للاتّحاد الفدرالي بكامله ، لجأ الإباضيون المزابيون إلى إنشاء بناء صغير فوق قبر العالم تميّزه عن المقابر الأخرى من حوله ، وذلك إجلالا وتقديرا لأعمالهم الجليلة . و عادة ما تحمل المقبرة اسم ذلك العالم .

1 – مقام أبي المهدي عيسى :

أ – لمحة تاريخية :

هو عيسى بن إسماعيل بن موسى الملقّب بـــ<< أبي المهدي >> عالم من أعلام الإباضية عاش في القرن 10 هــ / 16 م . يعود أصله إلى أحد عروش أولاد نايل ونشأ على المذهب المالكي ثمّ اعتنق المذهب الإباضي ليصبح أحد مشايخه الكبار . وقد أخذ العلم عن عمّي سعيد الجربي و كان من أنجب تلاميذه (42).

استقرّ الشيخ بمدينة مليكة فعمل على إصلاح المجتمع و إحياء العلم و قد تخرّج من مدرسته العديد من العلماء نذكر منهم محمد بن زكرياء الباروني النّفوسي و داود بن إبراهيم الثلاّثي (43) ، ويذكر محمد أطفيش في الرّسالة الشافية أن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز كان أحد تلاميذ أبي المهدي عيسى (44) .

(42) - جمعية التراث : المرجع السابق ، مج : 3 ، ص : 678 – 679 .
(43) - المرجع نفسه ، مج : 3 ، ص : 679 .
(44) - محمد أطفيش : المصدر السابق ، ص : 81 .

كان أبو المهدي ملازما لعمّي سعيد الجربي ، إذ يجتمعان كل يوم في موضع بين مليكة و غرداية يعرف باللّهجة المحلية اسم << أَدْجَايَنْ >> . و اشتهر أبو المهدي بالعلم و الورع و الاجتهاد و تُروى عنه كرمات عديدة [45] .

و نظرا لانهماكه في الإصلاح و التعليم فقد اقتصرت تآليفه على بعض الرسائل والأجوبة منها : رسالة بليغة في الردّ على بعض الطّاعنين في المذهب الإباضي ، و رسالة إلى أهل وارجلان ، و جواب في قضية خلق القرآن ، و رسالة في معنى التوحيد ، و رسالة في إعراب كلمة الشّهادة ، إضافة إلى بعض القصائد و المنظومات[46] .

كان أبو المهدي عيسى رافضا لطرد أولاد عبد الله من مدينة مليكة ، و لمّا أصرّوا على طردهم اعتصم في داره مدّة اثنتي عشرة سنة لم يخرج للنّاس قطّ . و لمّا توفى سنة 975 هـ / 1564 م دفن إلى جانب المدينة وأقيم له مقام فوق قبره ليصبح فيما بعد مقرّا لاجتماعات العزّابة ومكانا لزيارة الحجّاج [47].

ب – الوصف المعماري :

يتشكّل المقام من مجموعة من القبور ، إذ دُفن – حسب المعلومات التي استقيناها من أهالي مدينة مليكة – إلى جوار أبي مهدي عيسى عدد من وجهاء المدينة وعلمائها منهم الحاج يحيى بن صالح وعمر بن الحاج عيسى ومعيز الحاج أحمد بعمّور ويأتي مقام الشيخ أبي المهدي عيسى في مقدمة هذه المقامات ، و هو عبارة عن قبر مستطيل الشّكل يرتفع عن الأرضية بحوالي 0,58 م ، و يبلغ طوله 3,80 م ، وعرضه 1,10 م . يعلو المقام أعمدة من جهة الرأس يصل ارتفاعها من فوق القبر إلى

---

(45) - جمعية التراث : المرجع نفسه ، مج : 3 ، ص : 679 – 680 .
(46) - المرجع السابق ، مج : 3 ، ص : 679 – 680 .
(47) - المرجع نفسه ، مج : 3 ، ص : 680 .

1,25 م ، و تبدو هذه الأعمدة على شكل نتوءات منتفخة في الأسفل ، وتضيق كلّما ارتفعت نحو الأعلى . ويبلغ عدد الأعمدة عند مقام أبي مهدي عيسى خمسة أعمدة و هذا العدد يرمز فيما يبدو إلى أنّ هذا العالم نال درجة المشيخة باعتراف عزّابة المدن الخمس .

فُتحت في هذه المقامات كوّات يتراوح عرضها بين 0,32 م و 0,42 م ، و ارتفاعها يتراوح بين 0,40 م و 0,62 م ، و تمثّل هذه الكوّات وجهة القبلة لتقوم بذلك مقام المحراب .

يرتفع وراء مقام أبي مهدي عيسى بناء يذكّرنا في شكله بالمئذنة المرابية الهرمية الشّكل، ويبلغ طول ضلع هذا البناء حوالي 1,05 م ويضيق كلما ارتفع نحو الأعلى ليصل طول ضلعه 0,42 م ، ويبلغ ارتفاعه الكلّي 2,50 م . و ينطلق من أركان البناء العلوية أربعة أعمدة تشبه تماما في شكلها تلك الأعمدة التي تتوّج المآذن ، و يبلغ ارتفاعها 0,60 م . تتمثّل وظيفة هذا المعلم في إسماع صوت الآذان للحجاج الذين يتمّ تشييعهم قبل توجّهم إلى البقاع المقدّسة أو بعد الرجوع منها .

الباب الثالث

العمارة الدينية الإباضية بوادي مزاب

- دراسة تحليلية ومقارنة -

الفصل الأول : دراسة تحليلية العمائر من ناحية المخطط

الفصل الثاني : دراسة تحليلية للعناصر المعمارية

الفصل الأول

دراسة تحليلية العمائر من ناحية المخطط

أولا – المساجد

1 – المسجد نشأته وتطوره

2 – دراسة تحليلية لمساجد مزاب

ثانيا : المدارس

1 – النظام التربوي والتعليمي في وادي مزاب

2 – نشأة المدرسة وتطورها

ثالثا – المصليات الجنائزية

1 – تعريف المصليات الجنائزية ونشأتها

2 – مصليات مزاب

رابعا – المقامات

1 – تعريف المدفن

2 – الأضرحة الإسلامية

3 – أضرحة وادي مزاب

4 – القبور

1 – المسجد نشأته وتطوّره :

أ – تعريف المسجد :

المسجِد بكسر الجيم اسم لمكان السّجود و المسجَد بفتحها جبهة الرجل ، أين يصيبه السّجود و المِسجد بكسر الميم الخمرة و هي الحصير الصّغير[1] .

وأمّا المَسْجِد فهو الموضع الذي يُسجد فيه . فحسب الزركشي و الزجّاج فالمسجد كل موضع يُتعبّد فيه لقوله ﷺ : << و جُعلت لي الأرض مسجدا و طهورا >> و هذا من خصوصيات أمّة محمد ﷺ ، لأنّ الأمم السّابقة كانوا لا يصلّون إلاّ في موضع يتيقّنون طهارته كالبيّع اليهودية والكنائس المسيحية . ولمّا كان السّجود أشرف أفعال الصّلاة لقرب العبد من ربه ، فقد اشتق اسم المكان منه ، فقيل مَسْجِد و لم يقال مَركَع [2] .

ويُعدّ لفظ الجامع وصفا للمسجد الكبير فيذكر هشام بن عمار أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لّما افتتح البلدان كاتب ولاّته بمصر والبصرة و الكوفة يأمرهم أن يتّخذوا مسجدا للجماعة ، و يتّخذوا للقبائل مساجد . و يتّضح من هذا أنّ الجامع هو المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة ، و ابتداء من العهد الأموي أصبح المسجد الجامع يشكل ظاهرة سياسية على جانب كبير من الأهمية ، و لذا أصبح كل أمير أو عامل من عمّال الأقاليم يتّخذ مسجدا جامعا ، بمثابة المسجد الرّسمي للدولة ، وتتجلّى لنا مدى أهمية الرسالة السياسية أو الدور السياسي للمسجد ، عندما نعلم أنّ اسم الخليفة يُذكر في خطب الجمعة لأنّ عدم ذكره يعني بالضرورة خلعه [3].

---

(1) - ابن منظور : المصدر السابق ، ج : 3 ، ص : 201 – 202 .
(2) - سعاد ماهر : مساجد من السيرة النبوية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1987 ، ص : 13 ، 14 .
(3) - المرجع نفسه ، ص : 14 .

ب – ظهور المسجد و تطوّره :

كانت الصّلوات تؤدّى جماعيا في السّنوات الأولى من الإسلام في كلّ مكان ، و لم يخصّص لها مكان معين ، فبعد هجرة الرّسول ﷺ إلى المدينة المنوّرة اشترى أرضا كانت ملكا ليتيمين سهل و سهيل و بالتّعاون مع المسلمين شيّد الرسول ﷺ أوّل مسجد في الإسلام [4] في المدينة المنوّرة . و تميز التّصميم الأوّلي للمسجد بالبساطة و التقشّف في البناء مقارنة بعمائر الدّيانات السّابقة . و بالنّسبة لاختيار الموقع فلم يربط الإسلام بناء المسجد فوق أرض معيّنة ، بل اشترط عنصر الطّهارة و الشرعية فقط ، باعتبار أنّ أي بقعة فوق هذه الأرض مسجدا و يقول الرّسول ﷺ في هذا الصّدد « و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا » [5] .

ويُعدّ مسجد الرّسول ﷺ النّواة الأولى لعمارة المساجد ، كما أنّه كان يحمل الخطوط العريضة لنمط معماري صار نموذجا ، و كان إرهاصا لطراز انتشر فيما بعد في كلّ بقاع العالم الإسلامي ، و خاصّة في القرون الأولى للهجرة . و يتمثّل هذا النّمط في الصحن الواسع ، و بيت للصّلاة ذو أعمدة و دعامات ، والذي يأتي في مقدّمة الصحن من جهة القبلة .

وعلى منوال هذا النّمط المعماري شُيّد مسجد البصرة سنة 14 هـ / 636 م ، و مسجد الكوفة سنة 17 هـ / 638 م [6].

لقد أدّى البحث عن أصول عمارة المسجد إلى نقاش طويل بين مؤرّخي الفن فيرجع بعضهم أصل مخطّط المسجد إلى معبد يهودي معروف باسم « دورا أوربوس

([4]) - Lucien Golvin : La Mosquée , Institut des Etudes Islamiques d'Alger , Alger 1960 , p : 24

(5) - رؤوف الأنصاري : عمارة المساجد ، ط 1 ، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت 1996 ، ص : 25 .

(6) - المرجع نفسه ، ص : 35 – 38 .

Daura - Aurapos >> [7] . وإنّ ما يميّز هذا المعبد بساطة أبعاده ، إذ يتكوّن من صحن مستطيل (13 × 10 م^2) يتقدّمه قاعة مستطيلة الشّكل (13,65 × 7,68 م^2) . وقد فُتح في وسط جدارها العرضي تجويفة تحدّد اتّجاه القاعة نحو بيت المقدس ، وإلى الجانب الأيمن من هذه التجويفة يوجد سلّم يتكوّن من أربع درجات يؤدّي إلى درجة خامسة أكبر عرضا وارتفاعا تستعمل كمكان خاصّ لرئيس المجتمع اليهودي [8]. وتحيط بالصحن من الجهات الثّلاثة أروقة .

يمكن أن يكون مخطّط دورا أوربوس Daura - Aurapos مصدر إلهام في بناء المسجد . ولكن هناك اختلاف بين المخَطّطين ، يتمثّل في عدم وجود أي ركائز داخل قاعة دورا أوربوس ، كما أنّ المسجد لا يحتوي على دكّة حجرية على طول جدران القاعة لجلوس المصلّين .

و هناك آراء أخرى ترجع مصدر مخطّط المسجد إلى الكنيسة ، و لا سيّما من ناحية تقسيم بيت الصّلاة إلى بلاطات ، و ظهور المجاز القاطع أو ما يسمّى بالبلاطة الوسطى المستعرضة كعنصر معماري بارز ، ويبدو هذا العنصر هو الأساس في تصاميم الكنائس المسيحية ، حيث تنتهي عند حنية كبيرة ذات مخطّط نصف دائري [9].

لا يمكن رفض هذه الفرضيات التي ترجع أصل المسجد إلى مصدر يهودي أو مسيحي مادام الفن الإسلامي على العموم قد تأثر بكلّ الفنون المحلية ، فإضافة إلى تأثره بالفن الهلنسي و البيزنطي ، فقد تأثّر بالفن السّاساني و القبطي و غيرها من الفنون المختلفة . فكانت عمارة كلّ المناطق التي فتحها المسلمون مصدر إلهام بالنّسبة

---

(7) - دورا الملقبة من طرف اليونانيين بأوروبوس Eurppos تحمل بقايا آثارها اسم صليليح ، توجد فوق مرتفع صخري على ضفة نهر الفرات ، وقد شيدت المستعمرة من طرف سيلوسيد Séleucide عام 300 ق . م . لقد جرت الحفريات في المنطقة بين 1932 – 1933 من طرف هـ . برسون. H · Pearson
ينظر : Lucien Golvin ; Op . cit , p : 34

(8) - Lucien Golvin: Op.cit , p : 34 -35 .

(9) – Ulya Vogt Göknil : Grands Courants de l’Architecture Islamique , Mosquée , Trad : F et B Wauthier – Wurmser , Chêne , Lausanne 1975 , p : 38 .

للمهندس المعماري المسلم . لكن ما قام به المسلمون هو صقل هذه الفنون و تهذيبها و طبعها بطابع الدّين الإسلامي ، ممّا أعطى أنماطا و طرزا معمارية مختلفة تماما و بعيدة عن المعبد اليهودي و الكنيسة المسيحية رغم بساطة البناء .

و لمكانة و أهميّة المسجد النّبوي الشّريف في وضع أسس طراز المساجد ذات الأعمدة والدّعامات ، لا بدّ من إعطاء فكرة عن تصميمه . فالمسجد النبوي الشريف كان يمتاز بالبساطة والتقشّف اللذين يمثلان جوهر العقيدة الإسلامية . وكان مخطّط المسجد مربع الشّكل (100 × 100 $م^2$) ، تحدّد فضاءاته جدران من اللّبن (الطوب) ذات أسس حجرية . ويبلغ ارتفاع جدرانه الخارجية سبعة أذرع ، وقد أُقيم في جهته الشّمالية الغربية فضاء يمثّل بيت الصّلاة ، وكان هذا الفضاء مغطّى بسقف مسطّح يتكوّن من سعف النخيل و مكسو بطبقة طينية ، ويرتكز السّقف على أعمدة من جذوع النخيل التي قَامت بتقسيم بيت الصّلاة إلى فضاءات يطلق عليها اسم : البلاطات . كما شيّدت في الجهة الجنوبية الشرقية تسع غرف تنفتح نحو الصحن ، واستعملت كمسكن للرّسول ﷺ وزوجاته[10].كان للمسجد ثلاثة مداخل متعامدة و قد أضيف إليه منبر ذو ثلاثة درجات في السنة التّاسعة للهجرة .

قد عرف هذا المسجد عدّة توسّعات خاصّة في عهد ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة المنوّرة ، و جُدّد في العهد العباسي و المملوكي (886 هـ / 1481 م) ثمّ في العهد العثماني وآخر ترميم تمّ في سنة 1393 م / 1973 م [11].

وهكذا نرى أنّ المسجد ظهر كمبنى أصلي لم يُقلّد بتاتا المباني الدّينية السّابقة ، ويمكن أن يُرجع هذا التميز إلى عامل المناخ ، إذ أنّ الحرارة الشديدة و قلّة الأمطار ، جعلت الرّسول ﷺ يخصّص فضاء مغطّى للصّلاة مفتوحا نحو صحن مكشوف ،

---

(10) - أبو صالح الألفي : المرجع السابق ، ص : 141 – 142 .

(11) - سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص : 90 – 105

و قد أخذ هذا الصحن حيزا كبيرا من المساحة الكلّية للمسجد ، و ذلك لتهوية و إضاءة الفضاء المغطّى (بيت الصّلاة) ولضمان بقاء المصلّين بعيدا عن حرارة الشّمس و لهيبها .

لقد أُضيف إلى المسجد الأوّلي عناصر معمارية جديدة ، ستصبح بمرور الزّمن عناصر أساسية و ضرورية في كلّ المساجد ، و قد كان المنبر أوّل عنصر يضاف إلى بيت الصّلاة [12].

ففي البداية كان الرّسول ﷺ يستند إلى جذع نخلة أثناء إلقاء خطبة إلى الجمع فأوعز إليه تميم الدّاري ليصنع منبرا كما هو الشأن في كنائس الشّام ، فتبنّى الرّسول ﷺ الفكرة ثم أمر بصنع منبر خشبي بثلاث درجات [13] . و قد اتّبع المسلمون من بعده هذا التقليد في كلّ المساجد و أصبح المنبر عنصرا معماريا مميّزا ، أعطى له المعماري المسلم أهمية بالغة ، فصُنع من مواد مختلفة (الخشب و الحجر و الرخام). كما أصبح مجالا حيويا للفنان المسلم لإظهار براعته في مجال فن النّقش و الزخرفة . و قد أُضيف إلى المنبر عدد من الدّرجات في العهود اللاّحقة.

بعد أن كان جدار القبلة هو الذي يبيّن اتّجاه الكعبة في المساجد الأولى ، فقد أُضيف في أواخر القرن الأوّل للهجري عنصرا معماريا جديدا يقوم بتعيين الاتّجاه نحو الكعبة بوضوح ، ويتمثّل في المحراب الذي هو عبارة عن فتحة تتوسّط جدار القبلة وتقع على يسار المنبر و يقف عندها الإمام أثناء أداء الصّلوات ، و قد أعطى المعماري المسلم عناية خاصّة لهذا العنصر الذي أصبح أساسيا عند بناء أيّ مسجد و محورا حقيقيا للسّميترية داخل المبنى الدّيني [14].

---

[12] - Elie Lambert : L'Art Musulman d'Occident des Origines à la Fin du X Ve Siècle , Société d' Edition d'Enseignement , Paris V , Paris 1966 , p : 28

[13] - عفيف بهنسي : الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه ، دار الفكر ، القاهرة د.ت ، ص : 14

[14] - Ibid , p p : 30 - 32

و بتشييد الجامع الأموي بدمشق من طرف الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة 78هـ / 697 م [15]. بدأت عمارة المسجد تعرف تطوّرات هامّة على مستوى التّصميم الدّاخلي أو بإضافة عناصر معمارية جديدة .

و قد تبلورت أسس طراز المساجد ذات الأعمدة و الدّعامات في جامع الأموي بدمشق ، فتوسّع بيت الصّلاة عرضيا ، و برز المجاز القاطع كعنصر يقوم بقطع وتيرة تواصل تلك البلاطات الثّلاثة التي نشأت من انتظام الأعمدة عرضيا ، و هكذا قسّم المجاز القاطع بيت الصّلاة إلى قسمين متساويين .

و تتقدّم المجاز القاطع من جهة المحراب قبّة (قبّة النسر) التي أصبحت عنصرا معماريا مميزا في المساجد ذات الأعمدة و الدّعامات ، و اصطلح عليها تسمية << قبّة أمام المحراب >> [16]. إضافة إلى ذلك أصبح الصحن محاطا برواق من كل الجهات باستثناء جهة القبلة .

و على نمط الجامع الأموي بدمشق شيّدت مساجد عديدة في مشارق الدولة الإسلامية و مغاربها نذكر منها الجامع الكبير بسامراء (234 – 238 هـ / 848 – 852 م) و جامع ابن طولون (263 – 266 هـ / 876 – 879 م) أين نلمس ابتكارا جديدا يتمثّل في ما يسمّى بالزيادة * ، وجامع الأزهر (359 – 361 هـ / 970 – 973 م) في القاهرة . وقد ظهر هذا الطراز في المغرب الإسلامي و الأندلس بقوّة ، ليصبح النمط السائد في المنطقة ، وتبرز ملامحه لأول مرّة بالمغرب الإسلامي في الجامع الكبير بالقيروان سنة 50 - 55 هـ / 670 - 675 م ، ثمّ ينتقل الطراز إلى جامع

---

(15) - Elie Lambert Op.cit , p p :34 -35

(16) - Robert Irwin : Le Monde Islamique ,Trad ::Armand Canal , Hong Kong 1997 , p: 64

* الزيادة عبارة عن فضاء يحيط بالجامع من كل الجهات باستثناء جهة القبلة ، يتمثل دوره في فصل الجامع عن العالم الخارجي وبعبارة أخرى يعدّ الحدّ الفاصل بين المدنّس و المقدّس .

قرطبة (169 هـ / 785 م)[17] . و قد طُبّق نفس الطراز في المساجد المرابطية كالجامع الكبير بتلمسان و استمرّ هذا النّمط سائدا في أغلب مناطق العالم الإسلامي إلى بدية القرن الرّابع عشر ميلادي ، و لم يخرج عن هذا النّمط سوى بعض مساجد إيران وتركيا ابتداء من العصر السّلجوقي .

لقد طبّق السّلاجقة في إيران طرازا معماريا جديدا في تصميم المساجد ، و يتعلّق الأمر باستخدام الإيوان كعنصر معماري بارز . إذ يرتفع في وسط كلّ رواق من أروقة الصحن الأربعة إيوان ضخم ، منفتح نحو الصحن بعقد مذبّب ، واتُّخذ إيوان القبلة بيتا للصّلاة ، وقد طُبّق هذا التّصميم لأوّل مرّة في مسجد الجمعة بأصفهان الذي شيّد بأمر من السّلطان ملكشاه السّلجوقي سنة 476 هـ / 1080 م [18] أو قبل ذلك بقليل ، و أصبح نموذجا تقليديا في مساجد إيران و آسيا الصّغرى عامّة . و بلغ هذا الطراز ذروته و كماله في مسجد شاه عباس بأصفهان (1021 - 1040 هـ / 1612 -1630 م)[19] . لينتقل بعد ذلك إلى مصر في عهد المماليك ، و يتّضح ذلك جليّا في جامع قايتباي (890 هـ / 1485 م)[20].

أراد المعماري العثماني التقليص من عدد الأعمدة و الدّعامات في بيت الصّلاة ، إذ تعدّ هذه الركائز في نظره معرقلة للوحدة المكانية التي تؤدّي إلى وحدة المصلين ، و بالتّالي فإن الدعامات و الأعمدة في بيت الصلاة في رأيه المعرقل الأساسي لوحدة صفوف المصلّين . و انطلاقا من هذه الفكرة أخذ يبحث عن تصميم جديد لبيت الصلاة ، فتمكّن من تحقيق هذه الفكرة باستعمال القبّة الضخمة لتغطية بيت

---

(17) - Henri Stierlin : Op .cit , p p: 64- 79.

(18) - Ara Altun :Ortaağ Türk Mimarisinin Anahtarı, için bir Özet , Arkeoloji ve Sanat Yayınevi , Istanbul 1988, pp 73-74

(19) - Georges . Marçais : Op . cit , pp : 143 - 144 .

(20) - تروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 108 .

الصّلاة ، و بعد تجارب عديدة في مسجد ذو، ثلاث شرفات (851 هـ / 1447 م) بأدرنة، و مسجد محمد الفاتح (867 – 875 هـ / 1462 – 1470 م) و جامع بايزيد (912 هـ / 1506 م) و جامع السليمانية (965 هـ / 1557 م) باستانبول . توصّل المعماري الفذّ سنان باشا من تجسيد التّصميم الأنسب لهذا الطراز في جامع السّليمية بأدرنة (980 هـ / 1572 م) [21] .

لابدّ من الإشارة إلى طراز معماري رابع فريد من نوعه طُبّق في مسجد قبّة الصخرة الذي بُني بأمر من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 72 هـ / 691 م [22]. و يعدّ النموذج الوحيد في العالم الإسلامي بأسره ، إذ عمد المعماري المسلم هنا إلى تطبيق تصميم ذو مخطّط مثمن الشّكل يعلوه قبّة نصف كروية ، و قد ارتكزت القبّة على مجموعة من الأعمدة و الدّعامات .

2 – دراسة تحليلية لمساجد مزاب

توحّدت رؤيا الإباضية في مزاب في قضية اختيار موقع بناء المساجد التي امتازت بالبساطة والتقشّف في البناء و جاءت متطابقة في تخطيطها باستثناء بعض الاختلافات البسيطة .

أ – من ناحية الموقع:

يعدّ المسجد من أهمّ المباني الدّينية في المدينة الإسلامية ، لما له من دور فعّال في حياة المجتمع المسلم عامّة ، من هنا اكتسب المسجد أهميته في منطقة وادي مزاب . ففضلا عن دوره الدّيني ، فإنّه يؤدّي كذلك في مزاب مهاما لا تقلّ أهمية عن ذلك . إذ يعدّ مركزا و مقرّا للسّلطة الروحية (حلقة العزّابة) و مكانا للقضاء و إصدار

---

(21) - Baelhadj Marouf :Op . cit , pp : 13 - 14 .

(22) - Henri Stierlin Op.cit , p 28 - 36

الفتوى ، و تنظيم حلقات الدرس ، و ممارسة التعليم إلى جانب دوره كمخزن لبعض المؤن كالتّمور و الحبوب ، و من هنا فإنّ المسجد يعدّ القلب النّابض للمدينة المزابية ، فيبعث فيها الحياة ، و يعمل على تأطير المجتمع دينيا واجتماعيا . و لقد حرص المزابيون على إعطاء المكانة اللاّئقة للمسجد معماريا ، و تجسيد تلك السّلطة المعنوية واقعيا . لذا فقد اختير له موقعا استراتيجيا مناسبا ، فكان أوّل مبنى في المدينة المزابية على غرار المدن الإسلامية ، ثمّ يتمّ بعد ذلك تشييد المساكن و المباني العامّة من حوله ، بحيث تنتهي كل الطّرق و المسالك إلى المسجد .

انطلاقا من تلك الأهمّيّة احتلّت كلّ مساجد وادي مزاب أعلى نقطة في الهضاب الصخرية التي شيّدت فوقها المدن المزابية و كان هذا الاختيار على أساس تأكيد سلطة المساجد الرّوحية معماريا ، بحيث تشرف على كل المباني الأخرى المحاطة بها ، و قد زاد في عظمتها و شموخها تلك المئذنة الهرمية الشكل العالية الملتصقة بها ، لتصبح أوّل ما يبرز للنّاظر من مباني المدينة المزابية من على بعد كيلومترات ، و بهذا أصبح المسجد يجسّد فعلا مقولة "الإسلام يعلو و لا يعلى عليه " تجسيدا معماريا واقعيا .

وحرصا على توحيد كلمة صفوف المجتمع المزابي داخل المدينة الواحدة ، وعدم إنشاء أسباب التّفرقة ، لم يسمح إباضيو وادي مزاب ببناء أكثر من مسجد واحد داخل مدينة واحدة ، لذا فقد لجؤوا في عدّة مرّات إلى توسيع المسجد بدلا من تشييد مسجد آخر . وتتمّ عملية التوسيع بضمّ المساكن المجاورة للمسجد إلى الهيكل العام ، بعد شرائها من أصحابها أو بعد تقديمها من طرف ملاّكها كهبة أو تبرّع إلى المسجد، كلّما اقتضت الضّرورة عند ازدياد عدد السكّان ، سواء بالنمو الدّيموغرافي أو إثر الهجرات المتتالية نحو المدينة ، لكن هذا لم يمنع من ظهور نشوز عن القاعدة بسبب نشوب بعض الانشقاقات و الانقسامات داخل المجتمعات المزابية و التي سبق

الإشارة إليها في الفصل الثّاني من الباب الأوّل ،كما هو الشأن بالنّسبة لمدينة العطف و مدينة بنورة أيضا [23].

ب – من ناحية المخطّط :

اتّبعت المساجد الإباضية بمنطقة وادي مزاب في تصميمها مخطّطا غير منتظم الشّكل ، و ربما نتج هذا عن تلك التوسّعات المتتالية التي تتمّ بعد شراء مسكن أو مساكن وضمّها إلى الهيكل العام للمسجد في فترات تاريخية مختلفة ، ولقد كان هذا سببا رئيسيا في عدم إعطاء شكل منتظم لتصميم المسجد ، ومن هنا يمكن الجزم أنّ الفضاءات المضافة إلى نواة المسجد هي التي تحدّد الشّكل النّهائي للمسجد ، فإذا دقّقنا النّظر في مخطّط النّواة الأولى لكل مسجد نلاحظ أنها كانت ذات مخطط مستطيل الشّكل .

لم تخرج المساجد المزابية عن النّمط المعماري للمساجد الإسلامية الأولى ، سواء في المشرق أو في المغرب الإسلاميين ، إذ إنّ استخدام ذلك العدد الهائل من الدّعامات في بيوت الصّلاة يجعلها تندرج ضمن طراز المساجد ذات الأعمدة والدّعامات التي يعون أصلها كما سبق و أن أشرت إلى مخطّط مسجد الرّسول ﷺ بالمدينة المنوّرة ، ليكتمل شكله النّهائي في الجامع الأموي بدمشق . ، ثمّ ينتشر بعد ذلك في كلّ أرجاء العالم الإسلامي .

ب– 1 – بيوت الصّلاة :

توسّعت بيوت الصّلاة في مساجد وادي مزاب في اتجاه عرضي ، فأصبح عرضها أكبر من عمقها ، متّبعة في ذلك نمط الجامع الأموي بدمشق و المسجد الأقصى بالقدس و مسجد عمرو بالفسطاط و جامع ابن طولون بالقاهرة . و أعتقد

---

(23) – Joseph Schacht : << Notes Mozabites >> in Andalus , N° 22 , Paris 1957 , pp : 4: 5

أنّ البنّاء أراد من وراء ذلك إعطاء فرصة لعدد كبير من المصلّين للانضمام إلى الصفّ الأوّل ، و لا سيّما أنّ الرّسول ﷺ كان يحثّ المسلمين على التقدّم إلى الصفّ الأول بقوله : « الشهداء : الغرق والمطعون والمبطون والهدم ، وقال : ولو يعلمون ما في التهجّر لاستبقوا ، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا ، لو يعلمون ما في الصفّ الأول لاستهموا » [24] ، وقوله ﷺ كذلك « تقدّموا وائتمّوا بي ، وليأتم بكم من بعدكم ، لا يزال قوم يتأخّرون حتّى يؤخّرهم الله » [25] .

إنّ ما يشدّ الانتباه ذلك العدد الهائل من الدّعامات التي تحمل سلسلة من العقود، وتبدو وكأنها غابة كثيفة داخل بيوت الصّلاة أساسها عنصر الدّعامات.

تتّخذ البوائك في مساجد مزاب مسارا موازيا و عموديا في اتجاهها نحو جدار القبلة. و المألوف في مساجد ذات الأعمدة والدّعامات أنّ البوائك تأخذ في مسارها نحو جدار القبلة ، اتجاها واحدا إمّا موازيا ، أو عموديا . ففي الجامع الأموي بدمشق و جامع ابن طولون وجامع الأزهر في القاهرة تسير البوائك في اتجاه مواز لجدار القبلة ، بينما تأخذ مسارا عموديا على جدار القبلة في جامع عمرو بالفسطاط و الجامع الأقصى بالقدس و جامع قرطبة بالأندلس والجامع الكبير بالقيروان [26] ، لكن الأمر يختلف بالنّسبة للجامع الكبير بسوسة (236 هـ / 850 م)* (الشكل رقم : 33) و جامع أبي فتاتة* (223 - 226 هـ / 841 - 838 م)[27] (الشكل

---

[24] - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي : صحيح البخاري ، ج 1 ، موفم للنشر و دار الهدى للنشر والتوزيع ، ين مليلة 1992ص : 253 .

[25] - خير لدين وائلي : المسجد في الإسلام ، أحكامه آدابه و بدعه ، ط 4 ، المكتبة الإسلامية ، عمان 1998 ، ص : 86 .

[26] - Vogt Göknil: Op.cit , pp 31 - 32

*شيّد مسجد أبي فتانتة بمدينة سوسة في عهد الأغلب بن إبراهيم فيما بين 223 – 226 هـ / 838 – 841 م ، يشتمل المسجد على بيت صلاة مستطيل الشكل يتكوّن من ثلاث بلاطات وثلاثة أساكيب ، ويعدّ أول مسجد يحتوي على بوائك عمودية وموازية لجدار القبلة . ينظر : كمال الدين سامح : العمارة في صدر الإسلام ، دار نهضة الشرق للطباعة والنشر ، القاهرة 2000 ، ص : 146 – 145 .

* يقع الجامع الكبير بسوسة في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة سوسة ، وقد شيّد سنة 236 هـ / 850 م ، و يتكوّن بيت الصلاة هنا من ثلاث عشرة بلاطة و سبعة أساكيب . ينظر : كمال الدين سامح : المرجع نفسه ، ص : 151 – 153 .

[27] - L .Golvin : Essai sur l'Architecture Religieuse Musulmane , T 3, Ed Klincksieck Paris 1974, pp : 210 – 217 .

رقم : 32) بتونس . إذ أنّ البوائك هنا تسير في اتّجاهين ؛ العمودي والموازي لجدار القبلة و بالتّالي فإنّه يمكن ضمّ مساجد الإباضية بوادي مزاب إلى نمط هذين المسجدين . وكما يمكن ربطها بالمساجد الحمّادية كالجامع الكبير بقسنطينة و جامع سيدي مروان بعنابة [28] ، انطلاقا من مسار بوائكهما بنمط مساجد مزاب .

لقد لجأ المهندس المزابي في نظري إلى هذه الطريقة ، لتقليص مساحات التسقيف ، تماشيا مع مواد البناء المتوفرة لديه في المنطقة ، و لا سيّما أنّ جذوع النّخيل المستعمل في تغطية الفضاءات الكبيرة قليل الكمّيّة و يعدّ ثروة بالنّسبة للمجتمع المزابي لذلك لا يُستخدم في البناء ، إلاّ بعد موت النّخلة . و كانت الأقبية أسهل وسيلة للتغلّب على هذا المشكل نظرا لتوفر جريد النّخيل و الحجر بكثرة .

لقد أدّى تقاطع هذه البوائك داخل بيوت الصلاة إلى بروز فضاءات صغيرة ، غُطّيت بأقبية ، وقد تكون إمّا متقاطعة أو نصف برميلية وقد تغطّى في بعض الأحيان كذلك بقباب صغيرة مضمرة في السّقف .

نتج عن طبيعة الصّخور التي شُيِّدت فوقها المساجد بروز عدّة مستويات داخل بيوت الصّلاة ، و لم يتمكّن البنّاء المزابي من تسويتها بسبب نقص الإمكانات الإنشائية لديه ، ولكنه لجأ إلى حلّ عبقري للتغلّب على هذا المشكل وذلك بإنشاء سلالم تتكوّن من درجتين أو ثلاثة .

ب – 2 – الصحن :

نظرا للحرارة الشديدة التي تمتاز بها أغلب الأقاليم الإسلامية ، ظهر الصحن في عمارة المساجد كضرورة معمارية . ويعمل هذا الفضاء المعماري على تلطيف الجوّ داخل بيت الصّلاة المفتوحة نحوه بواسطة صفّ من العقود، و يؤدّي الصحن كذلك

---

(28) - Rachid Bourouiba : Apport de l'Algérie à l'Architecture Religieuse Arabo-Islamique , O . P. U ,Alger 1986 , p: 48

وظيفة أخرى تتمثّل في إدخال الضّوء ، و استعماله أيضا كمكان للصّلاة في الليالي الصيفية الحارّة .

والصحون في العمارة الدّينية تكون في معظمها ذات مخطّط إمّا عرضي أي أن عرضها أكبر من عمقها أو طولي أي أنّ عرضها أقلّ من عمقها وذلك تقليدا لمسجد الرّسول ﷺ وجامع الأموي بدمشق . وتحيط عموما بالصحن من كلّ الجهات أروقة باستثناء جهة القبلة ، ويختلف عددها في المجنبتين ببلاد المغرب خاصّة . و مثال ذلك جامع الزيتونة وجامع الكبير بتلمسان وجامع الكتبية بمراكش (29)، أمّا في المشرق فقلّ ما يرتفع عدد الأروقة في المجنبتين كما في جامع عمرو بالفسطاط و جامع ابن طولون وجامع الأزهر في القاهرة (30) .

يأتي الصحن في معظم العمائر الدّينية متقدّما بيت الصّلاة على محور المحراب ، اللّهم إلاّ بعض الاستثناءات أين يحيط الصحن ببيت الصّلاة من ثلاث جهات كما هو الحال في المساجد الحفصية والتركية بتونس ، ويمكن أن يكون الصحن ذو مخطّط غير منتظم الشّكل خاصّة في المساجد المغاربية ذات الأبعاد الصغيرة ، كما يمكن أن يأخذ موقعا حتى أمام جدار القبلة كصحن جامع الجديد بالجزائر العاصمة (1036هـ / 1626م) (31) ، وفي حالات جدّ نادرة نجد أكثر من صحن في مسجد واحد ،كما هو الشّأن بالنّسبة لجامع حسان بالرباط (32) .

أمّا موقع الصحن بالنّسبة لبيت الصّلاة في مساجد مزاب ومصلّياها الجنائزية ، فالصحن يتّبع في معظم الأحايين التّقاليد المعروفة في عمارة المساجد . ففي مسجد غرداية ومسجد القرارة و في المصلّى الجنائزي بامحمد ، فإنّ الصحن أخذ موقعه

---

(29) - G . Marçais : Op . cit , p : 86 – 89 .
(30) - Ulya Vogt Göknil : Op . cit , p : 39 .
(31) - Baelhadj Marouf ::Op.cit , p : 31 .
(32) – L . Golvin : Op.cit , pp : : 47 – 51 .

التقليدي أي متقدّما بيت الصّلاة على محور المحراب . أمّا صحن مسجد بني يزقن فقد جاء محاذيا لبيت الصلاة من جهته الشّمالية الشرقية (الشكل رقم : 8) ، وقد تكرّرت هذه الظّاهرة حتى في مسجد مليكة الذي أسّس في نفس الفترة أي خلال النّصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي . ليست هذه الظاهرة من خصوصيات مزاب فقط ، بل نجدها طبّقت في جامع الباشا بوهران (1207 هـ / 1792 م) وجامع الكبير بمعسكر والجامع الكبير بتقرت [33] ، أين بُني الصحن في الجهة اليسرى من بيت الصلاة . اعتقد أنّ المعماري المسلم لا يلجأ إلى ترتيب الصحن بجوار بيت الصّلاة من الجهة اليمنى أو اليسرى ، إلاّ لضرورة معمارية بحتة ، أي عندما يستحيل عليه بناء الصحن على محور المحراب ، بسبب انحصار المبنى من تلك الجهة مثلا ،كما هو الشأن بالنّسبة لمسجد بني يزقن ، وما إطلاق اسم الصحن إلى يومنا هذا على الجزء المجاور للمئذنة والمقابل لجدار القبلة في مسجد بني يزقن (الشكل رقم : 8) ، إلاّ دليل على أنّ هذا المسجد كان يضمّ صحنا في الجهة المقابلة لجدار القبلة ، قبل توالي الإضافات عليه . و بسبب الزيادات التي كانت على حساب الصحن القديم، وأصبح المسجد محاصرا من تلك الجهة بالمساكن و صار من المستحيل بناء صحن جديد في ذلك الموضع ، وكان الفضاء المجاور لبيت الصّلاة من الجهة اليسرى الأنسب لتشكيل الصحن .

وعلى غرار العمائر الدّينية الإسلامية جاء الصحن في المباني الدّينية المزابية محاطا بأروقة من جميع الجهات باستثناء جهة القبلة . لكن في مسجد بني يزقن و القرارة كان الصحن محاطا بأروقة من جميع الجهات ، والأمر يختلف بالنّسبة للمصلّى الجنائزي بامحمد أين نشاهد مجنبة واحدة من الجهة الشمالية الشرقية . يلاحظ اختلاف في عدد الأروقة من معلم إلى آخر كما هو مألوف وشائع في مساجد بلاد المغرب فمن رواق

[33] - Rachid Bourouiba : Op . cit , p: 60

واحد في مسجد القرارة إلى رواقين في مجنبتي مسجد غرداية وفي المجنبة الشّمالية الغربية والمؤخرة بمسجد بني يزقن ، ويصل إلى ستّة أروقة في مصلّى بامحمد .

كما جاءت أروقة الصحن مركّبة من طابقين في بعض مساجد مزاب مثل مسجد غرداية ومسجد القرارة ويدلّ ذلك على حرص البنّاء المزابي على استغلال كل المساحات المتاحة لديه .

لابدّ أن أشير في الأخير إلى تلك المحاريب المفتوحة في جدار القبلي للصحن في كلّ مساجد مزاب ، وتشبه تماما تلك المحاريب داخل بيوت الصّلاة في تصميمها و بساطة بنائها، إلاّ أنّ ما يجلب نظر الباحث تكرار ظاهرة تجاور محرابين في صحن مسجد غرداية ومسجد بني يزقن .

ب – 3 – السّطوح :

تمتاز منطقة وادي مزاب بجوّها الحارّ صيفا كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك ، لذا لجأ المهندس المزابي إلى استغلال الفضاءات الشاسعة التي تعلو المسجد و التي يطلق عليها اسم << السّطح >>، ولا سيّما أنّ الصحن لا يمكنه أن يستوعب ذلك العدد الكبير من المصلّين الوافدين إلى المساجد .

تحاط السّطوح بسياج جداري يتراوح ارتفاعه ما بين 0,70 م و 1,50 م ، و فُتح في جدرانها القبلية تجويفات بمثابة المحاريب لتعيين اتجاه القبلة وتعرف في العمارة الإسلامية باسم << العنزة >> ، وهي عبارة عن فتحة مجوّفة ذات مخطّط نصف دائري لا يتعدّى علو جدرانها 0,70 م .

يُصادف أحيانا عدّة سطوح في مسجد واحد ، ولكنّها منفصلة عن بعضها البعض بواسطة جدار . وتبرز فكرة هذه السّطوح بشكل واضح في مسجد بني يزقن

ومسجد غرداية العتيق ، أين يتمّ الانتقال من سطح إلى آخر عن طريق أبواب خشبية مصنوعة من جذوع النخيل .

يقدّم لنا مسجد بني يزقن على الخصوص نموذجا رائعا و واضحا عن هذه السّطوح التي تنقسم إلى فضاءين متميزين : صحن مكشوف ورواق مغطّى ، يدور حول إمّا من جهة واحدة أو من جهتين أو ثلاث جهات (الشكل رقم : 9) . و هذا الرواق مفتوح نحو الصحن ببوائك متكوّنة من صفّ من العقود النّصف الدائرية . و قُسّمت أرضية الأروقة في هذا النّموذج إلى أحواض صغيرة (الشكل رقم : 9) تحدّدها جدران قليلة السّمك و الارتفاع . و تستغلّ هذه الأحواض لتخزين التّمور القادمة من الأوقاف والحبوس . وبهدف الاستفادة من عسل التّمر الناتج من تكديس التّمور ، حفرت سواقي ، بحيث تنطلق من تلك الأحواض ليسيل فيها العسل ثمّ يتمّ جمعه بعد ذلك . كما خصّصت أماكن أخرى لتخزين الحبوب .

ثانيا – المــــدارس :

كان التعليم يُمارس داخل المساجد أو في مساكن الشيوخ ، لكن بإقبال الطلبة الكبير على التحصيل العلمي النقلي منه والعقلي حتى من المناطق البعيدة ، اقتضت الضرورة بناء منشآت مستقلّة تماما عن المسجد يمكنها استيعاب ذلك العدد الهائل من الطلبة سواء بالنّسبة التعليم أو الإيواء .

1 – النّظام التربوي والتّعليمي في وادي مزاب :

خوفا على المذهب الإباضي من الضّياع والزّوال اختار الإباضيون حياة العزلة في منطقة جرداء قاحلة ولنفس الغرض سنّوا نظاما تعليميا و تربويا فريدا في نوعه لتلقين تعاليم المذهب للأجيال المتلاحقة .

أ – هيئة التّدريس :

في سبيل نشر تعاليم الدّين الإسلامي عموما ، و المذهب الإباضي بخاصة ، وتعليم اللّغة العربية ، أنشأ المزابيون هيئة خاصّة تسهر على السّير الحسن للنّظام التّربوي التعليمي في مدارس وادي مزاب و تتكوّن هذه الهيئة من :

الشيخ : يتمثل عادة في شخص شيخ العزابة أو أحد أعوانه في حالة الضرورة .

العرفاء : و عددهم أربعة ؛ عريف تعليم القرآن الكريم ، و عريف تنظيم أوقات الدّراسة ، و عريف الختمات و عريف الطعام .

الشيخ : يتمثّل في شخص شيخ العزابة أو أحد أعوانه عند الضّرورة . ويقوم بتعيين العرفاء . و قبول الطلبة والتلاميذ في المدرسة ، و إعداد مناهج دراسية خاصّة بتلاميذ الدّراسات العليا ، و من مهامه كذلك الجلوس إلى الطلبة و تدريسهم العلوم المختلفة بتعمّق في أوقات معينة ، كما يتعيّن عليه الجلوس إلى الختمات * مع الطلبة عند طلوع الشمس و غروبها [34] و يذكر الدّرجيني أنّ على الشيخ الحضور إلى الختمات و الإجابة على كل المسائل في كلّ الفنون ، كما يذاكر تلاميذته فيما استوعبوه ، فيستفيدون ويستفيد الحاضرون [35] .

و من مهام الشيخ كذلك الاجتماع بطلبة المدرسة مرّتين في الأسبوع لإعطاء نصائح ومواعظ و إرشادات ، و يسهر الشيخ على فضّ النّزاعات و المشاكل التي تطرأ في المدرسة، كما له الحقّ في صرف نصيب من الأموال و الأوقاف على المدرسة و متابعة عن قرب كل مصاريف المدرسة [36] .

* نعني بالختنمات تلك الحلقات التي يشكلها الطلبة في نهاية كل يوم لختم القرآن الكريم ، إذ يقوم المجتمعون بتلاوة السور الصغيرة من القرآن الكريم ثمّ يتبعون ذلك بالدّعاء

(34) - عوض خليفات : النّظم الاجتماعية... ، ص : 66 .

(35) - أبو العباس الدرجيني : المصدر السابق ، ج : 1 ، ص : 172 .

(36) - عوض خليفات : النّظم الاجتماعية... ، ض : 66 .

أمّا مهام العرفاء :

فبالنّسبة لعرّيف القرآن فإنّه يقوم بتدريس القرآن الكريم للمبتدئين من التلاميذ و يساعده في بعض مهامه النقيب الذي يجب أن تتوفّر فيه الفطنة و الذّكاء ، ويختاره من بين التلاميذ [37] .

وأمّا عرّيف أوقات الدّراسة فيشرف على النّظام العام للتلاميذ و مراقبة الطلبة في وقت الاستفتاح* أي الثّلث أو الرّبع الأخير من الليل لتلاوة القرآن الكريم و الدّعاء و معاقبة النّائم و من يشتغل في غير تلاوة القرآن . ويُمنع الطلبة من الأكل في الأوقات غير المحدّدة لذلك ، كما يُمنعون من اللّهو و اللّعب غير المستحب [38] .

يشرف عريف الختمات و أوقات النّوم على دعوة الطلبة لحضور الختمات و السّهر على احترام التلاميذ لأوقات النّوم و النّهوض .

وأمّا مهام عريف الطّعام فتتلخّص في تنظيم الطلبة أثناء الأكل و الإشراف على الوجبات الإضافية المقدمة للتلاميذ .

يصنّف التلاميذ في المدرسة إلى طلبة القرآن الكريم و هم التلاميذ المبتدئين الذين يتدارسون القرآن الكريم و يحفظونه ، و يتعلّمون إضافة إلى ذلك المبادئ الأولى للّغة العربية . و هؤلاء غير مطالبين بارتداء الزّي الرسمي لحلقة العزّابة ، و لا يعدّون من التلاميذ الرسميين ، إلاّ بعد حفظهم للقرآن الكريم عن ظهر قلب ، و عندما يتأكّد العريف من حفظ أحدهم للقرآن الكريم و اجتيازه اختبار العزّابة ، يسمح له الشيخ بالانتقال إلى الصفّ الأعلى ، و بمناسبة نجاحه يقيم له أهله وليمة يحضرها العزّابة و التلاميذ [39] .

---

[37] - عوض خليفات النظم الاجتماعية ... ، ص : 66 – 67 .

* يقصد بالاستفتاح التحليق عند بداية اليوم و تلاوة القرآن الكريم ابتداء من سورة الفاتحة ثم جزءا من سورة البقرة

[38] - عوض خليفات : النظم الاجتماعية ... ، ص : 68 .

[39] - المرجع نفسه ، ص : 69 – 70 .

طلبة العلوم و الآداب : لا بدّ للمنضمّ إلى هذا المستوى أن يكون قد مرّ بالمرحلة الأولى ، و يُوزّع هؤلاء إلى مجموعات حسب فطنتهم و ذكائهم . فأقلّهم يطلق عليهم اسم « أصحاب اللويحات » وأكبرهم درجة يطلق عليهم اسم « أصحاب الكتاب » .

يعدّ أصحاب هذه الدّرجة الأخيرة من المتميزين ، لذلك تعطى لهم حقوق و امتيازات مثل تخصيص مكتبة لهم ، و تقدم لهم دروس خصوصية من طرف الشيخ أو بعض الشخصيات العالمة [40].

العجزة : و هم المتخلّفون في التحصيل الدّراسي لأسباب مختلفة . وعلى الرغم من ذلك يسمح لهؤلاء بحضور الدروس ، و لهم الحقّ في الإيواء و الأكل ، و يكون ذلك مقابل واجبات يؤدّونها مثل : خدمة مجلس العزّابة ، و تحضير الأطعمة ، و حفظ الطّرقات من اللّصوص .

ويصفهم الدّرجيني بقوله « أمّا العاجزون فأنواع فمنهم الطرش و العميان و الزمني و الهارمون و ذووا الأفهام القصيرة . فهذه الأنواع شأنهم الاستماع ليحصلوا الطّرق و الأخلاق ، و عليهم حفظ السيّارات و المحافظة على الطّرق و الأوقات . و إن جهدوا أنفسهم و زادوا ، ظفروا ببعض ما أرادوا . فأمّا الزمني و العميان فقد نطق بعذرهم القرآن، و قاصروا الفهم منهم القانط التّارك للعلوم ، و منهم الأياس عنده معدوم . وقد شاهدت منهم رجالا ... سنة 616 هـ » [41] ، و يستمرّ الدّرجيني في الكلام على هؤلاء فيقول : « و ينبغي أن تكون خدمة الطّعام من هؤلاء الذين لم يفتح الله عليهم ولا شرح للعلم صدورهم لينفعهم بخدمة أهل الخير و يوفّيهم أجورهم » [42] .

---

[40] - عوض خليفات : النظم الاجتماعية .... ، ص : 70 .
[41] - أبو العباس الدرجيني : المصدر السابق ، ج : 1 ، ص : 180 .
[42] - المصدر نفسه ، ج : 1 ، ص : 181 .

ب – البرنامج اليومي في المدرسة :

يبتدئ البرنامج اليومي في الثّلث أو الرّبع الأخير من الليل ، إذ يستيقظ الطلبة في الوقت المحدّد و يتوضؤون ، ثمّ يتدارسون القرآن الكريم مع الشيخ أو فرادى حتى آذان الفجر ، و تسمّى هذه الفترة بالاستفتاح .

بعد أداء صلاة الفجر يتناول أعضاء الحلقة فطورهم لتبدأ الدّروس ، بعد ذلك يجلس التلاميذ في فصولهم على شكل حلقة غير مستندين إلى أيّ شيء . ويبدأ العريف دروسه باختبار التلاميذ فيما حفظوه من الدّروس السّابقة . ثمّ يملي عليهم ما يستوجب حفظه في ذلك اليوم ، و إن قصّر التلميذ يُعاقب حسب سنّه [43] و يشير الدّرجيني إلى العقاب في قوله : « و إن يقف أحدهم دون الحفظ ، فإن كان مبتدئا أُقيل له خمس عشرات ، و إن كان فوقه إلاّ أنّه في أوّل القلم أُقيل له ثلاث ، و إن كان في الإعادة فعشرة واحدة . فإن زاد فعلى ما يجتهد فيه العريف والمعروف والأشهر أنّه إن كان صغيرا فالزّاوية والجلد ، وإن كان كبيرا فالخطّة والطّرد » [44]. وإن كان التقصير راجع إلى قدرات الطالب المحدودة فإنّ العريف لا يعاقبه .

لا يجوز لأيّ طالب أن ينتقل من حلقة إلى أخرى دون موافقة عريف الحلقة الأولى .

بعد انتهاء الدروس في الفترة الصّباحية يعود عريف الختمات ليجمع الطلبة لتلاوة دعاء الختمة الصباحية ، ثم يجتمع الطلبة حول شيخ العزّابة يلقون عليه الأسئلة ، وتكون هذه الأسئلة في كلّ المجالات العلمية والفقهية ، وفي هذا الصّدد يورد الدّرجيني طرقا لإلقاء الأسئلة [45].

---

(43) - عوض خليفات : النّظم الاجتماعية ،، ص : 72 .
(44) - أبو العباس الدرجيني : المصدر السابق ، ج: 1 ، ص : 177 .
(45) - للإطلاع على نوعية هذه الأسئلة ، ينظر : المصدر نفسه ، ج : 1 ، ص : 179 .

وبعد الجلوس إلى الشيخ يقوم هذا الأخير مع الطلبة لصلاة الضّحى . و بعد ذلك يقدّم عريف الطّعام وجبة خفيفة للطلبة تتمثل في بعض التّمرات ، لكن هذه الوجبة لا تُقدّم إلاّ لمن تمكّن من الإجابة على ثلاثة أسئلة يطرحها العريف ، و للطالب المقصّر الحقّ في مهلة للإجابة حتى انقضاء مدّة الوجبة . و بعد الوجبة يدعو عريف الختمات والنّوم الطلبة للنّوم نوم الهاجرة ، ولا يحقّ لأيّ طالب أن يتخلّف إلاّ بعذر قاهر[46] .

بعد صلاة الظّهر وتناول وجبة الغداء ، تبدأ فترة الدّروس المسائية وتستمرّ حتى صلاة العصر ، ثم يدعى الطلبة لتناول وجبة خفيفة تشبه الوجبة الصباحية الخفيفة ، ثمّ يعودون بعد ذلك للمذاكرة لوقت قصير ، ليُتركوا فيما بعد للاستراحة والأعمال الحرّة حتى صلاة المغرب ، وبعد أدائها يدعو عريف الختمات الطلبة إلى الختمة المسائية إيدانا بانتهاء الأعمال والواجبات اليومية ، ثم يُحَلّق الطلبة حول أكبرهم سنّا ، ويقوم اثنان منهم بتلاوة ما تيسّر من القرآن الكريم حتى حلول صلاة العشاء ، حيث يستغفرون ويدعون دعاء الختام وحضور هذه الختمة ضروري[47] .

بعد أداء صلاة العشاء يتناول الطلبة العَشاء ، ويُتركون بعد ذلك لفترة قصيرة للرّاحة ، ثم يدعون للختمة النّهائية ، ويقوم أحدهم بتلاوة بعض آيات من الذّكر الحكيم ويدعو دعاء الختمة ، وبعد ذلك يلقي أحدهم كلمة وعظ وإرشاد وأخيرا ينصرفون إلى النّوم [48] .

---

(46) - عوض خليفات النّظم الاجتماعية ... ، ص : 74 – 75 .
(47) - المرجع نفسه ، ص : 75 – 76 .
(48) - المرجع نفسه ، ص : 76 .

يُفهم من الدّرجيني أنّ لطلبة الدّراسات العليا امتيازات ، إذ يمكنهم مثلا الاستناد إلى شيء أثناء الدّراسة [49] و يحلقون حول شيخ العزّابة أو من ينوب عنه . وتكون الدّروس بالنّسبة لهؤلاء على شكل حوار ومناقشات .

جـ – موارد المدرسة :

إنّ موارد المدرسة جزء لا يتجزأ من ميزانية حلقة العزّابة ويمكن تقسيم موارد العزّابة إلىّ قسمين :

أ – <u>الموارد الثّابتة :</u> تشمل الحبوس والأوقاف المتعلّقة بالمسجد ، وهذه الأوقاف معتبرة ، إضافة إلى ذلك فقد شكّلت الزّكاة أهمّ مورد لبيت مال العزّابة [50] .

ب – <u>الموارد غير الثّابتة :</u> تعّد هذه الموارد متنوّعة المصدر ، فالأغنياء يتكفّلون بنفقات التلاميذ لمدّة معيّنة . ويقدّم لنا التّاريخ الإباضي أمثلة من ذلك . فالشمّاخي يذكر أنّ اثنين وثلاثين عالما من علماء الإباضية تكفّلوا بنفقات الحلقة وحوائج طلبتهم [51]. كانت هذه التبرعات تخلق نوعا من المنافسة بين الأغنياء ، فكانت تَرِد الهدايا للطلبة وللمسجد من تمر وزبيب وزيت و سمن وغيرها من المواد الأخرى ، فتُخزن في مخازن مخصّصة لهذا الغرض في المسجد . ومن التبّرعات ما تشمله بعض وصايا الأغنياء ، إذ يُخصّص جزء من الأموال لبيت مال الحلقة .

إنّ هذه الأموال المتنوّعة التي تَرِد إلى بيت مال الحلقة تساعد بشكل كبير أداء أعضاء الحلقة لمهامهم و وظيفتهم بكفاءة عالية .

---

[49] - أبو العباس الدرجيني : المصدر السابق ، ص : 179 .
[50] - عوض خليفات : النظم الاجتماعية ، ص : 73 .
[51] - الشماخي (أحمد بن سعيد) : كتاب السير ، طبعة حجرية ، القاهرة 1884 ، ص : 381 .

2 – نشأة المدارس :

ظلّ المسجد دائما المؤسّسة الأولى في صدر الإسلام ، ومقرّا لعديد من النّشاطات ، فإضافة إلى دوره الدّيني كان بمثابة دار العلم الذي يلتقي فيه المعلمون والمتعلّمون في شكل حلقات يتدارسون أصول دينهم . ولكن باتساع رقعة الإسلام وتطوّر المجتمع الإسلامي واحتكاكه بالحضارات الأخرى ، وازدياد عدد الراغبين في التعلّم ليس فقط في نطاق العلوم الدّينية بل تعدّاه إلى مجال العلوم النّقلية والعقلية ، جاء احتياج المسلمين إلى مؤسّسات تخفّف العبء عن المسجد وتؤدّي رسالة نهضة المجتمع ورقيه ، وهكذا ظهرت المدارس كمنشآت مستقلّة عن المسجد .

أ – تعريف المدرسة :

المَدارِس جمع مَدرَسة من درس الكتاب يدرُسُه دَرسا ودِرَاسَة و دارَسَه ومعناه عانده حتى انقاد لحفظه . يقول ابن منظور في كتابه لسان العرب : و المِدرَاس والمِدرَس الموضع الذي يدرس فيه ، والمِدرَس : الكتاب ، والمُدارِس الذي قرأ الكتب ودرسها ... والمِدرَاس البيت الذي يُدرس فيه القرآن ... ومِفعَل ومِفعَال من أبنية المبالغة ، ومنه الحديث الآخر : حتى أتى المِدرَاس ؛هو البيت الذي يدرسون فيه [52]

ويقصد بالمدرسة في العمارة الإسلامية بناء يُفترض أن لا يكون له مئذنة ولا منبر ولا تقام فيه صلاة جامعة ويُخصّص لتدريس علوم الدّين فقط ، سواء على مذهب واحد أو عدّة مذاهب تبعا لإمكانيات المنشأة .

كان الشيوخ والعلماء في العصور الإسلامية الأولى يستقبلون طلبتهم في المساجد وفي بيوتهم لتعليمهم وإعطاء دروس لهم ، وقد استمرّ هذا الوضع حتى إنشاء جامع الأزهر سنة 360 هـ / 970 م لكن هذا الجامع لم يشيّد ليكون مركزا تعليميا في

---

[52] - ابن منظور : المصدر السابق ، ج 6 ، ، ص : 80

الأصل [53] ، والدّليل على ذلك أنّ تصميم الجامع لا يختلف عن تصميم المساجد ذات الأعمدة والدّعامات .

ويجمع المختّصون أنّ بداية ظهور المدارس بالمعنى الحقيقي يعود إلى العصور الوسطى لا سيّما في عهد السّلطان السّلجوقي ملكشاه (465 - 485 هـ / 1072 - 1092 م) . لكنّه يبدو حسب المصادر التاريخية أنه قد شيّدت أربع مدارس قبل ذلك تعود إلى عهد الملك الغزناوي محمود (389 – 432 هـ / 998 - 1040 م) كالبيهقية والسعدية ومدرسة أبي السّعد الإستربادي ومدرسة أبي اسحاق الأسفريني ، لكن خصائصها المعمارية تبقى مبهمة ومجهولة لعدم إشارة هذه المصادر إلى هذا الجانب .

وقد ورد اسم << مدرسة >> لأوّل مرّة في نصّ جنائزي في بيري فليزوان Peri Falizvan عُثر عليه أثناء الحفريات التي أجرها البعثة الإيطالية بقيادة بومباتشي Bombaci ، ويُظنّ أنّ هذه المدرسة كانت متّصلة برباط أنشئ إلى جانب قبر حاكم طوس الغزناوي أرسلان جاذب بسنغباست . و يلاحظ من خلال تتبع المخطّط الأثري الذي قام برفعه نيدرمان Neiderman لمجموعة سنغباست وجود مدرسة تتألّف من صحن مستطيل الشّكل ، محاط بصفوف من الغرف من كل جانب ، ولربّما يوجد بها إيوانان ؛ واحد في المدخل والآخر في القبلة أو واحد في القبلة فقط . و قد شيّدت هذه المدرسة سنة 419 هـ / 1028 [54] .

- كما تمّ العثور في السنوات الأخيرة بسمرقند إثر عملية تنقيب على مدرسة إبراهيم الأوّل الغزناوي التي تعود إلى سنة 459 هـ / 1066 م [55] .

[53] - تروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 132

[54] - أوقطاي اصلان ابا : فنون الترك وعمائرهم ، تر أحمد محمد عيسى ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية استانبول 1987 ، ص : 46 .

[55] - Ara Altun: Op.cit , p: 80

لكن مدرسة ناصر خسرو التي شيّدت سنة 438 هـ / 1046 م بنسابور ، بأمر من السّلطان طوغرول باي ، تعدّ حسب المصادر التاريخية أوّل مدرسة نظامية مستقلّة بأتّم معنى الكلمة . أمّا مدارس بغداد و طوس و أصفهان و هراة و بلخ فقد شيّدت سنة 460 هـ / 1067 م [56] ، ثمّ أخذ ينتشر هذا النّوع من العمائر في العراق وايران وسوريا وبلاد الأناضول ومصر على يد السّلاجقة والمماليك الأتابكة .

و على الرّغم من اندثار أغلب هذه العمائر ، إلاّ أنّ مدرستي هارغيرات بخرسان و ري النظامتين المشيّدتين في عهد الملك السّلجوقي ملكشاه (465 - 485 هـ / 1072 - 1092 م) قد مكّنتانا بفضل بعض البقايا من التعرّف على مخطّط المدارس السّائدة في تلك المناطق . ولقد كانت تتألّف عموما من صحن داخلي ، تحيط به أربعة إيوانات أو إيوانان في وسط المجنبات ، ويمتاز مخطّطها بالسمترية التامّة [57] .

ويمكن أن يكون بيت المدرّس مصدر إلهام لتصميم المدرسة لا سيّما إذا علمنا أنّ العلماء كانوا يستقبلون طلبتهم في بيوتهم ، وبالفعل فقد تمّ العثور في منطقة ماوراء النهرين وخرسان على عدد كبير من هذه المساكن ذات المخطّط المربع المركزي . و يرجع تاريخ هذه المساكن إلى الفترة ما بين القرنين التّاسع والثّاني عشر الميلاديين . فمعظمها يتألّف من مربع مركزي مغطى بقبّة . وفُتحت نحو هذا المربع المركزي أربع إيوانات تحوي فيما بينها أقساما أخرى ، وأحيانا يسقط عدد الإيوانات إلى ثلاثة ، كما هو الشّأن في بيوت سوريا وبلاد الأناضول .وقد صمّمت البيوت الخاصّة في أركان الخانات على هذا النّمط سواء في عهد الإلخانات أو السّلاجقة ، وقد عرفت باسم البيت [58] .

---

(56) - Ara Altun: : Op.cit , p: 81

(57) - أوقطاي اصلان ابا : المرجع السابق ، ص : 47

(58) - Ara Altun : Ibid p: 80

يوجد بجانب هذا المخطّط المركزي المغطّى أمثلة أخرى لمخطّط مركزي مفتوح ، لذلك نلاحظ وجود طرازين معماريين مختلفين للمدارس هما : طرازالمدرسة المغطّاة وطراز المدرسة المكشوفة .

ب – المدارس المغطّاة :

تعدّ مدرسة قيميشتكين Gumushtekin ببُصرة أقدم مدرسة من إنشاء أتابكة دمشق باقية في سوريا ، وأوّل نموذج يحمل معالم هذا الطراز . ولقد أمر بتشييدها حاكم بصرة سنة 428 هـ / 1036 م لصالح المذهب الحنفي تحت حكم الأتابكة . تتكوّن هذه المدرسة من صحن مربّع الشكل (6×6 م^2) مغطّى بقبّة ، وقد خُرّبت في القرن التّاسع عشر من قبل الوهّابين ، وهدّمت قبّتها . وتتألّف المدرسة من صحن يحيط به أربع إيوانات ، وقد استعمل إيوان القبلة كمسجد مفتوح نحو الصحن بواسطة ثلاثة عقود ، وحسب كرزويل فإنّ المساحات كلها كانت مغطّاة بسقف مسطّح باستثناء الصحن[59] .

تشبه قبّة المدرسة المذكورة أعلاه قباب مدرستي نكسار Niksar و طوقات Tokat المشيّدتين خلال القرن الثّاني عشر الميلادي ببلاد الأناضول[60] ، والشيء الملاحظ أنّ هذا النّمط عرف تطوّرا كبيرا فيما بعد .

ففي بلاد الأناضول ظهرت مدرستا ياغي باصان Yagibasn التي شيّدهما الأمير ياغي باصان الدانشمندي في كلّ من طوقات 552 هـ / 1157 م ونكسار 552 هـ /1158 م ، وتتكوّن المدرستان من صحن مغطّى بقبّة ، وقد فُتح على الصحن إيوانان في الجهتين الجنوبية الشرقية والشّمالية الغربية . وتحيط بالصحن غرف مغطّاة بأقبية نصف برميلية .

(59) - أوقطاي اصلان ابا : المرجع السابق ، ص : 51

(60) - Ara Altun: Op . cit , p: 82

و تعدّ مدرسة ارطوقوش Artukuch (621 هـ /1224 م) بأتاباي Atabey قرب إصبرطة من النّماذج الرائعة ضمن نمط المدارس المغطّاة . و الشّيء الملاحظ هنا أنّ القبّة تغطّي مربّعا مركزيا في الصحن ، وترتكز على أربعة أعمدة ، بينما غطّيت المساحات المتبقية بأقبية نصف برميلية . ويفتح نحو الصحن إيوان واحد يؤدّي إلى ضريح يتّصل به من الخلف عن طريق ثلاثة عقود . وإلى جانبي الإيوان توجد غرفتان مغطّاة بقبّة مثمنّة الشكل ، أمّا الغرف الأخرى المحاطة بالصحن فمغطّاة بأقبية [61] .

- أخذ الطّراز الذي أطلقنا عليه اسم طراز « المدارس المغطّاة » في التطوّر ، حيث كثرت الغرف المغطّاة بالقباب على جانبي الإيوان الكبير ، كما رأينا ذلك في مدرسة ارطوكوش .

وتعدّ مدرسة كاراتاي Karatay (649 هـ / 1232 م) من أروع نماذج هذا النمط إلى جانب المدرسة ذات المئذنة القلمية المشيّدة بين (659 – 664 هـ / 1260 - 1265 م)[62] .

جـ - المدارس المكشوفة :

يدخل ضمن إطار هذا الطراز كل المدارس التي لم يُغطّ صحنها وبقي مكشوفا ، ومن أقدم النّماذج المدرسة الزنجيرية في ديار بكر بتركيا ، والتي قام ببنائها المهندس أبو درهم سنة 695 هـ / 1198 م ، وتستغلّ حاليا كمتحف . تتكوّن هذه المدرسة من صحن يحيط به رواق من الجهات الأربعة . و كل الغرف المفتوحة نحو الصحن مغطّاة بأقبية ، باستثناء غرفة واحدة موجودة في الرّكن الأيسر من الإيوان الكبير والتي غُطّيت بقبّة [63] .

(61) - أوقطاي اصلان ابا : المرجع السابق، ص : 96 - 97

(62) - Ara Altun: Op.cit , p: 82

(63) - أوقطاي اصلان ابا : المرجع نفسه ، ص :100 .

تشبه المدرسة الزنجيرية في تصميمها المدرسة المسعودية بديار بكر إلى حدّ كبير ، وقد أنشئت بأمر من سلمان الثّاني لصالح المذاهب الأربعة في فترة تتراوح ما بين 595 – 620 هـ / 1198 - 1223 م . وتتّصل هذه المدرسة بالمسجد الكبير بواسطة بوائكه الجنوبية ، وقد قام بإنجازها المهندس الحلبي جعفر بن محمود . وتتكوّن من طابقين ، حيث يرتفع الإيوان الكبير على ارتفاع الطّابقين [64] .

ومن المدارس السّلجوقية المنتمية إلى هذا النّمط نذكر المدرسة االتوأمية (602 هـ / 1205 م) التي تضمّ أربع إيوانات .

ولقد بُنيت مدرسة سرشالي بمدينة قونية على هذا النّمط المعماري وتمتاز بتوازن وتناظر في مخطّطها ، ولكن لم يبق من الطّابق العلوي شيء ،و لقد طُبّق نفس التّصميم في مدرسة طاش (المدرسة الحجرية) التي بناها صاحب أتا في أقشهير Akchehir سنة 648 هـ / 1250 م . و ما يميّزها مئذنتها الأسطوانية ذات الشرفتين [65].

3 – دراسة تحليلية لمدارس مزاب :

تتألّف المدارس (المحاضر) في وادي مزاب من طابق أرضي وطابق علوي ، فالطّابق الأرضي منغلق تماما عن الوسط الخارجي ، فباستثناء المدخل لا توجد أيّة فتحة نحو الخارج تؤدّي وظيفة التّهوية والإضاءة و إن وجدت فهي لا تفي بالغرض . فكيف يتمّ إذاً إضاءة و تهوية المكان ؟

توجد أربع فتحات فقط تؤمّن دخول الضّوء والهواء ، وهذه الفتحات محفورة في سقف الفضاء المركزي ومفتوحة نحو الفضاء المكشوف في الطّابق العلوي ، ولكن يبدو أنّ هذه الفتحات لا تؤدّي الغرض المطلوب ، لا سيّما في بداية النّهار ، لذا فإنّ الطلبة والمدرّسون يلجؤون إلى الطّابق العلوي في السّاعات الأولى من النّهار . ولعلّ

(64) - أوقطاي اصلان ابا : المرجع السابق ، ص :101

(65) - المرجع نفسه ، ص :105

هذا الانغلاق يراد منه توفير جوّ ملائم ومناسب للطالب لاستيعاب الدّروس المقدّمة من قبل المدرّسين ، بعيدا عن ضوضاء الوسط الخارجي .

تتكرّر أجزاء الطّابق الأرضي في الطّابق العلوي ، لكن الفضاءات هنا مفتوحة نحو الرواق الذي يطلّ على فضاء مكشوف (الشكل رقم : 19 – 22 و اللوحة رقم : 36) .

ولقد رُتّبت دكّات حجرية على طول جدران الطّابق الأرضي لجلوس الطلبة الذين يسمح لهم بالاستناد على جدار أو دعامة ، على حسب شروط النّظام الدراسي الذي تعرّضنا إليه في الأعلى ، كما رتّبت دكّة أخرى حجرية صغيرة بجانب إحدى الدّعامات بقدر حجم جلوس شخص واحد ، ويفهم من المعلومات التي أدلى لنا بها بعض مسؤولي المحاضر بغرداية أنّ هذه الدكّة تستخدم لجلوس الشيخ أو الفقيه أثناء إلقاء الدّروس على الطلبة المجتمعين حوله على شكل حلقة .

إنّ ما شدّ انتباهي تلك الفتحات الغريبة المحفورة في سقف مدرسة بلحسن و التي تشتمل على أغطية من جذوع النّخيل ، وهذه الفتحات تستدعي منّا الوقوف عندها (الشكل رقم: 20) . لا أعرف لهذا النّوع من الفتحات مثيلا في هندسة وادي مزاب ، إذ المعروف في عمارة المباني في المنطقة أنّ الفتحة في سقف الطّابق الأرضي تكون عادة مربّعة ، و يتراوح طول ضلعها ما بين 1 م و 1,5 م .

وفي رأيي فإنّ الهدف من تغطية تلك الفتحات الصّغيرة ، هو استغلال الفضاءات في الطّابق العلوي قدر الإمكان ، فبمجرّد غلق الفتحات يصبح بالإمكان الجلوس فوقها دون أي حرج .

وبالنّسبة للطّابق العلوي فإنّ الفضاء المركزي المفتوح نحو السّماء هو الذي يؤمّن دخول الضّوء و الهواء إلى الرّواق المحاط به ، أمّا في الطّابق الأرضي فإنّ

الفتحات المستطيلة أو المربعة المفتوحة نحو الفضاء المركزي للطّابق الأول هي التي تسمح بمرور الضّوء و الهواء ، ولكن يبدو أنّ هذه الفتحات لا تف الغرض المطلوب لذلك يلجأ الطلبة والمدرّسون إلى الطّابق الأوّل مباشرة بعد طلوع الشّمس للاستفادة من ضوئها وحرارتها .

شيّدت المدارس في مزاب حسب تصميم مشابه إلى حدّ كبير تصميم المسكن المزابي ، وتتشكّل المدارس من فضاء مركزي محاط بفضاءات أقلّ حجما ومفتوحة نحوه . فإذا ما حاولنا تناول مخطّط هذه المدارس بالفحص والتدقيق نجد أنّها لا تبتعد كثيرا عن مخطّطات المدارس الإسلامية. . ففي نظري أنّ البنّاء المزابي أراد من خلال تصميم تلك الفضاءات المطلّة على الفضاء المركزي تقليد عنصر الإيوان في المبنى ولو بحجم مصغّر ، كما أنّ ذلك الفضاء المركزي كان بمثابة الصحن المغطّى ، ومن هنا يمكن تصنيف المدرسة المزابية ضمن طراز المدارس المغطّاة .

ويعود أصل تصميم المدرسة في المشرق الإسلامي حسب الباحث أرا ألتون إلى مخطّط المسكن الإيراني(66) ، وبما أنّ تصميم المدرسة المزابية كان تقليدا لمخطّط المسكن كذلك ، كما سبق وأن ذكرنا ، فإنّنا نستنتج أنّ أصل مخطّط المدرسة واحد ، ألا و هو المسكن الذي كان يتّخذه الشيخ أو الفقيه في كامل بقاع العالم الإسلامي مكانا للتّدريس .

ويُستغلّ كلّ إيوان في المدارس المشرقية لتدريس أحد المذاهب السنية الأربعة ، في حين يُخصّص كلّ فضاء من الفضاءات المطلّة على الفضاء المركزي في المدارس المزابية لمستوى تعليمي معيّن .

(66) - Ara Altun: Op.cit , p : 81

ثالثا – المصلّيات الجنائزية :

يُقصد بها تلك المنشآت التي تُوظّف لأداء صلاة الجنازة أو ممارسة بعض الطقوس الدّينية التي تتعلّق أصلا بالميت . ففي مزاب تحتلّ هذه المنشآت موقعا داخل المقبرة .

1 – تعريف المصليات الجنائزية ونشأتها :

هناك من يطلق عليها اسم مصليات المقابر و بادئ ذي بدء لا بدّ من تقديم تعريف لهذا المصطلح ، فيقال للمُصلّى بالضّم و تشديد اللاّم بمعنى موضع الصّلاة ، و قيل أيضا موضع الدّعاء[67] كما في قوله تعالى : << و اتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى >> [68] . أمّا مفهومه كمصطلح ، فيقصد به تلك الأبنية التي تخصّص للصّلاة في مناسبات مختلفة مثل صلاة العيدين (الفطر و الأضحى) و من هنا اشتهرت باسم مصلّى العيد . و تجاوزا أطلق على المساجد بدون مئذنة اسم المصلى [69] .

و بأداء صلاة الجنازة في هذه المصلّيات ، أصبحت تُعرف باسم المصلّى الجنائزي . ويُبنى هذا المصلّى في بعض الأحيان مجاورا لمصلّى العيد ، و في أحايين أخرى يُستغلّ نفس المصلّى لصلاة العيد و صلاة الجنازة في آن واحد . فضلا عن أداء صلاة الاستسقاء كما تذكر ذلك بعض المصادر التاريخية [70] .

أدّت المصلّيات دورا عظيم الشأن في المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى وخصوصا في منطقة وادي مزاب .

---

(67) - ابن منظور : المصدر السابق ، ج :14 ، ص : 464-469 .

(68) - سورة البقرة الآية : 125

(69) - محمد حمزة إسماعيل الحداد: المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية ، دار النهضة الشرق ، القاهرة 1995 ، ص : 37

(70) - محمد ناصر الدين الألباني : أحكام الجنائز ، دمشق 1968 ، ص : 106

لقد ورد أنّ المصلّى الجنائزي في المدينة المنوّرة كان ملتصقا بمسجد الرسول ﷺ من ناحية الشرق و ما يؤكّد هذا القول ما تذكره المصادر التاريخية من أنّ جدار الحجرة الشريفة التي تلي موضع الجنائز - يعني جهة الشرق - سقط في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه و ظهرت القبور المقدّسة [71].

و قد ظلّ ذلك الموضع يحمل اسم مصلّى الجنائز على وقت قريب إذ يشير عبد القادر شيبه الحمد إلى ذلك في قوله << و لا زلنا نسمع إلى الآن أنّ السّاحة الواقعة بجانب جدار المسجد النبوي الشريف من النّاحية الجنوبية الشرقية والتي أُحيطت من جهة الشرق و الشّمال و الجنوب بجدار قصير ، أنها كانت مصلّى الجنائز >> [72].

لقد انتشرت هذه المصلّيات في العديد من المدن الإسلامية ، فكانت تعرف أحيانا باسم المصلّيات الجنائزية . و لقد ألحقت هذه المصليات الجنائزية سواء المغطّاة منها أو المكشوفة ببعض الجوامع ويقدّم لنا محمد الكحلاوي أمثلة من ذلك في بلاد المغرب مثل المصلّى الملحق بجامعي القرويين و الأندلسيين بفاس [73] ، وأمّا في مصر فصلاة الجنازة كانت تقام في المساجد . وهذا لا يعني أنّ العمارة المصرية الإسلامية لم تعرف المصلّيات الجنائزية ، بل من المؤكّد أنّها عرفتها مثل بقية الأقطار الإسلامية ، ويُفهم من المصادر والوثائق التاريخية أنّها كانت عديدة ، وكانت إمّا ملحقة بالعمائر الدّينية ولا سيّما بالمساجد أو بنيت مستقلّة . وتعلّق عليها أوقاف عديدة و من أمثلة

(71) - السمهودي : الوفاء بما يجب على حضرة المصطفى ، ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة ، تقديم حمد الجاسر ، الرياض 1972 ، ص : 111 .

(72) - الحمد عبد القادر شيبة : فقه الإسلام شرح بلوغ المرام في جمع أدلة الأحكام للحافظ أبي حجر العسقلاني ، ج 3 ، ط 2 ، مطابع المدينة ، الرياض ، د . ت ، ص : 41 .

(73) - محمد محمد الكحلاوي عمائر الموحدين الدينية بالمغرب ، رسالة دكتوراة الدولة ، كلية علم الأثار ، جامعة القاهرة 1986 ، ص : 144 .

ذلك المصلّى الملحق بمسجد الأمير علي كاشف جمال الدين بمنفلوط 1176 هـ / 1762 م[74] .

2 – مصليات مزاب :

عادة يكون بجوار المصلّيات الجنائزية في مزاب ضريح لعالم ، ولكن قد يكون سابق للبناء أو بعده . وعموما تُقام بمحاذاة أضرحة هؤلاء العلماء ، مصلّيات صغيرة المساحة تكريما لشخصهم و عرفانا للمجهودات العلمية التي قدّموها لمجتمعهم في مجال التعليم و الإصلاح أثناء ترأسهم لحلقة العزابة في مدينتهم . ولكن لا بدّ لنا من طرح تساؤل مهمّ هنا ، هل قبر العالم أسبق أم المصلّى ؟ سأحاول الإجابة على هذا التّساؤل لاحقا .

وقبل أن أخوض في تحليل المصلّيات الجنائزية معماريا ، لابدّ أن أقف في الدّور الذي تؤدّيه هذه المباني في المجتمع المزابي . و ما هي العلاقة التي تربطها بالمسجد ؟ .

أ – وظيفة المصلّيات الجنائزية :

تؤدّي المصلّيات الجنائزية دورا تعليميا ، و تربويا و اجتماعيا داخل المجتمع المزابي .

– كان لهذه المصليات دور أساسي في ميدان التعليم ، و أعتقد أنّ فكرة إنشائها كانت في الأصل لغرض تعليمي بحث . إذ يبدو أنّ بعض المشايخ الإباضيين الأوائل في وادي مزاب ،كانوا يتّخذون من المباني البعيدة عن التّجمعات السكّانية أماكن لأداء مهمّة التعليم و التدريس على أحسن وجه . و ذلك اقتداء بأسلافهم الإباضية الذين كانوا يلجؤون إلى مغارات التي قد تكون عبارة عن سردايب تحت الأرض ، تُمارس

---

(74) - محمد حمزة إسماعيل الحداد: << المصليات الجنائزية في العمارة المصرية العربية – دراسة أثرية – (تحليلية مقارنة) وثائقية تاريخية >> مجلة كلية الآثار ، ع 8 ، مطبعة جامعة القاهرة القاهرة 2000 ، ص : 148 – 149..

في داخلها مهنة التّدريس ، ولنا في التّاريخ الإباضي أمثلة عديدة نذكر منها مثلا الغار الذي آوى إليه أبوعبيدة مسلم بن أبي كريمة و تلاميذه ممن يُطلق عليهم اسم << حملة العلم >> [75] ، والغار الذي احتضن أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي و تلاميذه في تين إيسلي ، حين أراد الانعزال مع تلاميذه قصد التعلّم والتفقّه في الدّين والمذهب [76] . و ليس أدلّ على ذلك ، ما قام به عمّي سعيد الجربي عندما استقرّ في مزاب ، فقد خصّص المصلّى الذي ابتناه (المصلّى الجنائزي عمّي سعيد) لأداء مهنة التّدريس .

إنّ فكرة البعد عن التجمّع السكني و الاختلاء بالطلبة يكفل حقيقة انصراف الطلبة عن كل ملهيات الحياة و يضمن تفرّغهم الكامل للتّحصيل العلمي و التّربية فقط ، وفي رأيي فإنّ الزّوايا قد نشأت من نفس الفكرة .

بعد وفاة العالم يدفن إلى جوار مدرسته أو خلوته ، ثمّ يدفن إلى جواره بعد ذلك كلّ من ينتمي إلى عشيرته أو عرشه ، لتتحوّل الأراضي المجاورة للمدرسة إلى مقبرة فتصبح هذه القبور محاطة بها من كلّ الجهات باستثناء جهة القبلة ، فتتحوّل بذلك إلى مصلّى المقبرة ، ثمّ يُعطى لها اسم العالم الجدّ ،كأن نقول مثلا مقبرة الشيخ عمّي سعيد أو مقبرة الشيخ بامحمد . و بضمّ المقبرة إلى المصلّى تتغير وظيفة المبنى طبيعيا من مدرسة إلى مصلّى جنائزي ، أين تقام صلاة الجنازة وبعض الشعائر الدّينية المتعلّقة بالموتى ، و لتدعيم هذه الفكرة يمكن أن أضيف إلى ما سبق للاستدلال على عملية تحوّل المدرسة إلى مصلّى جنائزي ، إطلاق تسمية << المحضرة >> إلى يومنا على هذا النّوع من المباني ، مع العلم أنّ اسم المحضرة يقصد بها المدرسة في منطقة وادي مزاب . إذن فالمصلّيات الجنائزية نشأت من فكرة المدرسة أو ما يسمى << بالمحضرة >>

---

(75) - عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ... ، ص : 108.
(76) - الدرجيني : المصدر السابق ، ج 1 ص : 170.

ثمّ أصبحت مصلّيات جنائزية . فإذا كانت هذه المنشآت في البداية تؤدّي وظيفة التدريس فما هو دورها الجديد ؟

إضافة إلى أداء صلاة الجنازة ، تستقبل تلك المصلّيات الجنائزية في فترة محدّدة من السّنة عدداً كبيراً من دارسي القرآن الكريم بدءا بأعضاء حلقة العزّابة ، وحتى التلاميذ الصّغار يتوافدون منذ الصّباح الباكر ، ثمّ ينقسمون إلى مجوعات على حسب حفظهم للقرآن الكريم ، و قد خُصّص لكلّ مجموعة فضاء معيّن . ويقوم الوافدون بتلاوة القرآن الكريم حتى الزّوال ، ثمّ يتفرّقون ليرجعوا في المساء قبل صلاة الظهر ، حيث يتمّ اختتام القرآن الكريم . وخلال الفترة الصباحية و المسائية يتمّ توزيع بعض الأطعمة (التمر و الخبز و الكسكس و حتى اللحم ...الخ) المعلّقة على المصلّى الجنائزي في شكل أوقاف أو حبوس أو صدقات ، و يستفيد من هذه الأطعمة عدد كبير من المحرومين و المعوزين من الفقراء والمساكين.

و تبرز أهمّية هذه المباني فعلا أثناء ظهور الكوارث مثل المجاعات و الأوبئة التي تُودي بحياة العديد من السكّان الذين لا يمكن أن يستوعبهم إلاّ هذه الأماكن ، فتُقام عليهم صلاة الجنازة فيها[77] .

وتجدر الإشارة إلى أنّ الصّلوات الخمس لا تقام في هذه المباني ، اقتداء بالأحاديث النبويّة التي تحرّم اتخاذ المقابر مساجد فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ الرّسول ﷺ قال : الأرض كلّها مسجد ، إلاّ المقبرة والحمام[78] .

ب – دراسة تحليلية للمصليات الجنائزية :

لا تبتعد المصلّيات الجنائزية المغطّاة في تخطيطها و في نمطها المعماري عن مساجد المدينة إلاّ من حيث الوظيفة . إذ إنّ عملية تنميط هذه المصليات صعبة للغاية

(77) - محمد حمزة إسماعيل الجداد : المصليات .....، ص : 141.
(78) - خير الدين وائلي : المرجع السابق ، ص: 385

نظرا للتّشابه الكبير فيما بينها ، لكن بعد التّدقيق و اعتماد على تقنية التغطية ، تمكّنت من تمييز نمطين معماريين : المصلّيات ذات القباب ، و المصلّيات ذات الأقبية .

ب – 1 – المصلّيات الجنائزية ذات القباب :

يدخل ضمن هذا النّوع كلّ المصلّيات الجنائزية المغطّاة جزئيا أو كلّيا بقباب بارزة من الخارج أو مضمرة ومغروسة في السّقف . وينتشر هذا النّوع خاصّة في مدينة غرداية كالمصلّيات الجنائزية عمّي سعيد و بابه و الجمة و باعيسى او علوان ، و هذا يفرض علينا طرح السؤال الآتي : لماذا اقتصر هذا النّوع على مدينة غرداية دون غيرها ؟ .

يبدو أنّه لابدّ من البحث في أصل الجماعات المهاجرة التي استقرّت في مدينة غرداية دون غيرها ، ولم يكن لها انتشار في المدن الأخرى . ويُفترض كذلك أن ينتقل بعض البنّائين مع هذه الجماعات حاملين معهم هذا النّمط المعماري ، ويبدو لي أنّ الأمر يتعلّق بالمجموعات القادمة من مدينة جربة بتونس ، أو من جبل نفوسة بليبيا، و ذلك للاستعمال الواسع لعنصر القبّة في المباني الدّينية بهذه المناطق ولا سيّما في المساجد. كما نجد الأسلوب ذاته في التسقيف متداولا في العمارة الشّعبية بمصر ، و من أبرز نماذجها مسجد << سبع والسّبعين >> بمدينة أصوان الذي ينقسم إلى تسع فضاءات متساوية مغطّاة بقباب نصف كروية [79].

ينتج عن تقاطع البوائك العمودية و الموازية فيما بينها داخل بيوت الصّلاة في المصلّيات الجنائزية المنتمية إلى هذا النّوع ، فضاءات صغيرة غير متساوية ، غُطّيت بقباب نصف كروية متفاوتة البروز من الخارج أحيانا ، ومضمرة أو مغروسة في

[79] - رياض المرابطي : المرجع السابق ، ص : 107،

السّقف أحيانا أخرى ، وترتكز القباب هنا على دعامات مستطيلة أو مربّعة وأحيانا غير منتظمة الشّكل بواسطة عقود نصف دائرية .

ويظهر مخطّط مصلّى بابه والجمّة الجنائزي بغرداية مختلفا تماما عن المخطّطات التي ألفنا مشاهدتها ، ويتعلّق الأمر بمخطّط على شكل حرف T اللاتيني .

ب – 2 – المصلّيات الجنائزية ذات الأقبية :

يعدّ هذا النّمط أكثر الأنواع انتشارا في منطقة مزاب . وقد غطّيت الفراغات الضيّقة النّاتجة عن تقاطع البوائك السائرة في الاتّجاهين العمودي والموازي لجدار القبلة ، بأقبية نصف برميلية أو أقبية متقاطعة ، و قد ساعد على إنجاز هذه الأقبية سهولة توفّر مادّة الجريد بالمنطقة . وما يلاحظ في المصلّيات الجنائزية المنضوية تحت هذا النّوع أنّ بيوت الصّلاة فيها تكون في أغلب الأحيان مفتوحة بواسطة بائكة أو أكثر نحو الفضاء المفتوح الذي يحدّده سياج جداري ، لا يتجاوز ارتفاعه 0,70 م ، ويظهر ذلك جليا في المصلّى الجنائزي بامحمد (اللوحة رقم : 25) والشيخ باسه * (اللوحة رقم : 57) ببني يزقن و المصلّى الجنائزي عمّي إبراهيم بالعطف (اللوحة رقم : 23) .

لم يأت انفتاح بيت الصّلاة نحو الفضاء المكشوف بهذا الشّكل عفويا أو اعتباطا ، بل كان يستجيب إلى احتياجات ملحّة تمليها اعتبارات طبيعية . فأغلب هذه المصلّيات بُنيت على سفوح الهضاب الصخرية ، وبما أنّ الجزء المغطّى من هذه المباني يكون مواليا للجبل ، فمن الضّروري تأمين الضّوء والهواء للأقسام الدّاخلية من الجهات الأخرى .

* يوجد هذا المصلى الجنائزي في الجهة الغربية لمدينة بني يزقن على بعد مائة متر تقريبا عن الباب الغربي للمدينة ، ويكون على يسار المتوجّه إلى الأجنّة وينسب إلى العالم الشيخ باسه اوفضل الذي عاش خلال القرن التاسع الهجري الرابع عشر ميلادي .

وهناك ظاهرة لاحظتها في مساجد المدينة وتتكرّر في بعض المصلّيات الجنائزية ذات الأقبية ، ويتعلّق الأمر بالعدد الهائل من الدّعامات الساندة ، حتى ليعتقد المرء أنّه داخل غابة كثيفة من الدّعامات التي يبدو أنّها استعملت لغرض حمل ثقل السقف ذو السمك الغليظ ، وتتمّ هذه العملية بواسطة سلسلة من العقود الحدوية والنصف الدائرية .

تُرك داخل بعض المصلّيات الجنائزية فضاءات واسعة نوعا ما مقارنة بالفضاءات المعمارية الأخرى . وتُستغلّ لأداء وظائف معيّنة فيها ، وخاصّة ما له علاقة بحلقات الدّرس ، وتُغطّى هذه الفضاءات بأخشاب من جذوع النّخيل وجريدها وأحسن مثال على ذلك ما نشاهده في مصلّى عمّي سعيد (اللوحة رقم : 26) .

جـ – المصلّيات المكشوفة :

هناك نوع آخر من مصلّيات المقابر في مزاب وهي عبارة عن ساحة واسعة مكشوفة تماما ، يحدّدها سياج جداري وفُتحت في واجهتها القبلية عترة تبيّن اتّجاه الكعبة ، كما فُتحت على جدرانها عدد كبير من الكوّات التي تسمح بوضع الأحذية والمصاحف والأدوات اللاّزمة لأداء الشعائر الدّينية . ويبدو أنّ المصلّيات المكشوفة لم تشيّد إلاّ بعد دفن العالم الذي ستحمل المقبرة اسمه .

رابعا – المقام أو اللّحد:

قبل أن أتطرّق إلى هذا المبنى الدّيني المتميّز في منطقة وادي مزاب ، لابدّ لي من الرّجوع إلى العمارة الإسلامية للتعرّف أوّلا على أشكال المباني التي خصّصت لدفن السّلاطين و الأمراء و الأولياء الصّالحين . و يعدّ المدفن من بين العمائر الهامّة التي قام بتخطيطها المهندس المسلم الذي أعطى لها عناية كبيرة ، فتطورت أشكالها و سقوفها وكُسيّت بزخارف (نباتيو وهندسية وكتابية) متنوعة ، بلغت من الدّقة و الإبداع ما

لا يمكن تصوّره . و اتّخذت هذه المدافن طابعا خاصّا و محليا في كلّ قطر من أقطار العالم الإسلامي .

1 – تعريف المدفن :

عُرف المدفن بتسميات مختلفة نذكر منها ما يأتي :

أ – **المدفن** : هو مكان دفن الإنسان و الدّفن هو السّتر والموارة ، دفنه يدفنه دفنا و أدفنه فاندفن و تدفن فهو مدفون و دفين و دفن الميت واراه [80] .

ب – **القبر** : هو مدفن الإنسان و جمعه قبور و المقبر مصدر والمقبرة بفتح الباء موضع القبور، وقبره يَقبِرُه دفنه و أقبره وجعل له قبر ، و المقبرة موضع القبر [81] .

جـ – **التربة** :تعني المقبرة ، ترب الميت أي صار ترابا .

د – **الجدث** : في الحديث نبوّؤهم أجداثهم أي نترلهم قبرهم .

الكدية : و منه أنّ فاطمة بنت الرسول ﷺ خرجت لغراء بعض جيرانها فلما انصرفت قال لها الرسول ﷺ << لعلّكِ بلغت معهم الكدي >> أراد المقابر و ذلك لأنّ مقابرهم كانت في مواقع صلبة [82] .

هـ – **اللّحد** : و الجمع ألحاد و لحود و هو شقّ يعمل في جانب القبر فيميل عن وسط القبر إلى جانبه ، بحيث يسع الميت فيوضع فيه ، و يطبق عليه اللبن . و أصل الإلحاد الميل والعدول عن الشيء و من ث تمّ قيل للمائل عن الدين ملحد [83] .

---

(80) - ابن منظور : المصدر السابق ، ج : 13 ، ص : 155 – 157 .

(81) - المصدر نفسه ، ج 5 : ص : 68 – 70 .

(82) - محمد حمزة إسماعيل الحداد القباب في العمارة المصرية الإسلامية القبة المدفن ، نشأتها وتطورها حتى نهاية العصر المملوكي ، ط ، مكتبة الثقافة الدّينية ، القاهرة 1993 ،:1ص: 16 – 17.

(83) -أبو عبد الله محمد بن لإسماعيل البخاري الجعفي: نفس المصدر السابق ، ص : 451

و – **الضريح** :و هو شقّ في وسط القبر ، و قيل القبر كلّه ، و قيل قبر بلا لحد ، و سمي ضريحا لأنه يشقّ في الأرض شقّا أو لأنّه انفرج من جانب القبر فصار في وسطه [84].

ز – **المــقـــام** :يقول ابن منظور << والُمقام والُمقامة : الموضع الذي تقيم فيه ، الُمقامة بالضمّ : الإقامة ، والمقامة بالفتح المجلس والجماعة من النّاس قال : وأمّا الُمقام والمَقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون موضع القيام لقوله تعالى لا مقام لكم ، أي لا موضع لكم وقرئ لا مُقام لكم بالضمّ أي لا إقامة ، وحَسُنَت مُسْتَقَرّاً و مُقَاماً أي موضعا يعني الإقامة >> . و يبدو أنّ مصطلح المَقام يقصد به موضع الدفن ، لكن هذه التّسمية اقتصرت فيما يبدو على منطقة وادي مزاب فقط [85].

2 – الأضرحة الإسلامية :

يبدو أنّ لكراهية الإسلام أثر كبير في عزوف المسلمين عن بناء الأضرحة ، خاصّة في القرون الأولى من الحضارة الإسلامية ، و فعلا فقد اختلف الفقهاء في شأن حكم البناء فوق المدافن والقبور .

وقد وردت في الواقع أحاديث نبوية كثيرة تحرّم البناء على القبر ، و اتّخاذ المساجد والسُّرج عليها ، و من هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن جابر قال : << نهى الرسول ﷺ أن يجصّص القبر و أن يقعد و أن يبنى عليه >> [86] . و روى مسلم أيضا

[84] - ابن منظور : المصدر نفسه مج 2 ، ص : 525 – 526 .
[85] - المصدر نفسه ، ج : 12 ، ص :489 .
[86] - زكي الدين عبد العظيم المنذري :مختصر مسلم ، ط 1 ، تحـ محمد ناصر الدين الألباني ، قصر الكتاب ، البليدة 1411 هـ ص : 130 .

عن أبي الهياج الأسدي قال : << قال لي علي بن أبي طالب ألا أبعثك على ما يغني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالا إلاّ طمسته و لا قبرا مشرفا إلاّ سوّيته >> (87)

و يرى ناصر الدين الألباني في الحديث المشهور على الألسنة : << خير القبور الدوارس >> . أنّه غير صحيح ، لأنّ القبر في نظره لا ينبغي أن يدرس ، بل يجب أن يظلّ مرفوعا عن الأرض قدر شبر ليعرف أنه قبر فيصان ، و لا يهان ، و يزار ، ولا يهجر(88)

و يورد الإمام البخاري كذلك في صحيحه عدّة أحاديث نبوية في هذا الموضوع ، نقتصر بذكر الحديث الآتي فحسب . فعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت لنا : لّما اشتكى النبيّ ﷺ ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية وكانت أمّ سلمة و أمّ حبيبة رضي الله عنهما أتتن أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاويرها فيها فرفع ﷺ رأسه فقال : << أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثمّ صوّروا فيه تلك الصوّر أولئك شرار الخلق عند الله >> (89).

يتبيّن من الأحاديث التي أوردناها أنّ البناء على القبور و تزيينها و اتّخاذ المساجد و السّرج عليها منهيّ عنه مطلقا . و قد أقرّ جمهور الفقهاء أو اتّفقوا على تحريمه حتى اعتبره بعضهم كبيرة من الكبائر .

وبالرّغم من وضوح هذه الأحاديث النّاهية عن بناء الأضرحة و تجصيصها ، و ضرب الخيام عليها ، و رفعها عن الأرض أكثر من الحدّ المشروع ، و اتّخاذ المساجد والقباب فوقها ، وإيقادها بالسّرج ، و السّفر إليها ، و التّمسح بها . إلاّ أنّ

(87) - زكي الدين عبد العظيم المنذري : المصدر السابق ، ح 1 ، ص : 131
(88) - ناصر الدين الألباني : المرجع السابق ، ص : 209 .
(89) - البخاري : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 450 . .

ذلك لم يمنع المهندس المسلم من تشييد نماذج عديدة من الأضرحة في أغلب بقاع العالم الإسلامي ، كما هو الشّأن بالنّسبة لقضية تحريم التّصوير والأحاديث المتعلّقة بها .

إنّ عدم ظهور الأضرحة في العصور الإسلامية الأولى و لاسيّما في العصر الأموي لا يرجع في نظر بعض مؤرّخي الفن إلى امتثال الحكام الأمويين للشريعة الإسلامية ، وإنّما أرجعوا ذلك إلى التخريب والهدم الذي تعرّضت له تلك العمائر من قبل العباسيين الذين حاولوا طمس كل ما له علاقة بالسّلاطين الأمويين من قبور وأضرحة[90].

تعدّ القبّة الصليبية التي نُسبت إلى الخليفة العبّاسي المستنصر و التي تقع قبالة قصر الجوسق الخاقاني من أقدم نماذج المدافن الإسلامية ، ويعود تاريخها إلى العصر العباسي ، و هي عبارة عن قاعة مقبّبة تحيط بها ممرّات خارجية [91]. كما يقدّم لنا ضريح إسماعيل السّاماني نوعا آخر من الأضرحة التي نلمس فيها بصمات الفن السّاساني واضحة ، ويذكّرنا مخطّطه ببيت النّار الفارسية المقدّسة ، ويتكوّن هذا الضّريح من غرفة مربّعة تعلوها قبّة[92] .

ويُعدّ ضريح سنجر في مرو (551 هـ / 1157 م) وضريح اولجايتو في السّلطانية (715 هـ / 1316 م) شمالي غربي ايران ، حلقة مهمّة من مسلسل حلقات تطوّر طرز الأضرحة الملكية التي تستمرّ في تطوير وإنتاج أنواع من الأساليب الهندسية إلى غاية ظهور الأضرحة التيمورية التي تعدّ من أروع ما أنتجه المعماري

---

(90) - محمد حمزة إسماعيل الحداد القباب ...، ص : 36 .

(91) - Henri Stierùin: Op.cit , p: 66

(92) - تروث عكاشة : المرجع السابق ص : 136 .

المسلم في مجال بناء الأضرحة ، ومن أمثلة ذلك ضريح جوهر شاه ابنة تيمور في مدينة هراة وضريح تاج محل في أجرا بالهند [93] .

أمّا الطراز الثّاني فيظهر تصميمه على شكل غرفة ذات مخطّط دائري الشّكل أو متعدّد الأضلاع تعلوها قبّة أو سقف مخروطي ، وقد شاع استخدام هذا النّوع في ايران وبلاد الأناضول على الخصوص . ومن أقدم الأضرحة المنتمية إلى هذا الطراز ضريح جنبيدي قابوس الذي شيّد سنة 374 هـ / 985 م ، قرب جرجان ، ويظهر على شكل برج دائري الشّكل شاهق الارتفاع فوق قاعدة نجمية و ينتهي بسقف مخروطي [94] ومن أمثلة هذا النّوع كذلك نذكر ضريح خودابند بمدينة نيدة التركية (711 هـ / 1312 م) [95].

عندما أرجع إلى شمال إفريقيا عامّة والجزائر خاصّة ، فألاحظ أنّ الأضرحة باستثناء تلك الأضرحة التي شيّدت في بعض حواضر المغرب الأوسط مثل ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر وضريح سيدي بومدين بتلمسان ، تأخذ عموما تصميما بسيطا مقارنة بأضرحة المشرق الإسلامي . ولقد انتشر بكثرة طراز الضريح ذو المخطّط المربّع الشّكل المغطّى بأشكال مختلفة من السّقوف ، وقد يُصادف إلى جانب ذلك نوعا آخر يطلق عليه اسم <<الحويطة>> ، وهو عبارة عن قبر لأحد الأولياء محاط بسياج جداري لا يتعدّى ارتفاعه 1 م . ومما يلاحظ في أضرحة المغرب الإسلامي كذلك أنّها تشيّد للعلماء و منهم بالخصوص الأولياء . و يظهر الاختلاف و التباين بين أضرحة شمال إفريقيا في وسائل التغطية [96] .

(93) - تروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 136 .
(94) - ارنست كونيل : المرجع السابق ، ص : 60 .
(95) - تروث عكاشة : المرجع نفسه ، ص : 136 .

(96) - M . Cauvet : << Les Marabouts Petits Monuments Funéraires et Votifs du Nord de l'Afrique >> in R . Africaine, T . 64 , Alger 1923 , pp : 274 – 329 , 448 – 521. .

3 – أضرحة وادي مزاب :

تقدّم أضرحة وادي مزاب طرازا يختلف تماما عن النّماذج والطرز المعمارية المعروفة في العالم الإسلامي والسّابق ذكرها ، فهي عبارة عن مصطبة صغيرة مستطيلة الشّكل لا يزيد ارتفاعها عن 70 سم من سطح الأرض ، وتغطّي هذه المصطبة مساحة القبر فقط ، وتنطلق من أركانها أربعة أعمدة صغيرة بمثابة شُرّافات تبدو على شكل نتوءات منتفخة في الأسفل وضيّقة في الأعلى ، ويتراوح ارتفاع هذه الشُرّافات ما بين 55 سم و 1,25 سم . إنّ هذا البناء فقط يعلو فوق قبور العلماء والمشايخ من الإباضية بمزاب ، وأطلق عليه تسمية « المقام ». وقد فُتحت في الواجهة الشمالية الغربية من جهة الرأس كوّة معقودة بعقد نصف دائري تبيّن اتجاه القبلة، وجاءت بمثابة عنصر المحراب .

ينفرد مقام أبي مهدي عيسى عن المقامات الإباضية المزابية الأخرى بتواجد هيكل صغير بجواره يشبه تماما المئذنة في شكلها الهرمي (اللوحة رقم : 52) ، فما هي الوظيفة الحقيقية التي يؤدّيها هذا المعلم الصغير في مثل هذا المكان ؟ فعلى حسب رأي الأهالي يُستعمل هذا المبنى الصغير بمثابة مئذنة لأداء نفس الوظيفة ، أي الآذان ، ولكن يقتصر الآذان هنا على موسم الحجّ فقط ، أثناء تشييع الحجاج في ذهابهم و إيابهم . إذ تقتضي عادات و تقاليد المدينة أن يقوم الحجاج بزيارة المقام قبل وبعد أدائهم لفريضة الحجّ .

لعلّ الأحاديث النبوية التي تحرّم إقامة الأضرحة كانت السّبب المباشر لتلك البساطة المعهودة في عمارة الأضرحة بوادي مزاب ، فباستثناء ذلك البناء البسيط المتواضع الذي لا تزيد مساحته عن مساحة القبر ، لا مجال لأية إضافة في البناء تزيد عن ذلك الحدّ ، كما أنّه لا مجال لأية زخرفة سواء كانت نباتية أو هندسية أو خطية .

4 – القبور :

تظهر القبور الإباضية في مزاب كلّها متشابهة ومتساوية ، باستثناء تلك المقامات التي تحتضن رفات بعض العلماء والفقهاء ، إذ لا يمكن التّفرقة بين قبر لغني أو لفقير . فالقبر لا يبرز عن الأرضية أكثر من شبر كما ينصّ على ذلك الفقه الإسلامي ، وذلك لكي يُعرف القبر فيصان و لا يداس بالأرجل ، ويتمّ تحديد الرأس والأرجل بواسطة أحجار مصفحّة مثبّتة عموديا . وتوضع على طول القبر آنية الشراب والأكل مصنوعة من الفخّار أو الخزف ، وتكون ذات أشكال وأحجام مختلفة ، و قد تعمّد كسرها (اللوحة رقم 53) ، لمنع اللصوص من سرقتها .

وبالرّغم من أنّ مارسيل مرسييه الذي لاحظ انتشار هذه الظاهرة بكثرة في الجنوب الوهراني وفي جنوب الصّحراء و في جربة وحتى في النيجر ، يرجع أصل هذه الظّاهرة إلى عبادة وثنية قديمة تعود إلى العهود الأولى للحضارة الإنسانية ، حيث كانت الوجبات الجنائزية توضع إلى جانب الميت ، كما [97] . لكن الغرض يختلف هنا في مزاب ، فما وضع الآنية إلاّ وسيلة تسهّل عملية تمييز قبر عن الآخر لا سيّما في ظلّ منع الكتابة على القبور . فبفضل عدد الآنية وأشكالها وأحجامها وألوانها يمكن لأهل الميت التعرّف بدون عناء على قبر فقيدهم .

[97] - Marcel Mercier Civilisation … , p : 140 - 141 .

الفصل الثاني

العناصر المعمارية

1- المحراب

2- المئذنة

3- المنبر

4- العقود

5- المداخل

6- وسائل التغطية

7- الحوامل والركائز

8- الزخرفة

9- مواد البناء

1 - المحراب :

لقد أثار هذا العنصر المعماري باعتباره أحد أهمّ العناصر المعمارية في العمارة الدّينية الإسلامية جدلا كبيرا بين أوساط الأثريين ومؤرّخي الفن حول أصله وظهوره لأول مرّة كعنصر معماري متميّز ، فمن حيث أصله يرى بعض مؤرخي الفن أنّه استُلهم من الحنية التي تتقدّم الكنائس ، والبعض الآخر يفترض الحنيات البوذية كمصدر استلهام ، ويربطها آخرون بمحاريب البدع اليهودية . أمّا من حيث ظهوره في العمارة الدّينية الإسلامية فيتّفق مؤرّخو الفن على أنّ المحراب لم يتواجد في المساجد الإسلامية الأولى (مسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، و مسجد البصرة و مسجد الكوفة) لكنّهم اختلفوا في نشأته لأوّل مرّة ، فقد أرجعه بعض الباحثين اعتمادا على ابن بطوطة إلى عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وقيل إنّ مروان يُعدّ أوّل من ابتنى محرابا ، لكن أغلبهم جعل بداية ظهوره في عهد ولاية عمر بن عبد العزيز بالمسجد النبوي الشّريف في المدينة المنوّرة فيما بين 88 – 90 هـ / 706 – 710 م[1] ، إلاّ أنّ أحمد فكري يعترض الافتراضات السّابقة حول قضية ظهور المحراب، فمحراب جامع القيروان حسب رأيه هو الأوّل في الظهور .[2] فإذا سلّمت بما نقله أحمد فكري يكون تاريخ بداية استعمال المحراب كعنصر معماري سنة 50 هـ / 670 م .

اتُّخذ المحراب في العمارة الدّينية الإسلامية شكل دخلة مجوّفة وسط جدار القبلة وتتمثّل وظيفته في تعيين وإبراز اتجاه القبلة وكذلك في إيواء الإمام الذي يؤمّ الجماعة ، وقد أعطى أحمد فكري تفسيرا يبدو مقنعا حول بناء المحراب في شكل تجويف أو دخلة غائرة ، ففي رأيه فإنّ الإمام الذي يتقدّم المصلّين يكون منعزلا

(1) - أحمد فكري : المسجد الجامع بالقيروان ، مطبعة المعارف ومكتبتها ، القاهرة 196 ص : 56 – 57.
(2) - المرجع نفسه ، ص : 59 – 60 .

عنهم ، فيحتلّ بذلك صفّا بأكمله أي يحتلّ فضاء واسعا في المسجد ، وبما أنّ المهندس المسلم كان يحرص دوما على استغلال الفضاءات المتوفّرة لديه قدر المستطاع ، فقد عمد إلى فتح تجويف داخل جدار القبلة تأوي الإمام و تسمح له بأداء فرائض الصّلاة من ركوع وسجود و وقوف دون عناء[3] .

ولإبراز المحراب كعنصر هامّ في بيوت الصّلاة ، أعطى له المهندس المسلم عناية خاصّة ، فأبدع وبرع في زخرفة وتنميق تجويفته والإطار المحيط بها بزخارف متنوعة نباتية وهندسية وكتابية وصلت حدّ الإسراف أحيانا ، و ذلك باستخدام مواد مختلفة مثل الحجر والجصّ والرخام .

تظهر المحاريب في العمائر الدّينية الإباضية بوادي مزاب على شكل دخلة مجوّفة بسيطة ذات مخطّط نصف دائري ، ولا نرى للمحاريب ذات التّصميم المضلع وجودا في المساجد ،كما يشير إلى ذلك جوزيف شاخت Joseph Schacht [4]. لكن في المقابل نلاحظ وجود هذا التّصميم المضلع في المصلّى الجنائزي عمّي إبراهيم (الشكل رقم : 23) و المصلّى الجنائزي بامحمد فقط (الشكل رقم: 25) .

و تنتهي المحاريب في جزئها العلوي بحنية معقودة بعقد نصف دائري و أحيانا على شكل حدوة الفرس ، ولا يكتنفها عمودان كما عهدنا ذلك في العمارة الإسلامية . وتشغل المحاريب حيزا معماريا في جدار القبلة داخل بيوت الصّلاة في المساجد أو في مصلّيات المقابر و في صحون المساجد . و تظهر على شكل عترة في سطوح المساجد وفي مصلّيات المقابر المكشوفة .

إنّ بساطة المحراب تتفاعل وتنسجم مع روح العمارة المحلية التي تمتاز بالبساطة الإنشائية ، وأعتقد أنّ هذه البساطة نابعة أصلا من الفكر الإباضي الذي يتشدّد في

---

(3) - أحمد فكري : المرجع السابق ، ص : 60 .

(4) - Joseph Schacht : La Diffusion ………, pp : 18 – 19 .

مسائل تزيين وزخرفة أماكن العبادة [5] . ويقصد من وراء ذلك التحريم إبعاد كلّ ما يمكن أن يشغل فكر المصلّي ويلهيه عن صلاته ويكون عائقا أمام خشوعه .

ولا تقتصر بساطة البناء على محاريب مزاب فقط ، بل تعمّ هذه الظاهرة حتى في العمائر الدّينية بالمناطق التي يتواجد فيها الإباضية مثل مساجد جربة[6] ومساجد جبل نفوسة بليبيا [9] .

تشكّل المحاريب بروزا ونتوءا نحو الخارج على شكل كتلة غير واضحة التخطيط بحيث تبدو فضّة وغليظة في الأسفل وتقلّ تلك الفضاضة في الأعلى .

---

[5] - يستند المذهب الإباضي في تحريمه للزخرفة في المساجد والعمائر الدّينية عموما على مجموعة من الأحاديث النبوية ينظر أبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي : قناطر الخيرات القنطرة الثالثة ، تح : هيئة طلبة قسم الشريعة – معهد عمّي سعيد – ، المطبعة العربية غرداية 1998 ، ص : 345 – 349 .

[6] - ينظر : رياض المرابط : المرجع السابق ص: 40 – 44

[9] - ينظر : علي مسعود البلوشي وآخرون : موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا ، ج : 2 ، منشورات مصلحة الآثار و جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، يوليو 1989 ، ص : 16 .

المحراب	العرض	العمق		الارتفاع
محراب مسجد بنورة	0,88	0,98		1
محراب مسجد غرداية				
الأصلي	0,70	0,75		1,80
التوسع الأول	0,70	0,50		1,80
التوسع الأخير	0,90	0,50		2,22
محاريب مسجد بني يزقن				
الأصلي	0,93	0,62		1,80
التوسع الأول	1,05	1,10		1,90
محاريب مسجد القرارة				
الأصلي	0,90	X		1,90
الحديث	1,50	1,26		2,20
محراب عمّي إبراهيم	0,82	0,83		1,55
محراب بامحمد	0,80	1,30		1,85
محراب عمّي سعيد	0,80	1,15		1,85

إنّ طبيعة مناخ المنطقة الحارّ صيفا ، جعلت إباضية وادي مزاب يلتجؤون إلى السّطوح في اللّيالي الصّيفية ، وقد فرض عليهم هذا الوضع إقامة محاريب أو ما يسمّى بالعترة في سطوح مساجدهم .

إنّ ما يسترعي الانتباه ظاهرة تواجد محرابين متجاورين في المسجد العتيق بغرداية (الشكل رقم :5) وفي مسجد بني يزقن (الشكل رقم : 8) داخل بيت الصّلاة و بالصحن ، إذ إنّ المسافة بين المحرابين متقاربة جدّا ممّا يدفع الباحث إلى التّساؤل عن الغرض الذي أنشئ من أجله المحرابان . و بالرّغم من أنّ الرواية الشعبية

أُرجعت هذه الظاهرة إلى عامل التوسّع والاحتفاظ بالمحراب القديم لقيمته الدّينية والتّاريخية ، لكنّني أستبعد هذه الفكرة ، نظرا لأنّ التوسّعات التي تتبّعتها في كلا المسجدين ، تجعل أحد المحرابين يؤكّد فكرة التوسّع ، ويبقى الثاني يشكّل علامة استفهام ، فما هو الغرض من بناء محرابين متجاورين ؟ أعتقد أنّ منطقة وادي مزاب – استنادا إلى بعض رسائل العلماء [8] – عاشت فترة تاريخية عصيبة في بداية القرن التّاسع الهجري ، إذ خيّم الجهل والظّلام في ربوع هذا الوطن ، ووصل الأمر إلى حدّ التّفرقة ، فظهر فريقان متخاصمان ما يعرف باسم الصفّ الشرقي والصفّ الغربي ، وقد وصل النّزاع بينهما في نظري إلى حدّ اتخاذ كل فريق محرابا له في المسجد ، بدلا من بناء مسجد آخر وذلك تماشيا مع تقاليد المنطقة التي تمنع بناء مسجد ثان في المدينة الواحدة .

و للخروج من هذه الوضعية استنجد إباضية وادي مزاب بإخوانهم في جربة ، فأرسلوا إليهم الشيخ عمّي سعيد الجربي ، وبفضل جهود هذا العالم وجهود تلميذه أبي مهدي عيسى توحّدت صفوف المزابيين من جديد ، وتمّ القضاء على تلك البدعة ، وخير دليل نستند إليه هو اختفاء الظّاهرة أثناء التوسّع الذي أشرف عليه الشيخ عمّي سعيد بنفسه في مسجد غرداية العتيق وعدم ظهورها مرّة أخرى عند تشييد مساجد أخرى في القرن السّابع عشر مثل مسجد القرارة .

وقد يُفترض أيضاتعايش مذهبي في المنطقة ولاسيّما في الفترة الممتدّة بين القرن الخامس والتاسع الهجريين ، ويتعلّق الأمر هنا بالمذهب الإباضي والمعتزلي . وفي إطار ذلك التعايش خصّص في المساجد المزابية محراب لكلّ مذهب ، ولا عجب في ذلك

---

[8] - رسالة الشيخ عمّي سعيد بن علي بن يحي بن يدر بن سليمان بن عثمان الجربي إلى عُمّان ينظر : رسالة مخطوطة في مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي

فقد جرت العادة في المساجد الإسلامية الكبرى مثل الجامع الأموي بدمشق أن خصّص محراب لكلّ مذهب ، فظهر محراب الحنفية والمالكية والحنابلة [9] .

تخلو محاريب المنشآت الدّينية المزابية من كلّ أشكال الزخرفة ، ولا شكّ أنّ للمذهب أثره في هذه قضية ، و في هذا الصّدد يقدّم لنا البطاشي في كتابه السّلاسل ملخّصا حول رأي المذهب الإباضي في قضية تحريم الزخرفة وحتى الخطّيّة منها ، في جدار القبلة ، ويُقصد من هذا التحريم بالخصوص عنصر المحراب ، وقد أورد ذلك في الأبيات الآتية :

وعــن أبي محمــد المجيــد	لا يكــتبن في قبلة المســجد
شيء من الكلام وهو يعوق	خشية أن يشغل من قد يقف
من حكم القرآن أو موعظة	ولا يــجوز فيه جعل صورة [10]

إذا فقضية منع الزخرفة بكلّ أنواعها هو من باب عدم إلهاء المصلّي أثناء أدائه للصّلاة ، وعدم إعاقته من الخشوع الذي يعدّ من الشروط الأساسية لإتمام الصلاة .

2 – المـــئذنـــة :

تعدّ من العناصر المعمارية المتميّزة في عمارة المساجد ، و أصبحت رمزا يدلّ على قيام المسجد ويزيد من شموخه ورفعته ، ولعلّ تلك الأهمية كانت السّبب في تطوّرها . و يتّفق مؤرّخو الفن على أنّ أوّل ظهور للمئذنة كان في الجامع الأموي بدمشق و يعود تاريخها إلى العصر الأموي ، حيث استخدمت الأبراج القديمة للمعبد الوثني كمآذن .

(9) - عفيف بهنسي : المرجع السابق ، ص : 40 .
(10) - البطاشي : المصدر السابق ، ج : 4 ، ص : 328

لقد كانت وظيفة الآذان تقام قبل ذلك من أعلى سطوح المساجد إقتداء بمؤذّن الرّسول ﷺ [11] و الوظيفة الأساسية للمئذنة تتمثّل في إبلاغ صوت المؤذّن الذي يدعو النّاس إلى الصّلاة خمس مرّات في اليوم ، إلى أقاصي أطراف المدينة وذلك من مكان مرتفع جدًّا .

عُرفت المئذنة بتسميات عديدة ، إذ أُطلق عليها تسمية المئذنة انطلاقا من الوظيفة التي تؤدّيها . كما سُمّيت بالمنارة نظرا لتشابهها الكبير مع منارة الإسكندرية ويمكن أن تكون حتى مصدر استلهام لها ، وأُطلق عليها كذلك اسم الصومعة ويرجع هذا ربما إلى أنّ العرب كانوا يسمّون أبراج الزهاد بالصوامع [12] وقد وردت هذه التّسمية حتى في القرآن الكريم << وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصلوات وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ >>[13] ولعلّ هذه المآذن كانت تشبه في تصميمها تلك الأبراج ومازالت تسمية الصومعة متداولة في بلاد المغرب الإسلامي [14] .

وهناك تسمية أخرى تبقى متميّزة أُطلقت على المئذنة في بلاد المغرب ، فسكان وادي مزاب إلى حدّ اليوم يطلقون على المئذنة اسم << العسّاس >> بمعنى مكان المراقبة والحراسة وهذا ما يؤكّد الدور الثانوي الذي يمكن أن تؤديه المئذنة إضافة إلى وظيفة الآذان .

حُظيت المئذنة باهتمام وعناية كبيرة من طرف المهندس المسلم واتخذت أشكالا وأنماطا معمارية مختلفة ، فظهرت بتصميم مربع الشكل في سوريا وبلاد المغرب والأندلس ، وحلزونية الشكل في سامراء ، ثم اتخذت شكلا اسطوانيا مستدقا أو قلميا

---

(11) - Lucien Golvin : La Mosquée, pp :51 – 52 .

(12) - زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص : 144 .

(13) - سورة الحج الآية 40 . .

(14) - Robert Irwin Op . cit. , pp : 63 – 64 .

في كلّ من ايران وتركيا ، بينما آثرت مصر المملوكية طرازا مركبا من المربع والمثمن والأسطواني . لم يخصّص للمئذنة موقعا خاصّا في هيكل المسجد كما هو الشأن بالنسبة للمحراب ، فيمكن أن تكون جزءا من مبنى كما في جامع الأموي بدمشق وجامع القيروان وجامع قرطبة وجامع المنصورة أو قائمة بذاهّا كما هو الحال في الجامع الكبير بسامراء [15] .

يختلف عدد المآذن في المساجد الإسلامية ، فمن مئذنة واحدة بجامع القيروان إلى ستّة مآذن بجامع السّلطان أحمد بإستانبول فقد نجد مئذنة واحدة كما هو الشأن بالنّسبة لأغلب للمساجد الإسلامية الأولى والمساجد الأندلسية المغربية . ويبدو أنّ المعماري المسلم كان يبحث عن صيغة للوصول إلى نوع من التوازن في واجهات المساجد فأضاف مئذنة ثانية ومن هذه الفكرة برزت المساجد الإيرانية والمدارس السّلجوقية ذات المئذنتين . كما قد تعلو في المسجد ثلاثة مآذن مثل الجامع الأموي بدمشق ، ويرتفع العدد إلى أربعة في المساجد العثمانية ، أين نلمس نوعا من التوازن في البناء ، إذ تأخذ هذه المآذن مكانها في أركان بيت الصّلاة أو في أركان المسجد . وأخيرا يبدو أنّ مهندس مسجد السّلطان أحمد أراد تمييز إنجازه عن إنجازات سابقيه فأضاف مئذنتين ، ليصبح عددها الإجمالي ستّة مآذن .

- لقد أسرف الفنان المسلم في تحلية وزخرفة هذه المآذن بكل أنواع الزخارف (نباتية وهندسية وكتابية) لأنها كانت تمثّل الوجه الظّاهر للمسجد ، فاستعمل لذلك أنواعا مختلفة من المواد مثل الآجر و القشاني واللوحات الخزفية والرّخام والزليج .

اتّخذت مآذن وادي مزاب لنفسها نمطا معماريا متميّزا ، يختلف عن الطرز التي أشرنا إليها سابقا . فتبدو المئذنة على شكل هرم ناقص ، و هذا ناتج عن ميلان

---

[15] - تروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 119

واجهات المئذنة الأربعة نحو الدّاخل في شكل انسيابي ، وتضييق الجدران كلما زادت في الارتفاع .

لقد أثار هذا الشّكل نقاشا بين مؤرخي الفن حول أصل و منشأ وانتشار هذه المئذنة . و من الطبيعي جدّا أن يطرح هذا الطراز غير المألوف في العمارة الإسلامية تساؤلات عن أصله ؟ ومنشئه ؟ كما أنّ عملية انتشاره في بعض المناطق الإفريقية تثير إشكالا حقيقيا في كيفية انتقاله ؟ ومن له السّبق في ابتكار هذا الطراز ؟ يشير هنري تيراس Henri Terrasse إلى أنّ العمائر ذات الشّكل الهرمي تنتشر في سلسلة الأطلس الصّحراوي بالخصوص ، فكان انتشارها ابتداء من المغرب الأقصى ، وتكاثرت في الواحات ثم استمرت إلى أن ظهرت في واحة سيوة بصحاري مصر . كما لاحظ تواجدها حتى في اليمن والجزيرة العربية[15] . و قد انتشر هذا الطراز بشكل ملفت للانتباه في بلاد السّودان الغربي ، فمعظم مساجد هذه المنطقة تحتوي على مئذنة ذات شكل هرمي ناقص [16] .

و قد نتساءل ما إذا كانت لهذه العمائر الهرمية الشّكل علاقة بالعمارة الفرعونية التي تعتمد أساسا في عمارتها على الشكل الهرمي ؟ لا نستبعد فكرة تأثّر العمارة البربرية بمثيلتها الفرعونية لا سيّما أنّه لا يوجد أيّ عائق طبيعي يمكن أن يكون حجر عثرة أمام تحاور الحضارتين ، حتى أنّ بعض المؤرّخين يتحدثون عن وصول أحد البرابرة الليبين إلى كرسي العرش الفرعوني وأخذ لقب فرعون [17].

وأعتقد أنّ الأهرامات المصرية والأبراج البابلية المعروفة باسم الزيقورات البابلية هي مصدر إلهام بالنّسبة للعمائر التي اتخذت شكل الهرم النّاقص في بنائها بصفة عامّة .

---

[15] - Hanri Terrasse : Kasbas Berbères de l'Atlas et des Oasis ,Ed : des Horizons de France , Paris 1938 , p :30 .

[16] - Didier Willems : Op . cit ,pp ; 84-110 .

[17] - ينظر سريل ألدريد : الفن المصري القديم ، تر : أحمد زهير ، وزارة الثقافة هيئة الآثار المصرية ، القاهرة 1990 ، ص : 261 .

و إذا ما حاولنا البحث عن المآذن التي تدخل ضمن طراز المآذن المزابية ، فإنّنا نلاحظ انتشارها بالخصوص في بلاد السودان الغربي[18] وليبيا [19] ومصر بواحة سيوة خصوصا [20] واليمن خاصّة في مناطق حضرموت وزبيد و شبّام أين اتخذت المئذنة تصميما مسقطه من الأسفل أكبر من مسقطه في الأعلى[21]. و في الجزيرة العربية بدومة الجندل [22] ، إلاّ أنّه لا بدّ من طرح التساؤل الآتي: أين ظهر هذا النمط المعماري لأوّل مرّة ؟ فبعد أن دقّقت البحث في هذا المجال تبيّن لي أنّ المئذنة التي ترتفع في مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدينة الجوف بدومة الجندل* (الشكل رقم : 58 - 59) و يعود تاريخ بنائها حسب بعض مؤرّخي الفن إلى سنة 17 هـ ، [23] ، وإذا ما أخذت هذه المعلومات بجدية فيمكن عدّ هذه المئذنة النّموذج الأوّل لطراز المآذن ذات الشّكل الهرمي الناقص .

وفيما يتعلّق بالنّقاش الذي أثير حول مآذن مزاب وبلاد السّودان الغربي أيهما تأثر بالآخر ، فقد أكّد كلّ من مارسيل مرسييه [24] وجوزيف شاخت[25] اعتمادا على قرائن تاريخية ومعمارية أنّ مآذن مزاب كانت الأسبق في البناء ليقوم التجّار

---

(18) - Marcel Mercier : << Notes Sur une Architecture Berbère Saharienne >> , in Hespéris N° VIII , 1928 , pp : 422 – 426 .

(19) - ينظر: علي مسعود البلوشي وآخرون : المرجع السابق ، ص : 165-168 .

(20) - ينظر : أسامة النحاس عمارة الصحراء ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ت ، ص : 228-233 .

(21) - ينظر: محمود إبراهيم حسين : المآذن اليمنية دراسة أثرية فنية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة 1991 ، ص : 37-57 .

(22) - ينظر : يوسف أبو عواد : << دومة الجندل التاريخ والمارد (المدينة والتاريخ) >> مجلة الفيصل ، ع : 89 ، أوت 1989 ، ص : 20 – 29 .

* تعدّدت أسماؤها قيل عنها دوماتا وقيل الجوف أو جوف آل عمرو وقيل كذلك عقدة الجوف والخبث ، ويفهم من خلال النقوش التي خلفها الآشوريون أنّ دومة الجندل لملكات عربيات إحداهن تلقب بأشتار ، وقد كانت لهذه المدينة أهمية بالغة في العصر الجاهلي منت خلال سوقها التجاري . لقد قام النبي ﷺ بغزو دومة الجندل في السنة الخامسة للهجرة ، وقد أسلمت بفضل جهود عبد الرحمن بن عوف . كانت المنطقة في العهد العثماني الطري الرئيسية بين الشام والجزيرة العربية والعراق والعقبة ، ودخلت تحت الحكم السعودي ابتداء من سنة 1920 . المرجع السابق ينظر يوسف أبو عواد : المرجع نفسه ، ص : 22 – 24 .

(23) - يستبعد بعض الأثريين بناء هذا المعلم في سنة 17 هـ ، ويرون أنّه شيّد في فترة متقدمة حوالي القرن الثاني للهجرة ينظر يوسف أبو عواد : المرجع نفسه ، ص : 24 .

(24) - Marcel Mercier : La Civilisation …, pp : 97-98.

(25) - J.Schacht : << La diffusion ….>> , pp19-27.

المزابيون بنقل هذا النّمط إلى بلاد السّودان الغربي . وهنا تبرز أهمية التجارة في عملية نشر ثقافات الشعوب .

تبدو زاوية ميل بعض مآذن مزاب من الخارج في جزئها العلوي منحرفة قليلا نحو جهة معينة، وقد فسّر بعض المعماريين من الأهالي هذه الظّاهرة بأنها مقصودة من قبل البنّاء المزابي الذي عمد إلى هذه الطريقة لجعل هيكل المئذنة يقاوم الريّاح القوية التي تعصف على المنطقة من تلك الجهة . يمكن تقبل هذا التّفسير ، و لكن في اعتقادي أنّ الشّكل الهرمي للمئذنة كفيل بإعطاء المقاومة اللاّزمة لها ، إذ نلاحظ أنّ هذا الشّكل طبّق في الأبراج لنفس الغرض . وأظنّ أنّ ذلك الانحراف نشأ بسبب نقص الإمكانات الإنشائية لدى البنّاء المزابي في تلك الأزمنة .

إذا فطبيعة مناخ المنطقة الصحراوي الذي يمتاز بالرياح الشديدة المحمّلة بالرمال كانت العامل الأساسي لإعطاء الشكل الهرمي الناقص لمآذن مزاب

فُتحت في واجهات المآذن عدد من الفتحات الصغيرة تشبه في شكلها المزاغل أو ما يسمّى بفتحات الرّمي ، وهذا دليل آخر لوظيفة المئذنة الثّانوية المتمثّلة في المراقبة والحراسة ، وهذا إضافة إلى الدّور الأساسي الذي تؤدّيه الفتحات داخل المبنى فهي تقوم بتهوية وإضاءة داخل المئذنة .

المئذنة	الارتفاع	أبعاد القاعدة م	أبعاد النّواة المركزية م	عدد الدّرجات	عدد الطوابق
مئذنة مسجد بنورة	12,50	4 × 4,60	0,80 × 0,80	26	03
مئذنة مسجد غرداية الصغيرة	09,50	ما بين 2,18 و 1,68	0,15 × 0,25	07	02
مئذنة مسجد غرداية الكبيرة	24,50	ما بين 5,10 و 3,80	ما بين 0,80 و 1,50	114	10
مئذنة مسجد بني يزقن	22	ما بين 3,60 و 4	0,62 × 0,80	65	08
مئذنة مسجد القرارة	21,90	5 × 5,40	1 × 1,50	83	07
مئذنة مسجد بريان	19,50	ما بين 2,70 و 2,47	ما بين 1,12 و 0,66	86	07

عندما نلقي نظرة خاطفة على الجدول المبيّن أعلاه يتّضح لنا أن مئذنة مسجد بنورة والمئذنة الصغيرة بالمسجد العتيق بغرداية كانت النّماذج الأولى في طراز المآذن ذات الشّكل الهرمي النّاقص في مزاب باعتبار صغر حجمها وقلّة ارتفاعها . ويبدو أنّ البنّاء استفاد من التجارب السّابقة فنجح في زيادة علوّ المئذنة ، رغم الإمكانات الإنشائية البدائية المتوفّرة لديه ، وكانت هذه الزيادة في الارتفاع لضرورة ملحّة أملاها توسّع وتطوّر النسيج العمراني للمدن المزابية .

لقد اقتضت الضّرورة إلى الزيادة في ارتفاع المئذنة عندما توسّعت المدن المزابية خلال القرن الرابع عشر الميلادي ، وذلك بهدف إيصال صوت المؤذّن إلى كلّ أطراف المدينة . وبلغت المئذنة أقصى ارتفاع لها في المئذنة الكبيرة بمسجد غرداية العتيق ، إذ وصلت إلى 24,50 م .

تتألّف المئذنة المزابية في الدّاخل من نواة مركزية غير منتظمة الشّكل وعدّة طوابق في جلّ النّماذج ، ويتمّ الصّعود إلى الطوابق العليا بواسطة سلّم صاعد يلتفّ حول النواة المركزية في شكل حلزوني .

تنتهي المآذن في الأعلى بجوسق مغطّى بقبّة صغيرة ، تنتهي عند مفتاحها بقببية صغيرة مصنوعة من الفخار ، ويبدو أنّ الفخار مادّة فعّالة في تردّد الأصوات . ويخرج صوت المؤذّن نحو الخارج عن طريق فتحات معقودة بعقد نصف دائري فُتحت في الجدران الجوسق الأربعة.

إنّ تغطية المآذن تضمن وقاية المؤذّن من الحرارة الشديدة صيفا والبرودة القاسية شتاء ، كما تمنع الرمال الناتجة عن الرياح الشديدة من التوغل إلى داخل المئذنة .

- تتوّج الأركان العليا الخارجية لمآذن مزاب أربعة أعمدة صغيرة منتفخة في الأسفل وتضيق كلما زادت في العلو وتأخذ بذلك شكل الهرم الناقص بدورها وهي بمثابة الشرّافات هنا . وتضمّ مئذنة غرداية إضافة إلى الأعمدة الأربعة الصغيرة في الأركان نتوءا بارزا بين كلّ عمودين .

ويذكر مارسيل مرسييه أنّ هذا النّوع من الزخرفة تعود في أصولها إلى عبادة وثنية قديمة (26) ، حتى إذا رضينا بهذا الاستنتاج إلاّ أنّ المزابي في رأيي لم يستعمل هذا العنصر لنفس الغرض ، بل ربما يقصد به تعيين الجهات الأربعة أو استعملها لمجرّد الزخرفة .

لم يخصّص لمآذن مزاب موقعا محدّدا في المسجد شأنها في ذلك شأن المساجد الإسلامية ، فأحيانا تحتلّ مكانا في الجهة المقابلة للجدار المحراب أي أنها تقع على محور المحراب مثل مآذن غرداية وبني يزقن و بريان أو تأخذ موقعا في الرّكن الشّمالي مثل

---

(26) - Marcel Mercier : La Civilisation … , p : 152 – 153 .

مئذنة القرارة ، ونجدها أحيانا أخرى في الجهة الشّمالية الغربية كمئذنة مسجد بنورة العتيق .

هناك ظاهرة معمارية لابدّ من الإشارة إليها وهي عدم ربط القاعدة بالبدن في مئذنتي مسجد بني يزقن ومسجد بنورة ، إذ أن السلّم الصّاعد إلى الطّوابق العليا من المفروض أن تكون نقطة انطلاقه من القاعدة ، لكن هنا يتدأ السلّم من الطّابق الأوّل ، وهكذا أصبحت القاعدة معزولة عن البدن ولا يربطها به إلاّ النواة المركزية والجدران .

3 – العـــقـــود :

عنصر معماري له وزنه في العمارة الدّينية الإسلامية ، وتتمثّل وظيفته في توزيع ثقل السّقف على الركائز و الجدران ، ليصبح فضاء خصبا لإبداعات الفنان المسلم .

كانت سقوف المساجد الأولى مثل مسجد الرّسول ﷺ و مسجد البصرة والكوفة و واسط ترتكز مباشرة على الأعمدة والدّعامات [27] ، ثمّ لجأ المهندس المسلم إلى استعمال العقود فكان أوّل ظهورها في مسجد قبّة الصخرة . و تأقلما مع العمارات المحلية في الأقاليم التي فتحها المسلمون ، برزت أنواع عديدة من العقود . فلقد استعمل في البداية العقد النّصف الدائري ثمّ العقد المذبب الذي استعمل بصفة خاصّة في المباني الدّينية الإيرانية . وأمّا العقد الحدوي أو ما يسمى عند بعض مؤرخي الفن بعقد على شكل حدوة أو نعل الفرس ، فقد أصبح من اختصاص الأندلس وبلاد المغرب [28] ، وقد استخدم إلى جانب هذه العقود عقود أخرى عديدة نذكر منها العقد المفصّص والعقد المقرنص اللّذين كانا لغرض زخرفي .

[27] - أبو صالح الألفي : المرجع السابق ، ص : 136 – 137 .

[28] -Laibi Shaker : Soufisme et l'Art Visuel Iconographie du Sacré , l'Harmattan , Paris 1998 , p :89 .

كان العقد حاضرا بقوّة في العمارة الدّينية الإباضية بمزاب عامّة وفي المساجد ومصلّيات المقابر المغطّاة بصفة خاصّة واستعمل لتدعيم ومساندة الأقبية والقباب الصغيرة ، ولقد سمح تقاطع هذه العقود ضمن سلسلة من البوائك المتّجهة في مسار عمودي وموازي نحو جدار القبلة ، ببروز فضاءات صغيرة داخل بيوت الصّلاة مستعدّة لرفع الأقبية والقباب الصغيرة .

أ – **العقد الحدوي** : اختلف علماء الآثار ومؤرّخو الفن حول منشئه ، فقد أرجعه بعضهم إلى بلاد ما وراء النّهرين ، والآخرون إلى آسيا الصّغرى والبعض الآخر إلى الهند ، واعتقد آخرون أن أصله من إسبانيا . لكن هناك دلائل تؤكّد أنّ ظهور العقد على شكل حدوة الفرس لأوّل مرّة كان بعمودية مار يعقوب في نسبين Nisibine بتركيا عام 359 م ، كما نُفذ هذا العقد ضمن بعض الرّسومات على مزهريات معدنية ساسانية [29] .

إنّ قوّة مقاومة العقود الحدوية ضدّ اندفاع القوى النّاشئة من انحنائها تفوق قوّة مقاومة العقد النّصف الدائري ، وأنّ هذه القوّة لا تندفع خارج حدود العقد وتساعد على تماسكه [30] .

– ويبدو أنّ هذا العقد من أقدم أنواع العقود استعمالا في مباني مزاب ، بدليل تواجده في الأماكن التي اعتبرها النّواة الأولى (مسجد غرداية العتيق ومسجد بني يزقن ومسجد القرارة) . لقد جاءت فتحات هذه العقود غير متساوية وكانت في بعض الأحيان مضغوطة من الأعلى ومنتفخة من الجانبين (اللوحة رقم : 29) .

---

(29) - Laibi Shaker :Op.cit, p : 89 .

(30) - أحمد فكري : المرجع السابق ، ص : 74 .

ب – العقد النّصف الدائري : يعود الفضل في ابتكاره إلى الرّومان ، و يعدّ أول العقود التي لجأ المعماري المسلم إلى استخدماها في عمارة المساجد ، فظهر لأول مرّة في مسجد قبّة الصخرة ثمّ في الجامع الأموي بدمشق [31] .

لقد طغى استعمال العقد النصف الدائري في العمائر الدّينية بمزاب ، نظرا لسهولة إنجازه مقارنة بالأنواع الأخرى التي تتطلّب مهارة كبيرة ، كما أنّ مواد البناء المتوفّرة في المنطقة (جريد النخيل) والتي استعملت كقالب هي المسؤولة إلى حدّ كبير في تشكيل ذلك المنحنى . ويبدو أنّ العقد النّصف دائري ظهر متأخرا ، وحتى يمكن الجزم بأنّ ظهوره كان ابتداء من القرن الثّامن عشر ميلادي .

تُبنى العقود بالحجارة المصفوفة على شكل مداميك متتالية و متقابلة ، تبعا لتقنية بنائها المعتمدة على طريقتين : ففي الأولى يتمّ تدعيمها بالحجارة إلى حين تماسك مادّة التّمشنت ، وفي طريقة ثانية يستخدم في تشكيل العقود قالب متكوّن من جريد النّخيل ، وتعدّ التقنية الثّانية الأكثر تداولا في مزاب ، إذ يقوّس الجريد بين الدّعامتين ويثبّت بمادّة التّمشنت ثم توضع الحجارة من فوقه ويلبّس الجريد بعد ذلك بطبقة جيرية [32].

4 – الحوامل والركائز :

استعمل المسلمون في البداية جذوع النّخيل كوسيلة لتدعيم السقوف في المساجد الإسلامية الأولى ، و في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه جلبوا أعمدة حجرية من مباني قديمة واستعملوها بدلا من جذوع النّخيل وهكذا يتبن لنا أنّ الأعمدة كانت الأسبق في الظّهور من الدّعامات داخل المباني الدّينية الإسلامية ، وقد لجأ المعماري المسلم إلى الدّعامات بعد بناء جامع الأموي بدمشق .

---

(31) - Rachid Bourouiba : Op . cit , p: 127 .

(32) - C et P Donnadieu H et J . M Didillon : Op .cit , p: 94 .

يتمثّل دور الرّكائز أساسا في حمل ثقل السّقوف ، وقد اعتمد المزابيون على الدّعامات لأداء هذه الوظيفة في كلّ عمائرهم الدّينية باستثناء تلك الأعمدة السّتّة التي تساند سقف أروقة صحن مسجد غرداية و التي تتألّف من قاعدة مربّعة الشّكل مرتفعة بحوالي 0,60 م عن الأرضية ، وبدن ذو صفوف من القنوات ينتهي في الأعلى عند وسادة تستقبل العقد .

تتّخذ الدّعامات عدّة أشكال مربّعة و مستطيلة وغير منتظمة الشّكل ، وتختلف أبعادها ، إذ يتراوح طول أضلاعها ما بين 0,20 م و 1 م ، أمّا ارتفاعها إلى بداية فتحة العقد فيتراوح ما بين 1,20 م و 1,80 م . وتشكّل الدّعامات في أعلاها أحيانا نتوءا صغيرا يُستغلّ لوضع قناديل الإنارة . و في حالة ما إذا كانت الدّعامة تستقبل فوقها عارضات خشبية ، فإنّها تتّسع في الأعلى على شكل وسادة ضخمة وهذا ما يسمح حسب دوناديو Donnadieu بتخفيض الضّغط على بدن الدعامة [33] .

بنيت الدّعامات بالحجارة المتماسكة بواسطة تربة طينية أو ملاط متكوّن من مادّة التّمشنت والرّمل أو مادّة التّمسنت وحدها .

و إلى جانب الدّعامات استخدمت الرّكائز الجدارية ذات الأشكال المختلفة ، أمّا الدّعامات السّاندة من الخارج ، فكان استخدامها في المباني الدّينية الإباضية بمزاب قليل ، إذ لاحظنا تواجدها في مسجد بنورة العتيق فقط .

5 – الفتحات :

بما أنّ الهواء والضّوء ضروريان للحياة فالفتحات هي التي تؤمّنهما ، و من هنا جاء دورها الفعّال في العمارة ، فتعمل على إدخال الهواء والضّوء إلى داخل المبنى ، كما أنّ لها أحيانا وظيفة أخرى دفاعية .

---

(33) - C et P Donnadieu H et J . M Didillon ; Op.cit , p : 92

إنّ طبيعة المناخ الصّحراوي الذي ينماز بالحرارة الشديدة صيفا وبالبرودة شتاء ، يستدعي اللّجوء إلى عناصر معمارية تساهم في تكييف الهواء داخل المباني ، من هنا لجأ المعماري المزابي إلى استخدام الفتحات لخلق مجرى هوائي داخل العمائر الدّينية وتختلف أبعاد هذه الفتحات وأشكالها . ولكن يظهر جليّا أنّ الفتحات أو النّوافذ الكبيرة المفتوحة في جدران مساجد غرداية وبني يزقن و القرارة حديثة العهد لأنّها لا تتماشى والهندسة الوظيفية المحلية ، كما أنّها لا تفي بالغرض المطلوب . وأعتقد أنّ استخدام هذه النوافذ كان ضروريا تبعا لكبر مساحة بيت الصّلاة التي لا يمكن إضاءتها وتهويتها إلاّ بواسطة هذا النّوع من النوافذ.

ويقدّم لنا مسجد بنورة العتيق بصفة خاصّة و لا كذلك المآذن والمصلّيات الجنائزية المغطّاة نماذج رائعة لتلك الفتحات الصّغيرة والضيّقة التي تُعبّر بحقّ عن العمارة الصّحراوية المحلية ، و يتراوح عرض هذه الفتحات ما بين 0,20 م و 0,45 م كما تعطي تلك السلسلة من الفتحات المعقودة بعقد نصف دائري و ذات الأبعاد و الأشكال المختلفة التي تصطفّ على الجدران الخارجية للمصلّى الجنائزي عمّي سعيد منظرا سحريا (اللوحة رقم: 46) ، وميزة معمارية فريدة في نوعها .

إلى جانب فتحات الجدران استعمل المعماري المزابي نوعا آخر من الفتحات ، عبارة عن فتحات ضيّقة تخترق الأقبية والقباب على مستوى مفاتيحها ، وهذه الفتحات تتفاعل مع فتحات الجدران في عملية التّهوية فتخلق تيارا هوائيا داخل المبنى . وهذا النّوع لا يخصّ مزاب فقط فمساجد جزيرة جربة مليئة بأمثلة منها[34] .

تقدّم مدارس مزاب نوعا لا مثيل له من الفتحات ذات شكل غريب يبعث على الدّهشة ، وهي عبارة عن فتحات مستطيلة أو غير منتظمة الشّكل(الشكل رقم :

---

[34] - رياض المرابط : المرجع السابق ، ص : 75 .

20) تخترق سقف الطّابق الأوّل لمدرسة بلحسن و تمتلك أغطية مصنوعة من جذوع النّخيل .

6 - المنبر :

كان المنبر أوّل عنصر معماري يضاف إلى المسجد أو الجامع ، ففي البداية كان الرّسول ﷺ يستند إلى جذع نخلة عندما يلقي خطبة على جمهور المصلّين ، فأوعز إليه تميم بن الدّاري بصنع منبر كما في كنائس الشّام ، وتبنّى الرّسول ﷺ الفكرة فأمر أن يصنع له منبر خشبي ذي ثلاث درجات ، وتبعا لهذا التقليد صنع المسلمون من بعده منابر لمساجدهم إلاّ أنهم أضافوا إليه درجات أخرى ، كما خصّصوا له فتحة على يمين المحراب يدخل إليها في كلّ الأيّام ما عدى يوم الجمعة [35] . لقد استعان الفنان المسلم بمواد متنوّعة لبناء المنبر ، فظهرت منابر خشبية وأخرى حجرية أو رخامية و أبدع في تنميقها وتنفيذ زخارفها المتنوّعة بدقّة وبراعة فائقة .

يُتخذ المنبر دليلا معماريا على إعطاء صفة المسجد الجامع للمسجد الذي يضمّه . وبما أنّ المساجد الإباضية في مزاب تخلو من هذا العنصر المعماري فلا يمكن إطلاق عليها اسم المسجد الجامع ، كما توحي هذه الظّاهرة بالاعتقاد طبعا بعدم إقامة صلاة الجمعة . يبدو أنّ هذه الظّاهرة نابعة من مبادئ الفقه الإباضي حول قضية صلاة الجمعة ، فعلماء الإباضية يرون أنّ صلاة الجمعة جائزة وغير واجبة مادام أحد شروطها غير متوفّر و يتعلّق الأمر هنا بالإمام العادل والمصر فيقول السّالمي في هذا الصّدد « أمّا المصر والإمام فهما شرطان لوجوب الجمعة ولصحّتها فلا تجب الجمعة ولا تصحّ إلاّ عند حصولهما معا » [36] هذه الظّاهرة لا تقتصر على وادي مزاب فقط ، فحتى

---

(35) - عفيف بهنسي : المرجع السابق ، ص :14 .

(36) - للاستزادة في هذه القضية ينظر أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي : كتاب شرح طلعة الشمس على الألفية ، مطبعة الموسوعات ، د . ت ، ص : 60 – 88 .

المساجد الإباضية بورقلة [37] . ويلاحظ غياب المنبر كذلك في بعض مساجد جربة [38] ، وبعض مساجد السّودان الغربي ممّا أدّى بجوزيف شاخت إلى التأكيد بأنّ دخول الإسلام إلى بعض مناطق السّودان الغربي تمّ على يد بعض التّجار الإباضيين بعد سقوط إمامة تيهرت استنادا على غياب المنبر من مساجدها [39]

بدأ المنبر يظهر داخل المساجد الإباضية بوادي مزاب ابتداء من الستينيات فقط بفضل جهود الشيخ إبراهيم بيوض الإصلاحية .

7 - الكـــوّات :

أقصد هنا الكوّات غير النافذة أي الفتحات الصمّاء ، وتكون عبارة عن تجاويف ودخلات مفتوحة في جدران المباني الدّاخلية . وتشغل حيّزا معتبرا من جدران العمائر الدّينية بمزاب ، وذلك تبعا لطبيعة الوظائف الاجتماعية والدّينية التي تؤدّيها مثل هذه المنشآت، فنظرا لدور مصلّيات المقابر في المجال الاجتماعي والدّيني ، حيث تستقبل في فترات زمنية معينة أعدادا كبيرة من دارسي القرآن لكريم والعامّة من النّاس ، و في نفس الوقت تتهاطل كميات كبيرة من الأوقاف و الصّدقات المرتبطة بالمصلّى والتي يستقدمها الأهالي ويتمّ توزيعها على الحاضرين ، ومن هنا جاءت الحاجة الماسّة إلى فتح عدد كبير من الكوّات على جدران هذه المصلّيات مقارنة بالمساجد والمدارس ، واستغلّت لوضع الأحذية و نوى التّمر والمصاحف وغير ذلك من الأدوات والأغراض اللاّزمة المتعلّقة بأداء تلك الشّعائر التي تمارس داخل هذه الفضاءات .

وتظهر الكوّات مختلفة الأشكال مربعة و مستطيلة و متفاوتة الأحجام ، وتكون أحيانا معقودة بعقد نصف دائري مثل الكوّات التي تشكّل المحراب في المقام .

---

[37] ر- عمر سليمان بوعصبانة : معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ، رسالة ماجستير جامعة الجزائر ، المعهد الوطني لأصول الدين ، الجزائر 1992 ، ص : 61..

[38] - رياض المرابط : المرجع السابق : ص : 40 – 41 .

[39] - J Schacht: La Diffusion …, p: 16 – 17

وتعدّ الكوّة الموجودة في المصلّى الجنائزي بامحمد أكبر وأضخم الكوّات وقد تمّ حفرها في صخر الجبل الذي يستند إليه المعلم . وهناك نوع من الكوّات في المساجد والمدارس خاصّ لوضع آنية الإنارة .

8 – وسائل التّغطية :

اعتمد المعماري المزابي في تغطية و تسقيف المباني الدّينية على أنواع عديدة من وسائل التّغطية نذكر منها ما يأتي :

أ – السقوف المسطّحة :

إنّ بناء هذا النّوع من السّقف يستدعي الاعتماد الكلّي على الخشب ، فكانت جذوع النخيل المادة الوحيدة من الخشب المتوفّرة في المنطقة ، وهذه المادّة لا يمكن استغلالها إلاّ عند موتها ، ولهذا السّبب يُلاحظ أنّ المزابيين لا يلجؤون إلى استخدام السّقوف المسطّحة إلاّ عند اقتضاء الضرورة ، وذلك حفاظا على الثروة النّخيلية .

وانطلاقا من هذا تظهر المساحات المغطّاة بسقوف مسطّحة قليلة في العمائر الدّينية ، ويتعلّق الأمر بالفضاءات المخصّصة لمجالس تلاوة القرآن الكريم ومجالس الوعظ والإرشاد داخل كلّ المساجد ومصلّيات المقابر المغطّاة ، أمّا سقوف المدارس فكلّها مسطّحة لتصبح تصميماتها مشابهة لتصميم المسكن.

عند تمعّننت في الدّور الذي تؤدّيه الفضاءات المغطّاة بسقوف مسطّحة نستنتج أنّ المزابي كان يريد من وراء استعمال السّقف المسطّح ، استبعاد كل ما من شأنه عرقلة (الدّعامة) تلك الوحدة المكانية التي تستدعيها وتفرضها نوعية العمل الذي يقام في ذلك الفضاء ، ألا وهو مدارسة وتلاوة القرآن الكريم جماعيا أو إلقاء الدّروس على الطلبة وتتمّ هذه الأعمال في شكل حلقات .

يتكوّن السّقف المسطّح من مجموعة من جذوع النّخيل مقطوعة طوليا ، تصطفّ بحيث يترك بينها فراغ يبلغ حوالي 0,40 م . و تُستبدل جذوع النّخيل أحيانا بأخشاب من جذوع الأشجار الأخرى ،كما هو الحال في المصلّى الجنائزي عمّي سعيد (اللوحة رقم : 48) .

توضع فوق جذوع النّخيل مجموعات متراصّة من جريد النّخيل سواء بسعفه أو بدونه (الشّكل رقم : 38) ، و قد تصفّف أحيانا بين الفراغات التي تتركها جذوع النّخيل أحجار دقيقة السّمك و تمسك بمادّة التّمشنت (الشّكل رقم : 37) وقد طبّقت هذه الطريقة في المصلّى الجنائزي عمّي سعيد (اللّوحة رقم : 48 - 49) .

يُضاف إلى ما سبق طبقة من التربة الطينية التي يصل سمكها إلى حوالي 0,30 م ، ثمّ تغطّى أخيرا بطبقة من خليط الجير و الرّمل [40] .

في حالة ما إذا كان الفضاء المراد تغطيته واسعا فإنّ المعماري المزابي يلجأ إلى استعمال أسلوب العارضات نظرا لقصر طول جذع النخلة الذي لا يتعدّى طولها 2,50 م ، وتكون هذه العارضات في مستوى أقلّ من السقف لتتمكّن من حمل جذوع النّخيل القادمة من الجانبين (اللوحة رقم : 11 و 19) . وتتشكّل العارضة بدورها من خشبتين من جذوع النّخيل .

ب – الأقـــبـــيـــة :

إنّ نقص مواد البناء الأساسية في عملية التسقيف (جذوع النخيل) فرضت على البنّاء الاستنجاد بطريقة أخرى في التسقيف ، ألا و هي الأقبية ، فقد عمد البنّاء إلى تحديد فضاءات صغيرة داخل المساجد ومصلّيات المقابر عن طريق تقاطع البوائك المتّجهة في اتجاه عمودي ومواز نحو جدار القبلة ، لتسهّل عليه عملية إقامة القبو .

---

(40) - C et P Donnadieu H et J . M Didillon ; Op cit , p : 94 - 95

و نظرا لنقص الإمكانات الإنشائية فإنّ القبو البرميلي كان أكثر أنواع الأقبية تداولا لسهولة إنجازه ، و لا يُشكّل هذا القبو بروزا من الخارج في العمارة المزابية ، بل يكون مضمرا في السقف . إنّ ما يميّز هذه الأقبية أنها صغيرة الحجم ، و غالبا ما تغطّي فضاءات صغيرة ، و تُبنى هذه الأقبية بنفس تقنية بناء العقود .

جـ ـ القباب :

تعدّ من العناصر المعمارية المميّزة في العمارة الإسلامية عامّة وفي العمارة الدّينية خاصّة ، وكانت محلّ نقاش كبير بين مؤرّخي الفن حول أصل نشأتها . فكان أوّل ظهور للقبّة في العمارة الإسلامية في مسجد قبّة الصّخرة . أمّا ظهورها المبكّر في بلاد المغرب فكان في جامع القيروان [41]

ترمز القبّة حسب تروث عكاشة إلى الاتّجاه الرأسي للمكان المقدّس نحو السّماء ، إذ أنّ للمسجد في نظره اتجاهان ؛ اتجاه أفقي نحو الكعبة واتجاه رأسي نحو السّماء ، وقد رمز المعماري المسلم إلى الاتّجاه الأخير بالقبّة[42] .

إنّ ضعف الإمكانات الإنشائية ، وعدم توفّر المواد الضرورية ، وكذا البساطة والتقشّف اللذين يدعو إليهما الفكر الإباضي ، كان عائقا لتنفيذ قباب في مساحات هامّة ، لذا فقد حاول البنّاء المزابي تجاوز هذا المشكل بتقسيم المساحات الواسعة إلى وحدات ضيقة ، و ذلك بفضل الأسلوب الذي اتّبعه في ترتيب البوائك المتقاطعة فيما بينها ، حيث تمّ له تحديد فضاءات لا يتجاوز طول ضلعها 2 م ، وهذا ما يناسب قبابا ذات قطر محدود على غرار القباب التي استعملها المهندس المسلم في المساجد

---

(41) ـ أحمد فكري : المرجع السابق ، ص: 87 .

(42) ـ تروث عكاشة : المرجع السابق ،ص : 101

لتغطية الفضاء الذي يتقدّم المحراب[43] كما في جامع ابن طولون وجامع القيروان وجامع تلمسان وغيرها .

بعد تحديد الفضاءات الصغيرة المربّعة ، تبقى مشكلة الانتقال من المربع إلى المثمن ثمّ إلى الدائرة ، وقد نجح البنّاء المزابي بفضل مواهبه تخطّي هذه العقبة باستعمال المثلثات الكروية . ويبدو هذا العنصر بسيطا في إنشائه ، والطريقة المتّبعة هنا تمثّلت في ملء الفراغ الموجود بين العقود والجدران بأحجار رقيقة بحيث يتشكّل مثلث قمّته في الأسفل وقاعدته في الأعلى ليتحوّل شكل الجدران إلى مثمّن . و تختلف منطقة انتقال القبّة في مسجد القرارة ، إذ استخدمت هنا الحنايا الركنية بدلا من المثلثات الكروية .

وتبدو القباب في وادي مزاب شبيهة إلى حدّ كبير بالقبو المتقاطع ، بحيث يمكن اعتبارها شكل وسطي بين القبو المتقاطع والقبّة ، وفي أغلب الأحيان تكون هذه القباب مغمورة ومضمرة داخل سقف المبنى ، ويظهر ذلك جليّا في مسجد غرداية العتيق ومسجد بني يزقن ومسجد القرارة ومصلّيات المقابر عمّي سعيد وبامحمد .

ويبقى أن أشير إلى أنّ بعض القباب تبدو بارزة من الخارج في بعض مصلّيات المقابر كقباب مصلّى بابه والجمّه ومصلّى عمّ سعيد بغرداية (اللوحة رقم : 46 و 51) . ولكن ما يلفت الانتباه في بعض هذه القباب ، ذلك النتوء الغريب البارز من قمّة القبّة (اللوحة رقم : 51) الذي يذكّرنا بتلك الأعمدة الصّغيرة التي تتوّج المآذن المزابية . لم أجد تفسيرا مقنعا لنواجد هذا العنصر في هذا الموضع إلاّ كونه يرمز إلى الصّعود في اتّجاه السّماء .

---

(43) - Vogt Göknil: Op.cit , p: 64

تعدّ القبّة البيضاوية الشّكل التي تعلو البيت القديم المخصّص لتسخين الماء في مسجد غرداية العتيق (اللوحة رقم : 56) أعظم قبّة عرفتها العمارة الدّينية الإباضية بوادي مزاب ، وتبرز بشموخها من على سطح المسجد .

9 - المـــداخـــل :

للمدخل عموما معنى رمزي ، إذ يعدّ الحدّ الفاصل بين الدّاخل والخارج وهو في المبنى الدّيني المنفذ الذي ينقلنا من ما هو مدنّس إلى ما هو مقدّس . ولكي يرمز المدخل إلى الترحيب بالوافدين أُقيم على شكل دَخول متراجع وليس على شكل خارج وبارز يتّصل بدنس الطريق العام [44].

تتشابه أغلب المباني الدّينية باستثناء المدارس ، في امتلاكها لمدخلين يؤدّيان إلى الصحن ، وعموما فإنّ موقع هذه المداخل كان في الجهة الشّمالية الغربية والشّمالية الشرقية .

اختير للمداخل المؤدّية إلى داخل بيوت الصّلاة مواقع في الجهة المقابلة لجدار القبلة أو من الجانبين ، تفاديا لكل ما يمكن أن يتسبّب في عرقلة المصلّين ، وهذا ما لمسته فعلا في أغلب العمائر الدّينية الإباضية بمزاب ، ويخرج عن هذه القاعدة مسجد بني يزقن ، فإضافة إلى المدخل الجانبي ، فُتح مدخلين في أقصى يمين ويسار جدار القبلة . وأظنّ أنّ اختيار هذا الموقع اقتضته ضرورة معمارية للأسباب الآتية :

أولا : موقع الصحن الجانبي بالنّسبة لبيت الصّلاة و تقدّم الجزء الذي يحوي المدخل الرئيسي عنها (الشكل رقم : 8) ، ممّا فرض على البنّاء فتح مدخل في هذا الجزء لقربه من المدخل الرئيسي للمسجد .

(44) - تروث عكاشة : المرجع السابق ، ص : 102

ثانيا : انحصار بيت الصّلاة بالمساكن من الجهة المقابلة لجدار القبلة ، مما لا يسمح بفتح مداخل فيها ، فكان جدار القبلة المجال الوحيد لفتح مداخل تؤدّي إلى بيت الصّلاة و لاسيّما أنّ هذا الجدار يطلّ على شارع رئيسي .

10 – الـــزخـــرفـــة :

اتّبع إباضيو وادي مزاب في حلية عمائرهم الدّينية فكرة البساطة والتقشّف استنادا إلى تعاليم المذهب االإباضي ، وجاءت كل المنشآت عارية من كل أنواع الزخرفة وتتجلّى تلك الزخرفة التي سعى البنّاء إلى تجسيدها في شكل وترتيب العناصر المعمارية المختلفة .

أ – الزخرفة الهندسية :

تمتاز العمائر الدّينية الإباضية في وادي مزاب بخلوّها التّام من أيّ عنصر زخرفي، باستثناء تلك الآنية الفخارية و الخطوط الهندسية المنكسرة الصغيرة التي تزين قبّة المدخل الأوسط لبيت الصّلاة في مسجد القرارة ، وكذا النّصوص الكتابية في مسجدي بنورة و غرداية العتيقين .

ففي محاولة للبحث عن مصدر تلك الزخرفة في نطاق القبّة ، ستتّجه أنظارنا حتما نحو مساجد جزيرة جربة ، نظرا للتّاريخ المشترك بين المنطقتين . وفعلا فقد قام الفنان الجربي بتقسيم المساحة الباطنية للقبّة إلى مثلثات متقابلة تنتهي إلى إناء فخاري عند مفتاح القبّة ، ويحيط بهذا الإناء آنية أخرى صغيرة [45].

– تزيّن آنية فخارية إحدى قباب مسجد القرارة بشكل ملفت للانتباه ، إذ تتجمّع أربعة أواني في المركز (مفتاح القبّة) ، وتحيط بها أربعة أواني أخرى (اللوحة رقم : 28) بحيث تبتعد عن الآنية المركزية بمسافات مختلفة . لابدّ أنّ لهذا الترتيب بعدا

---

[45] - رياض المرابط : المرجع السابق ، ص : 136 ، 137

ثقافيا أو عقائديا، فماذا يمثّل هذا العدد ؟ وإلى ماذا يرمز هذا الترتيب ؟ في اعتقادي أنّ هذا الترتيب ذو بعد عقائدي ، فيمكن أن ترمز تلك الآنية الأربعة مجتمعة إلى أحد أركان الإسلام وهي الشّهادة والتوحيد الذي من مقوّماته الإيمان ، وباعتبارهما القاعدة الأساسية للعقيدة الإسلامية ، فقد أعطى لهما الفنان المزابي المكانة المرموقة وهي الصّدارة (مفتاح القبّة) ، وأظنّ أنّ العدد أربعة هنا يرمز إلى عناصر الإيمان الأربعة (الإيمان بالله و الملائكة والكتب و الرّسل) وبالنّسبة للآنية الأربعة الأخرى التي تدور حول الآنية المركزية فتمثّل في نظري الأركان الإسلامية الأربعة الأخرى ؛ الصّلاة والصّوم والزكاة والحج وقد رتّبها على حسب أهمّيتها .

أمّا بالنّسبة للخطوط المنكسرة التي تُنتج أشكال المثلثات المتجاورة في شكل شريط زخرفي ، فهي ذات أصل أمازيغي ، ذلك أنّ الفنان الأمازيغي كان ملازما لهذه الزخرفة الهندسية منذ عهود تاريخية موغلة في القدم وقام بتنفيذها في شتّى أنواع الصناعات مثل الحلي والزرابي والجلود ، وربّما أنّ هذا المثلث يرمز إلى ثالوث الحياة الماء والنّار والغذاء أو ربّما يعود إلى عبادة ثلاثية قديمة تتمثّل في الكواكب و الحيوانات والأرواح [46].

ب – الزخرفة الكتابية :

تنعدم الزخرفة الكتابية من المعالم الدّينية المزابية مثل مثيلتها الهندسية ، إذ لم أتوقّف أثناء زيارتي لهذه المعالم إلاّ على نقيشتين ، نُفذت الكتابة عليهما بطريقة الحفر الغائر ، وهما عبارة عن لوحين حجريين مثبّتان على الجدار . فالنّقيشة الأولى مثبّتة داخل بيت الصّلاة بجانب المحراب في المسجد العتيق بنورة (اللوحة رقم : 9) ،

(46) - نور الدين بن عبد الله : الحلي التقليدية لطوارق الهقار دراسة فنية ، رسالة ماجستير : كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، قسم الثقافة الشعبية ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان 2001 ، ص : 110 .

والثّانية مثبّتة في الجدار الجنوبي الشرقي لصَحن مسجد العتيق بغرداية (اللوحة رقم : 55) .

تتّسم هذه النقائش بخطّها النّسخي الرديء الذي يقترب كثيرا من الخط الكوفي الكلاسيكي البسيط ، ويلاحظ فيها عدم الانضباط في شكل الحروف وحجمها، إذ يّرسم الحرف في اللوحة الواحدة بأحجام مختلفة في أحيان كثيرة .

يرِد في نصّ النقيشتين حديث الرّسول ﷺ المتعلّق بالكلام في المسجد . وقد تعرّفنا بفضل نقيشة مسجد بنورة على اسم الخطّاط والتاريخ الذي يشير في نظري إلى تاريخ تنفيذ الكتابة وليس إلى تاريخ تأسيس المنشأة . ولكن لم تصل إلينا أيّة معلومات عن هذا الخطّاط .

يبدو أنّ خلو المباني الدّينية الإباضية بوادي مزاب من العناصر الزخرفية بكلّ أنواعها يعود أساسا إلى عامل رئيسي ألا وهو :

- العامل العقائدي : فجمهور الفقهاء عامّة وفقهاء الإباضية بخاصّة يميلون إلى النّهي عن تزيين المساجد وتخصيص مساحات لذلك ، وحجّتهم في ذلك انشغال المصلّين عن صلاتهم ، ويوجز لنا البطّاشي رأي الإباضية في هذه المسألة في الأبيات الآتية :

وقيـــل لا تزيّن المـــساجـــد	فـــالنـــّهي فيـــهـــن وارد
لو شـــرّافات و ذي ســـتار	يبنى عـــلى جـــدارها يـــدان
زينتـــها نظـــافة عـــليهـــا	تعظيمها ذكـــر الإلـــه فيهـــا
فلا يزيـــّن مسجد بـــحمرة	و لا نقـــــوش ولا بصـــفـــرة
وقد روى أنّ عليّا قد كـــتب	لبعـــض من قضـــاته أولي الرتب

من إحذروا التزويق في المساجد ، والشـــــرفات في الكـــلام وارد

وعـــن أبي محمـــد المجـــد لا يـــكـــتبّن في قبـــلة للمسجد

شيء من الكـــلام وهو يعرف خـــشـــية أن يشغل من قد يقف

من كـــلم القرآن أو مـــوعظة و لا يجـــوز فيه جعل صـــورة [47]

وقد ورد في تحريم زخرفة وتنميق المساجد أحاديث نبوية عديدة نذكر منها :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ: << ما أمرت بتشييد المساجد . >> ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: << لا تقوم السّاعة حتى يتباهى النّاس في المساجد >> [48] .

لقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه لمّا أمر ببناء مسجد النّخيل قال للصّانع : << أكن النّاس من الشّمس والمطر وإيّاك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن النّاس. >> [49] .

و لعلّ ما يذكره ابن خلدون في مقدّمته يعطينا فكرة واضحة عن ذلك المنع وتلك البساطة و التقشّف في البناء الذي ساد في صدر الإسلام ، فيقول :<< وأيضا فكان الدّين في أول الأمر مانعا من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير قصد كما عهد إليهم عمر عندما استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال : افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيت ولا تطاولوا في البنيان ، ألزموا السنّة تلزمكم الدولة وعهد إلى الوفد ، تقدّم إلى الناس أن لا يرفعوا

---

(47) - البطاشي : المصدر السابق ، ج : 4 ، ص : 127 ، 128

(48) - محمد القيسي : المساجد بين الاتباع والابتداع ، دار القلم ، الجزائر د . ت ، ص : 40 ، 41

(49) - المرجع نفسه ، ص : 24 .

بنيانا فوق القدر قالوا وما القدر ؟ قالوا ما لا يقربكم من السرف و لا يخرجكم عن القصد .» (50) .

إنّ مسألة خلو المباني الدّينية المزابية من كلّ أنواع الزخرفة تجرّنا إلى طرح تساؤل لطالما يفرض نفسه على الباحثين في كل محاولة لدراسة العمارة المزابية . فإذا كان الفن الإباضي في وادي مزاب يعدّ وريث الفن السدراتي ـــ باعتبار انتقال عدد هائل من السدراتيين إلى المنطقة بعد سقوط مدينتهم ـــ الذي وصل إلى درجة كبيرة من الإبداع والإتقان ، رغم تشدّد المذهب الإباضي في هذه المسألة ، فلماذا ذلك الانقطاع التّام وانعدام التواصل بين الفنين ؟

يمكن أن نفترض نوعا من التسيّب الدّيني الذي ساد في وسط المجتمع الإباضي في سدراتة ، وكان من بين الثّائرين على ذلك الوضع فيما يبدو منظّر ومنظّم نظام العزّابة أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي الذي قام بحركة إصلاحية مع تلاميذه في سبيل الرّجوع بالفكر الإباضي إلى نقائه الأولي ، و منها تطبيق المبادئ التي تدعو إلى تحريم التّصوير بكل أشكاله .

فمن جهة وصل الفن الإباضي في سدراتة إلى مستوى عال من الدقّة والإتقان في مجال الزخرفة ، ومن جهة أخرى جعل إباضية وادي مزاب حدّا فاصلا مع تقاليدهم الفنية ، ورفضوا كل أنواع الزخرفة . فكلّ العمائر ولا سيّما الدّينية منها أصبحت تتقيّد بالبساطة والتقشّف الذين يترجمان بحقّ العودة إلى المصادر الإسلامية الأولى .

ولعلّ الرّفاهية التي كان عليها أهل سدراتة كانت السّبب المباشر في جلب أطماع الغزاة نحوها ، وبالتّالي أدّت إلى سقوطها . و خوفا من تكرار التّجربة و الخضوع إلى نفس المصير ابتعد النّازحون من الإباضية إلى مزاب من كلّ ما يمكن أن

(50) ـ عبد الرحمن ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، دار العودة ، بيروت د . ت ، ص : 284 – 285 .

يجلب أطماع الأعداء ، وخاصّة إذا علمنا أنّ هدف النّازحين الأوائل إلى منطقة جرداء جافة كان هروبا بمذهبهم وحمايته من الزّوال .

و لربما كان للفكر المعتزلي المتشدّد كذلك أثره على سكان المنطقة ، رغم اعتناقهم للمذهب الإباضي ، لا سيّما أنّ هؤلاء قد قاموا بتشييد قرى قبل النّزوح الإباضي ، و كان لهم الشّرف أيضا في تشييد المدينة الأولى (العطف) من المدن المزابية السّبع . فما كان من النّازحين الجدد من الإباضية سوى الخضوع لتقاليدهم المعمارية .

جـــ ـــ الشرّافات :

إنّ إباضية مزاب تخلّوا كلّيا عن تلك العناصر الزّخرفية التي عمّ استعمالها عند أسلافهم في سدراتة ، واكتفوا بالعناصر التي تؤدّي غرضا معماريا ، لكن الشرّافات خرجت في نظر رافيرو عن القاعدة ، ففي رأيه فإنّ شرّافات المآذن هي الوحيدة التي لها دور فزيائي حقيقي ، أمّا تلك التي تعلو المقام ، فإنّها لا يمكن أن تشارك في توازن المبنى [51] . فهل يتعلّق الأمر هنا بتواصل تاريخي لعنصر معماري ؟

وعندما نتتبّع مناطق التجمّعات القديمة التي مرّ عليها الإباضية أو استقرّوا فيها لفترة زمنية قبل تنقلهم إلى مزاب مثل وادي ريغ و ورقلة ، فإنّنا نصادف فعلا تلك الشرّافات تنتصب في الأركان الأربعة من أضرحتهم .

ويبدو أنّ هذا العنصر الزخرفي قديم وتعود جذوره حسب مارسيل مرسييه إلى عبادة الأحجار الأكثر رواجا عند الفنيقيين الذين أدخلوا هذه العبادة إلى شمال إفريقيا في فترة تواجدهم فيها (ابتداء من القرن الثامن ق . م إلى القرن الثاني ق . م) ومنذ

---

(51) - André . Ravéreau: Op.cit , p: 189 .

تلك المرحلة التّاريخية أصبحت هذه الأحجار المقدّسة تنتصب في كلّ الأماكن المقدّسة [52].

حتّى إذا سلّمت بفرضية استلهام هذا العنصر من أصول وثنية قديمة كما سبق ذكره آنفا ، فلا شكّ أنّ استعمال المزابين له كان لغرض زخرفي بحت ، إذ كانوا يتوّجون به كل مبانيهم بما في ذلك المباني العسكرية مثل الأبراج و حتّى المباني المدنية ، وربّما كان قصدهم في العمائر الدّينية و لا سيّما في المآذن و في المقامات تعيين الجهات الأصلية الأربعة .

و بالرّغم من الفرضيات التي استقيتها ، إلاّ أنّ هذا العنصر المعماري يبقى يحتاج إلى البحث والدّراسة أكثر ، وأفترض أنّ هناك دلالات أخرى اجتماعية ونفسية لم أتمكّن من الوقوف عندها .

ينتشر هذا العنصر في جربة وبالخصوص في بلاد السّودان الغربي ، أين تنتصب هذه الشرّافات في أعلى أركان المساكن والمآذن والمساجد ومن أحسن المدن الإفريقية التي ينتشر فيها هذا العنصر بشكل ملفت للانتباه تومبوكتو [53].

إنّ شرّافات وادي مزاب تختلف تماما عن الشرّافات التي تعوّدنا رؤيتها في العمائر الدّينية والمدنية والعسكرية الإسلامية في مختلف العصور ، سواء في المشرق أو في المغرب الإسلاميين .إذ تبدو هنا على شكل أعمدة صغيرة منتفخة في الأسفل وتضيق كلما ارتفعت نحو الأعلى . و تنتصب هذه الأعمدة في شكل نتوءات فوق الأركان الأربعة للمعلم و يتراوح ارتفاعها ما بين 0,55 م و 1,10 م .

تبدو العمائر الدّينية الإباضية في مزاب من البساطة والتقشّف ما يجعلنا نبحث عن موقعها بالنّسبة لمعيار الجمال . فعلى أيّ معايير يمكن الاستناد عليها لتذوّق جمالية

(52) - Marcel Mercier: Civilisation … , p: 152 - 153..
(53) - Ibid , p: 152

العمارة المزابية ؟ خصوصا أمام معارفنا المُسبّقة عن العمارة السّلطانية أو الأميرية التي تبتعد كلّ البعد عن العمارة الشعبية المحلية بسبب تفوّق الأولويات والإمكانات الإنشائية .

ففي موضوع الحكم الجمالي يرى إبراهيم زكرياء أنّه يعبّر عن وجهة نظر الإنسان ، ولكن من المؤكّد أنّ نسبة الحكم ليست هي التي تكوّن ثبات الموضوع أو تسنده ، وإنّما الذي يحدّد قيمة الحكم ويدعّمها هو القانون الذاتي الباطني للموضوع ، فليست الذّات هي كل شيء في الحكم الجمالي ، وإنّما التوازن الذي في الموضوع نفسه في صميم بنائه الجمالي وهذا هو الفيصل الحقيقي الذي يظلّ الحكم الجمالي مشروطا به دائما وتبعا لذلك فإنّ كل عمل فنّي إنّما يحمل في ذاته نسقا خاصّا من الضروريات التي تشعّ من خلالها كيفيتة الجمالية [54] .

ولتقويم جمالية العمارة المزابية في كلّ المباني لا سيّما الدّينية منها، لا بدّ من أن ننطلق من المفهوم الذي قدّمه حسن فتحي عن الإستيطيقا عندما قال << أنّ الإنسان المزابي عمل بكلتي يديه وكافح ضدّ العوارض الطبيعية في صراع دائم معها بمواد البناء المتوفرة في بيئته وبثقافته ، فحينما تمكّن من حلّ المشكلة خلق الجمال . >> [55] ويُفهم من هذا القول أنّ إنتاج الفن يتمّ بتفاعل البيئة الطبيعية مع الإرث الحضاري والثّقافي للفنان . فمقاييس الجمال إذن تتغيّر من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى آخر ، ولكلّ مجتمع مفاهيمه ورؤيته في تقويم الجمال الذي يعدّ نتاج تعامل ذلك الفرد أو المجتمع مع محيط بيئته عبر العصور . فموسيقى الشّعوب البدائية مثلا لا يتقبّلها ذوق الإنسان الحالي ، فسمات الجمال إذن هي سمات كلّ عصر . ومن هذا فمقاييس الجمال تختلف مثلا عند الإغريق عمّا هي عند الرّومان وعند الحضارات الأخرى ، وحتى في العصر

---

[54] - إبراهيم زكرياء : مشكلة الفن ،دار مصر للطباعة ، القاهرة 1979 ، ص : 230

[55] - André . Ravéreau: Op.cit , p :12 .

الحديث فإنّ مقاييس الجمال تختلف عند القبائل الإفريقية عن أوروبا وعن الشّعوب البدائية [56]. والجمال في العمارة ليس منفصلا عن أهمّ مؤثّر في الشّكل المعماري الذي يمكن من خلاله إعطاء حكم جمالي للعمل الفني المنجز ، ألا وهي الوظيفة .

فالشّكل لا بدّ أن يكون نتيجة لتحقيق الوظائف ، ومن هنا فإنّ الأسطح المكوّنة للشّكل المعماري ما هي إلاّ مستويات تحدّد فراغات أنشئت لأداء وظائف محدّدة ، وانطلاقا من هذا فإنّ أي تقويم للشّكل المعماري يجب أن يُبنى على الربط بين الشّكل و الوظيفة التي كانت السّبب في وجوده . ويُفهم من هذا أنّ تصوّر الجمال في العمارة يختلف عن أيّ فن آخر ، فالجمال هنا ليس هدفا بحدّ ذاته ولا يمكن أن يكون هدفا ، بل هو نتيجة .

ويرى لويس سوليفان في هذا الصّدد أنّ الأشكال هي المظهر الخارجي للقوى والاحتياجات الدّاخلية [57] ، وممّا لا شكّ فيه أنّ الشّكل المعماري للعمائر الدّينية في مزاب تولّد من هذا المبدأ ، لا سيّما ونحن أمام عمارة وظيفية بأتمّ معنى الكلمة ، فالوظائف هي التي أنتجت الشّكل ، لأنّ الهدف من العمارة ليس الحصول على مبان جميلة فحسب ، بل هو تلبية الحاجات الإنسانية بكلّ جوانبها ، كما أنّ جمالية العمارة المزابية تكمن في الانسجام الذي يحصل بين شكل المعلم والوظيفة التي يؤدّيها داخل المجتمع ضمن إطار بيئي معيّن ، كما يمكن إضافة عنصر الموقع كمعيار للجمالية ، فترتيب المباني على شكل هرمي ، تبعا لأهميتها الدّينية والاجتماعية ، يضفي عليها صبغة جميلة ومنظرا رائعا ، فكلّ المباني منظّمة حول مركز العبادة (المسجد وملحقاته) الذي يبرز بشموخ عن باقي المباني بفضل موقعه في أعلى نقطة في المدينة ،

---

(56) - رنيف مهنا ويسن بحر : المرجع السابق ،الكتاب الثاني ، ص : 7

(57) - المرجع نفسه ، ص : 24 .

وقد زاد في سموه ورفعته تلك المئذنة ذات الشّكل الهرمي الناقص المنطلقة في اتجاه السّماء .

و لقد تحاشى المهندس المزابي استخدام الخط المستقيم واعتمد على الخط المنحني الذي استلهمه حسب رياض المرابط من استدارة الأفق ويرمز لحنو السّماء ، ويظهر ذلك جليا في شكلي القبو والقبّة اللذين يظهران على شكل قبّة السّماء [58]. ويذهب إلى مثل هذا التفسير إمانويل روش فيقول : « لم تهمل الزاوية القائمة هنا عن رعونة و لا عن جهل بل حسب رأيي عن سمو روح » [59].

11 – مـــواد البـــناء :

عمد البنّاء المزابي إلى ما توفّر له البيئة الطبيعة المحيطة به من مواد بناء مختلفة واستغلّها أحسن استغلال في إنجاز كلّ العمائر سواء العامّة منها أو الخاصّة ، ولم يلجأ إلى استيراد مواد من مناطق أخرى إلاّ في حالة الضّرورة القصوى مثل جذوع النّخيل التي استقدمت من ورقلة واستعملت في المسجد العتيق وملحقاته بمدينة غرداية .

تؤدّي مواد البناء دورا أساسيا في تكوين الشّكل المعماري ، فمن خلالها ومن خلال الأساليب والوسائل والأدوات المستعملة في توظيف وتنفيذ هذه المواد ، يؤثّر الإنشاء على الشّكل المعماري . فلكلّ مادّة خصائص ومميزات تستوجب استعمالات معينة وتفرض نفسها على الشّكل [60].

و لمواد البناء أيضا دور في إعطاء الشّكل النّهائي للفضاءات الدّاخلية ، فيكون كبر أو صغر حجم الفضاء المعماري تبعا للاستعمال العقلاني للمواد المحلية المتوفّرة ومن هذا المبدأ استخدم المزابيون مواد البناء الآتية :

---

(58) - رياض المرابط : المرجع السابق ، ص : 153 .

(59) - M . Roche: Op.cit , p: 141 .

(60) - رئيف مهنا ويسن بحر : المرجع السابق ،الكتاب الثاني ، ص : 26 .

أ – الحجارة :

تعدّ المادّة الأساسية في تشييد المباني الدّينية ، نظرا لتوفّر محاجر عديدة وقريبة . و تُقطع الأحجار بأحجام مختلفة من الطّبقات الكلسية البيضاء المنتظمة المكوّنة للهضاب الصّخرية المحيطة بالوادي . و تُستخدم هذه المادّة دون اللّجوء إلى نحتها ، ويمكن صقلها صقلا خفيفا أثناء تناولها للاستعمال في حقل العمل ، وتُختار الصفائح الحجرية لتبليط الأرضيات أو تُستعمل في بناء عارضات المداخل .

ب – التّمْشَنْتْ :

نوع من أنواع مادّة الجبس التي تتوفّر بكمية كبيرة في منطقة وادي مزاب ، لكن هذا لا يعني عدم توفّرها في المناطق الأخرى ، فمنطقة المنيعة و ورقلة و الأغواط وغيرها من المنطق الأخرى غنيّة بهذه المادّة ، إلاّ أنّ تمشنت مزاب مختلفة عنها بلونها المائل إلى الاحمرار[61] .

وتنتشر المحاجر في كلّ محيط الوادي وقد استعملت قديما واستنفذ معظمها ، ويطلق الأهالي على هذا النّوع من الصّخور التي تستخرج منها هذه المادّة اسم « قدّام » أو « حجر الكاف » .

تستخرج هذه المادّة من الهضبة الكلسية التي تشكّل الأكوام الزجاجية Lenticulaire التي تمتدّ على شكل طبقات أفقية على عمق 1 م تحت سطح الأرض .
تتركّب مادّة التّمشنت من المواد الآتية :

كاربونات الجير	88 %
الطين (سيليكات الألمنيوم	11 %

[61] - Marcel Mercier: Civilisation … , p: 299 .

الشّوائب (كلورير الكالسيوم) ،1 % (62)

ويتمّ استخراج التّمشنت من تلك الصّخور بطريقة صناعية بواسطة أفران يطلق عليها باللّهجة المحلية اسم << أَشَبُّورْ >> . وتتمّ طريقة الصنع بدفن هذه الأفران تحت الأرض حتى لا يظهر منها سوى فتحة يدخل من خلالها الهواء . و توضع أحزمة من النباتات الصّحراوية في قاع الفرن ثمّ توضع الصّخور بحيث تشكّل قبوا ذا علوّ يقارب 1,50 م .

تدوم عملية الاحتراق مدّة أربع وعشرين ساعة لتتفتّت الصخور و لا يبقى سوى عزل المادّة النّاتجة عن الرّماد(63) . إنّ أهمية المادّة المستخرجة تكمن في احتوائها على سيليكات الألمنيوم وكاربونات الجير بقدر النّسبة الموجودة في الإسمنت ، وهذا ما يفسّر قوّة التّماسك في هذه المادّة التي استعملت كملاط بمثابة الإسمنت .

جــ - الجــير :

تتوفّر الكاربونات في بلاد الشّبكة بكثرة ، و تُستخرج هذه المادّة بنفس طريقة صنع التّمشنت ، إذ يتمّ حرق الأحجار الكلسية في أفران يبلغ ارتفاعها 2 م ، لكن عملية إنتاج الجير مكلّفة لاستهلاكها لكمية كبيرة من الخشب بقدر خمس مرّات الحطب المستعمل في إنتاج التّمشنت (64) .

يُستخدم الجير في تكسية الجدران على الخصوص ، فيمزج في شكل سائل بكمية من الرّمل بمقدار 1 كلغ مقابل 10 كلغ من الرّمل .

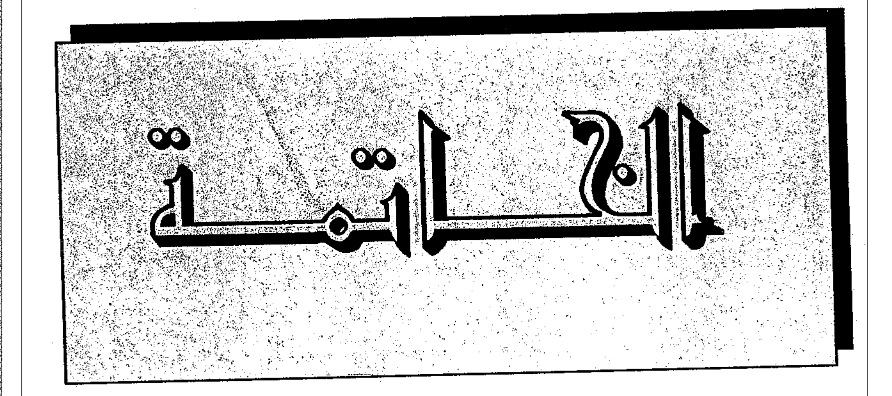
(62) - C et P Donnadieu H et J . M Didillon: Op.cit, p:88 .
(63) - Marcel Mercier: Civilisation … , p: 299 .
(64) - C et P Donnadieu H et J . M Didillon: Ibid , p:88 .

د – الخـــشـــب :

استغلّ المزابي كلّ ما توفّره له النّخلة في بناء منشآته المعمارية من جذوع وجريد وسعفه . ويطلق على جذوع النّخيل باللّهجة المحلية اسم << تْمَالَفْتْ >> ، ولا تُستخدم في البناء إلاّ بعد موتها وذلك حفاظا على الثّروة النّخيلية و الواحة التي دفع الرجل المزابي الغالي والنّفيس في سبيل إحيائها ، ولا سيّما أنها كانت تعدّ مصدر قوته .

حينما توجّه جذوع النّخيل لغرض استعمالها كعارضات تقطع طوليا إلى جزئين أو ثلاثة أو حتى إلى أربعة أجزاء في بعض الأحيان ، وهنا تكون ذات وجه مسطّح يتراوح عرضه ما بين 12 و 15 سم ، وطولها ما بين 2 و 3 م . و يمكن أن يقطع جذع النخلة إلى ألواح ، يتراوح عرضها ما بين 30 و 40 سم ، وسمكها لا يتعدّى 3 سم وتُستخدم في صنع الأبواب .

وأمّا جريد النّخيل فيتُرك في الشّمس حتّى يجفّ ثمّ يستعمل بسعفه أو بدونه في تشكيل تقويسة العقد والأقبية و حتّى في بناء السقوف المسطّحة .



الخاتمة

بعد محاولة التوغّل داخل مكنونات و أسرار العمارة الدّينية الإباضية بمنطقة وادي مزاب و دراسة مختلف أنواع العمائر باختيار بعض النماذج ، وكانت عملية الوصول إلى مقاييس تأريخها من أهمّ شواغل هذا البحث ، رغم صعوبة المخاطرة في هذا المجال في ظلّ الغياب الكلّي للوثائق .

و في هذا الصّدد اعتمدت في محاولتي لتحديد فترة تأسيس المعالم المأخوذة كعينات في هذا البحث على بعض المؤشّرات التّاريخية النّسبية مثل تقنية البناء و العناصر المعمارية ، بالإضافة إلى المصادر التّاريخية الإباضية الشحيحة في هذا الميدان . و لا يمكن الجزم و الإدّعاء أنني توصّلت إلى نتائج دقيقة بل سيبقى المجال مفتوحا لقراءات أخرى للبحث .

لقد نشأت مختلف المباني الدّينية الإباضية في مزاب بسيطة في بنائها ، و لم تتطوّر في أساليب إنشائها على مرّ الزمن بل بقيت محافظة على تلك الحال من البساطة و التقشّف في البناء طوال قرون من الزّمن .

ويأتي على رأس هذه العمائر المسجد الذي يعدّ عند المجتمع المزابي إضافة إلى دوره الدّيني مقرّ للسّلطة الرّوحية (حلقة العزّابة) و مخزن للمؤن (التّمور و الحبوب) . لذا فقد أراد المعماري المزابي تجسيد هذه المترلة المرموقة للمسجد لدى المجتمع المزابي تجسيدا معماريا ، فاختار له موقعا إستراتيجيا يتماشى ومكانته و احتلّ مكانا في أعلى قمّة الهضبة التي تتدرّج فوقها مباني المدينة . فأصبح يشرف بذلك على كل المنشآت الأخرى ، وقد زاده رفعة وشموخا تلك المئذنة الهرمية الشكل .

لم تختلف المساجد الإباضية بمزاب في تصميمها عن المساجد الإسلامية و اعتمدت على طراز معماري موحّد . و يتعلّق الأمر بطراز المساجد ذات الأعمدة

و الدّعامات ، فالعدد الهائل لتلك الدّعامات داخل بيوت الصّلاة جعلتها تندرج ضمن هذا الطراز .

اتّبعت المساجد الإباضية في بساطة بنائها المساجد الإسلامية الأولى (المسجد النّبوي الشّريف ،و مسجد البصرة و مسجد الكوفة) .

لقد اتّسعت بيوت الصّلاة عرضيا على غرار الجامع الأموي بدمشق ، و خلافا للتقاليد المعمارية الإسلامية اتّبعت البوائك هنا في مسارها نحو المحراب اتّجاها مزدوجا عموديا و موازيا ، إذ إنّ البوائك من العادة تأخذ في اتّجاهها مسارا واحدا إمّا عموديا أو موازيا ، وقلّما تسير في الاتّجاهين معا .

طُبّق نفس التّصميم الإسلامي في بناء الصحن و الأروقة المحيطة به من جميع الجهات باستثناء جهة القبلة ،وقد خرج عن هذا التقليد مسجد القرارة الذي تطوّق الأروقة صحنه من جميع الجهات . و لكن موقع الصحن بالنّسبة لبيت الصّلاة جاء مغايرا في بعض الأحيان عمّا ألفناه في عمارة المساجد التي جعلت الصحن يأخذ مكانه متقدّما بيت الصّلاة على محور المحراب .

وقد أخذت المساجد المزابية على العموم شكلا غير منتظما في تخطيطها ، و لا شكّ أن كثرة الإضافات في جهات مختلفة من المسجد كانت السّبب الرئيسي في عدم الحصول على شكل نهائي منتظم .

لم ينحصر هذا التّصميم البسيط في وادي مزاب فقط ، بل تجاوزه إلى المراكز الإباضية الأخرى (جبل نفوسة بليبيا و جربة بتونس) و إلى الأقاليم الصّحراوية حتى يمكن إطلاق مصطلح مساجد الشّريط الصّحراوي على هذه المساجد .

لقد جلب انتباهي تجاور محرابين جنبا إلى جنب وكانت كلّ الدلائل تستبعد فكرة التوسّع التي يستند عليها الأهالي لتبرير الظّاهرة ، ولكن اعتمادا على قرائن

تاريخية وحسب قراءاتي يبدو لي أنّ أسباب التّفرقة التي عنى منها بنو مزاب كثيرا لفترة زمنية طويلة كانت وراء هذه الظّاهرة ، كما يمكن أن يكون تعايش المذهبين الإباضي والمعتزلي وراء تعدّد المحاريب في المسجد ولا عجب في ذلك ما دامت ظاهرة تعدّد المحاريب تبرز حتّى في المساجد العظيمة مثل الجامع الأموي بدمشق . ولكن الإشكال يبقى مطروحا أمام الباحثين للبحث والتعمّق أكثر في هذه المسألة لتقصي الحقيقة العلمية بقراءات و وجهات نظر مختلفة.

من بين مميزات المساجد الإباضية خلوّها من المنبر الذي يعدّ دليلا لإقامة صلاة الجمعة ، ولقد فسّرنا هذه المسألة بالرّجوع إلى الفكر الإباضي نفسه .

و تعلو في المساجد الإباضية مآذن ذات طراز هرمي الشّكل ، فجدرانها تميل في شكل انسيابي نحو الدّاخل و تضيق كلّما زادت في الارتفاع . وبحثا وراء أصل و منشأ هذا النّمط المعماري رأيت أنّ المئذنة التي ترتفع في مسجد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الواقع في دومة الجندل تستحقّ أن تكون المنبع الذي ارتوت منه كل المناطق (اليمن و ليبيا و تونس) التي انتشر فيها هذا النّمط بقوّة ، و لم يكن توغّله في إفريقيا الغربية إلاّ بفضل القوافل التّجارية الإباضية التي تنطلق من وادي مزاب .

لم تكن مدارس مزاب إلاّ شكل من أشكال المسكن المزابي . و قد وزّعت الفضاءات داخل هذه المنشآت حول فضاء مركزي تماشيا مع النّظام التّربوي التّعليمي المطبّق الذي يوزّع التلاميذ إلى مجموعات حسب مستويات علمية ، فقد شكّلت في نظري تلك الفضاءات الجانبية المطلّة على الفضاء المركزي ما يطلق عليه في العمارة الإسلامية اسم الإيوان ، ولو أنها لم تكن بتلك الضّخامة التي عرفتها المدارس الإسلامية، و لا يختلف الطّابق العلوي في تقسيماته عن الطّابق الأرضي .

في ثنايا هذا البحث وضّحت كيف كانت المصلّيات الجنائزية في أصلها مدارس حيث مارس بعض الشيوخ مهامهم في التّدريس بعيدا عن مشاغل الدّنيا و ذلك تقليدا لأسلافهم من الإباضية ، فاختاروا لمدارسهم مواقع بعيدة عن التجمّعات العمرانية وقد تطوّرت هذه المنشأة بعد وفاة الشيخ المدرّس ودفنه على مقربة من مدرسته ، لتتحوّل إلى مصلّى جنائزي بعد ضمّ قبور أخرى إلى جوار قبر الشيخ العالم وتصبح مقبرة لعشيرته أو عرشه ، فتتغير بذلك وظيفتها لتنتقل من منشأة تعليمية تربوية إلى منشأة جنائزية تتمّ فيها وظائف لها علاقة كبيرة بالميت . ولقد تمكّنّا من تمييز نوعين أو نمطين من المصلّيات الجنائزية ضمن المصلّيات المغطّاة اعتمادا على أسلوب التسقيف ، فميزنا بين تلك المغطّاة بالقباب والأخرى المغطّاة بالأقبية ، بالإضافة إلى المصلّيات المكشوفة التي يحيط بها سياج جداري فقط .

أمّا المقام الذي يعني المدفن فيختلف تماما عن الأضرحة التي انتشرت في كلّ بقاع العالم الإسلامي ، فكانت هذه المقامات بسيطة جدّا في بنائها ، فشيّدت على شكل مصطبة مستطيلة تعلو القبر و تتوّج أركانها نتوءات أو شرّافات . وهكذا سجّلنا طرازا جديدا في عمارة الأضرحة .

يبدو أنّ خلوّ العمائر الدّينية من كلّ أنواع الزخرفة (نباتية و هندسية وكتابية) يعود أساسا إلى عامل عقائدي ، فالأحاديث النّبوية الشّريفة التي تحرّم زخرفة المباني الدّينية قد لقت آذانا صاغيّة و واعيّة لدى جمهور فقهاء الإباضية ، وحول هذه المسألة طرحنا عدّة فرضيات لتساؤلات عديدة تصبّ كلّها في النقلة المفاجئة للإباضية من فن راق في مجال الزّخرفة إلى فن متواضع بسيط يرفض كلّ أنواع الزّخرفة حتى وإن كانت خطية . وتعود هذه النقلة المفاجئة في نظري إلى سببين : فكانت تعبيرا عن العودة بالدّين إلى نقائه الأولي أو تأثر النّازحين بالفكر

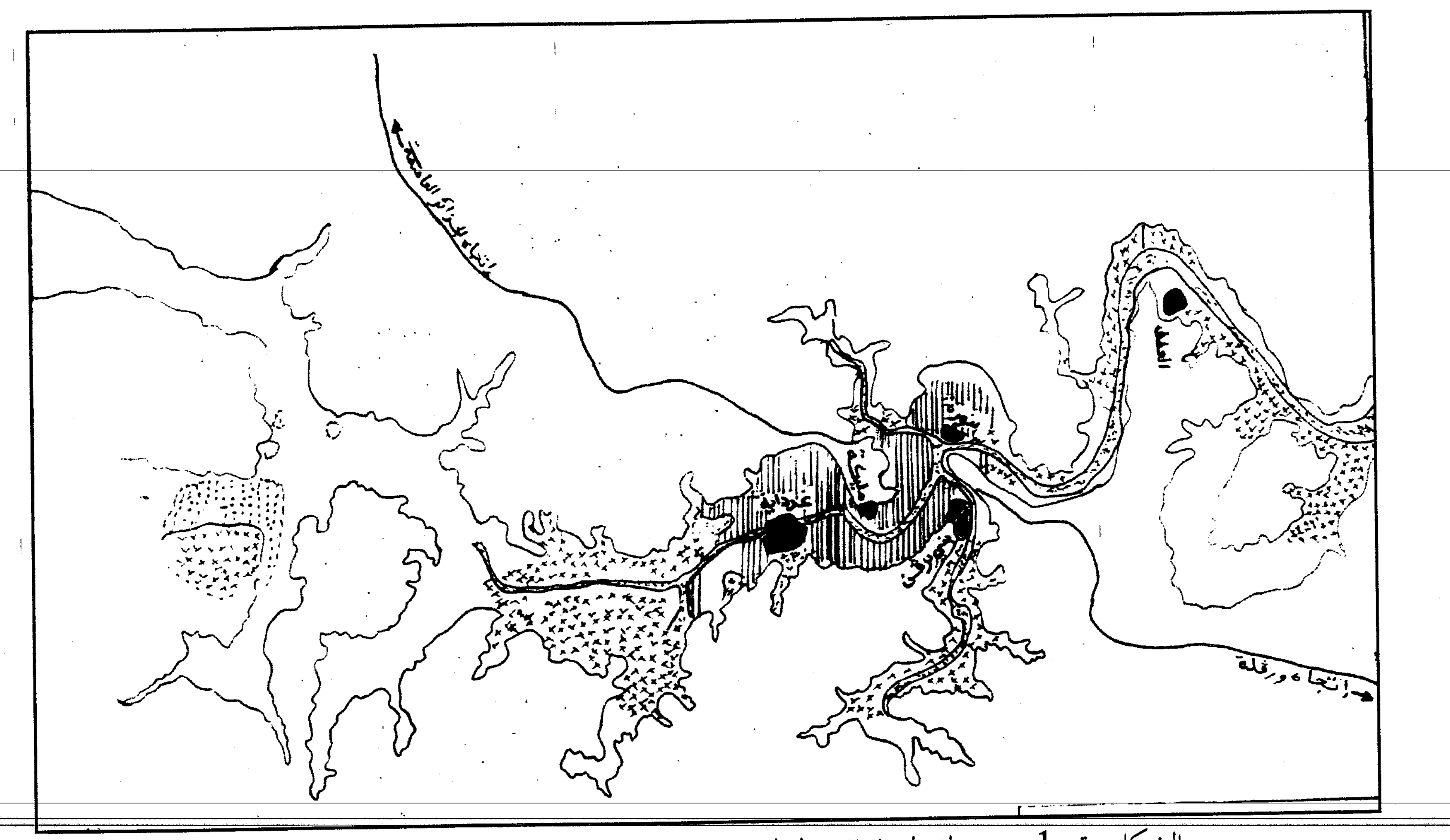
المعتزلي المتشدّد في هذه القضية بعد احتكاكهم ببني مزاب الذين كانوا على ذلك المذهب.

وكلّ ما عثرنا عليه من الزّخارف في المنشآت الدّينية الإباضية بمزاب آنية تزيّن إحدى قباب مسجد القرارة و لوحتين حجريتين تحملان نصّا كتابيا يضمّ آية قرآنية وحديثا نبويا شريفا ، وتمكنّا بفضل لوحة مسجد بنورة التعرّف على اسم أحد الخطّاطين المزابين .

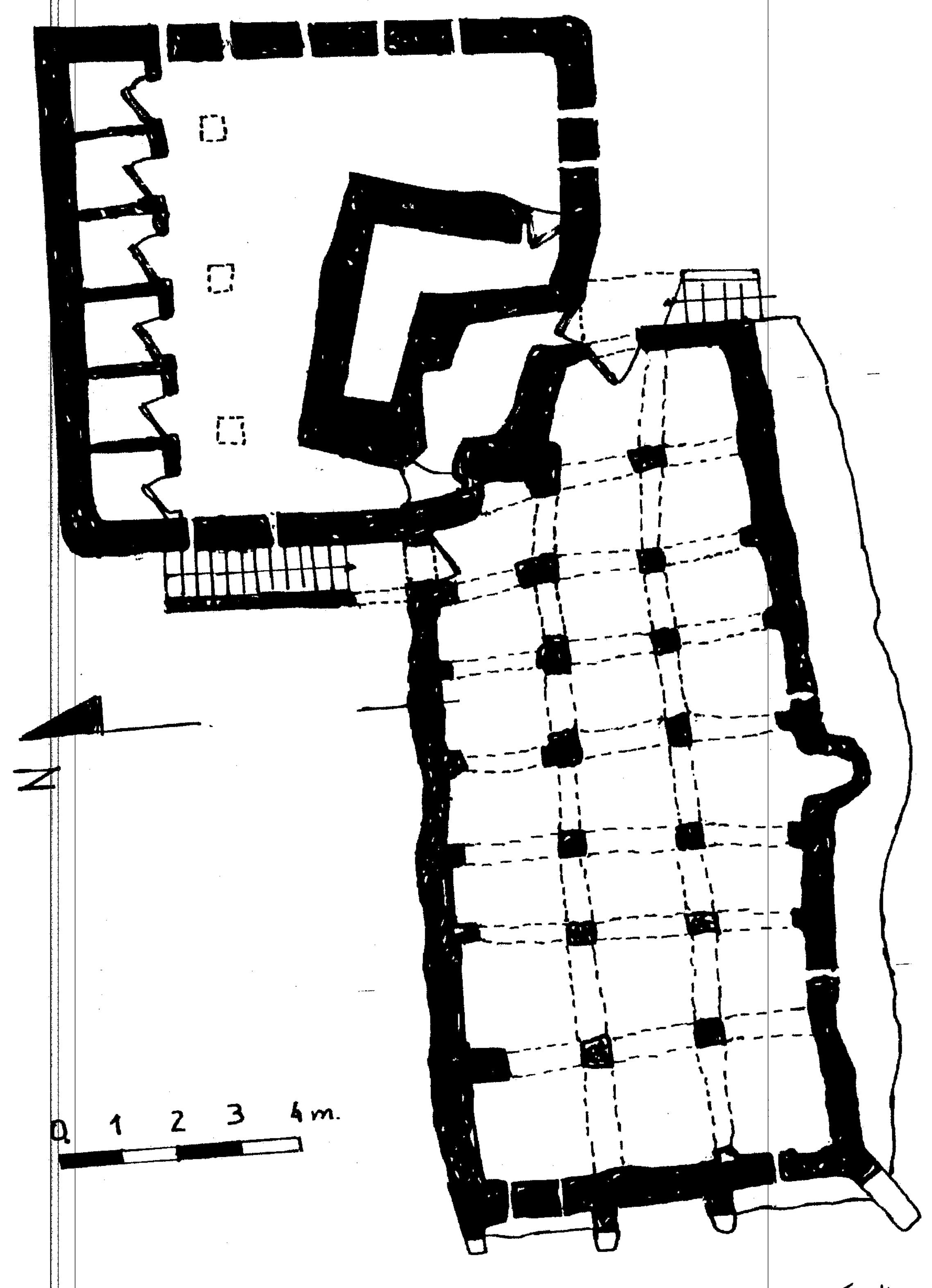
لقد اعتمد البنّاء المزابي في إنجازه للمنشآت الدّينية على كلّ ما توفّره له البيئة المحلية من مواد قابلة للاستعمال في البناء ، ولم يلجأ إلى استيراد المواد من مناطق مجاورة إلاّ عند الضّرورة القصوى .


الملحق


ملحق
الأشكال واللوحات

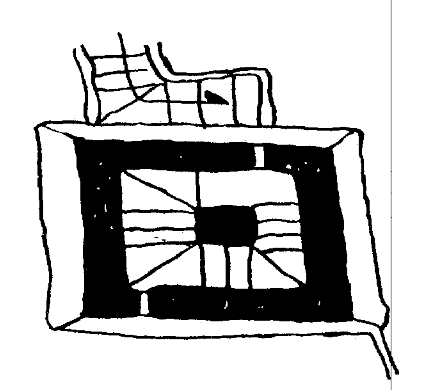


الشكل رقم 1 : خريطة طبوغرافية لمنطقة وادي مزاب .تبين موقع المدن الخمسة



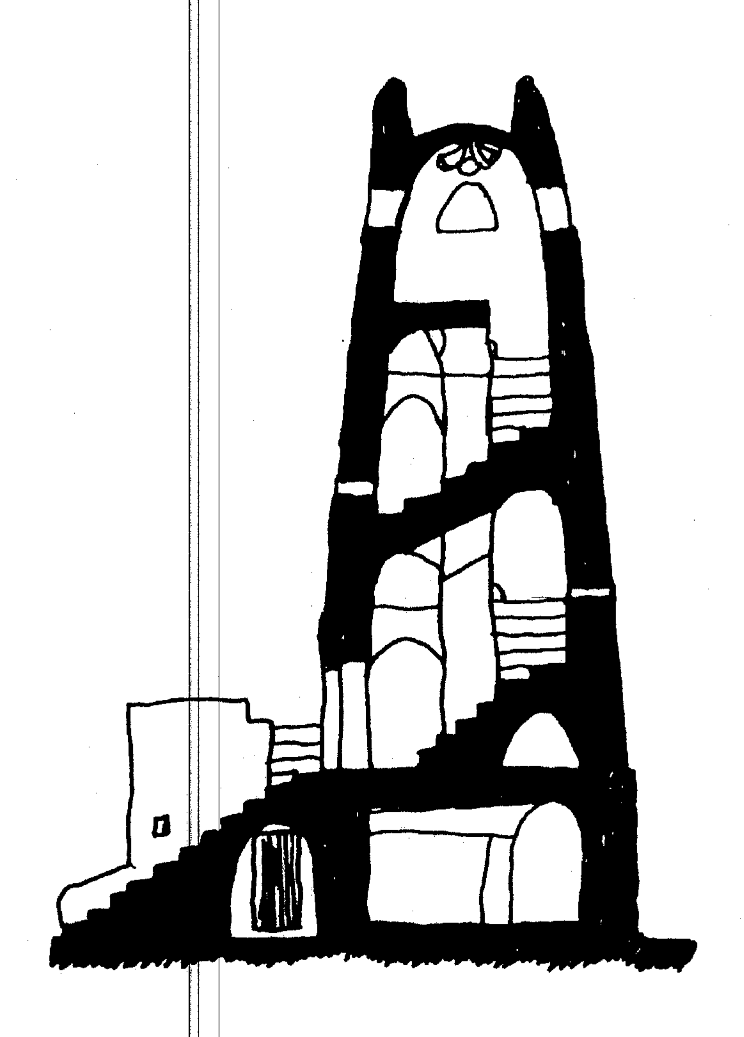
الشكل رقم 2 : مخطط مسجد بنورة القديم .

عن / ديوان وادي مزاب



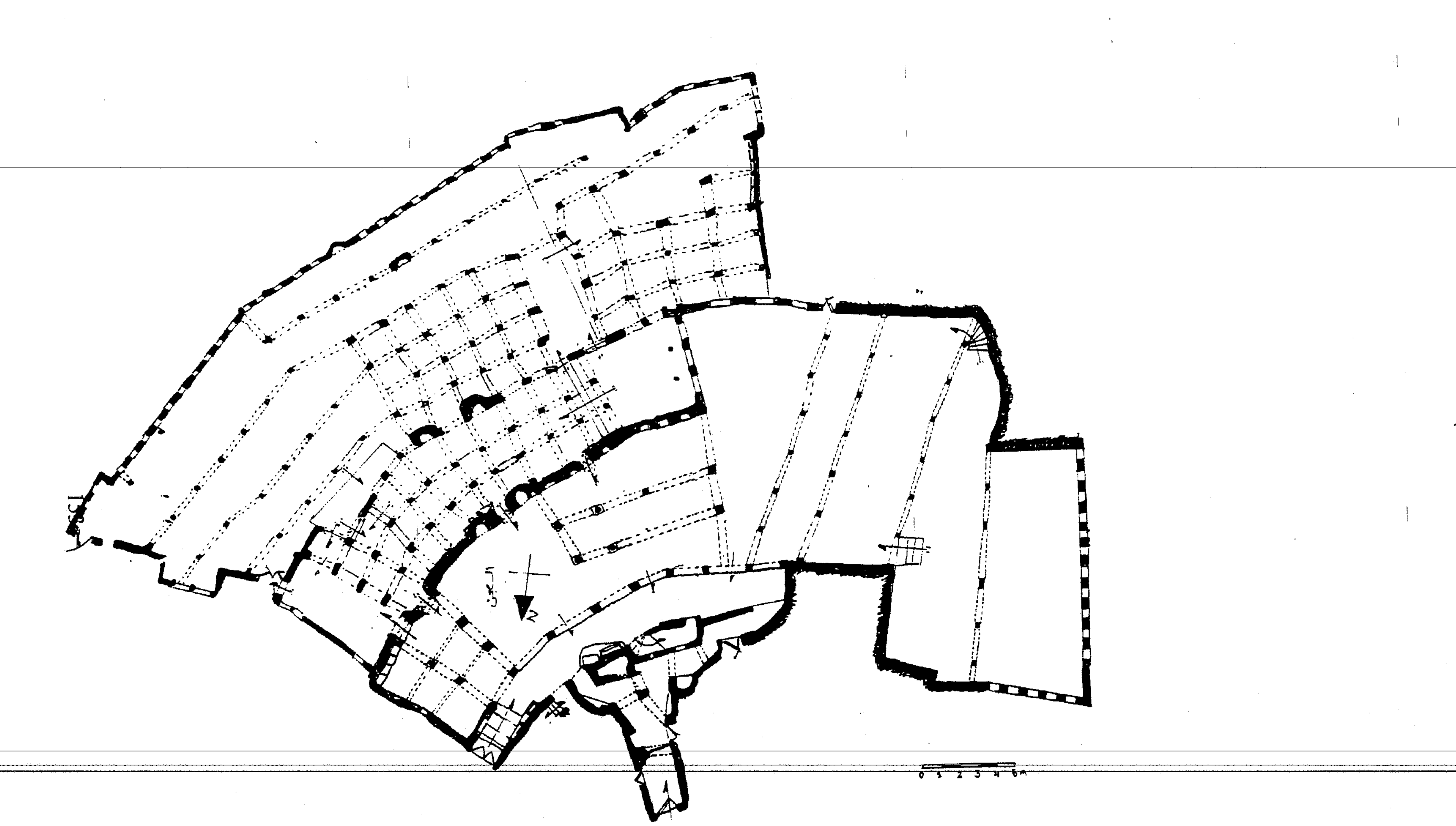
الشكل رقم 3 : مخطط عدة مئذنة مسجد بنورة القديم.

عن / ديوان وادي مزاب

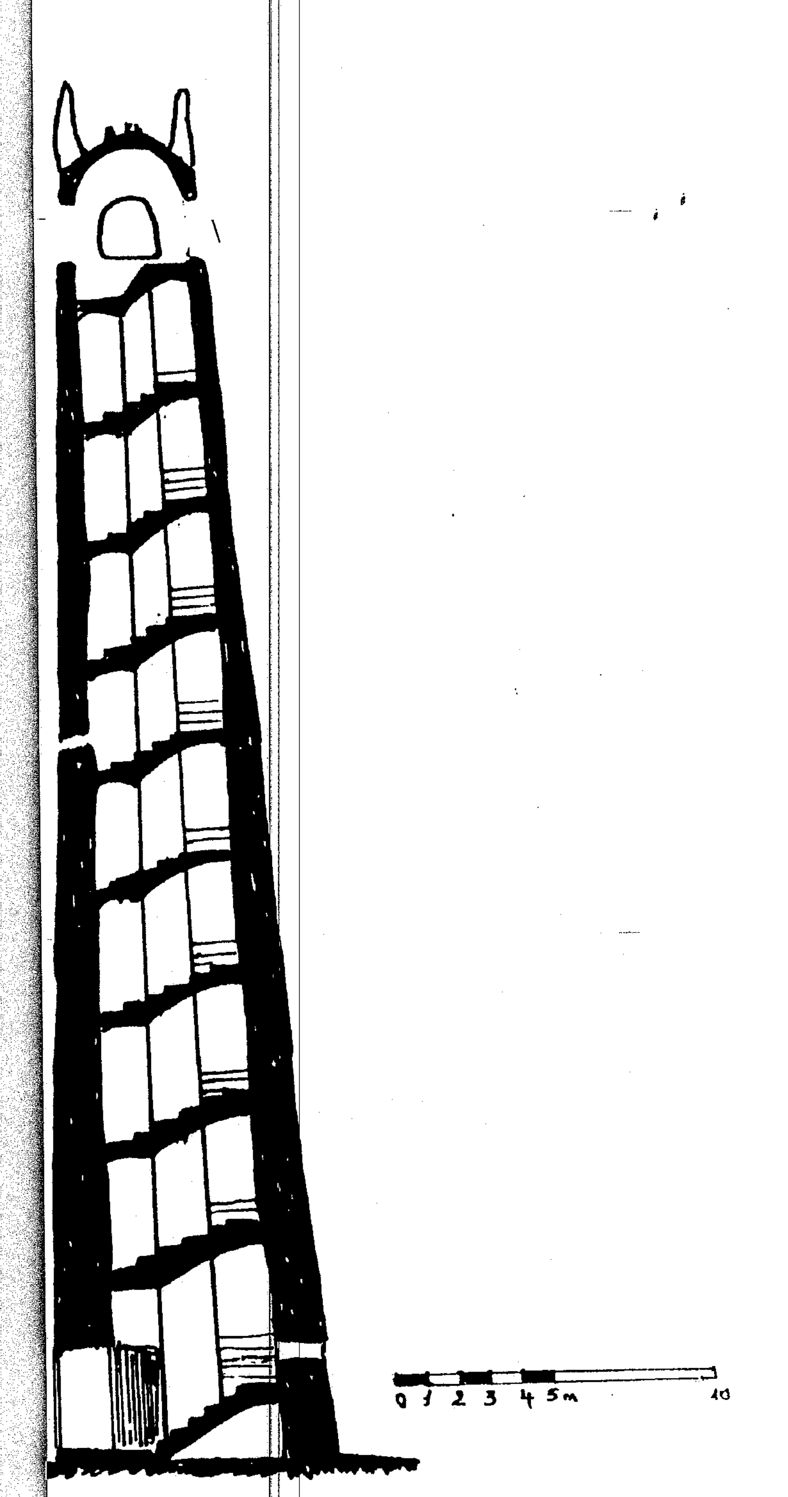


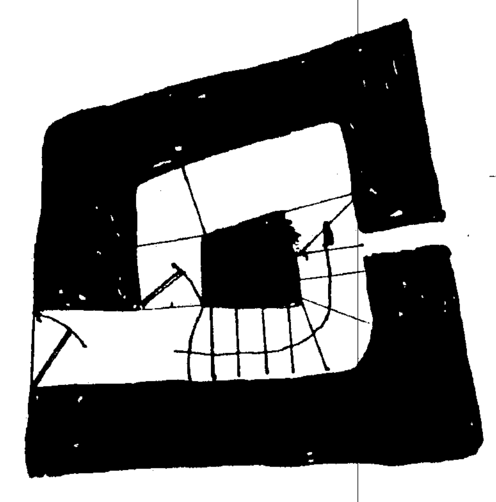
الشكل رقم 4 : مقطع مئذنة مسجد بنورة القديم

عن / ديوان وادي مزاب



الشكل رقم : 5 : مخطط مسجد غرداية العتيق.





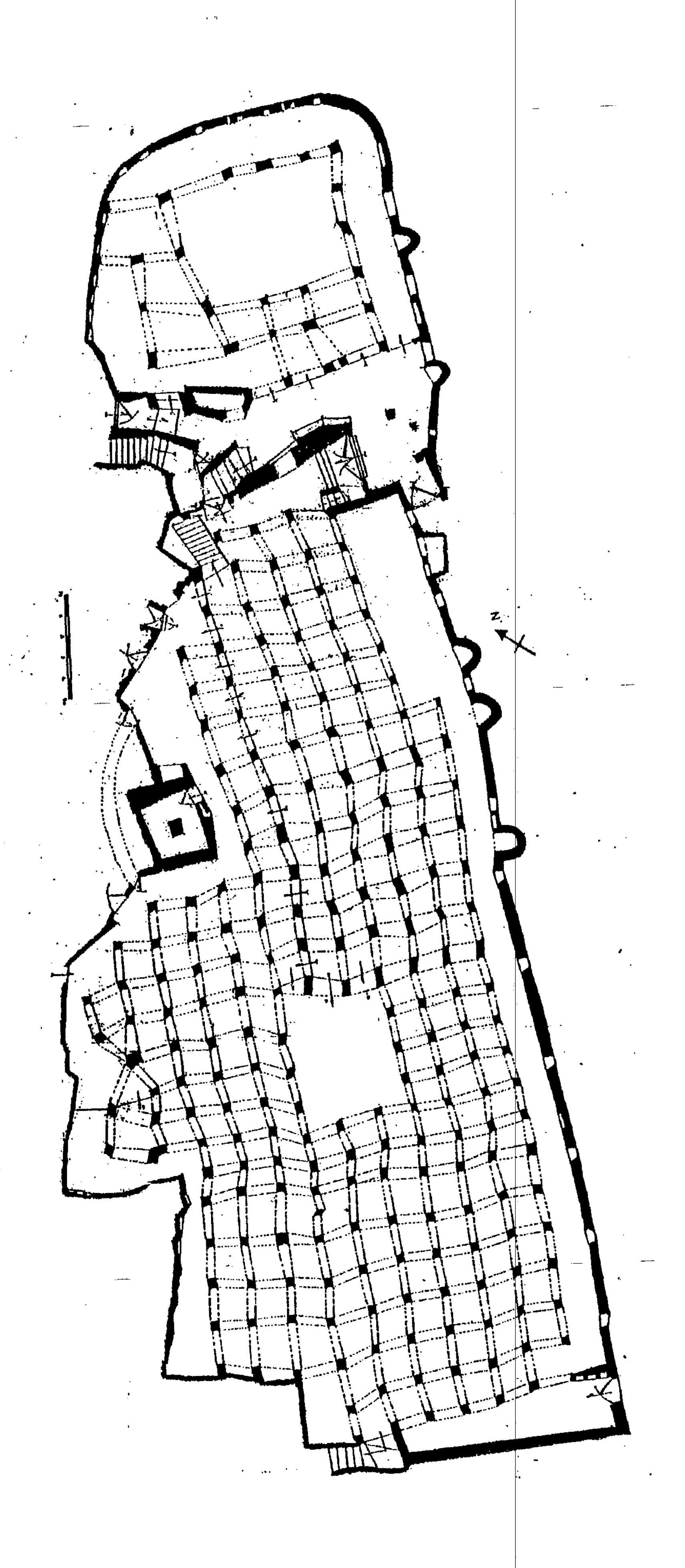
الشكل رقم 6 : مقطع طولي للمئذنة الكبيرة

بمسجد غرداية العتيق.

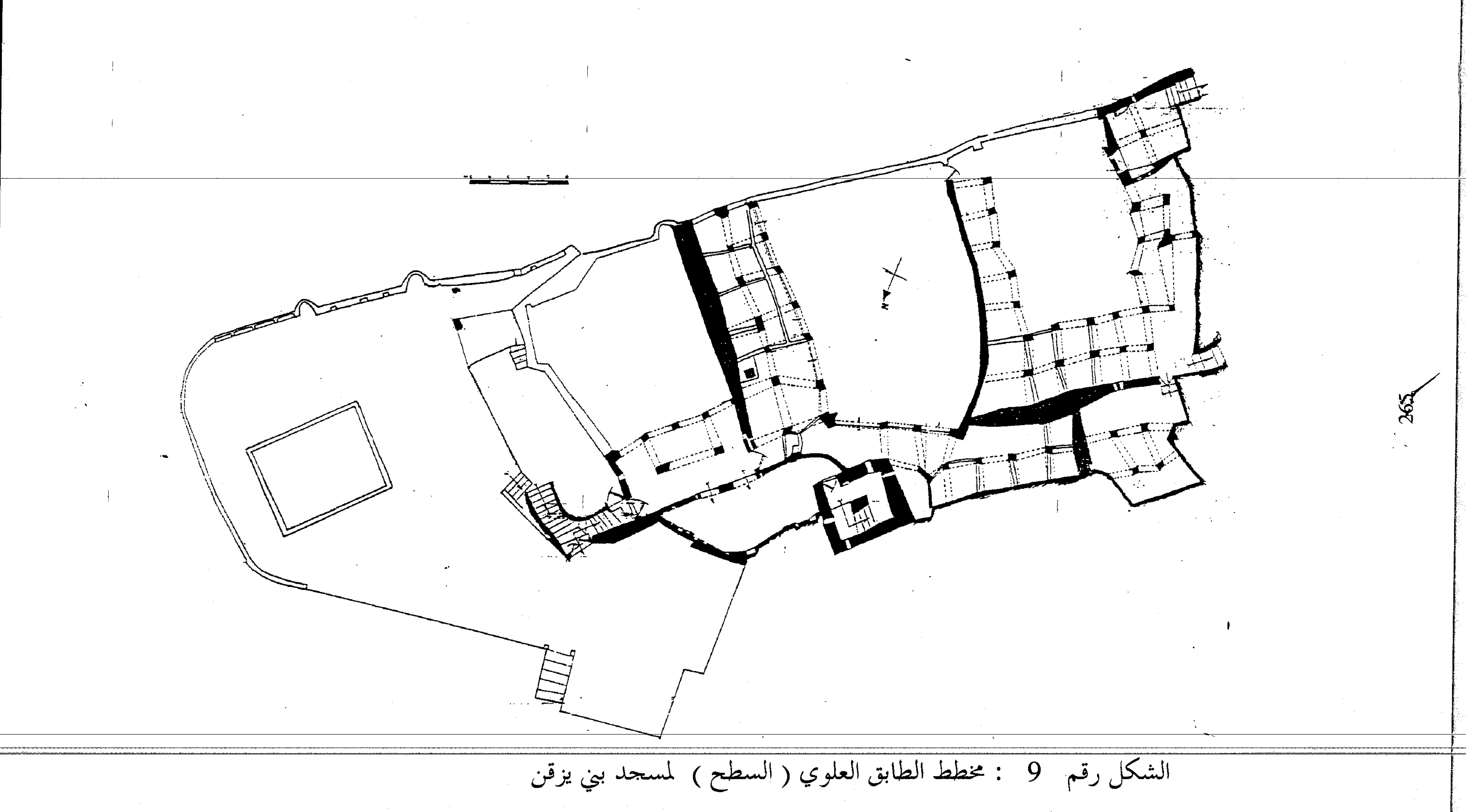
الشكل رقم : 7 : مقطع طولي لمئذنة

مسجد غرداية العتيق

بالتعاون مع ديوان مزاب



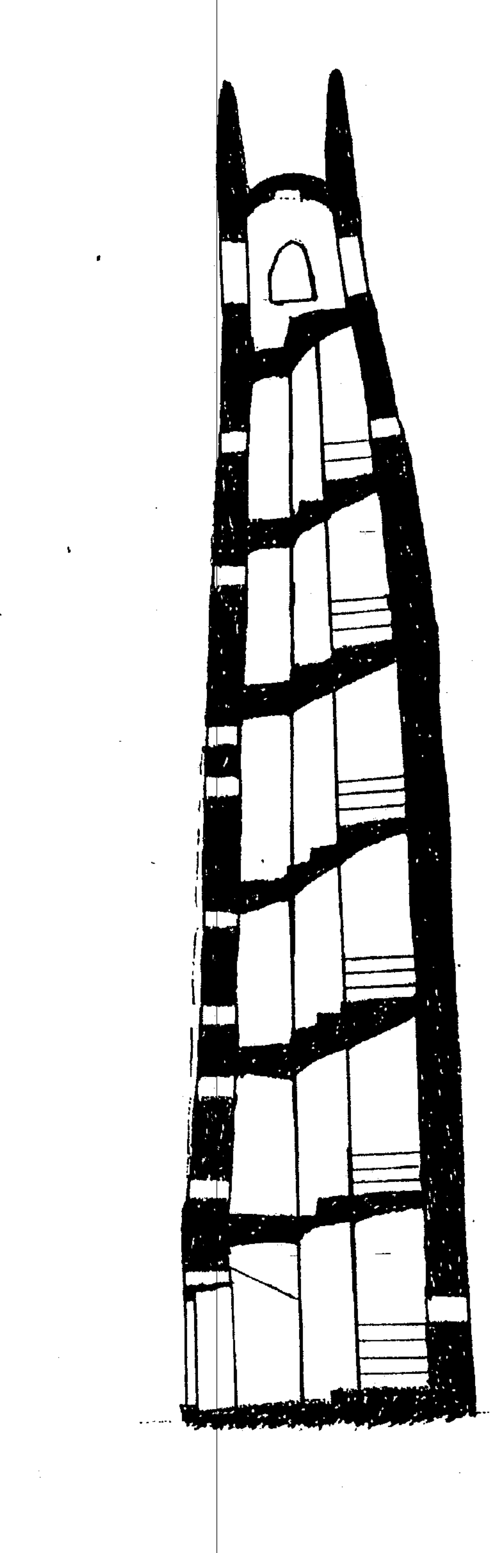
الشكل رقم 8 : مخطط الطابق الأرضي لمسجد بني يزقن



الشكل رقم 9 : مخطط الطابق العلوي (السطح) لمسجد بني يزقن

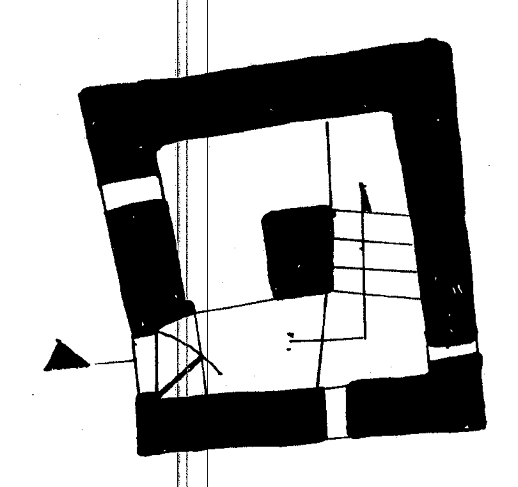


الشكل رقم 10 : مخطط بيت الصلاة الخاص بالنساء



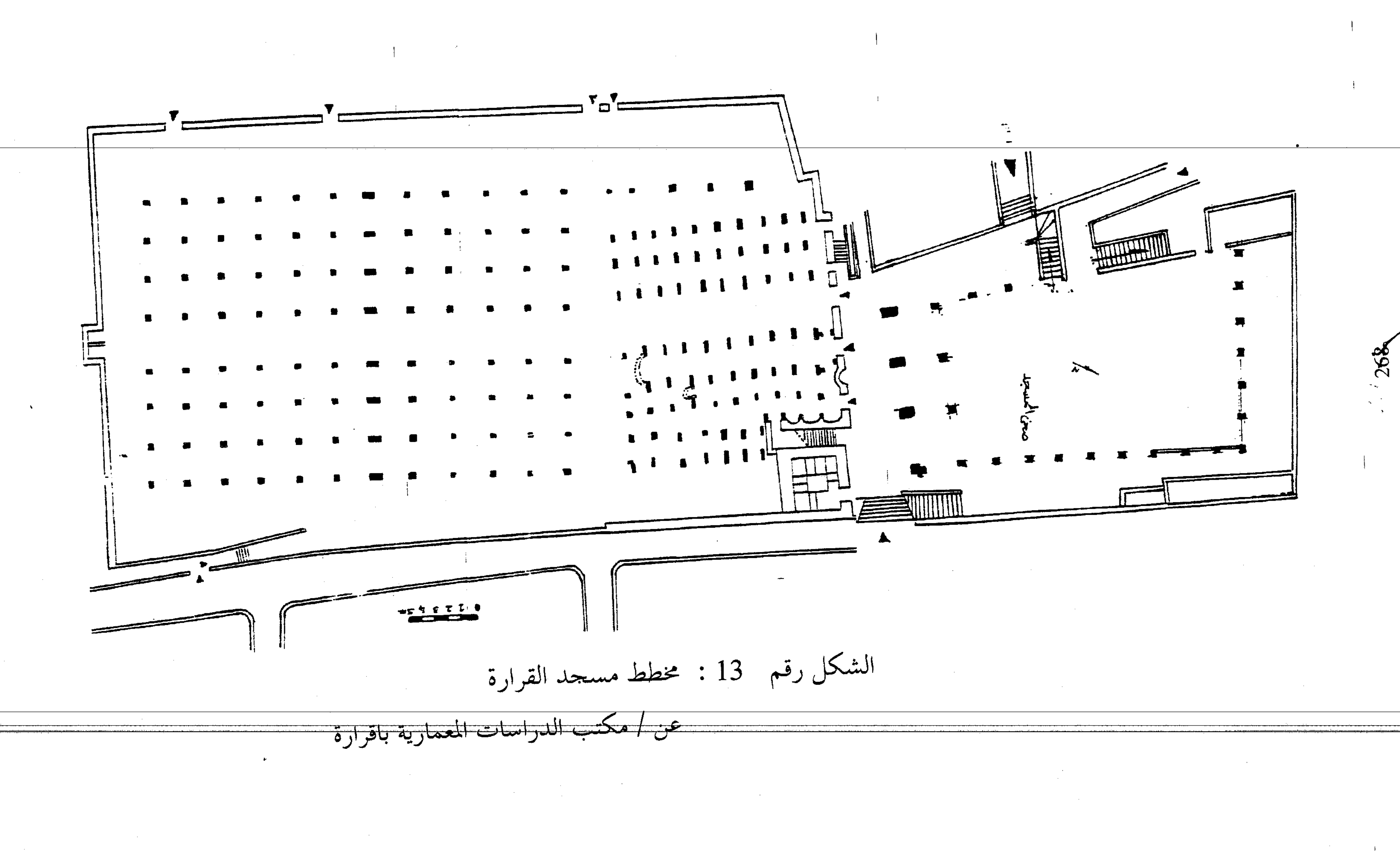
الشكل رقم 11 : مقطع مئذنة

مسجد بني يزقن



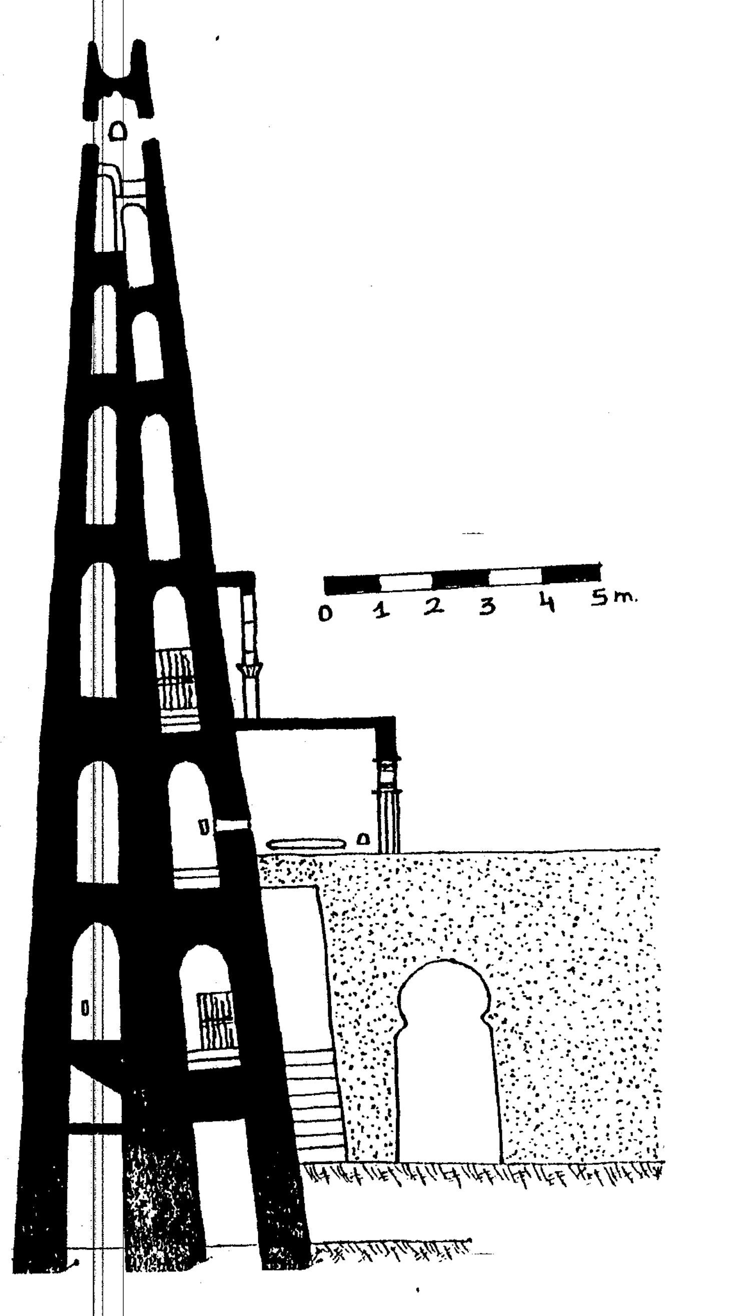
الشكل 12 : مخطط قاعدة مئذنة

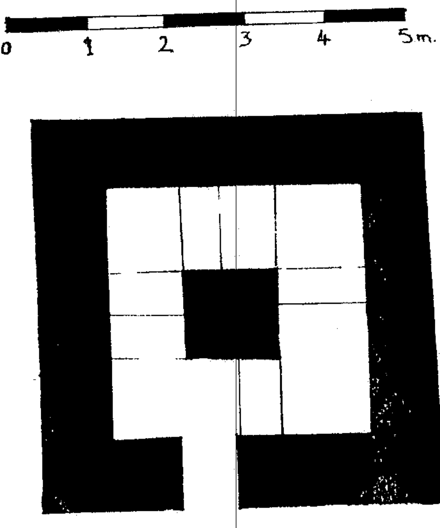
مسجد بني يزقن



الشكل رقم 13 : مخطط مسجد القرارة

عن / مكتب الدراسات المعمارية بالقرارة

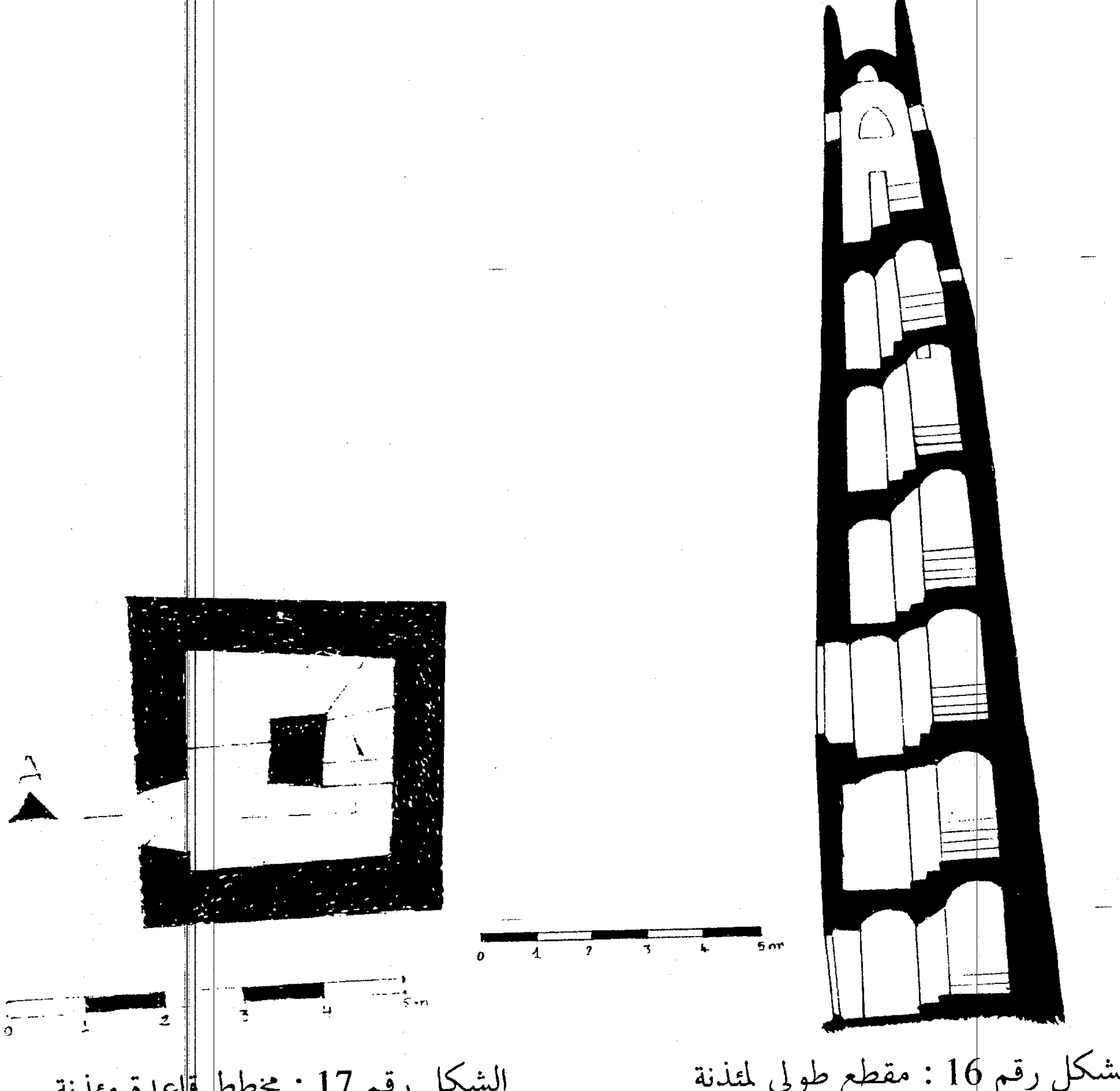




الشكل رقم 14 : مقطع عمودي لمئذنة
مسجد القرارة

الشكل رقم 15 : مخطط مئذنة
مسجد القرارة

عن / مكتب الدراسات المعمارية بالقرارة

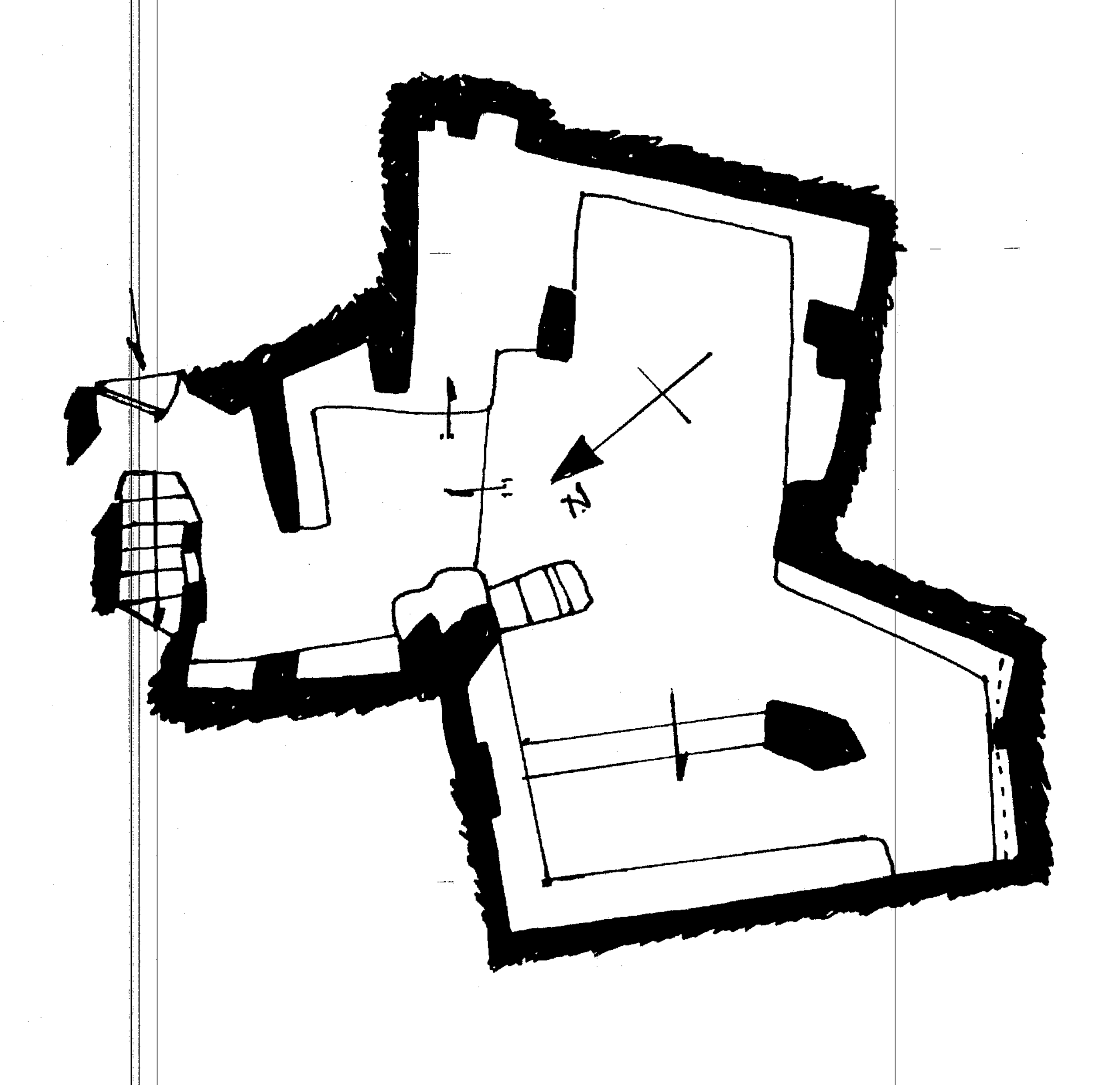


الشكل رقم 17 : مخطط قاعدة مئذنة

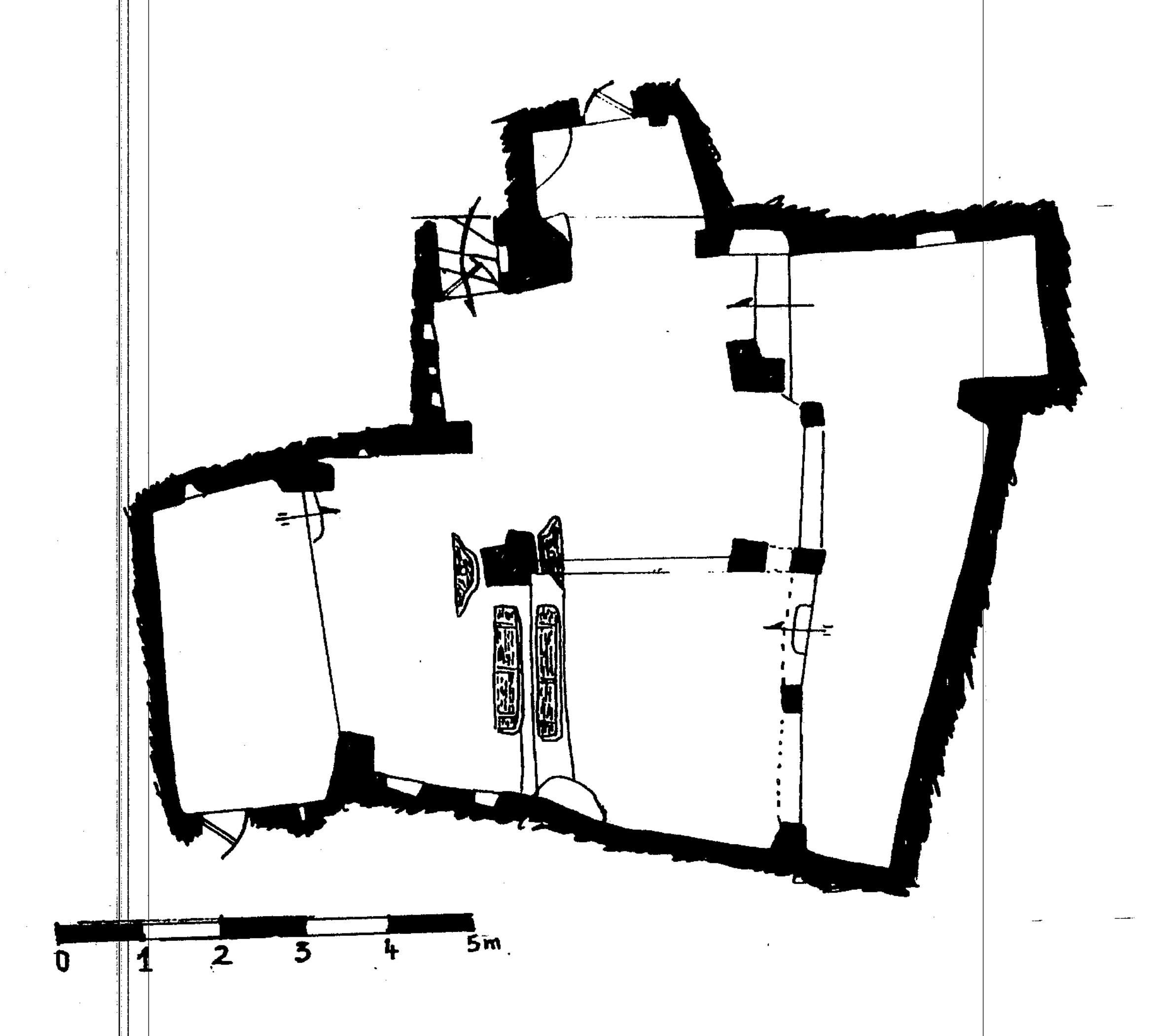
مسجد بريان

الشكل رقم 16 : مقطع طولي لمئذنة

مسجد بريان

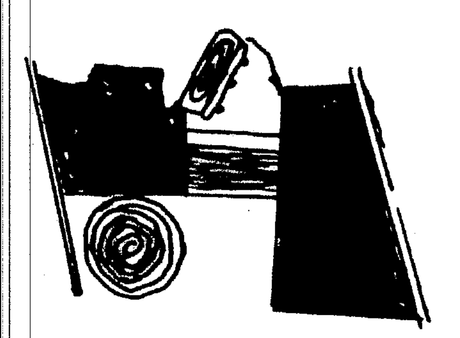
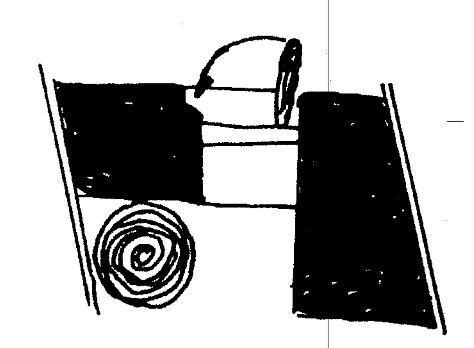
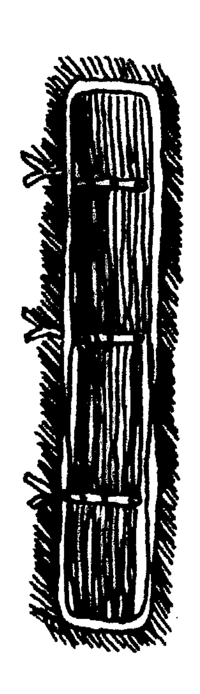
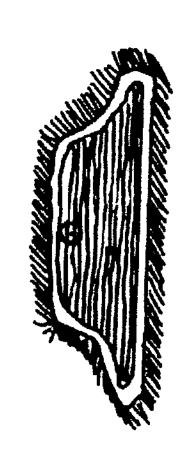


الشكل رقم 18 : مخطط الطابق الأرضي لمدرسة بلحسن بغرداية



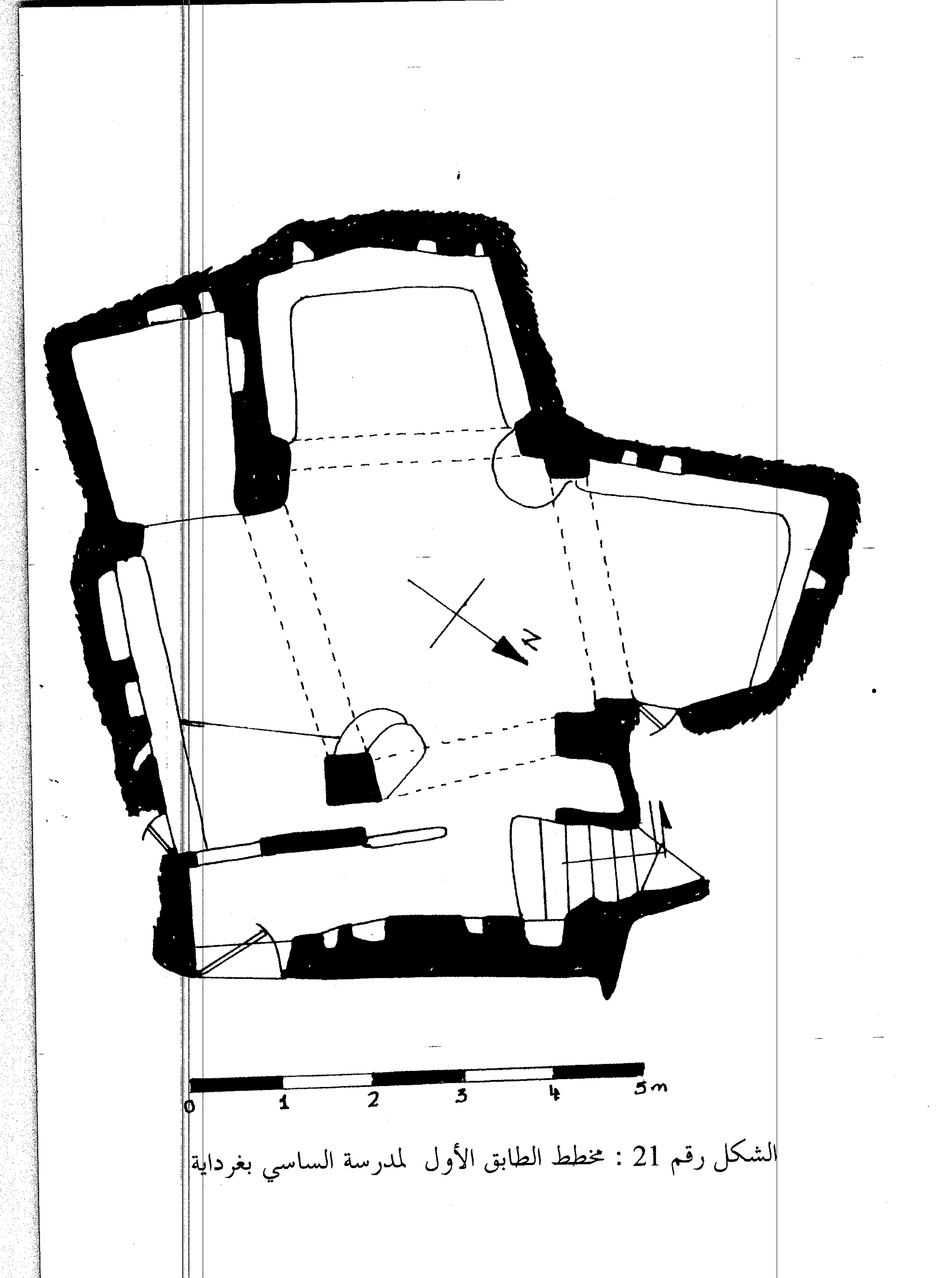
الشكل رقم 19 : مخطط الطابق العلوي لمدرسة بلحسن بغرداية

بالتعاون مع ديوان وادي مزاب

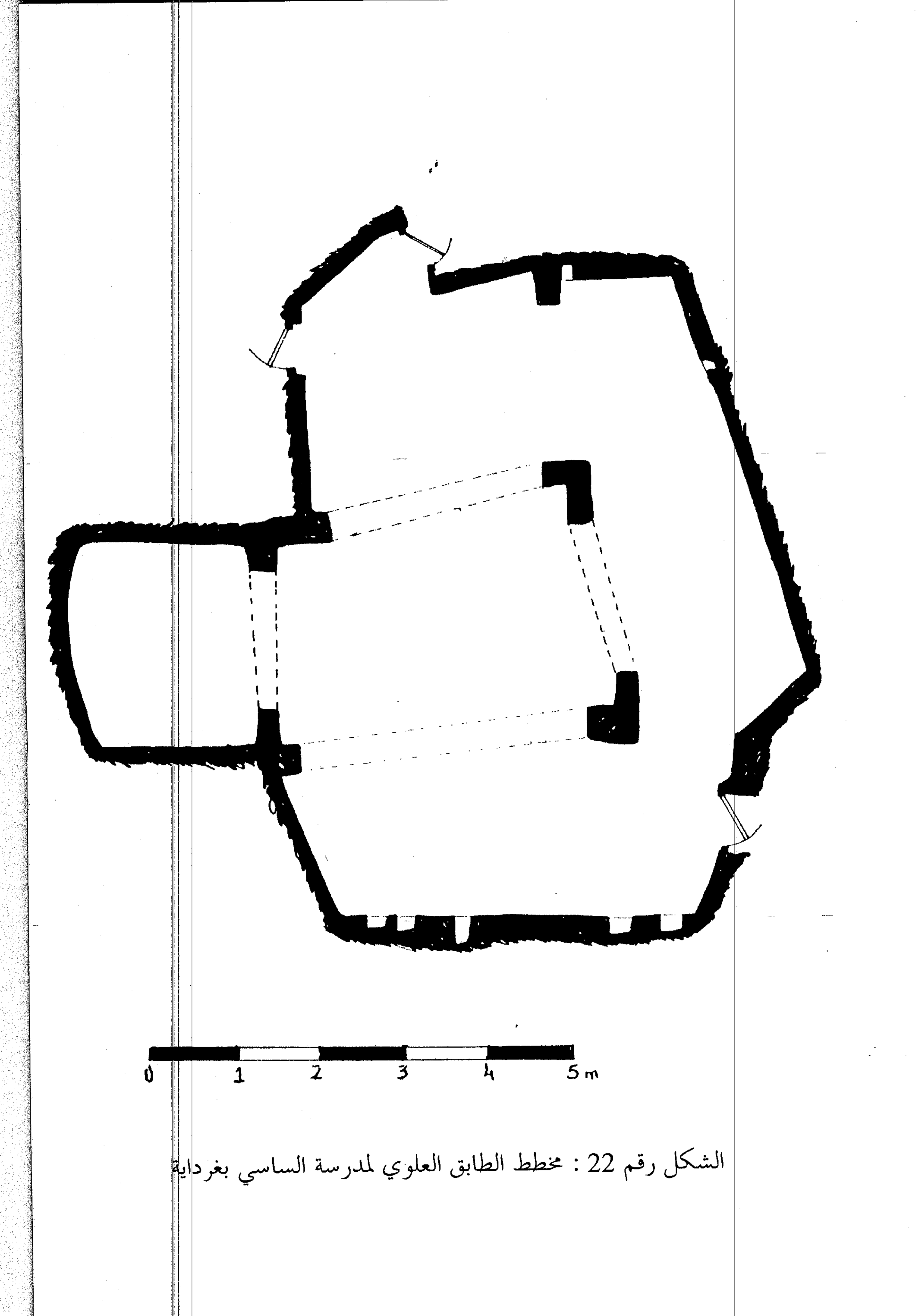





الشكل 20 : اغطية فتحات السقف في مدرسة بلحسن بفرداية

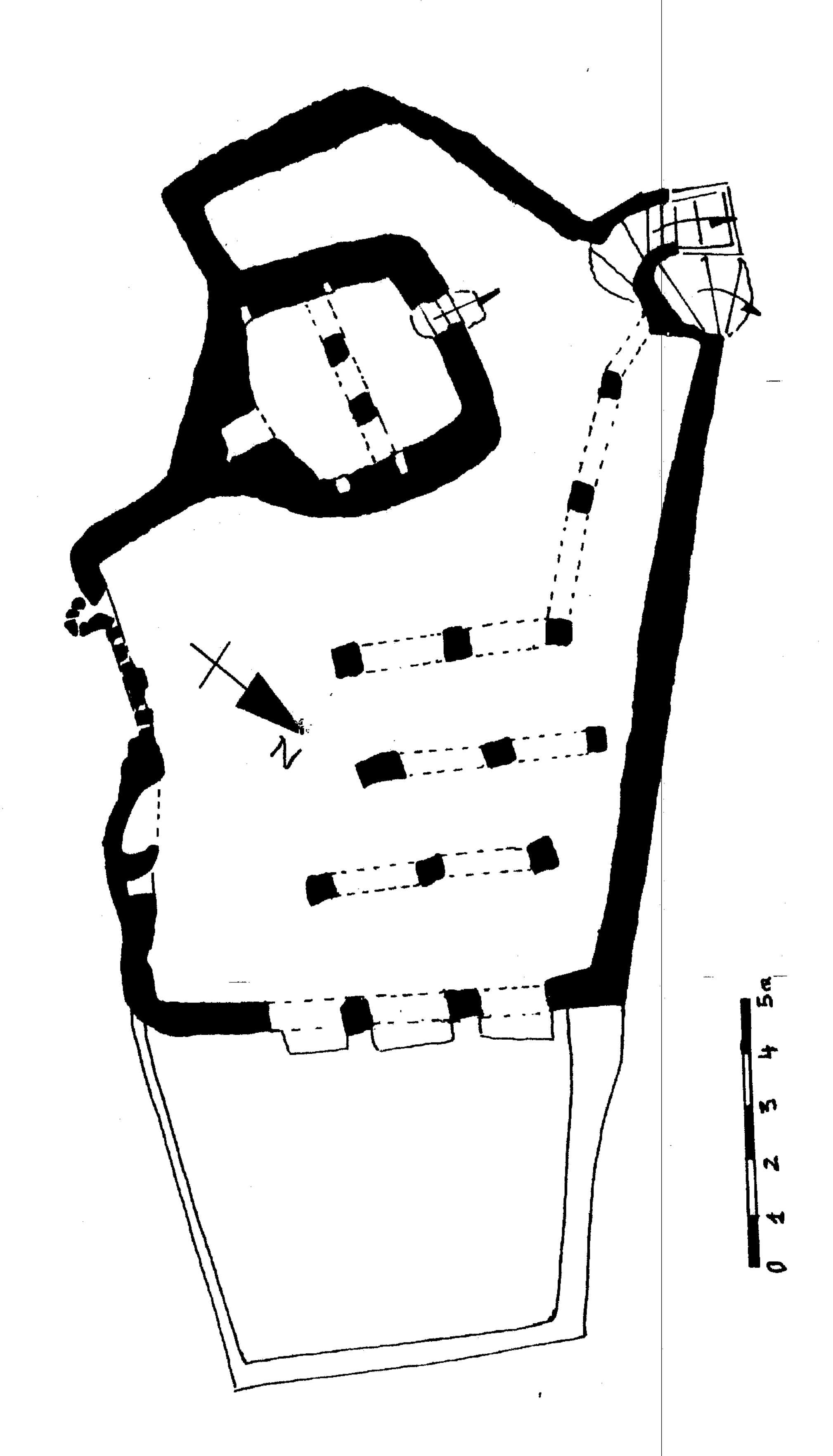
عن / ديوان وادي مزاب



الشكل رقم 21 : مخطط الطابق الأول لمدرسة الساسي بغرداية

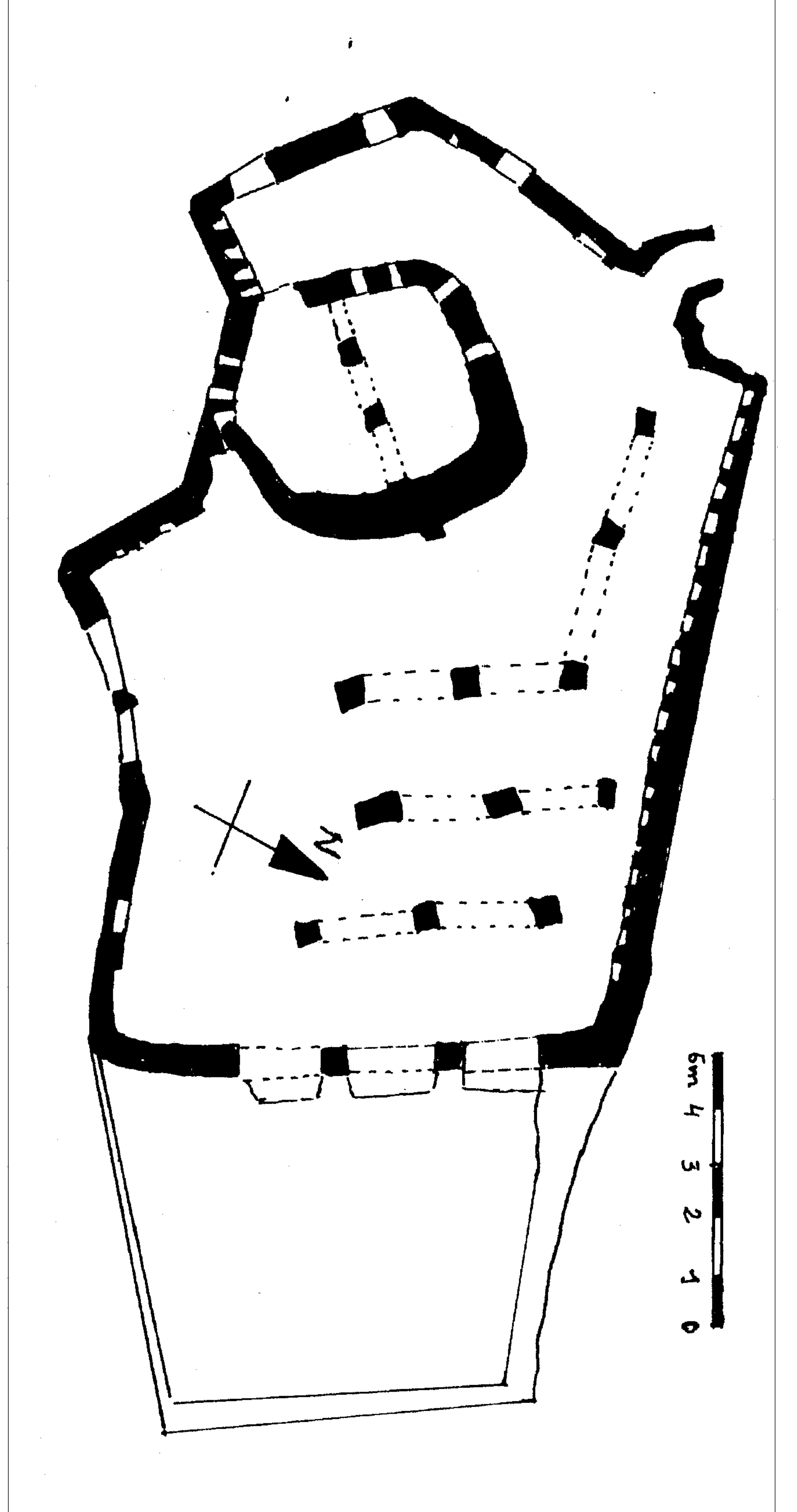


الشكل رقم 22 : مخطط الطابق العلوي لمدرسة الساسي بغرداية



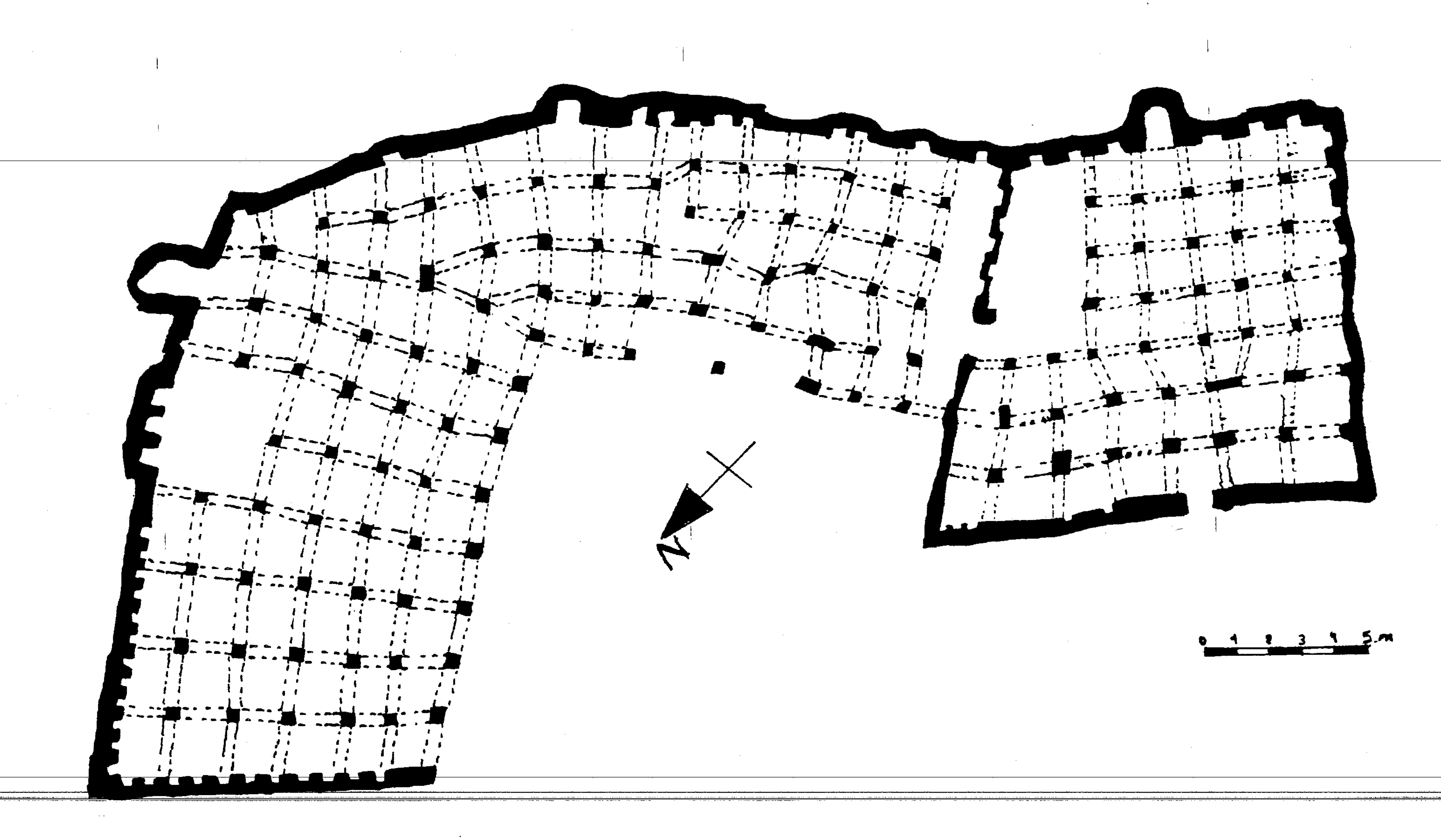
الشكل رقم 23 : مخطط الأول للمصلّى الجنلئزي عمّي إبراهيم بمدينة العطف

عن / ديوان وادي مزاب



الشكل رقم 24 :المخطط الثاني للمصلّى الجنائزي عمّي | إبراهيم بالعطف .

عن / ديوان وادي مزاب



الشكل رقم 25 : مخطط للمصلى الجنائزي بامحمد بمدينة بني يزقن

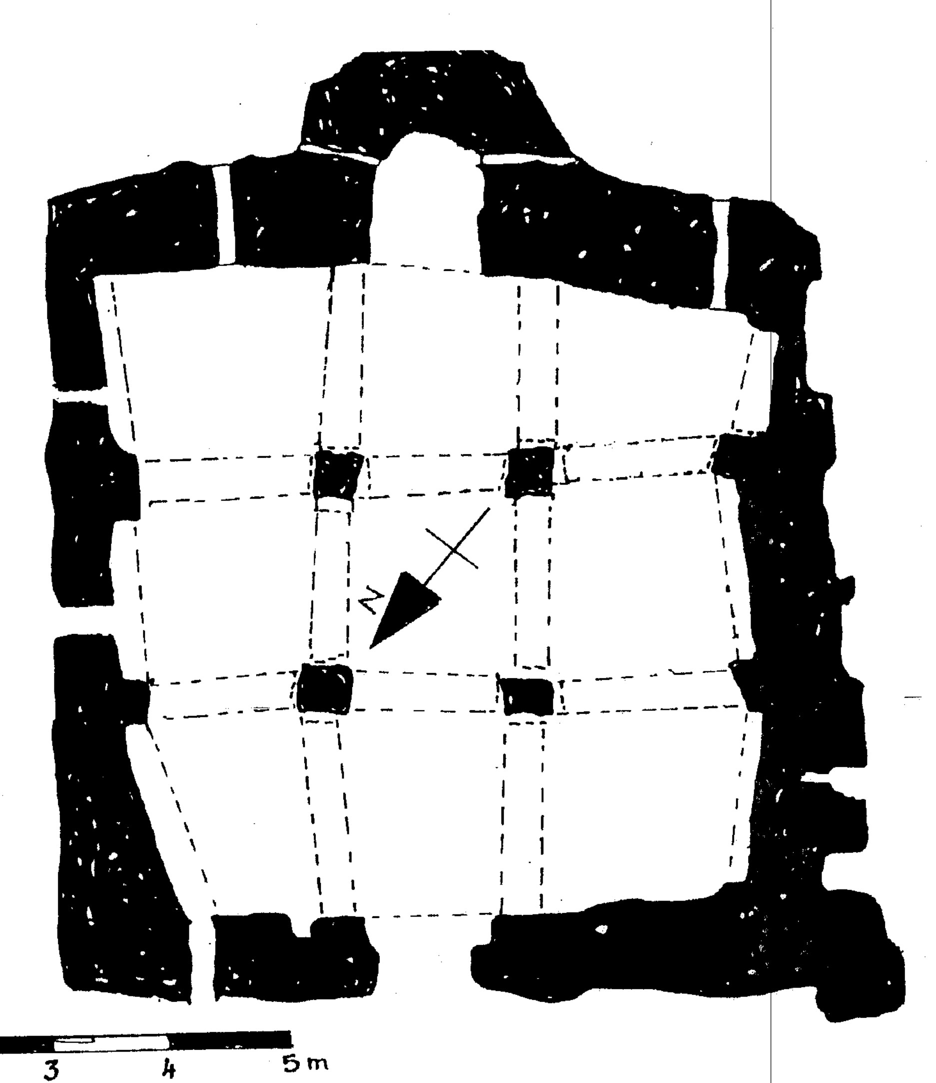
بالتعاون مع ديوان وادي مزاب

N

0 1 2 3 4 5m.

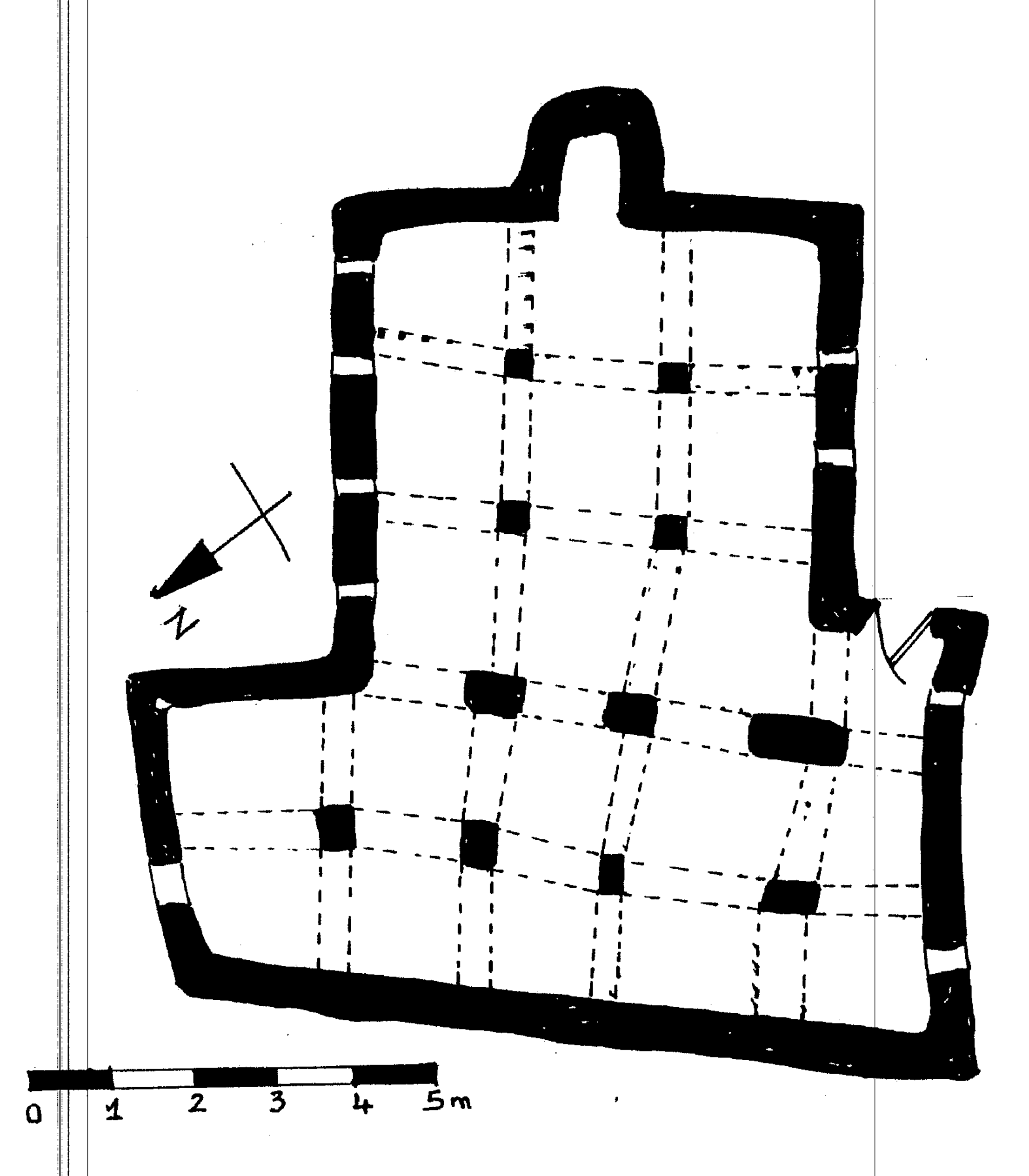
الشكل رقم 26 : مخطط المصلى الجنائزي عمي سعيد بغرداية

عن / ديوان وادي مزاب

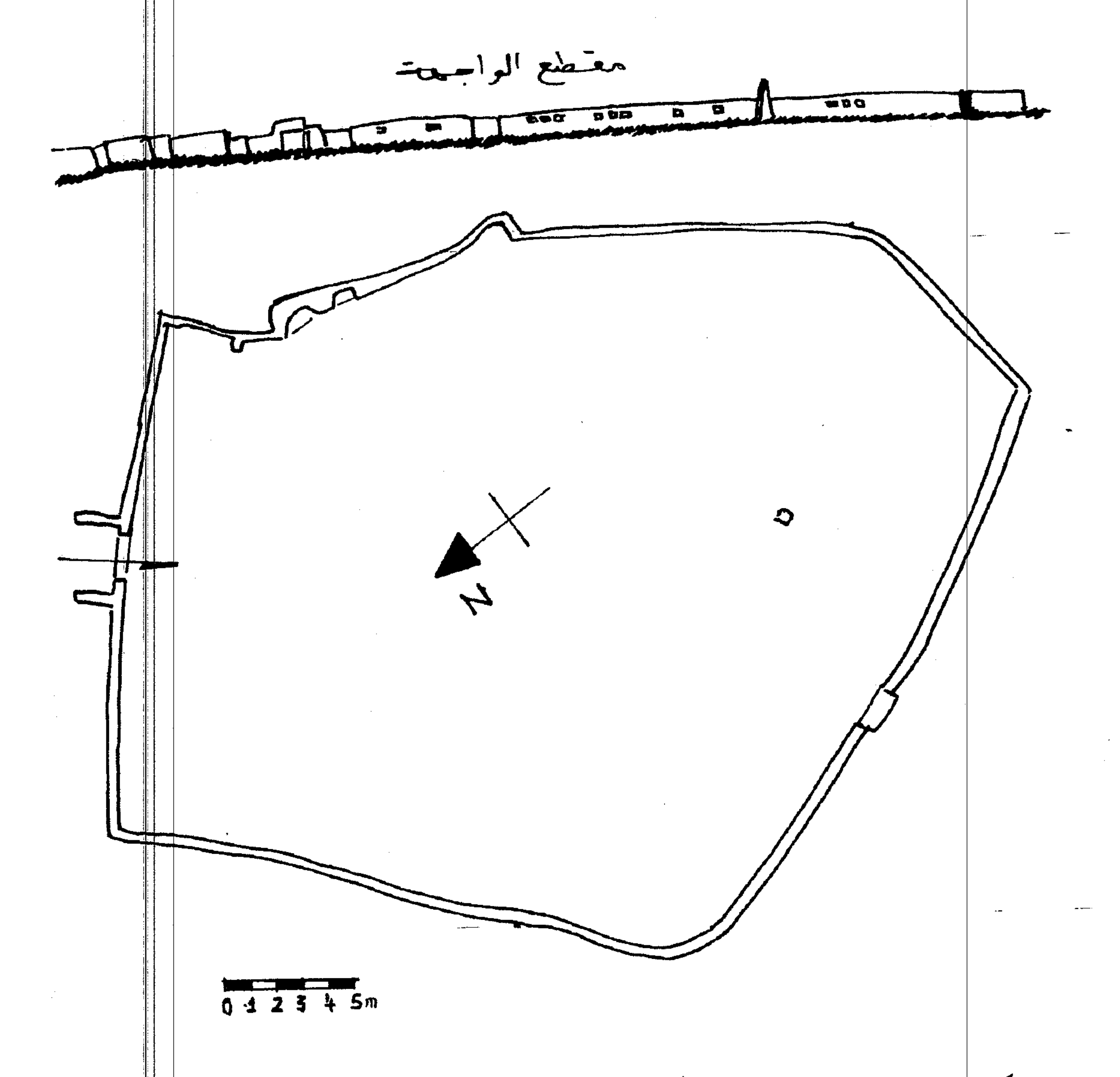


الشكل رقم : 27 : مخطط بيت الصلاة في المصلّى الجنائزي عمّي سعيد .

عن / ديوان وادي مزاب



الشكل رقم 28 : مخطط المصلّى الجنائزي بابه والجمّة بغرداية



الشكل رقم 29 : مخطط المصلّى الجنائزي الأول الشيخ بالحاج ببني يزقن

عن / ديوان وادي مزاب

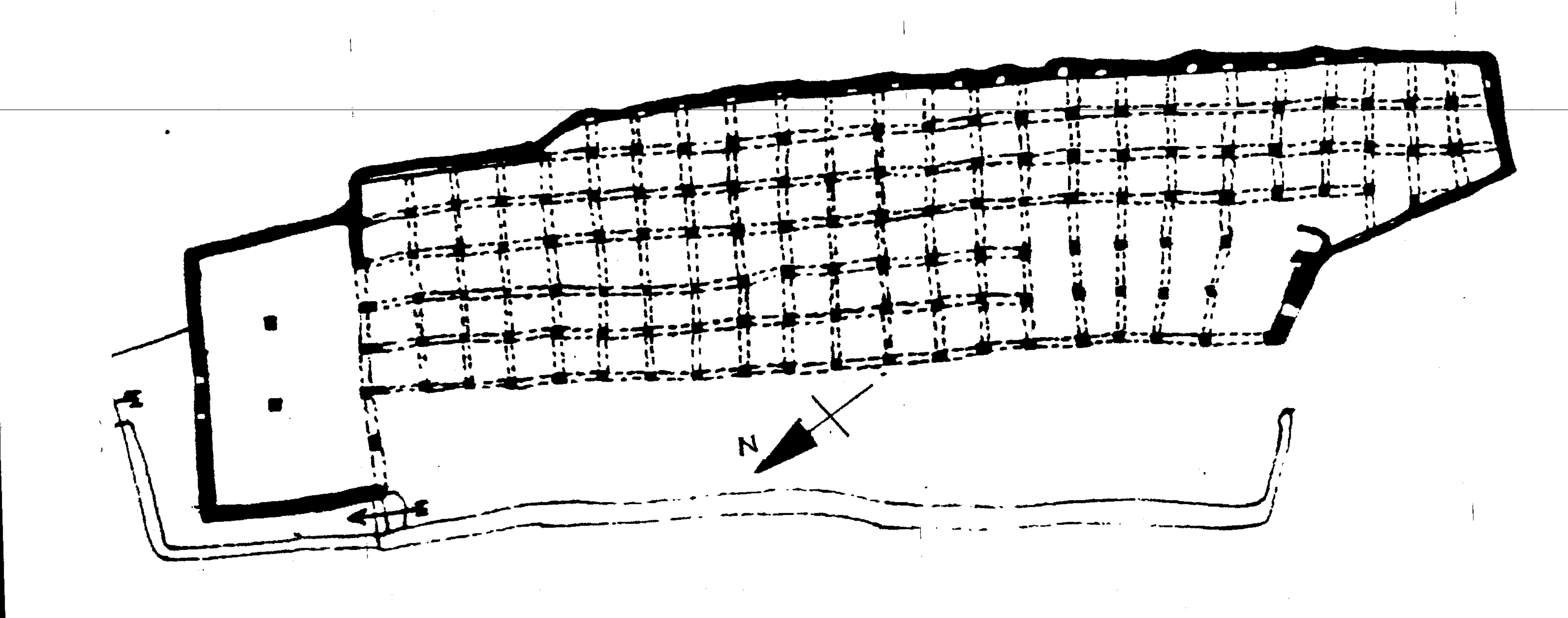
مقطع الواجهة

N

0 1 2 3 4 5 m

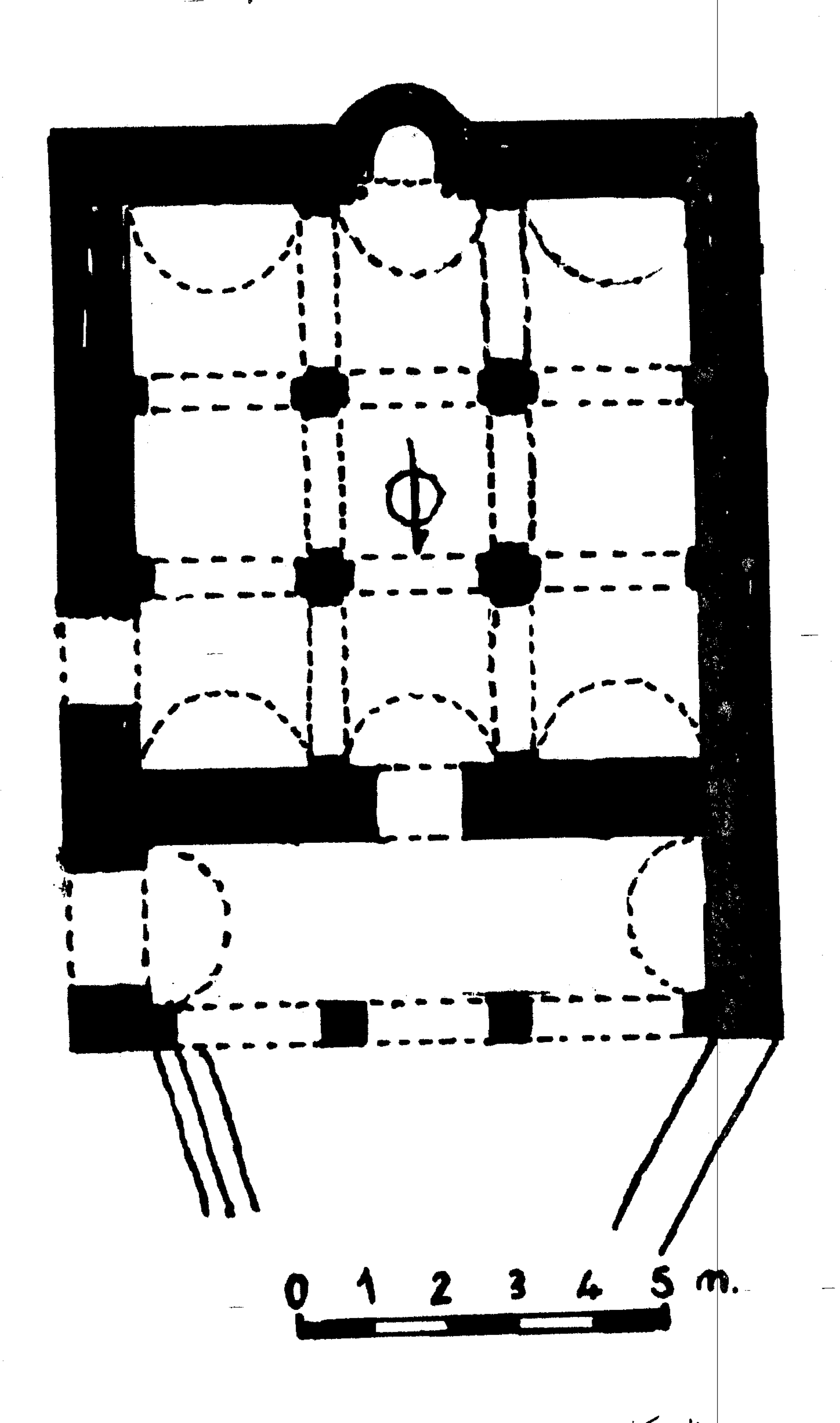
الشكل رقم : 30 : المصلى الجنائزي الثاني الشيخ بالحاج ببني يزقن

بالتعاون مع ديوان وادي مزاب



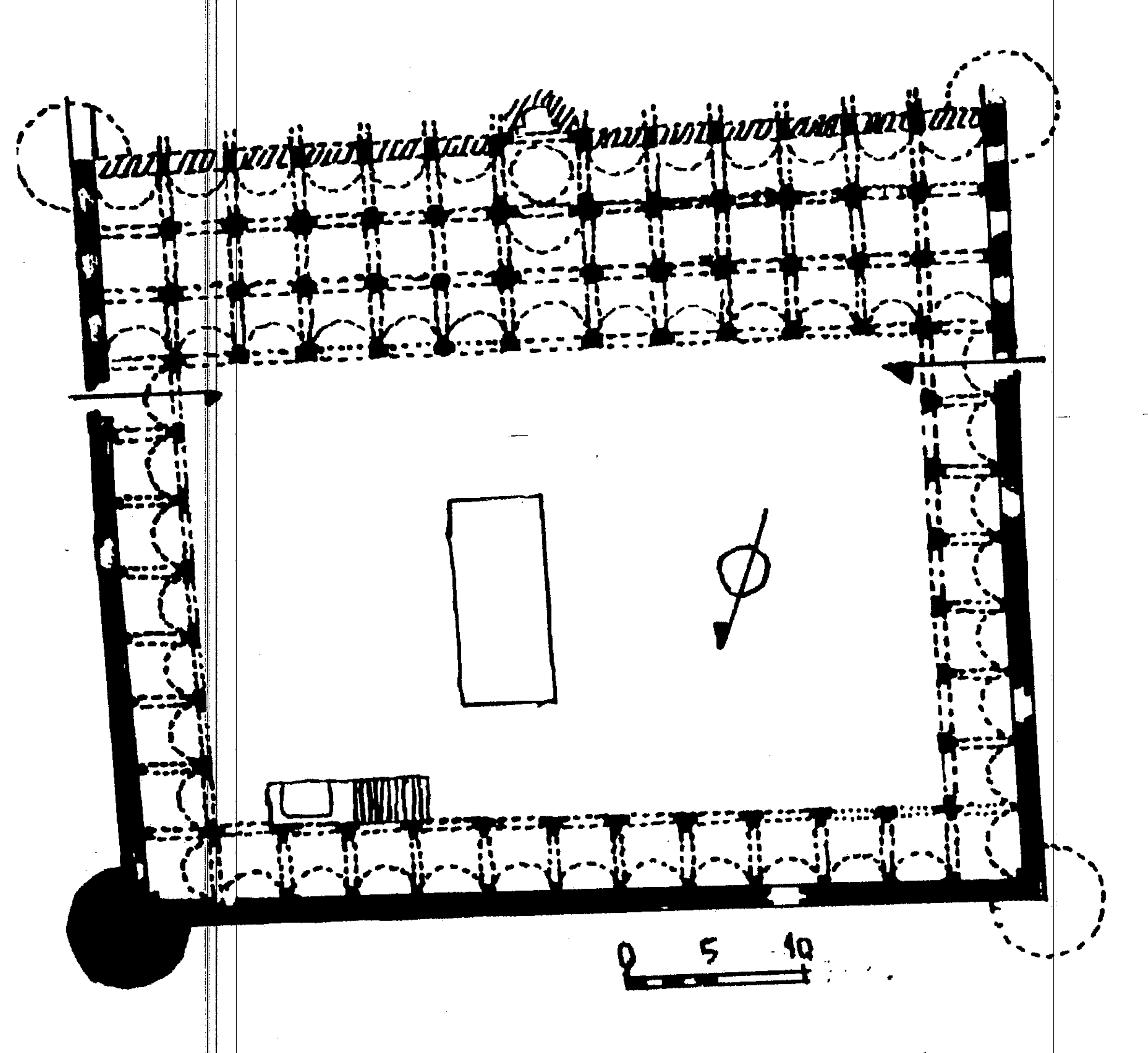
الشكل رقم : 31 : مخطط المصلى الجنائزي باسه وفضل ببني يزقن

عن / ديوان وادي مزاب



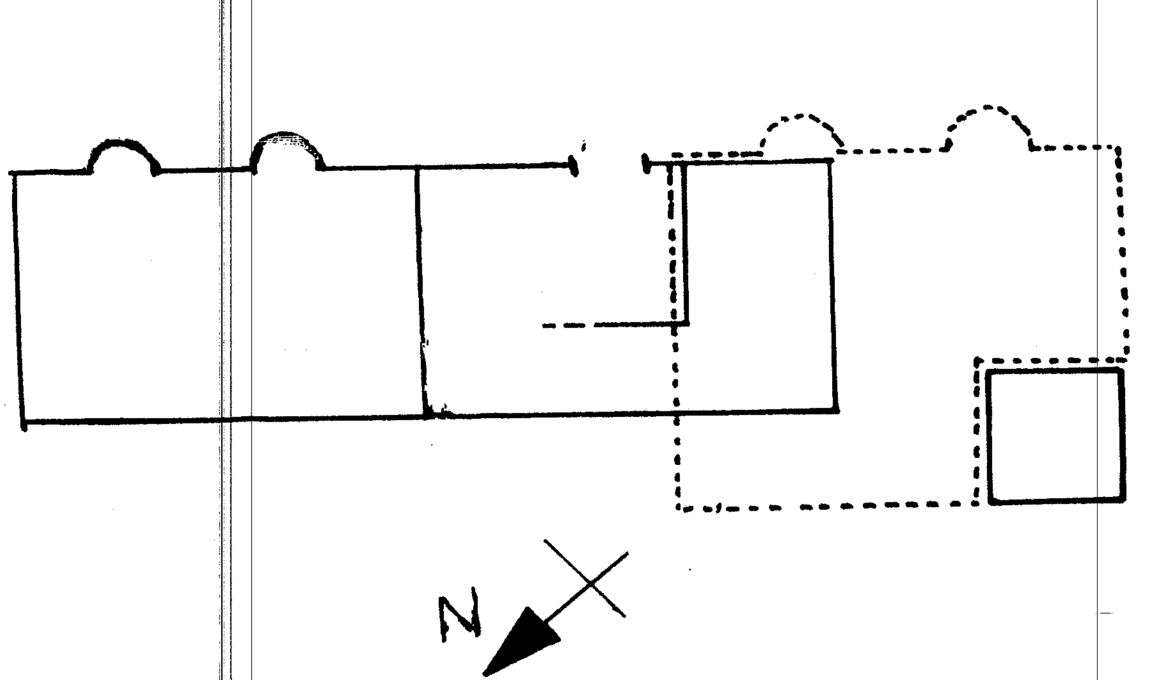
الشكل رقم 32 : مخطط مسجد أبي فتاتة بمدينة سوسة

D'après / L . Golvin : Essai sur l'Architecture .....p : 211



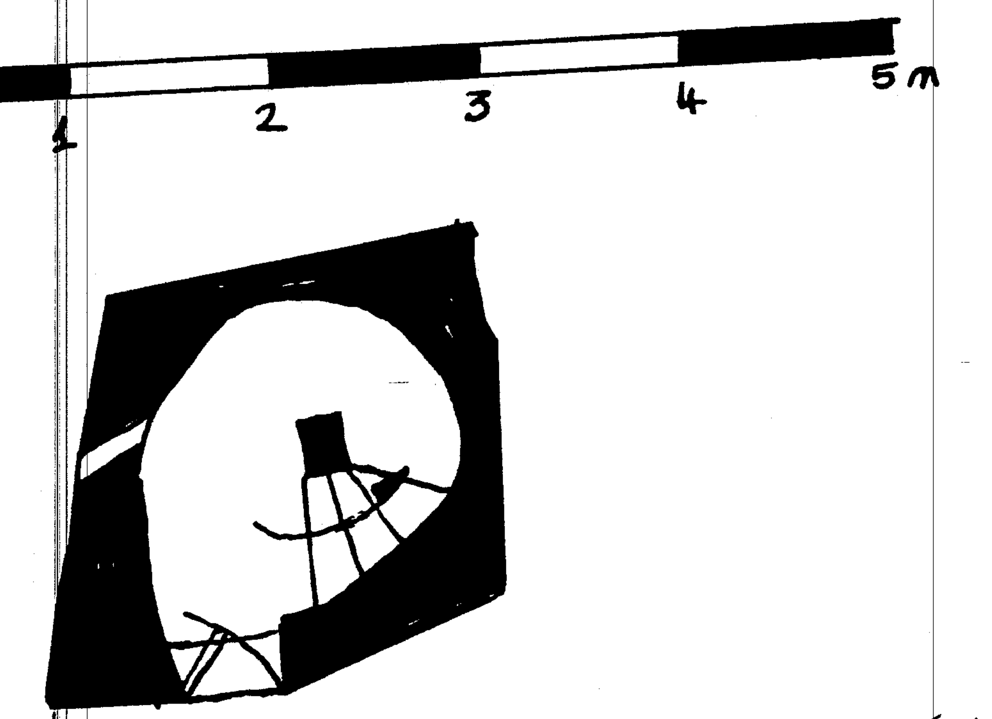
الشكل رقم 33 : مخطط الجامع الكبير بمدينة سوسة

D'après / L . Golvin : Essai sur l'Architecture .....p : 213

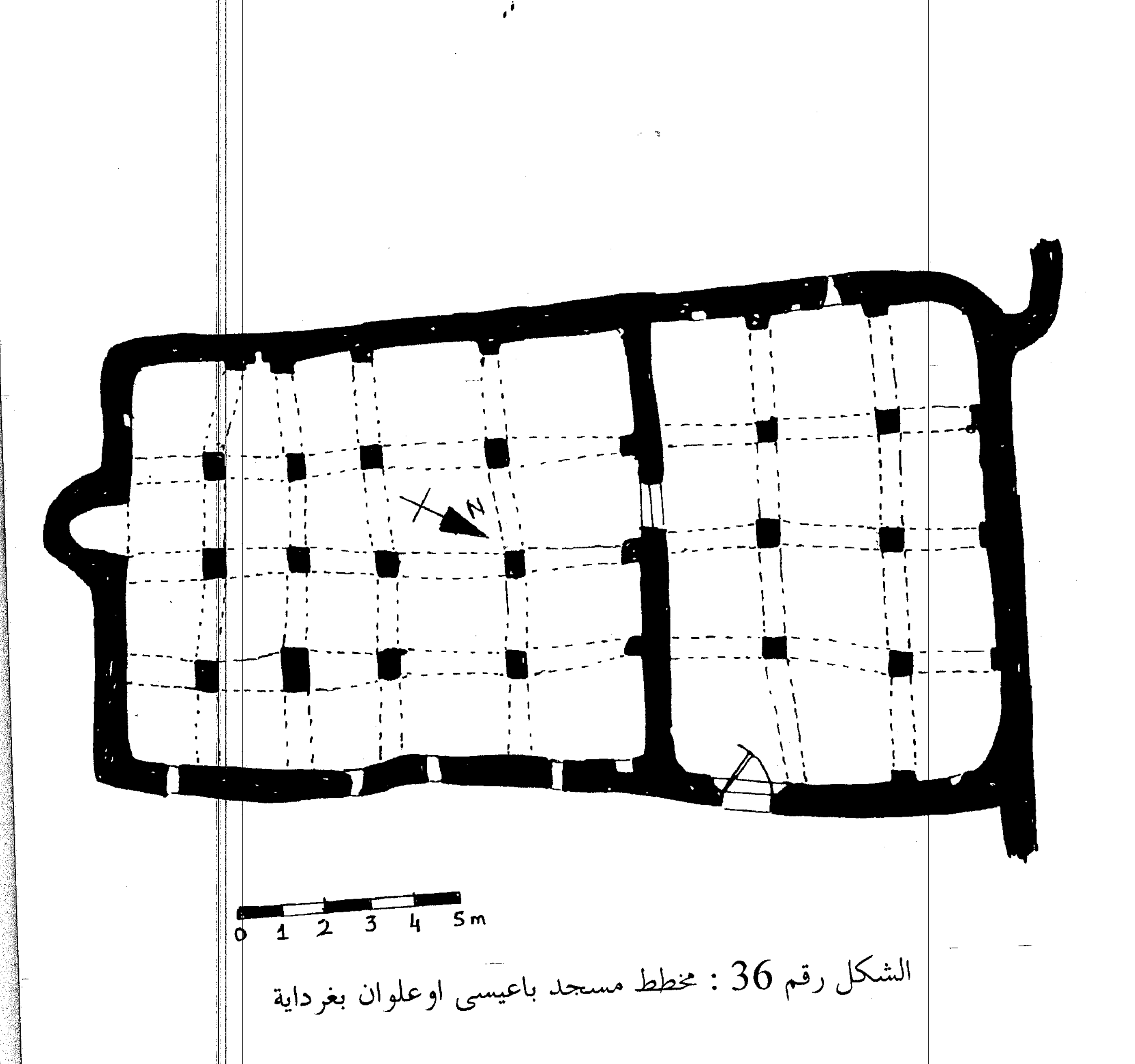


الشكل رقم 34 : مخطط مسجد بني يزقن

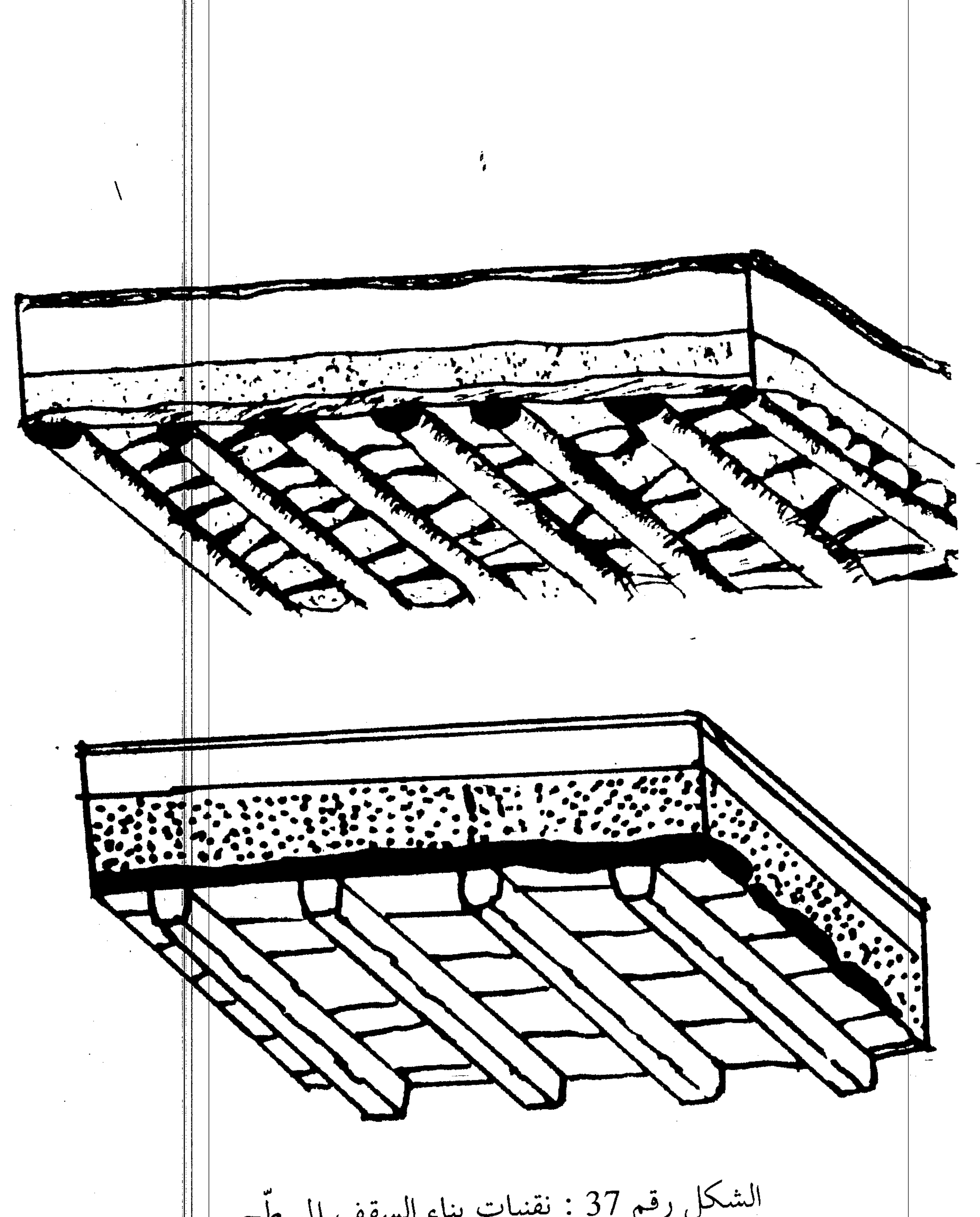
عن / J . Schacht : Notes Mozabites , p :



الشكل رقم 35 : مقطع طولي للمئذنة الصغيرة بمسجد غرداية العتيق

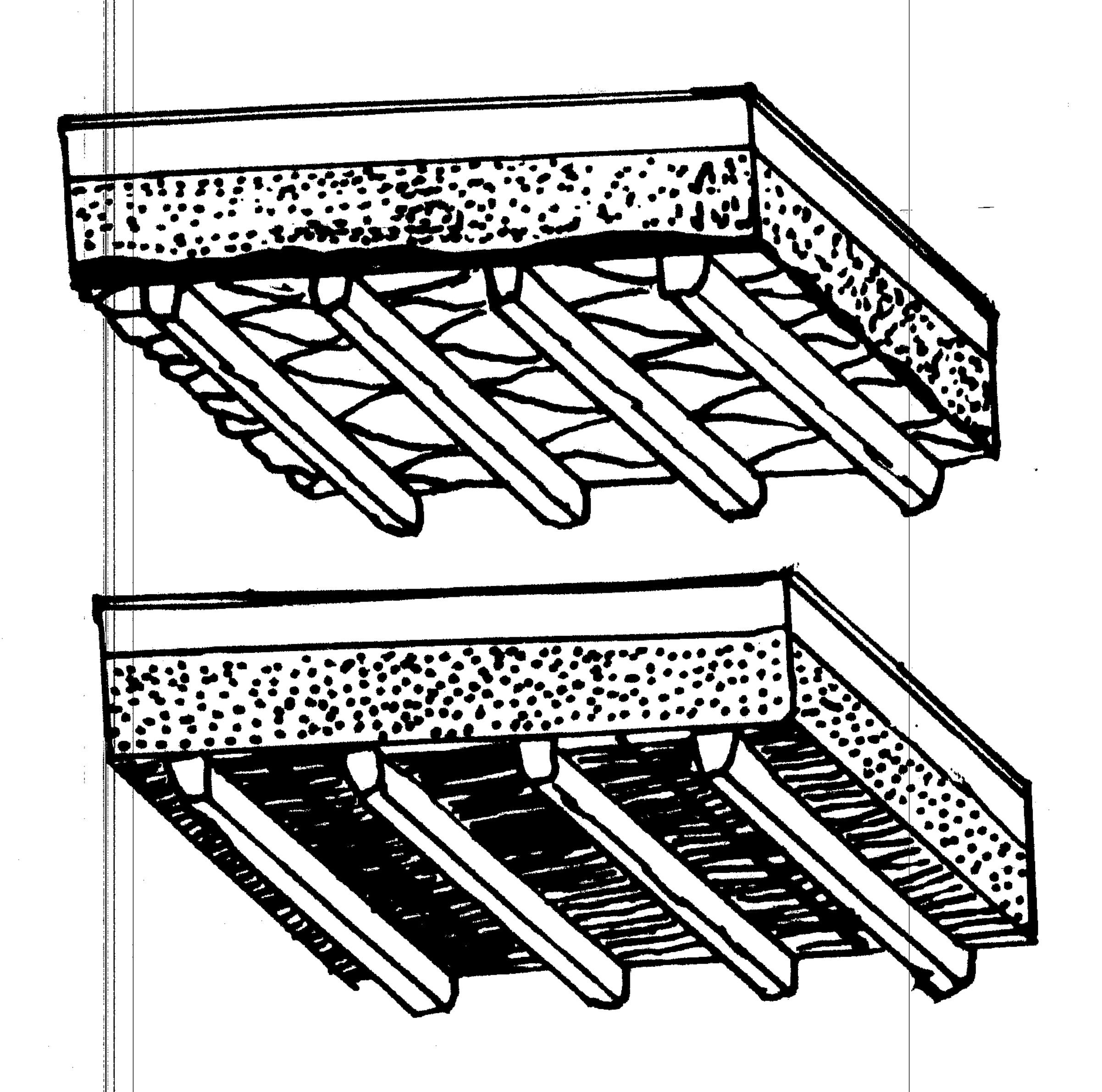


الشكل رقم 36 : مخطط مسجد باعيسى اوعلوان بغرداية



الشكل رقم 37 : تقنيات بناء السقف المسطّح

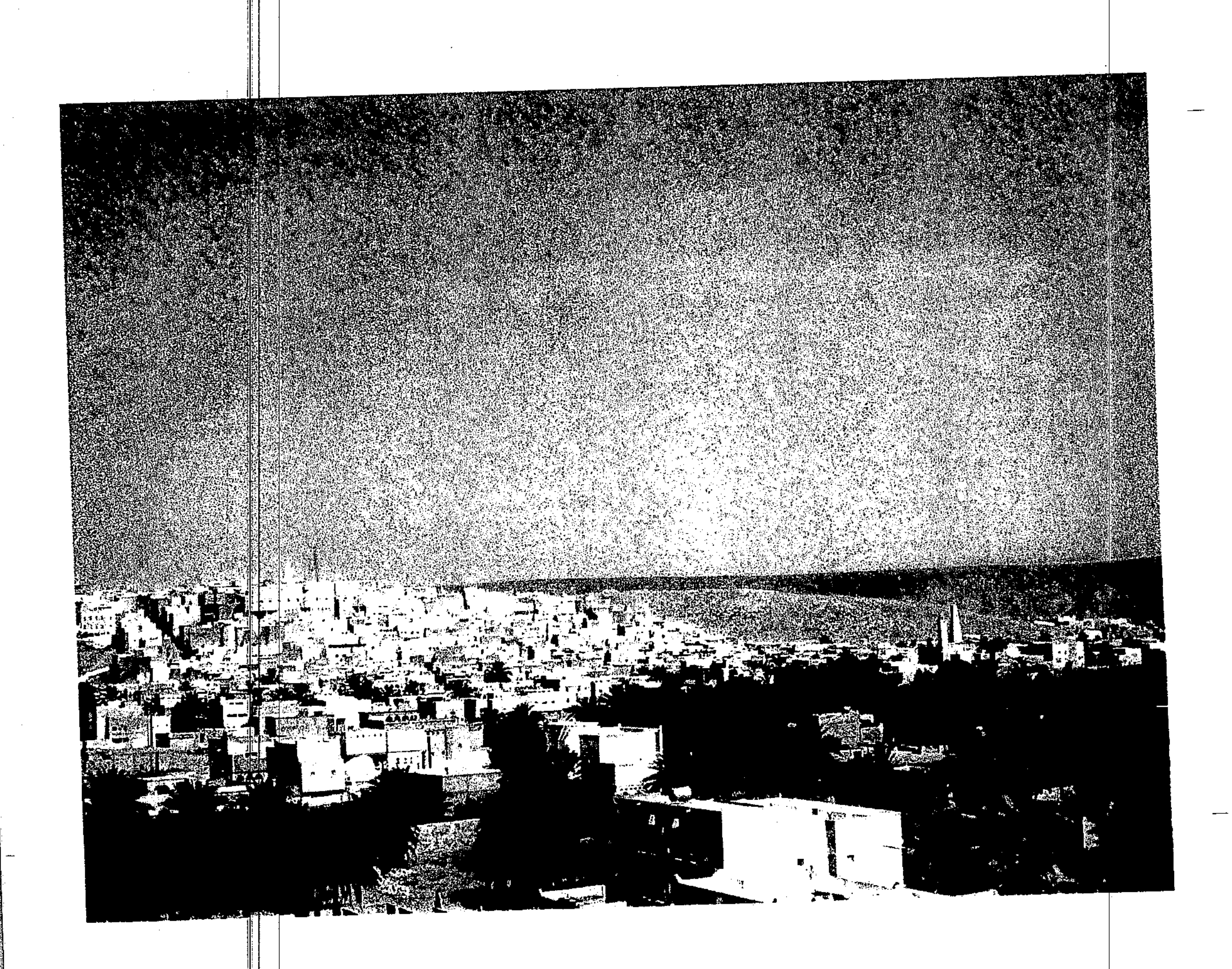
عن / C et P Donnadieu J .M Diddier : Op . cit , p :



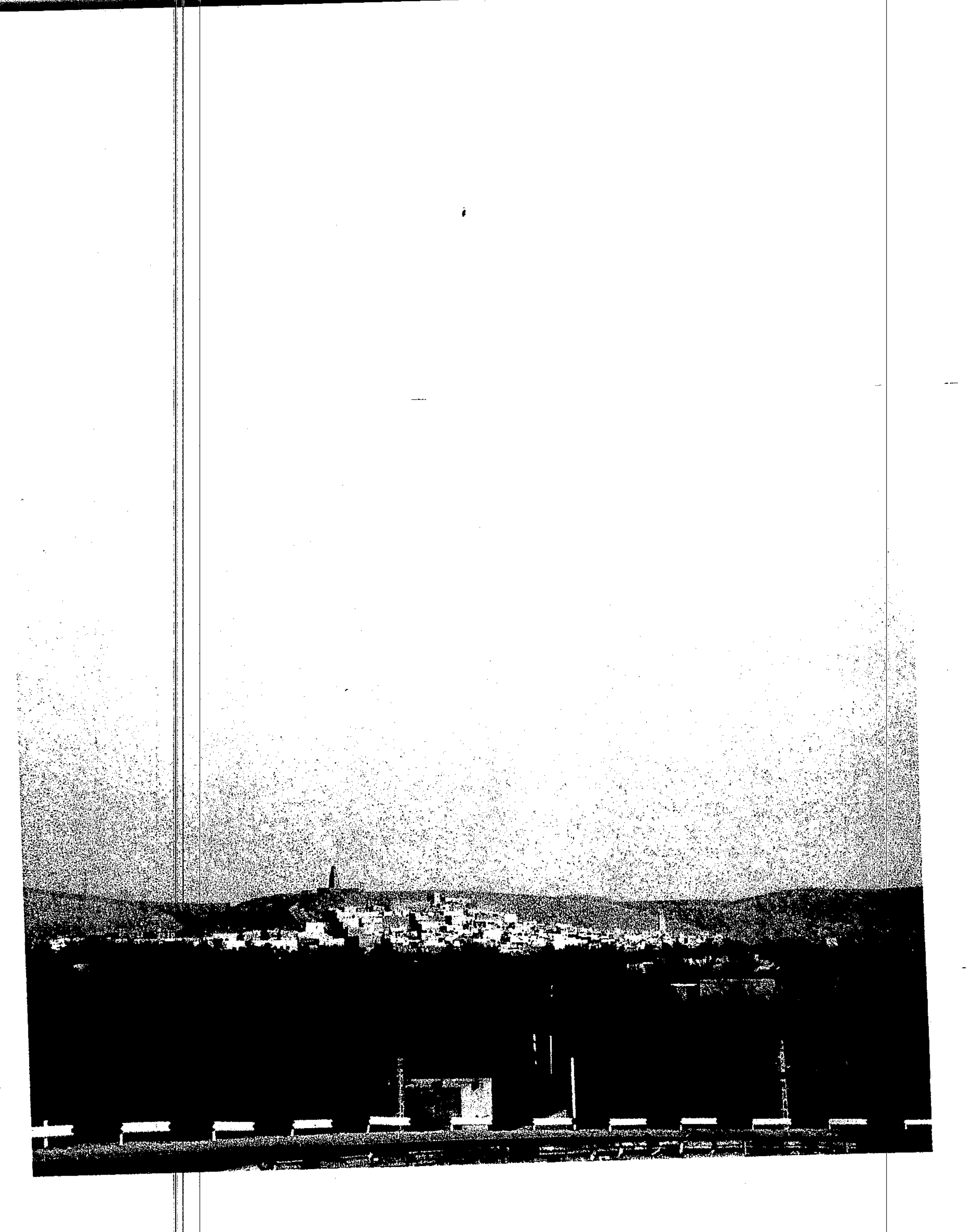
الشكل رقم 38 : تقنيات بناء السقف المسطّح

عن / C et P Donnadieu J .M Diddier : Op . cit , p :

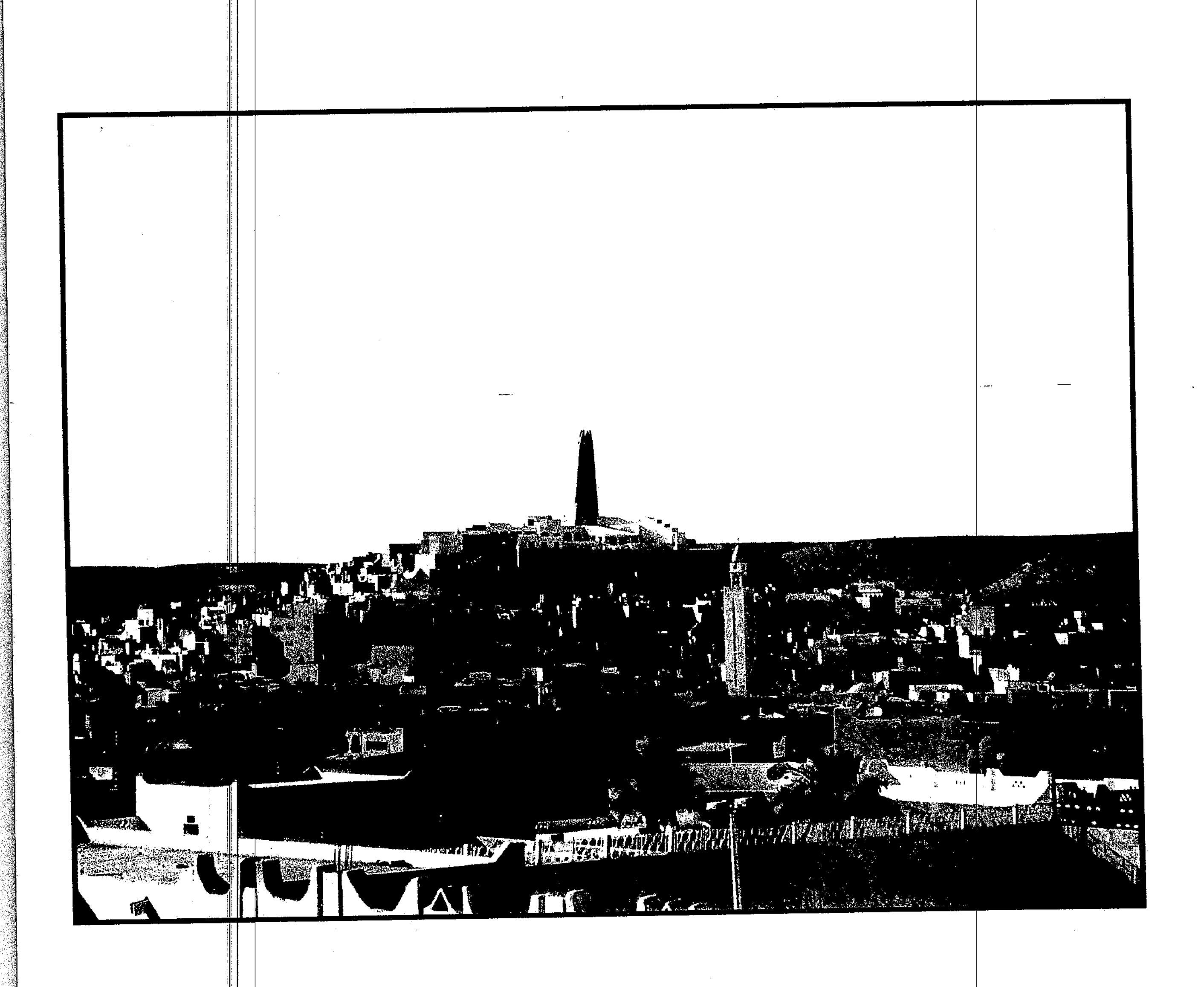

اللوحات



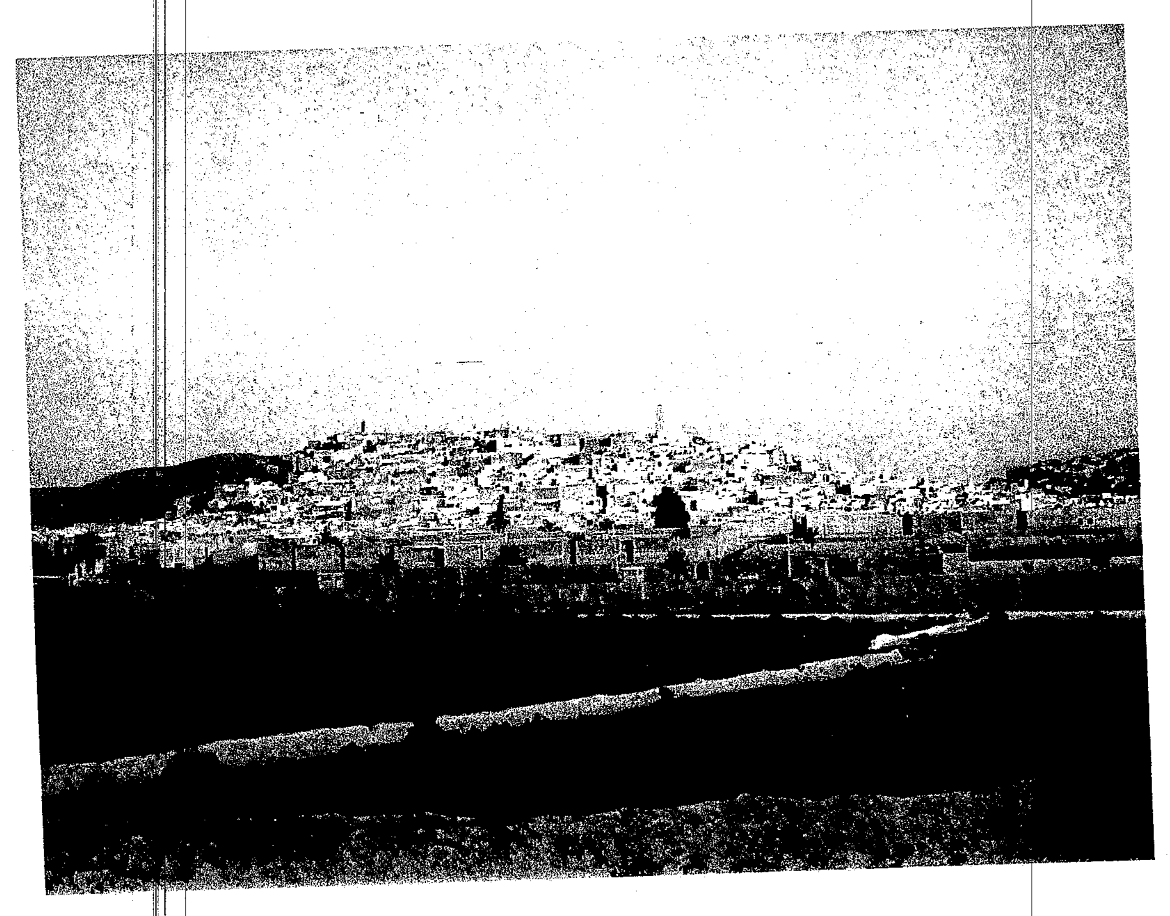
اللوحة رقم 1 : منظر عام لمدينة العطف



اللوحة رقم 2 : منظر عام لمدينة بنورة



اللوحة رقم 3 : منظر عام لمدينة غرداية



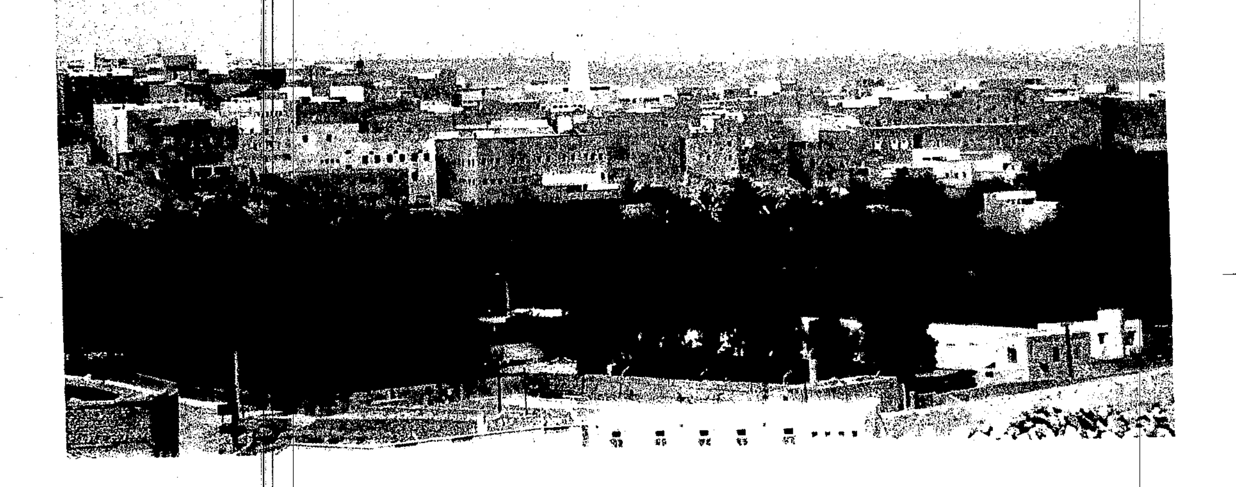
اللوحة رقم 4 : منظر عام لمدينة بني يزقن



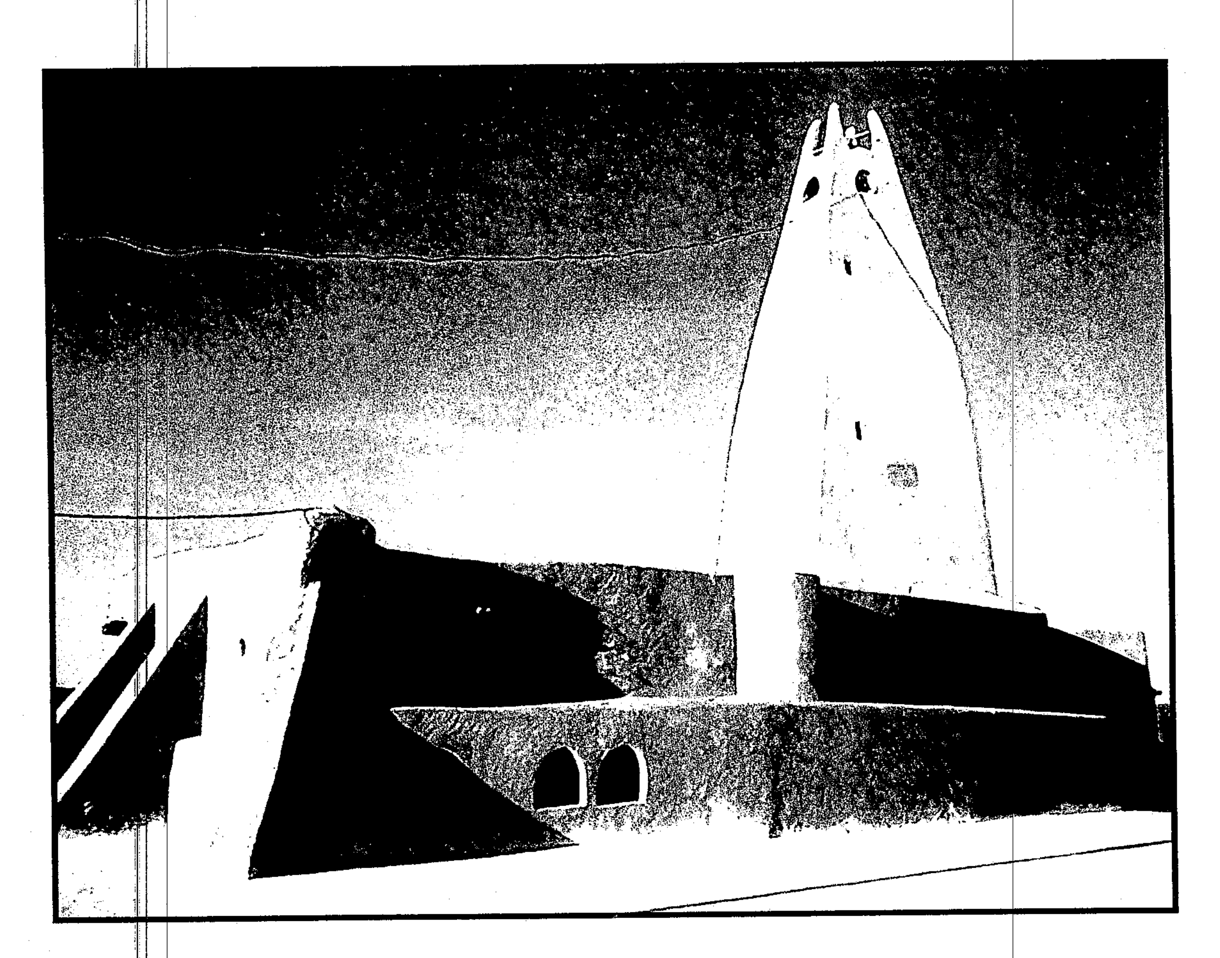
اللوحة رقم 5 : منظرعام لمدينة مليكة



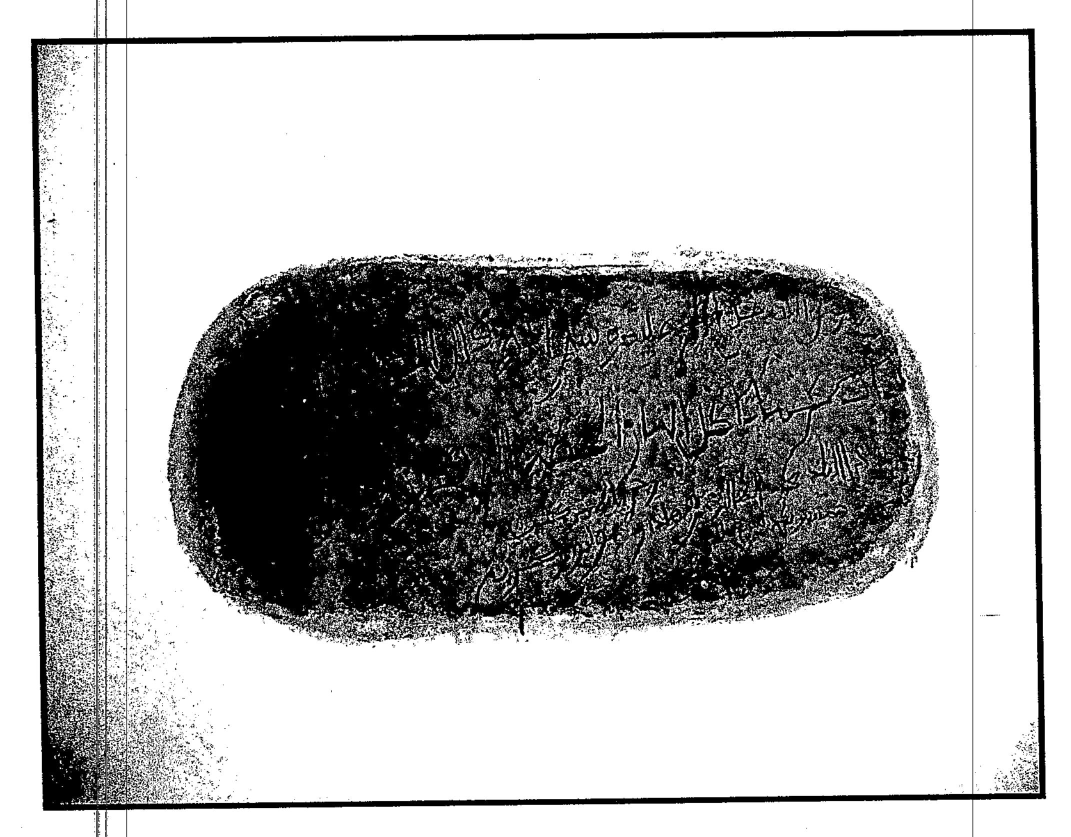
اللوحة رقم 6 : منظر عام لمدينة القرارة



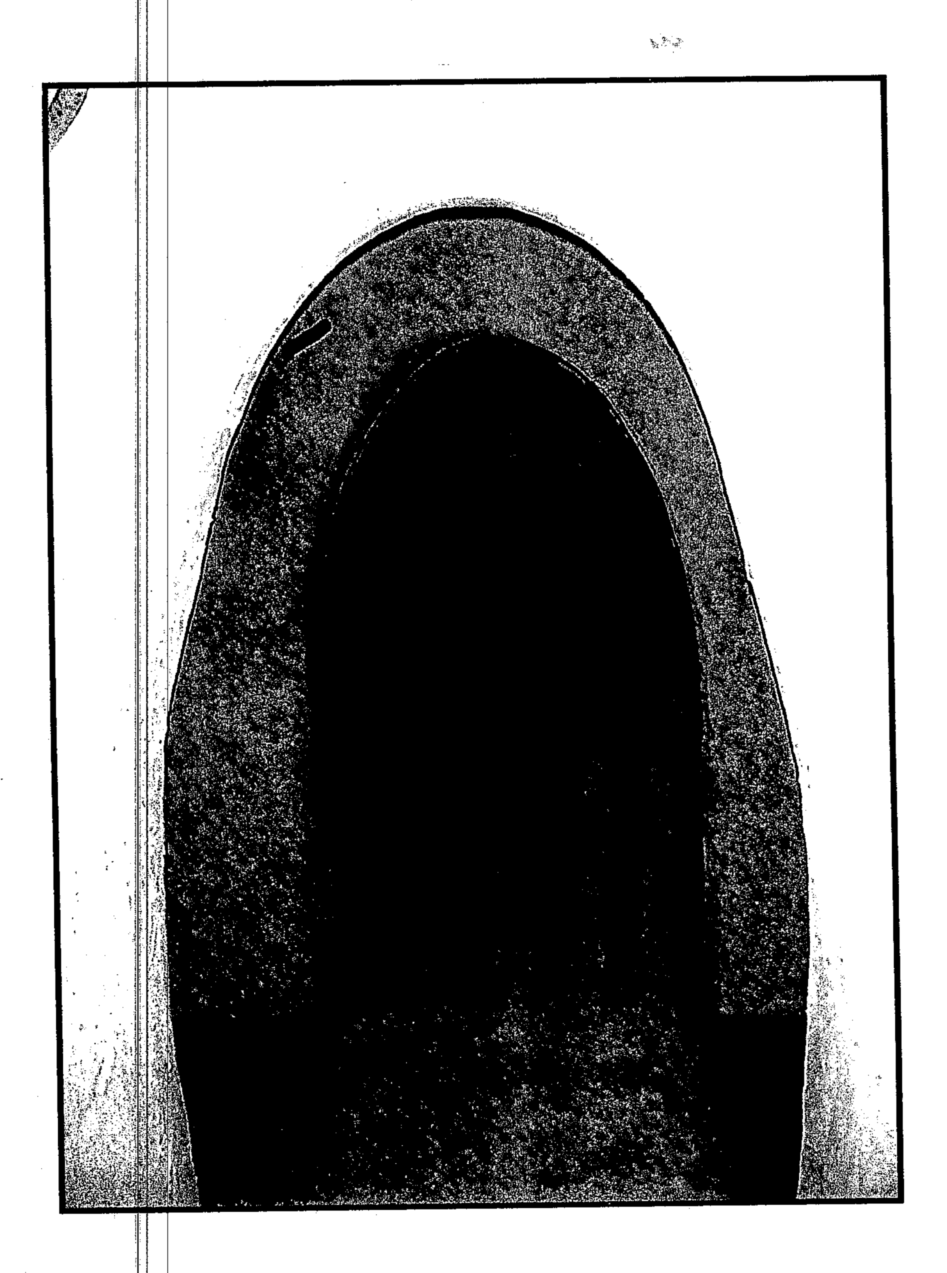
اللوحة رقم 7 : منظر عام لمدينة بريان



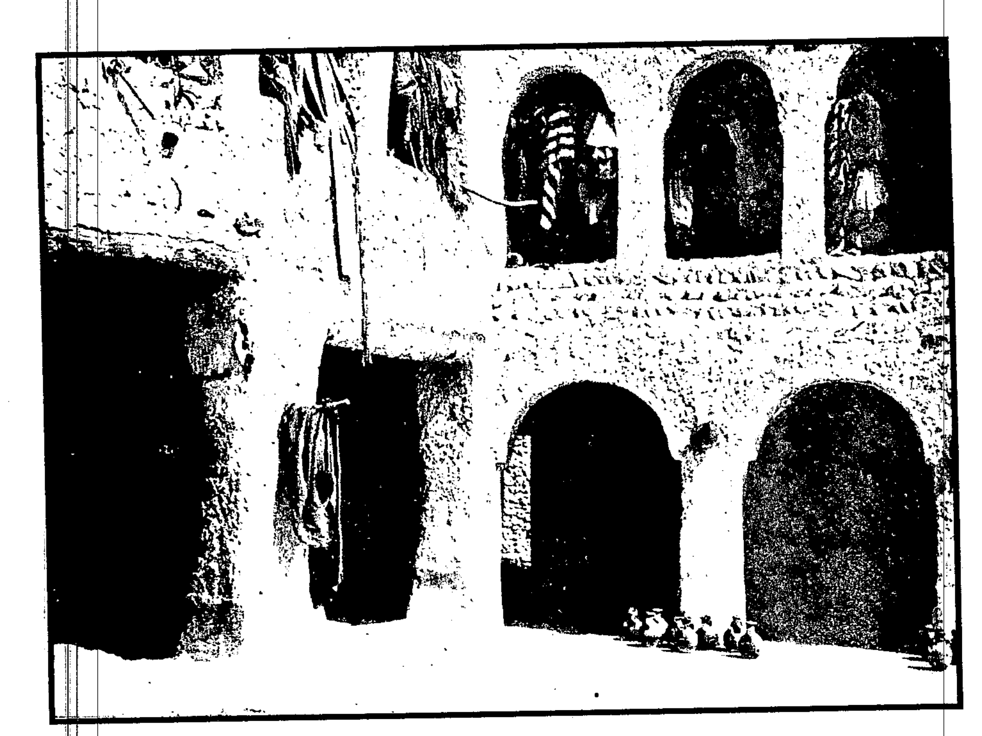
اللوحة رقم 8 : مسجد بنورة القديم ؛ منظر خارجي للمسجد



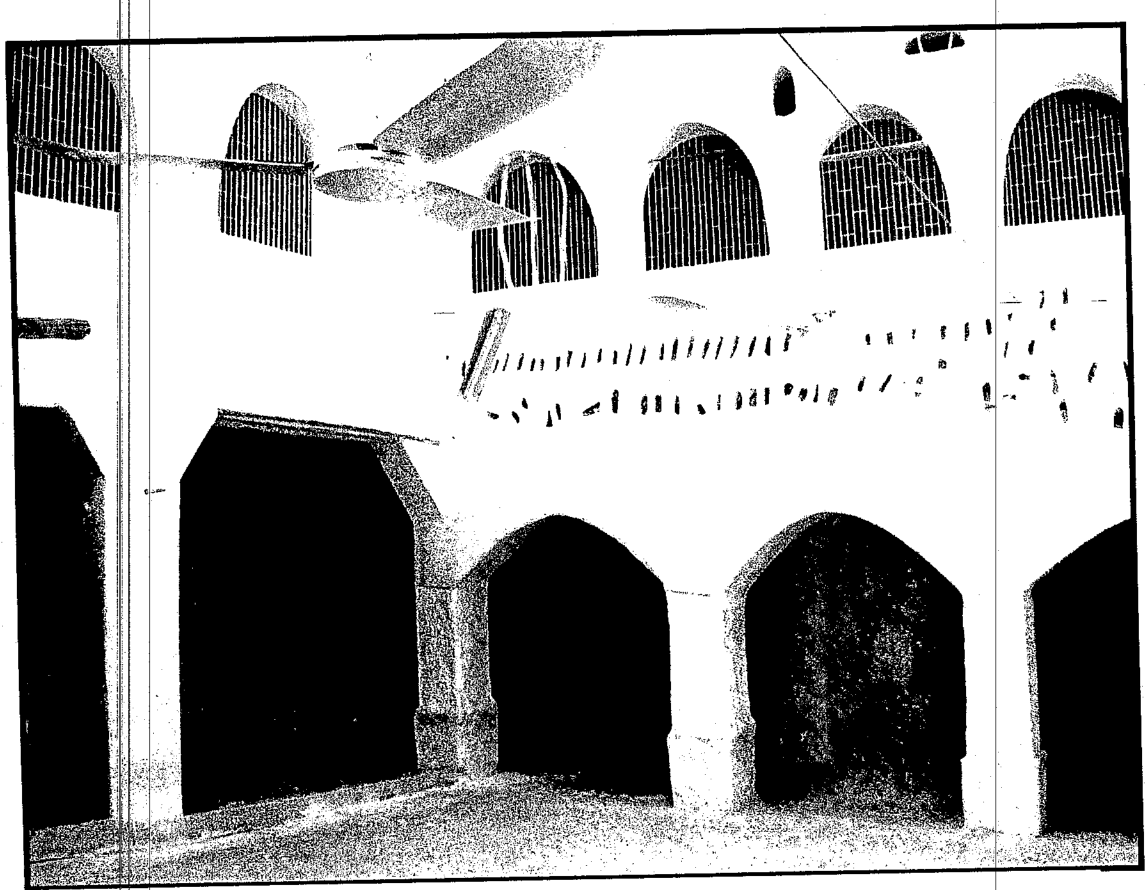
اللوحة رقم 9 : مسجد بنورة القديم ؛ كتابة على لوحة حجرية بجدار القبلة



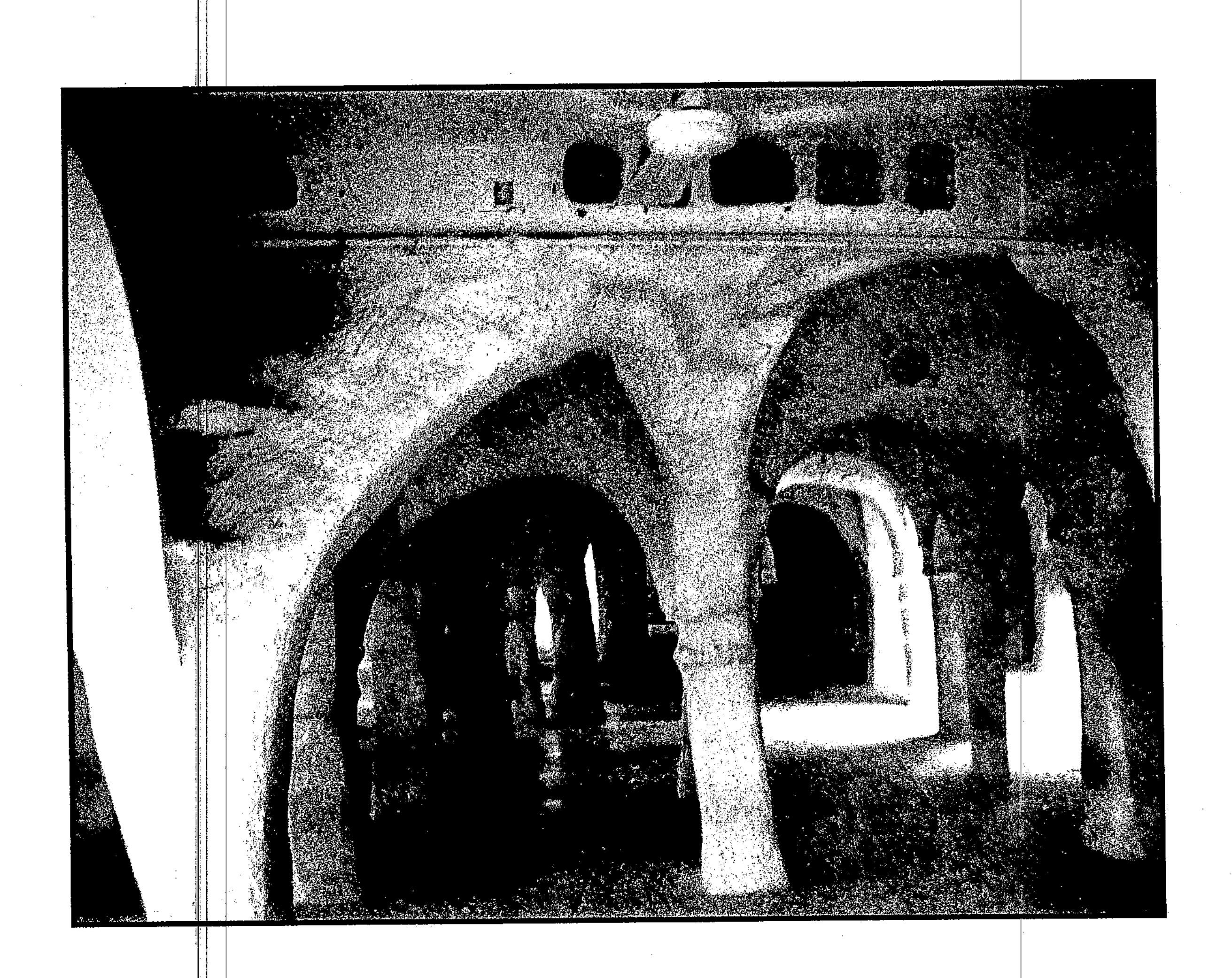
اللوحة رقم 10 : مسجد بنورة القديم ؛ المحراب و الأسكوب العمودي عليه.



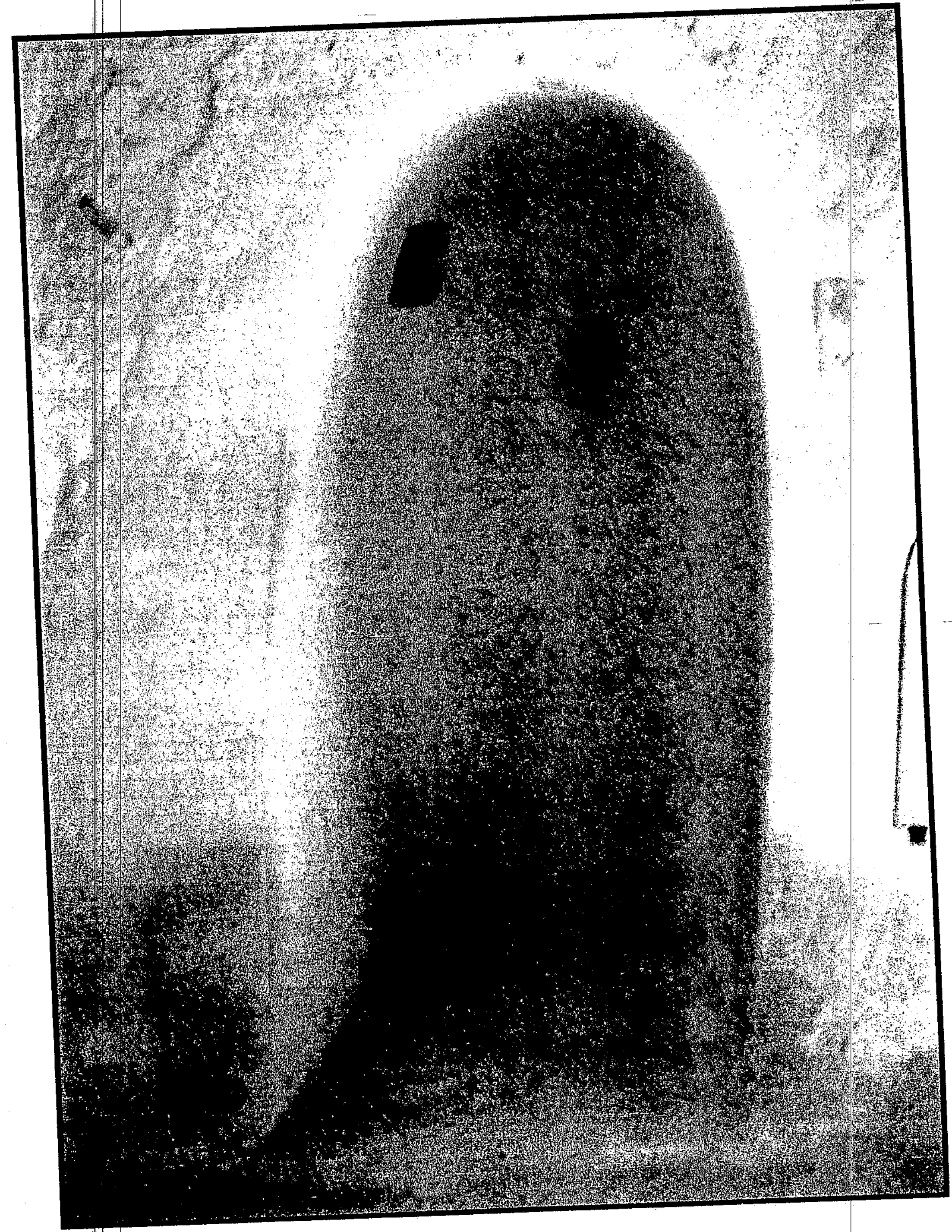
اللوحة رقم 11 : مسجد غرداية ؛ صورة للصحن تعود إلى السنوات الأولى من القرن العشرين . عن / Marcel Mercier : La Civilisation... p: 80



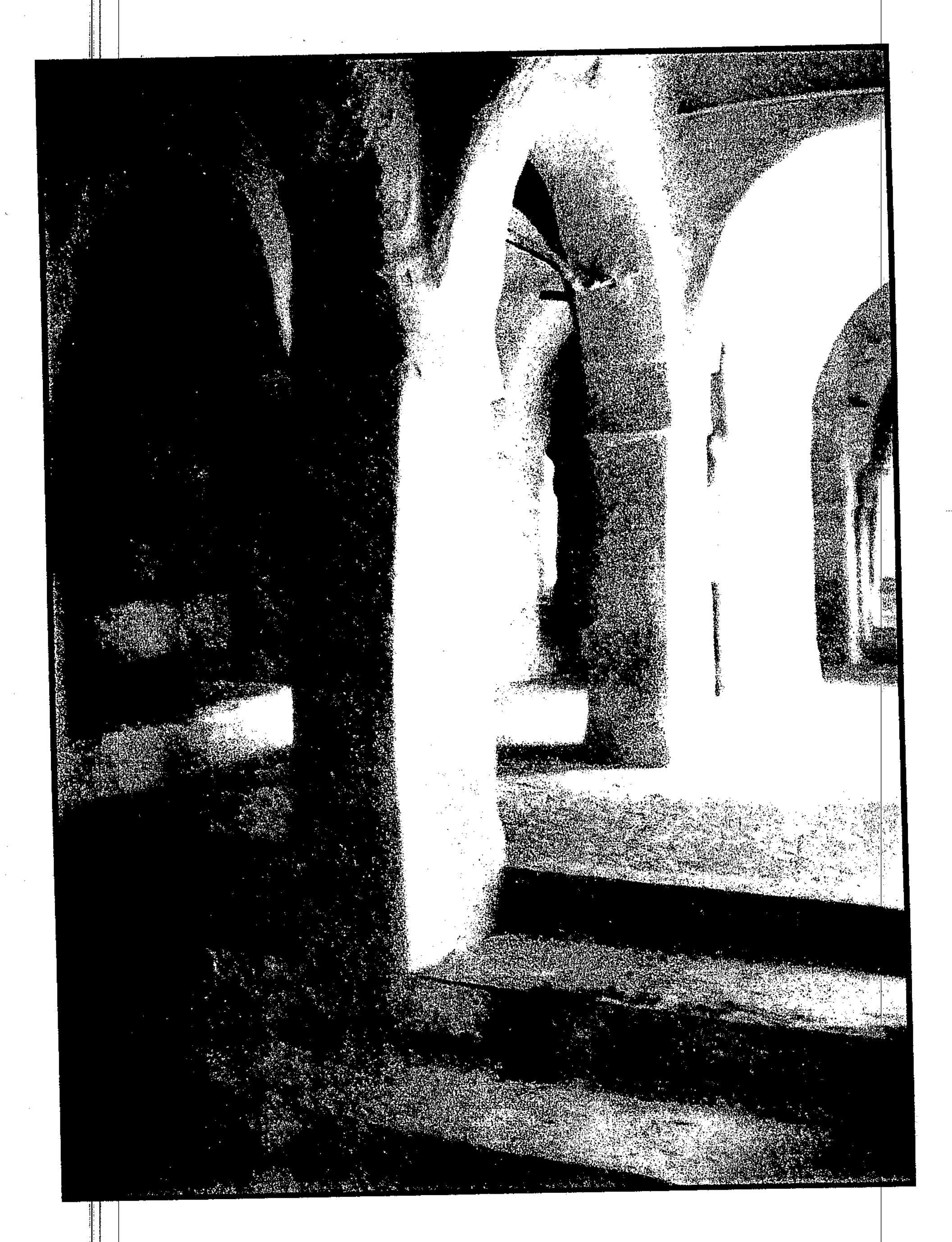
اللوحة رقم 12 : منظر للصحن والأروقة ذات الطابقين المحيطة به



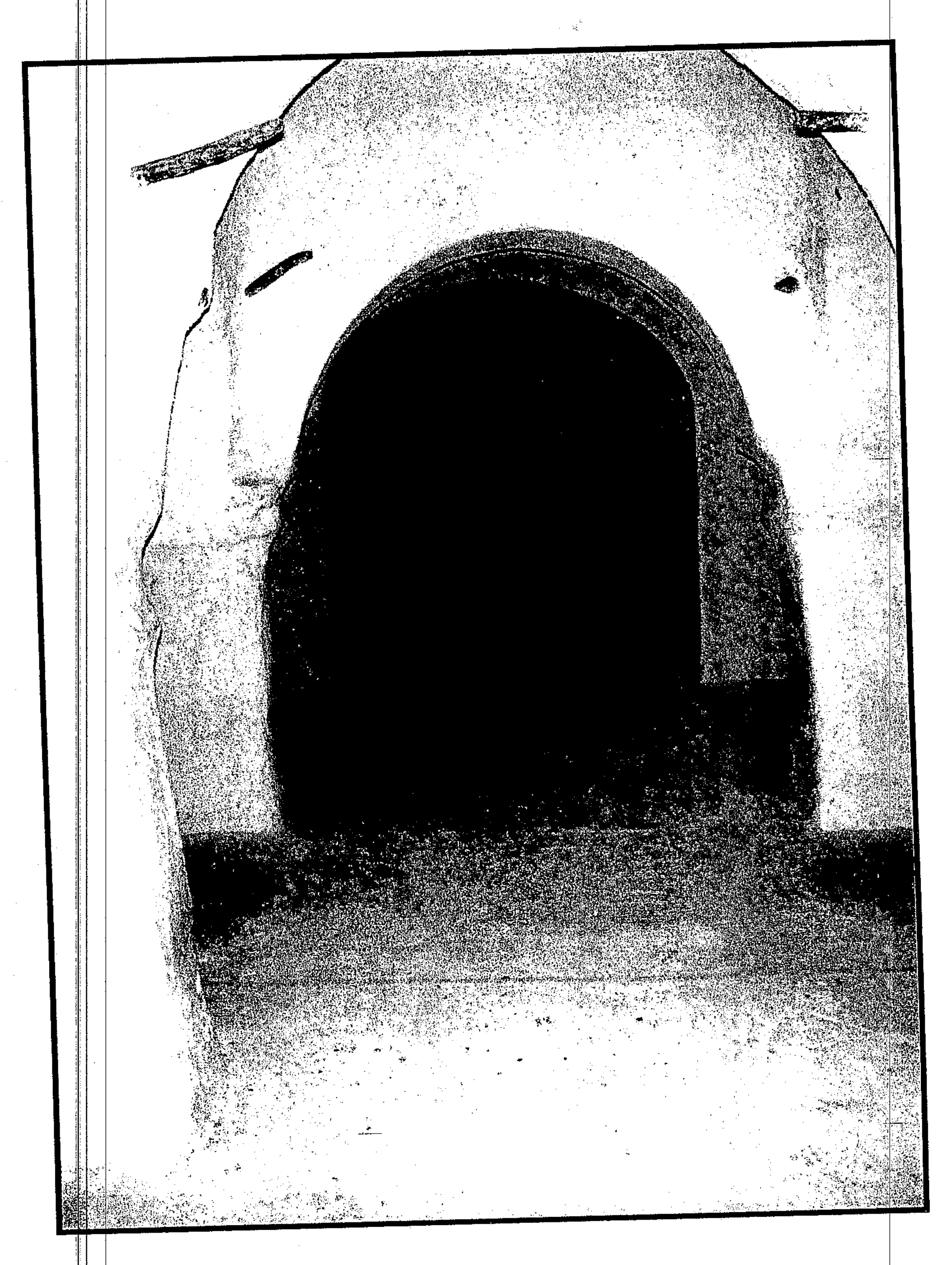
اللوحة رقم 13 : مسجد غرداية ؛ منظر داخلي لبيت الصلاة



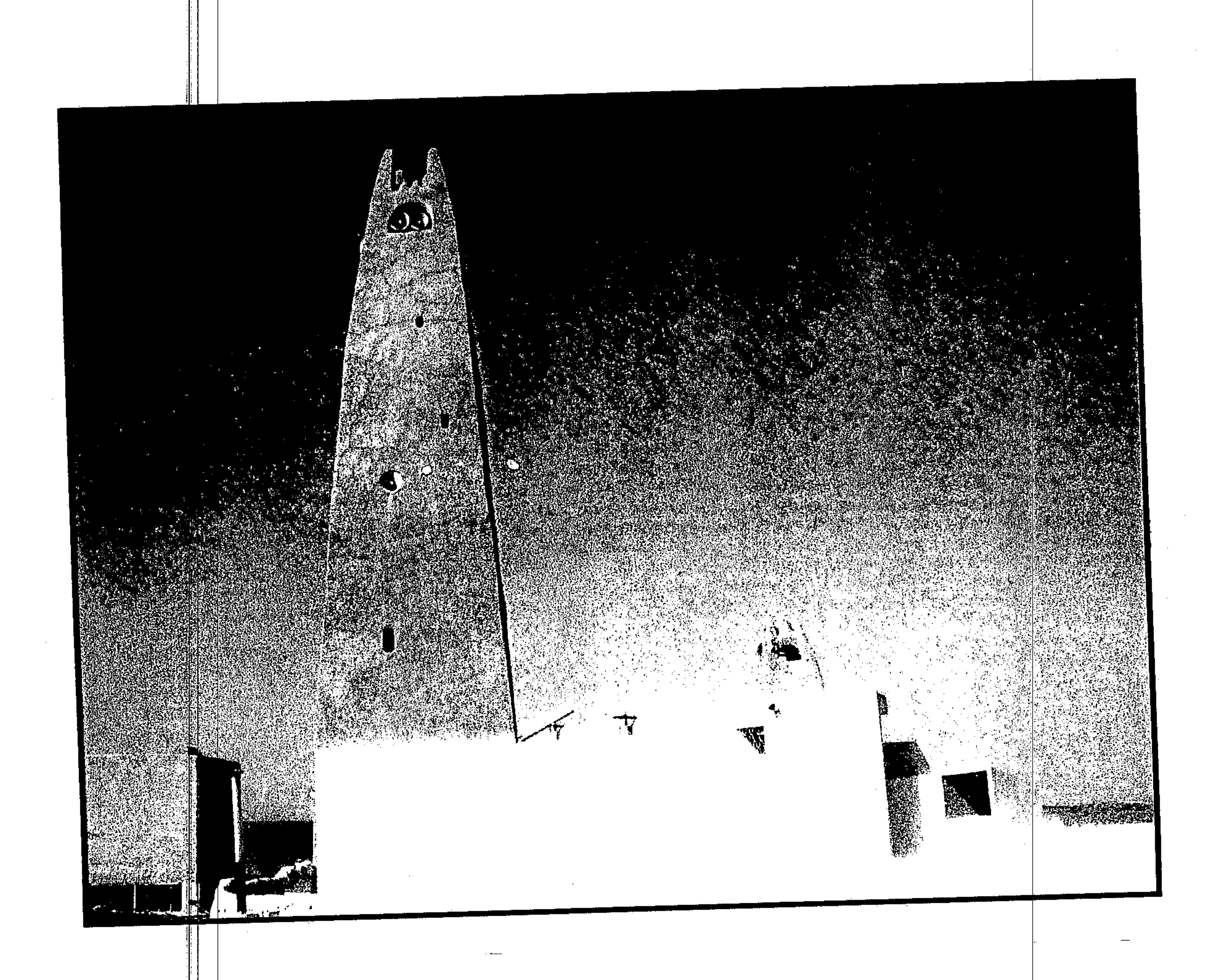
اللوحة رقم 14 : مسجد غرداية ؛ صورة تمثل المحراب الأصلي داخل بيت الصلاة



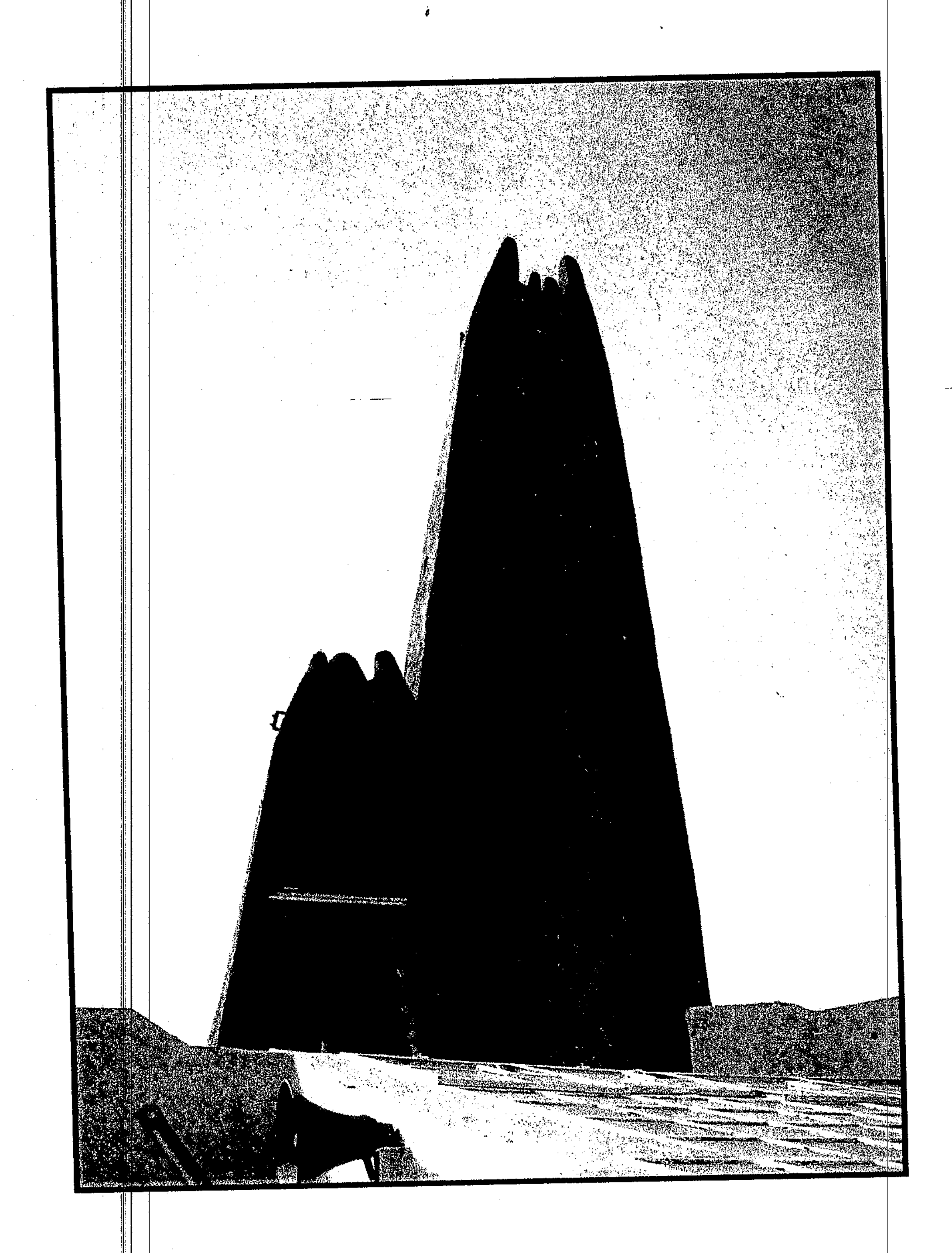
اللوحة رقم 15 : مسجد غرداية ؛ منظر آخر لبيت الصلاة ، يبين اختلاف مستويات الأرض



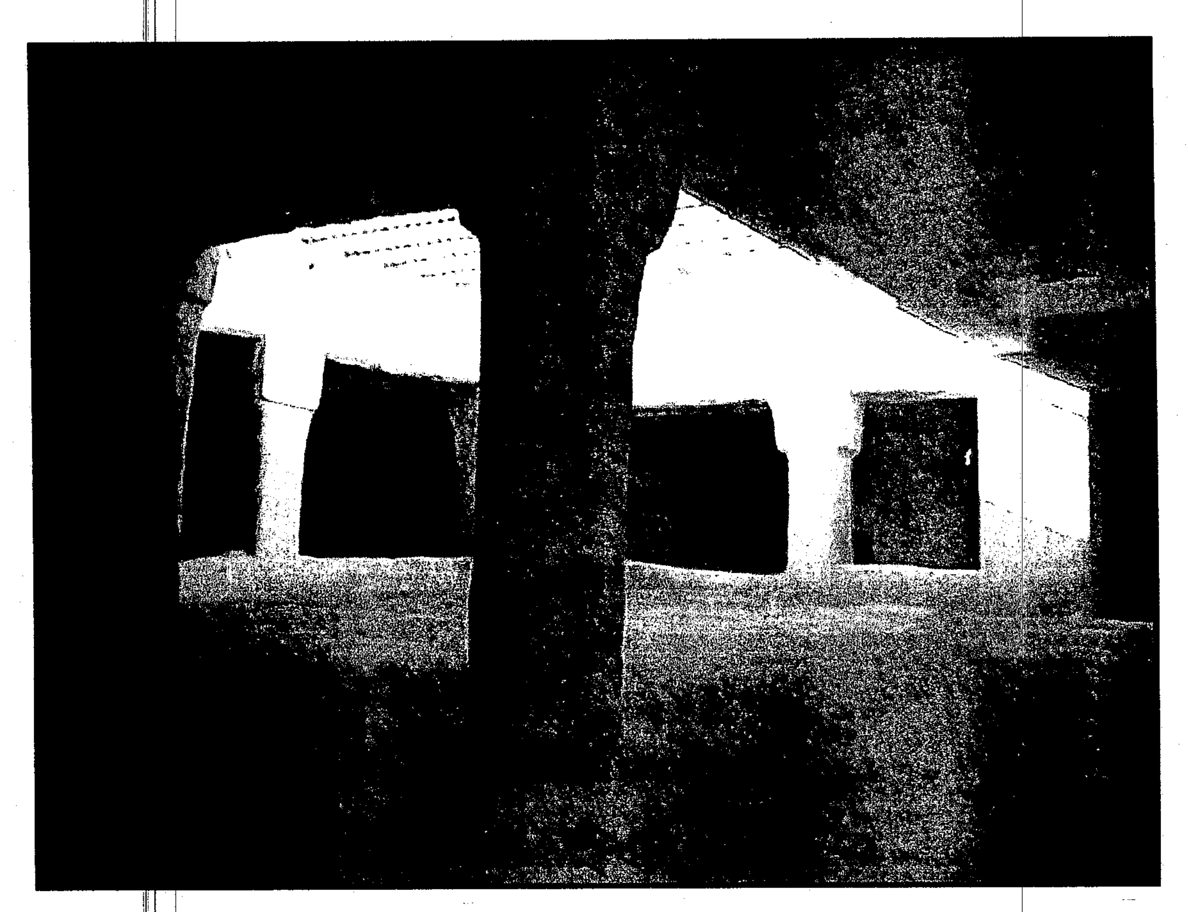
اللوحة رقم 16 : مسجد غرداية محراب يحدّد التوسع الأول في عهد الشيخ عمي سعيد



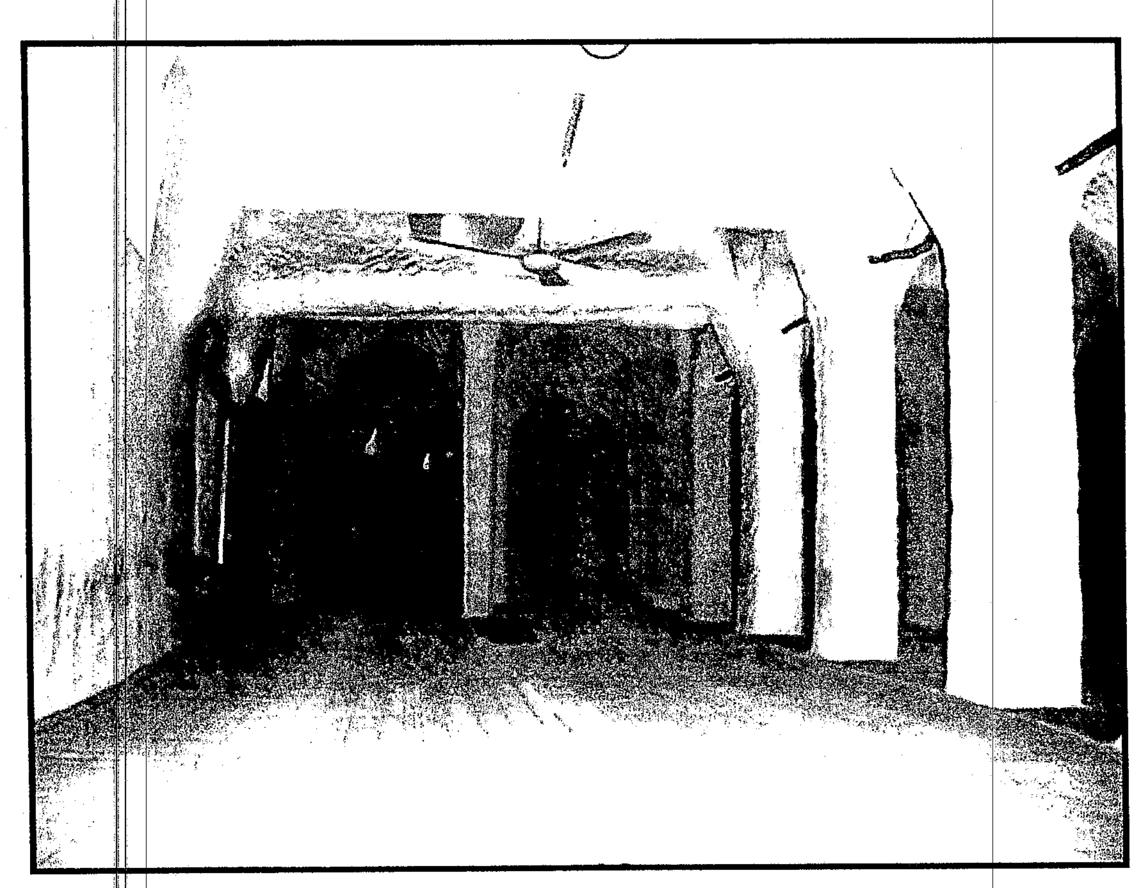
اللوحة رقم 17 : مسجد غرداية ؛ منظر للمئذنة الكبيرة



اللوحة رقم 18 : مسجد غرداية ؛ منظر لمئذنتي (الصغيرة والكبيرة) المسجد

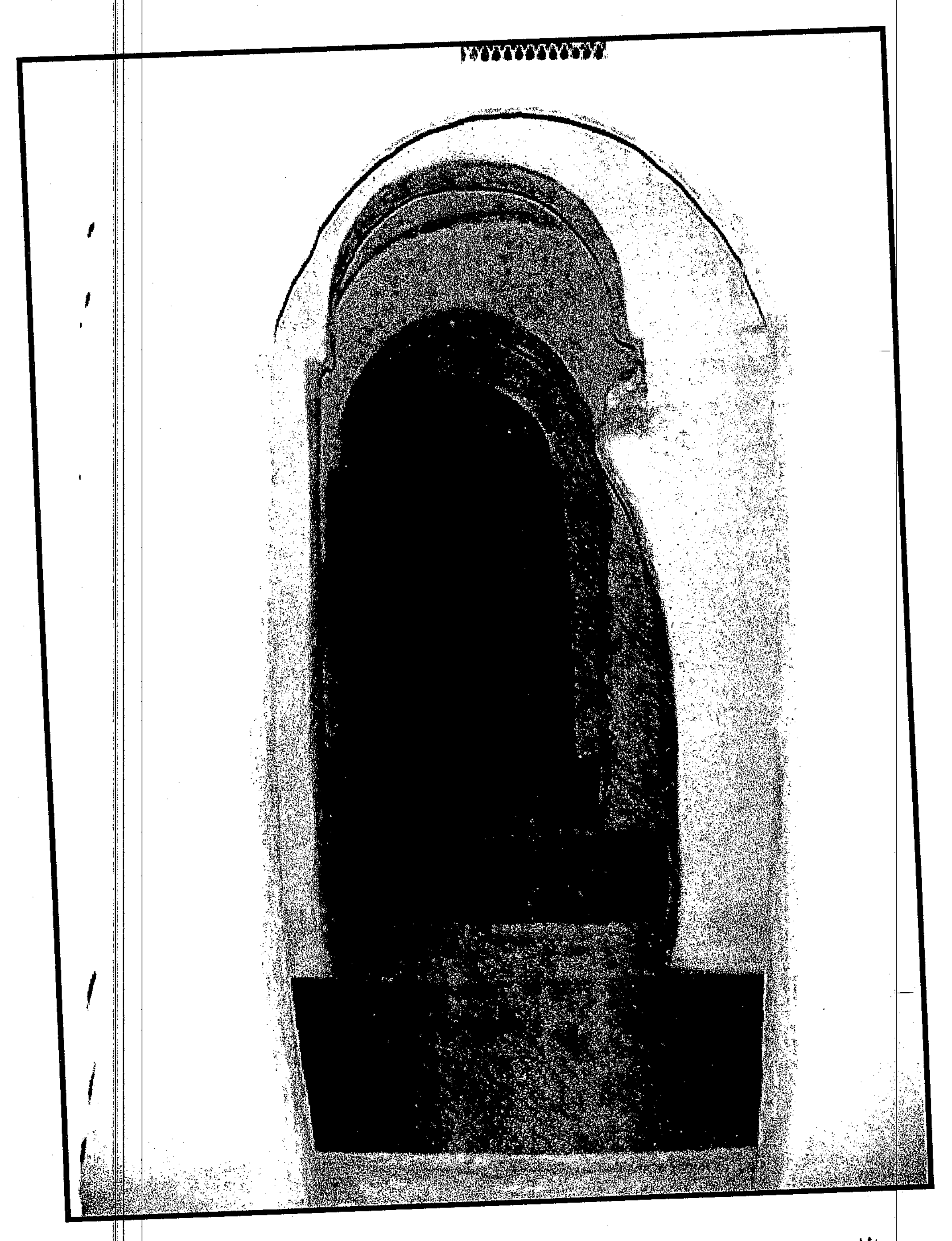


اللوحة رقم 19 : مسجد بني يزقن ؛ منظر الصحن والأروقة المحيطة به .

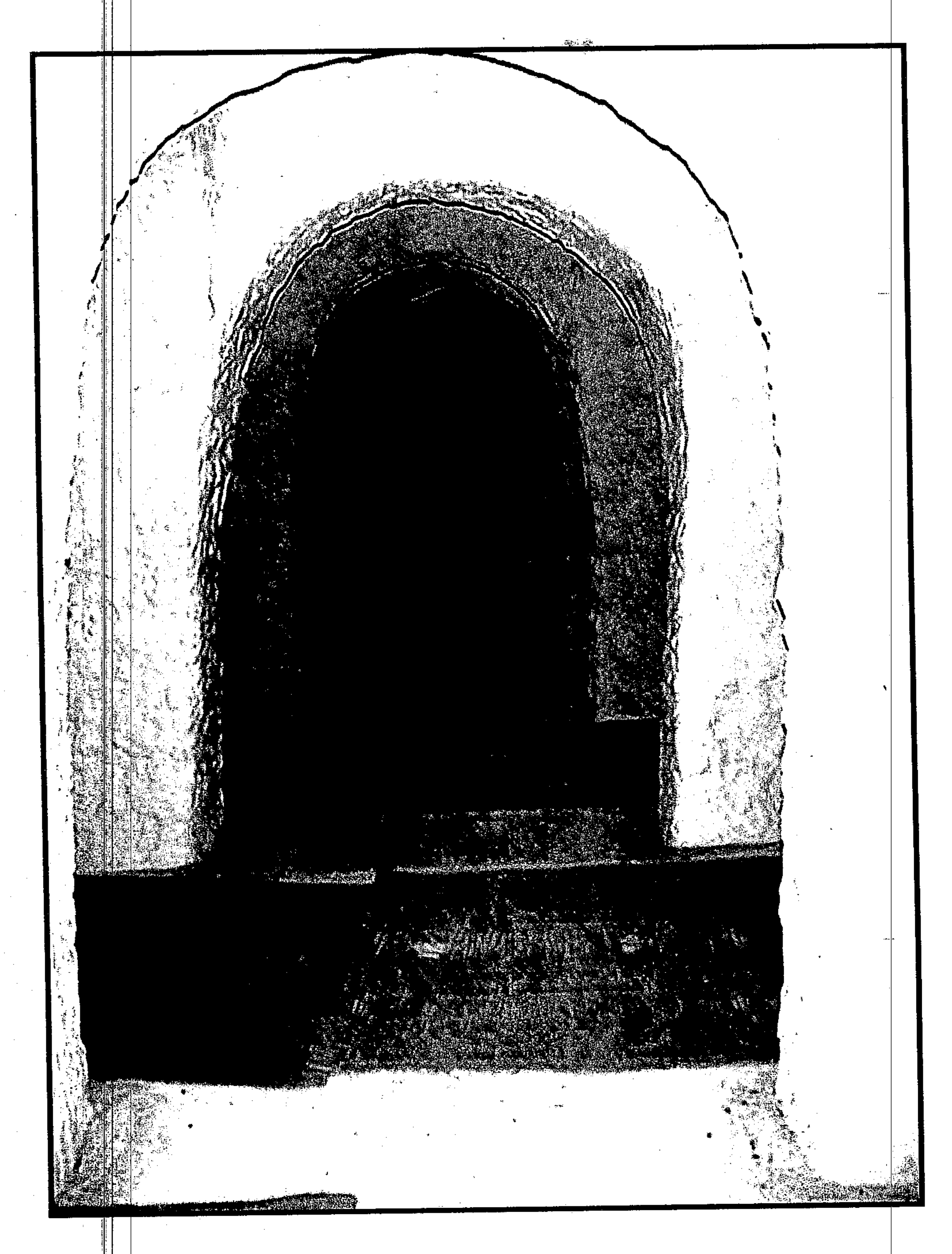


اللوحة رقم 20 : مسجد بني يزقن ؛ منظر داخلي لبيت الصلاة

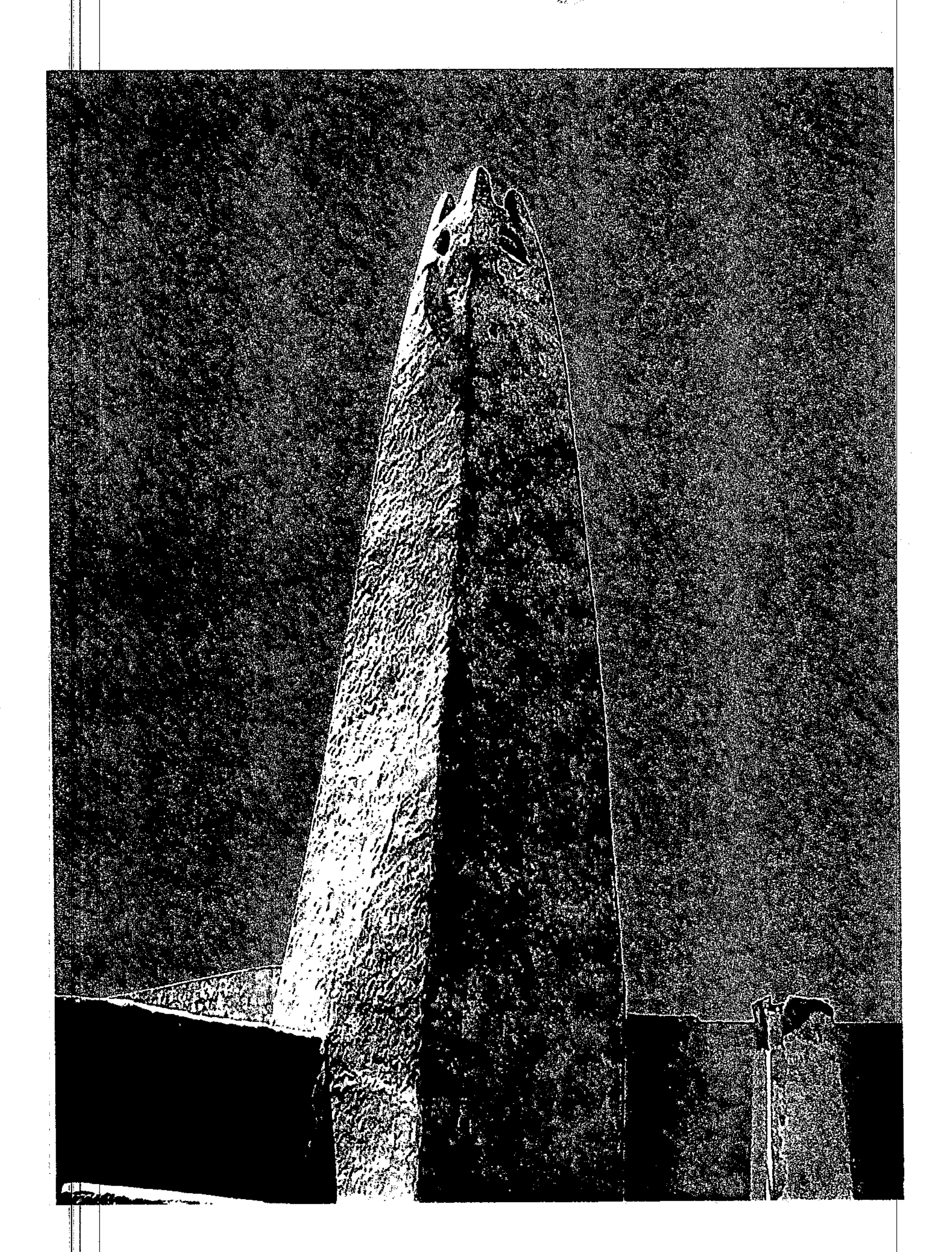
يمثل المحراب القرآني .



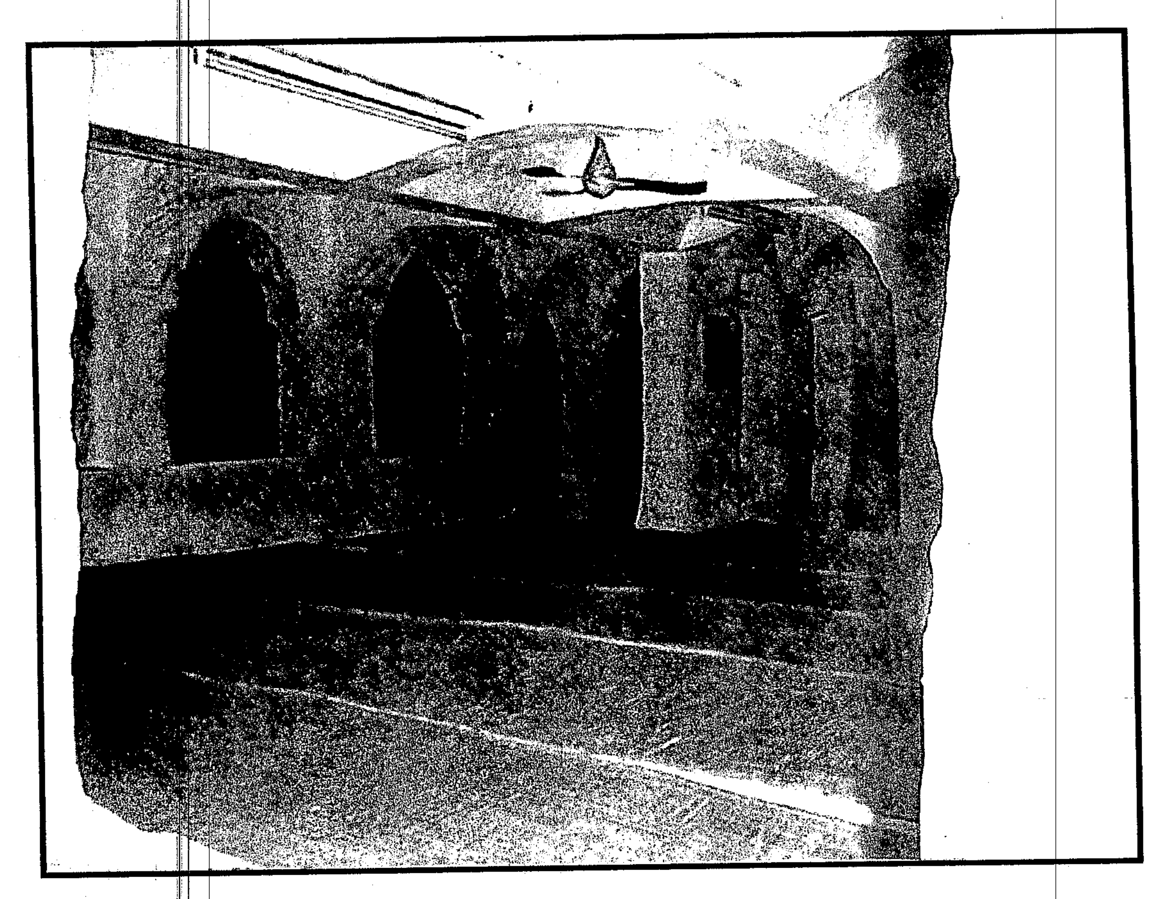
اللوحة رقم 21 : مسجد بني يزقن ؛ صورة للمحراب الأصلي والأسكوب العمودي عليه داخل بيت الصلاة



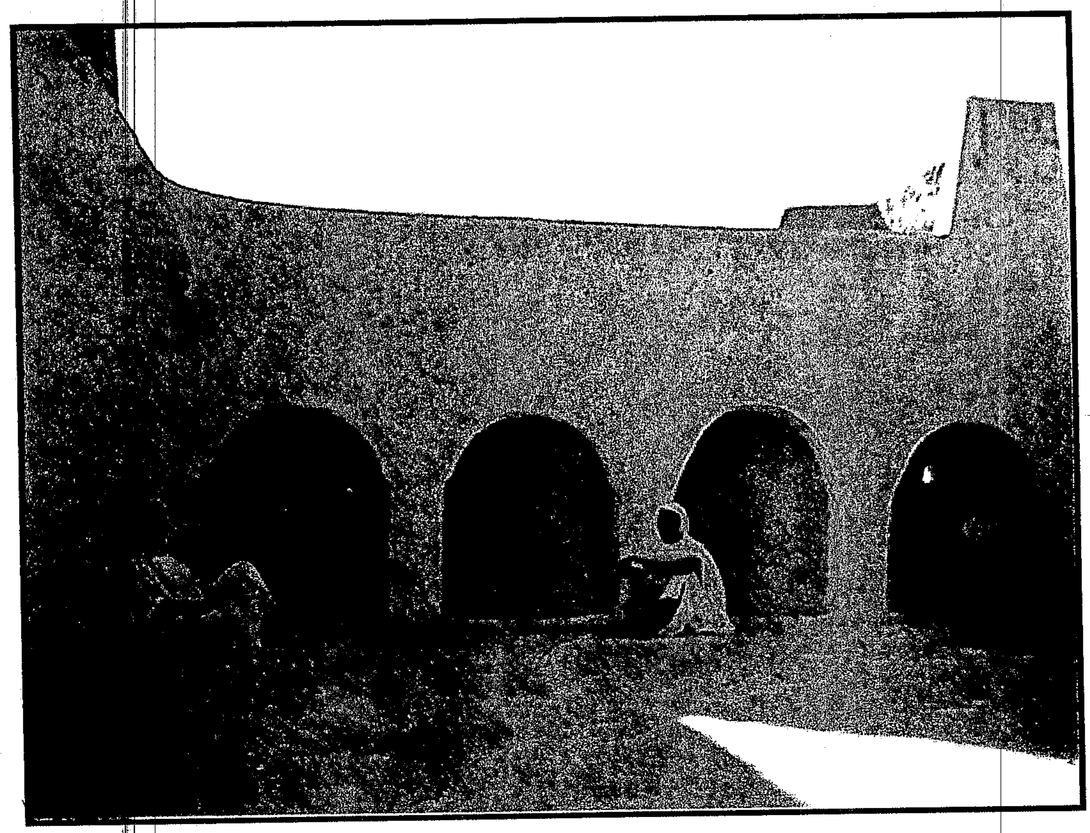
اللوحة رقم 22 : مسجد بني يزقن ؛ المحراب الثاني الذي يبين التوسع في بيت الصلاة



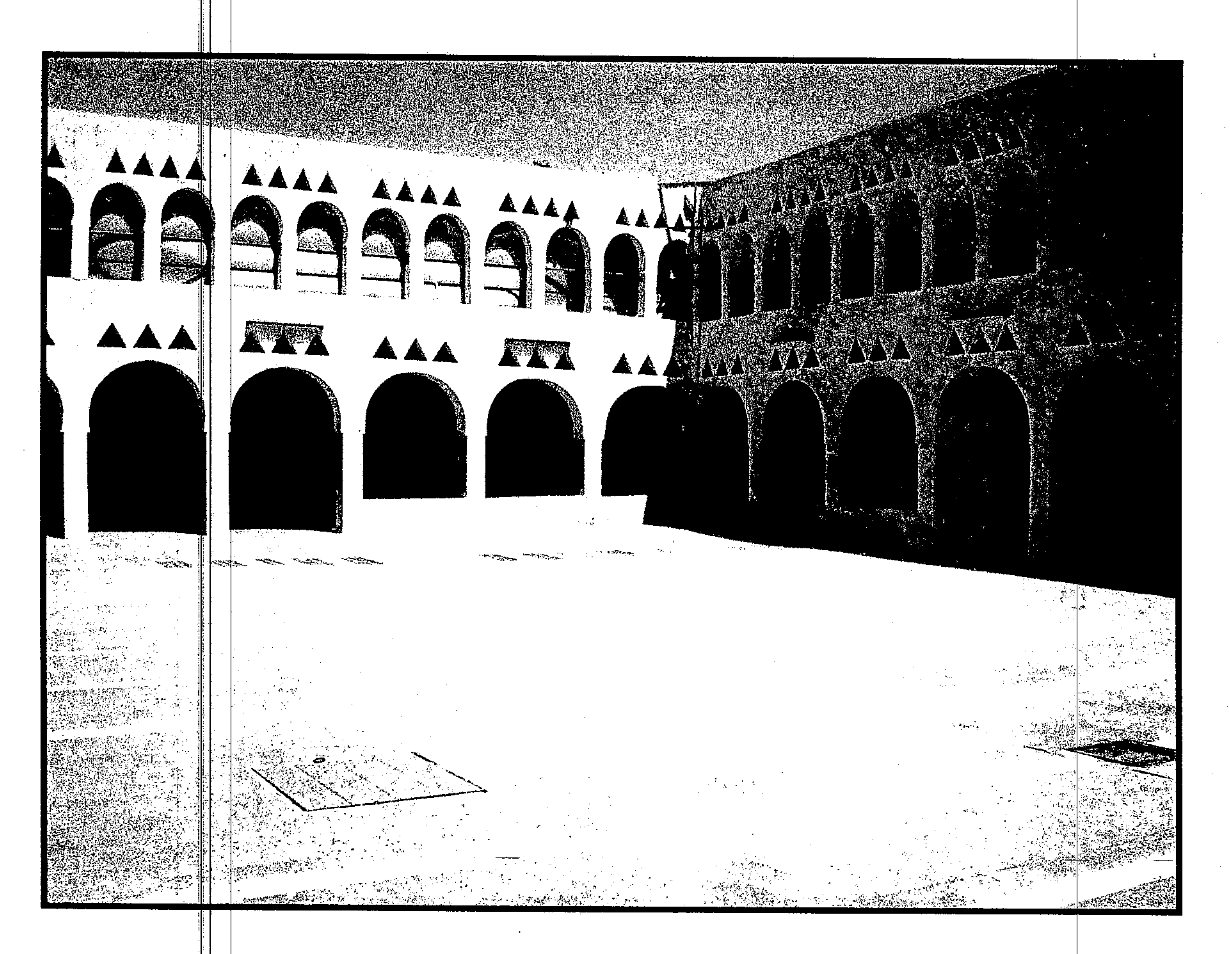
اللوحة رقم 23 مسجد بن يزقن ؛ منظر المئذنة مأخوذ من سطح المسجد



اللوحة رقم 24 : مسجد بني يزقن ؛ مجلس الوعظ و الإرشاد بداخل بيت الصلاة



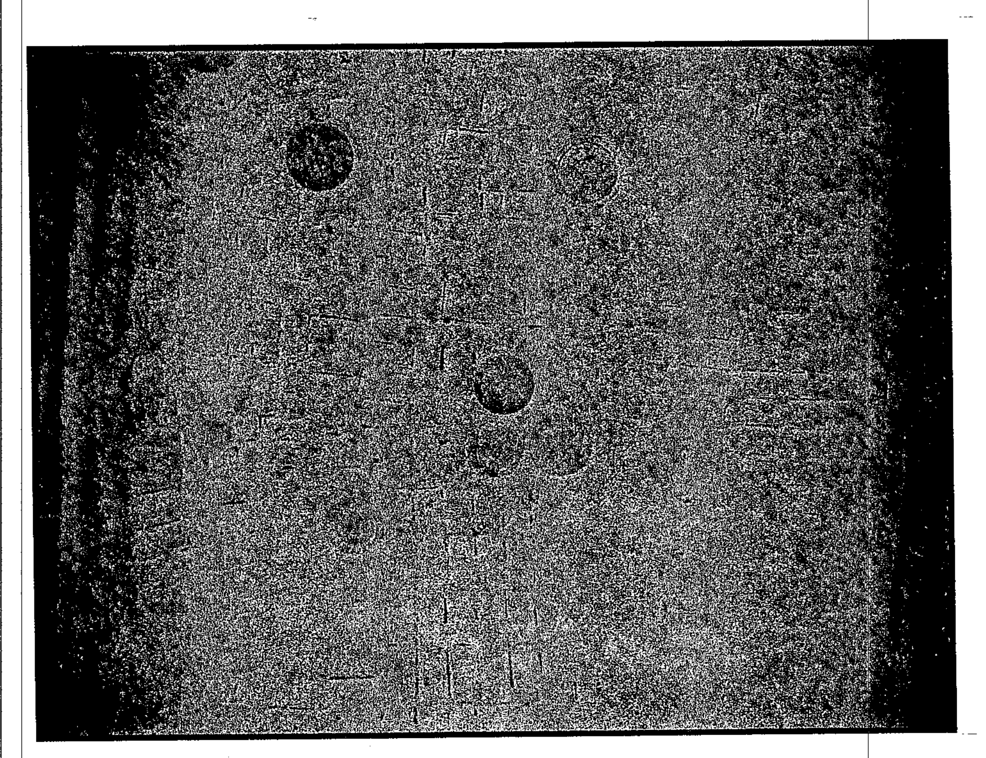
اللوحة رقم 25 : مسجد بني يزقن ؛ منظر للسطح الأول ضمن سلسلة السطوح المتتالية.



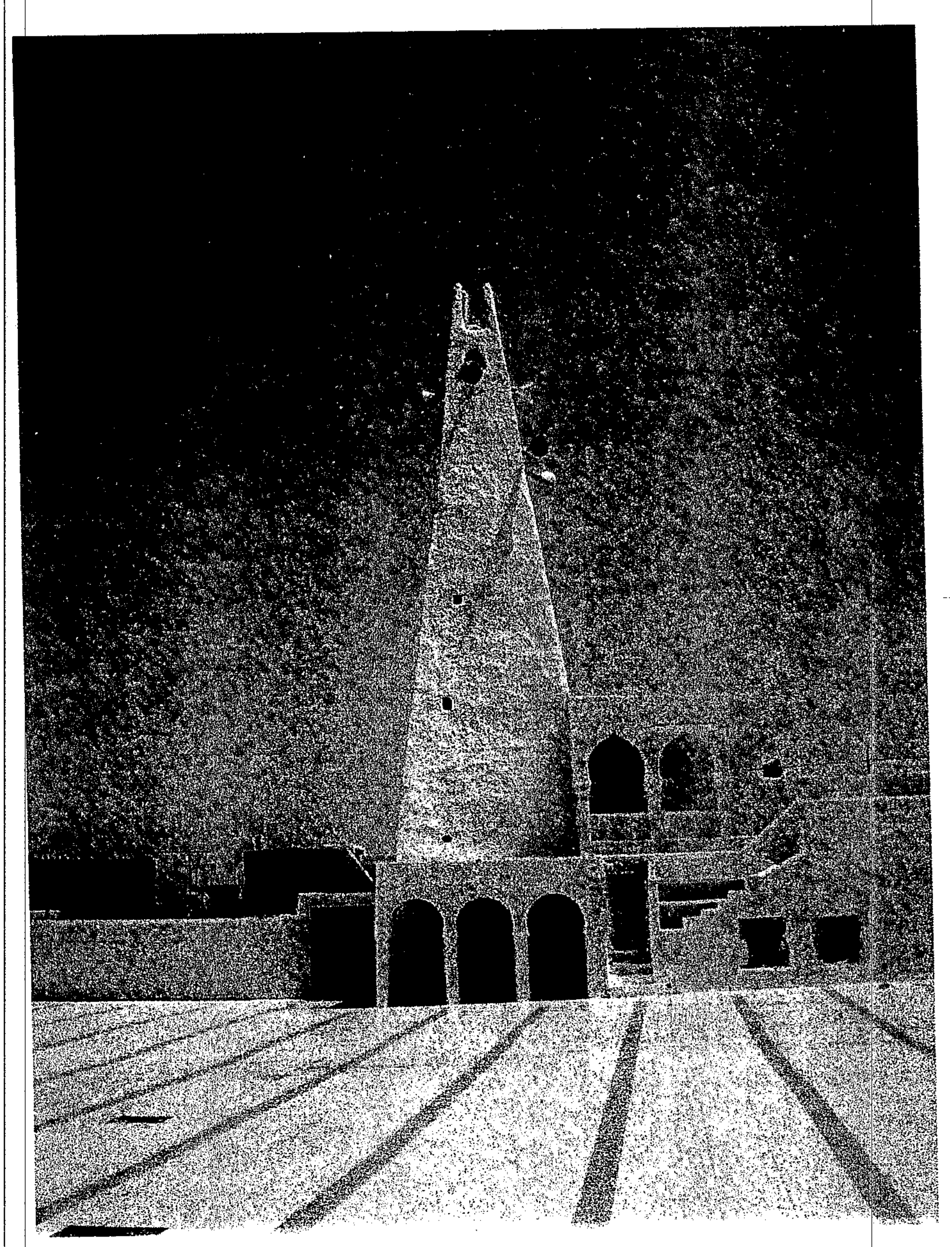
اللوحة رقم 26 : مسجد القرارة ؛ منظر للصحن من الداخل



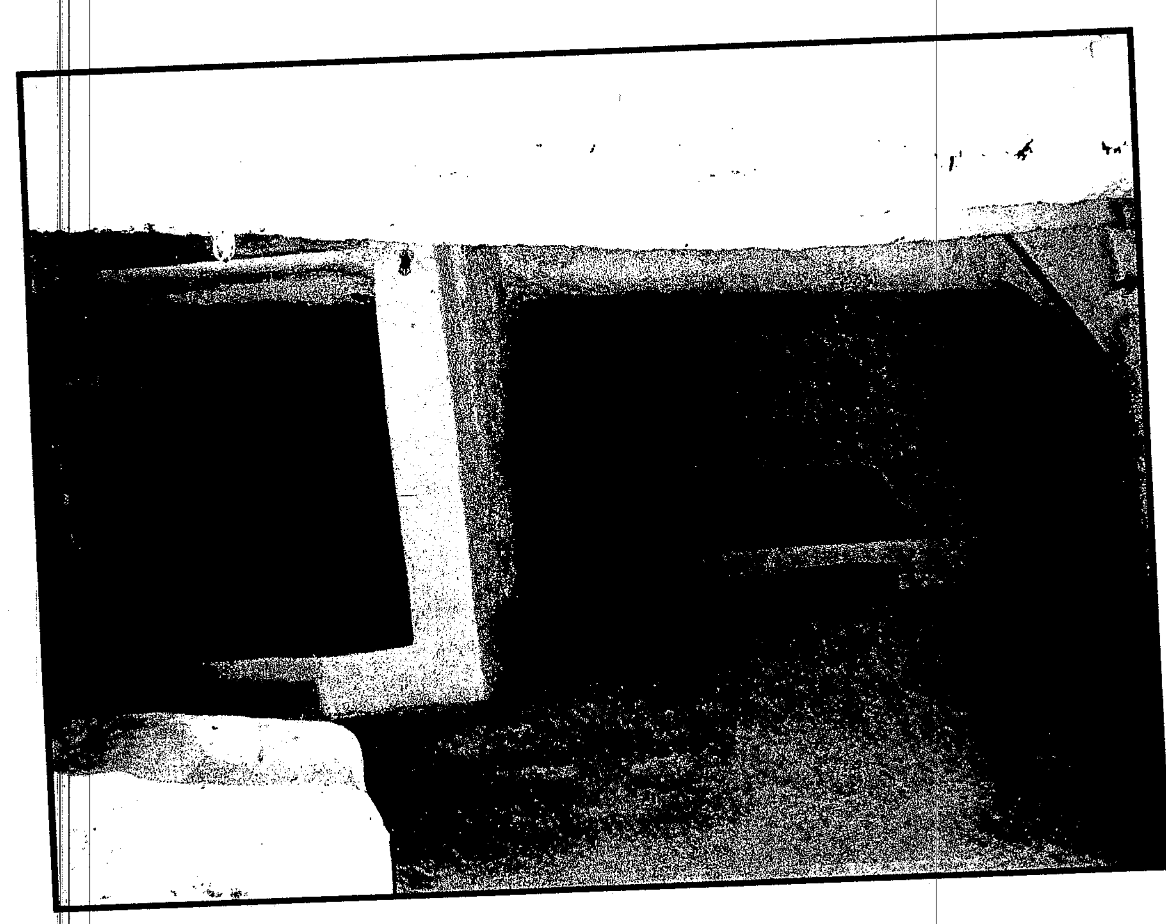
اللوحة رقم 27 : مسجد القرارة ؛ المجاز القاطع ببيت الصلاة



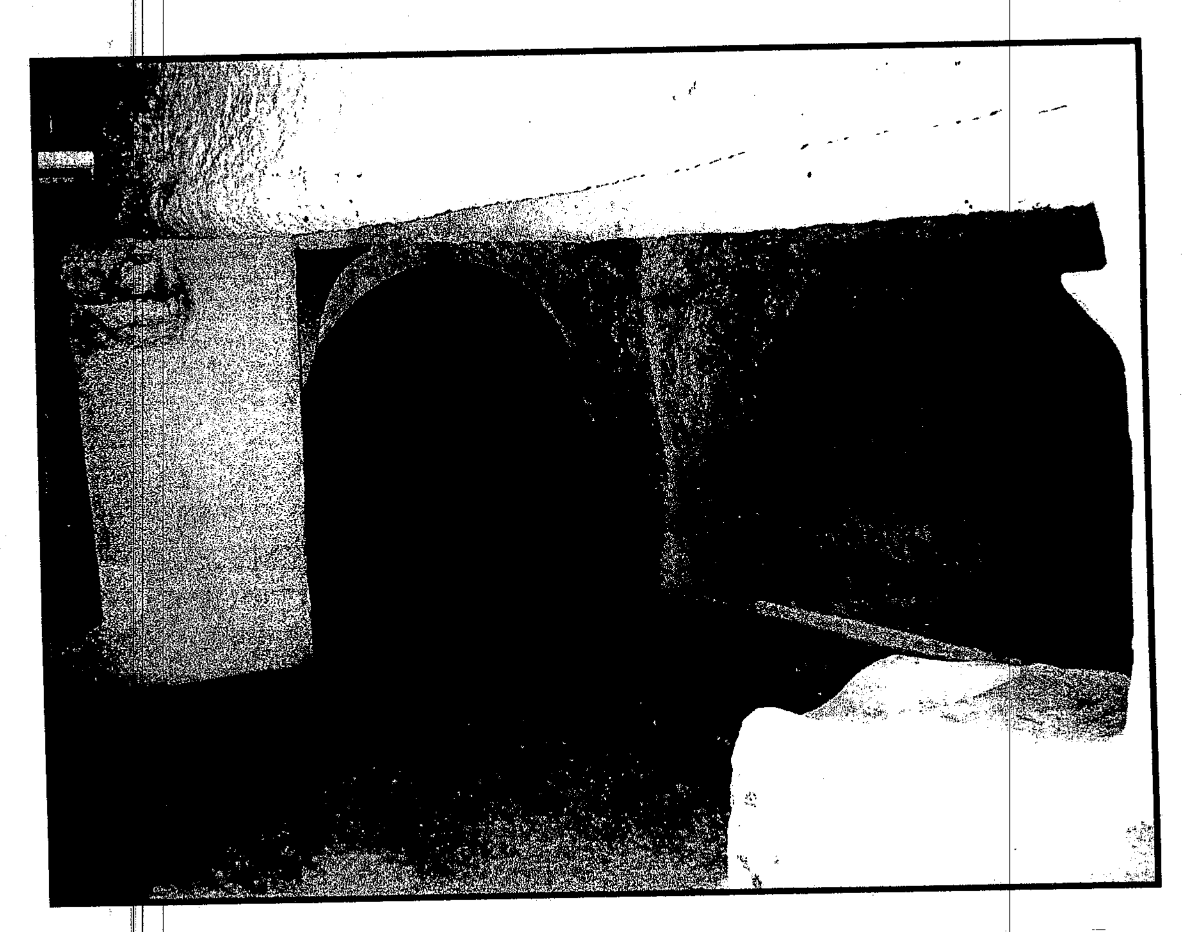
اللوحة رقم 28 : مسجد القرارة ؛ قبة أمام إحدى مداخل بيت الصلاة من جهة الصحن



اللوحة رقم 30 : مسجد القرارة ؛ مئذنة المسجد منظر من السطح



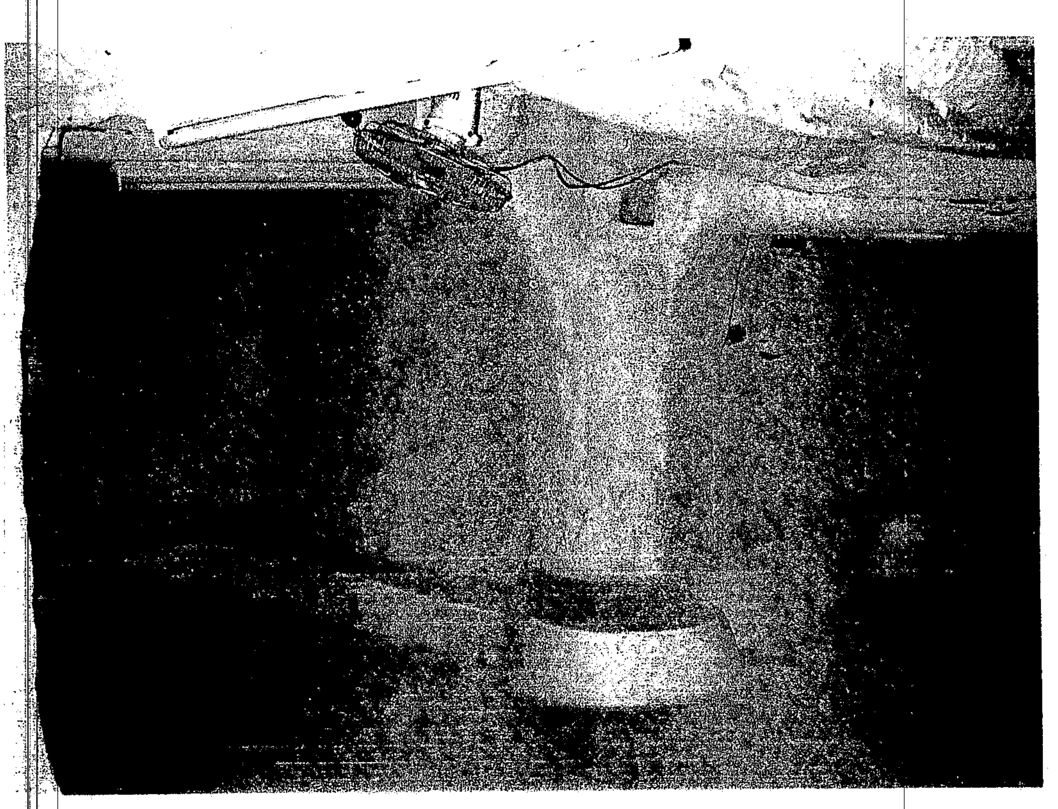
اللوحة رقم 31 :مدرسة بلحسن ؛ منظر داخلي يمثل إحدى الأجزاء المطلة على الفضاء المركزي



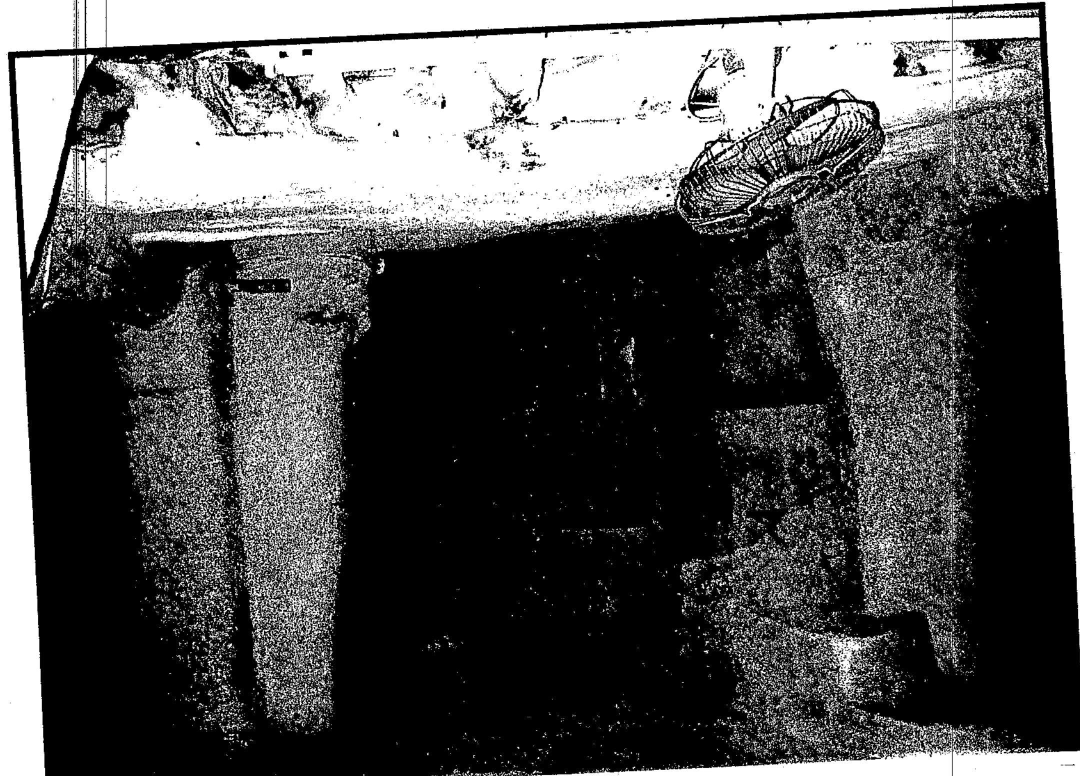
اللوحة رقم 32 : مدرسة بلحسن ؛ منظر المدرسة من الداخل .



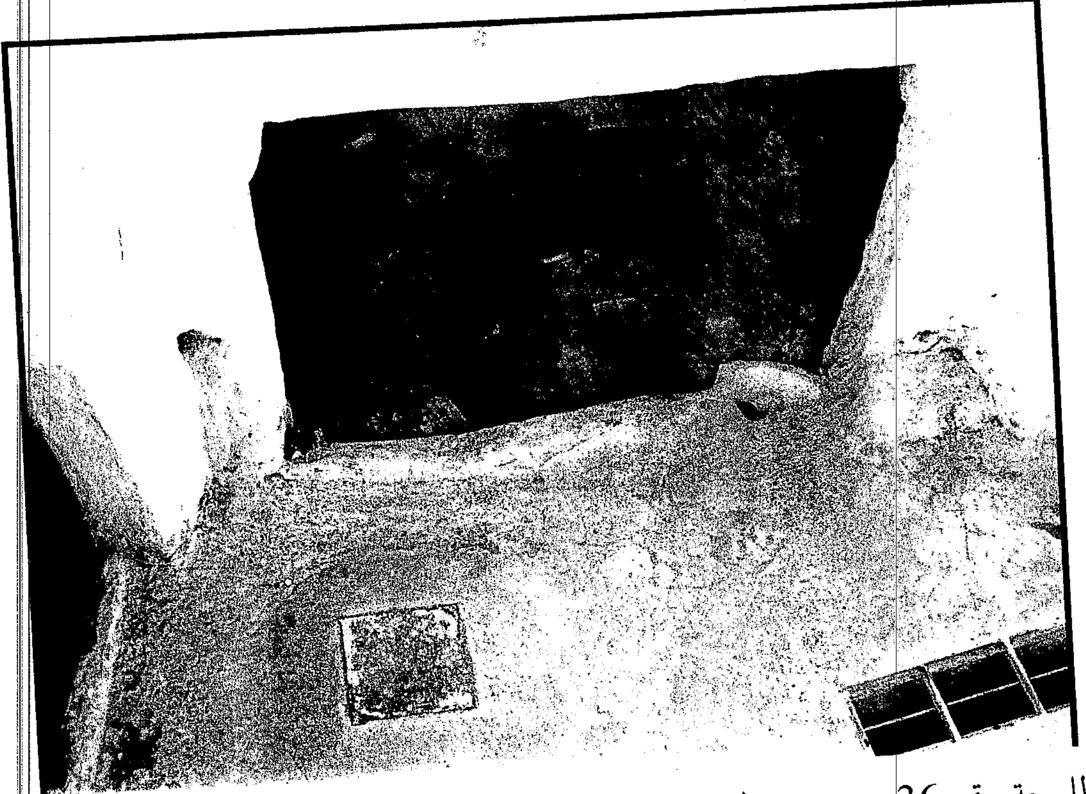
اللوحة رقم 33 : مدرسة الساسي ؛ منظر من الداخل للمدخل والجدار الحاجب .



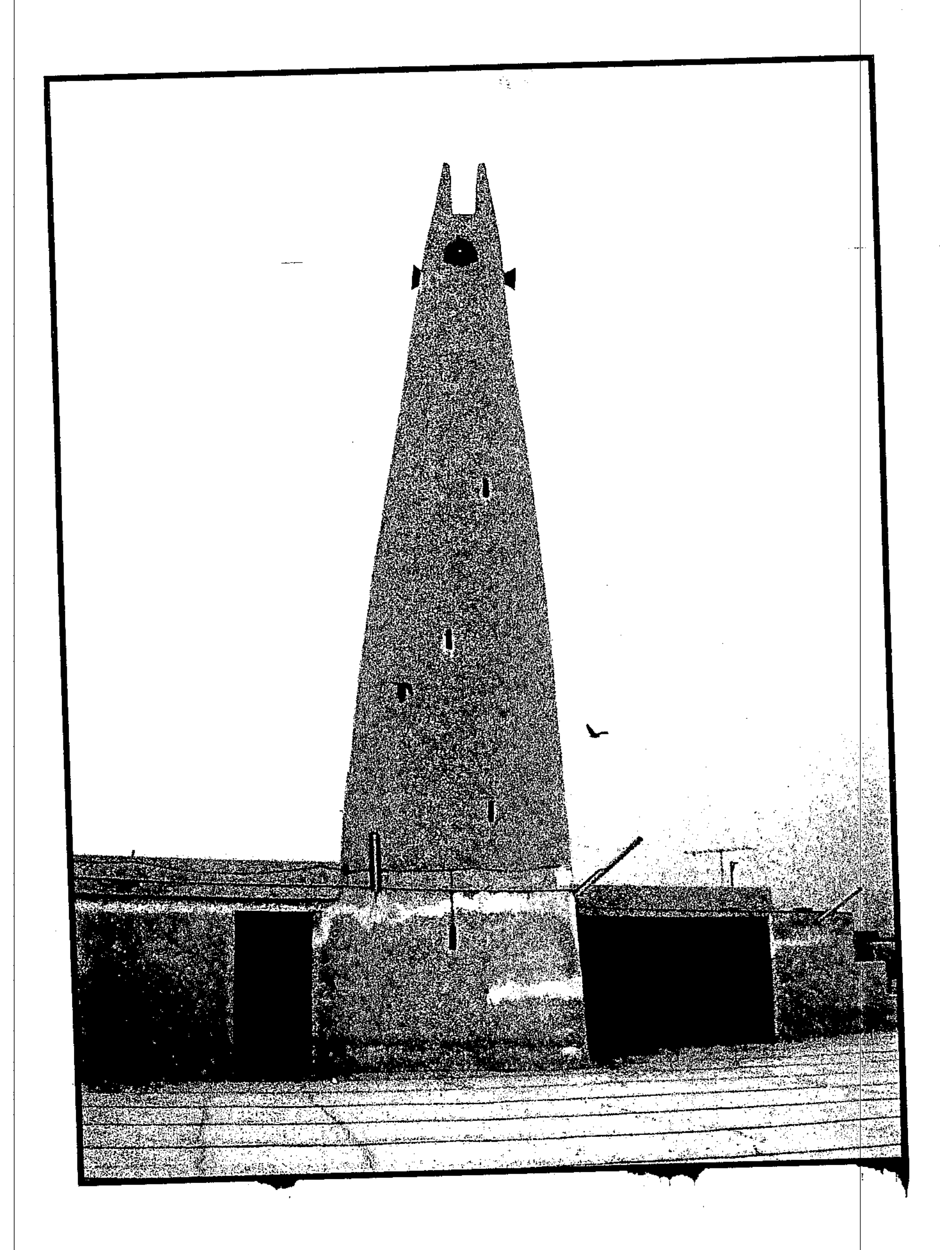
اللوحة رقم 34 : مدرسة الساسي ؛ منظر لأحد الأجزاء (الإيوان) المطلة على الفضاء المركزي .



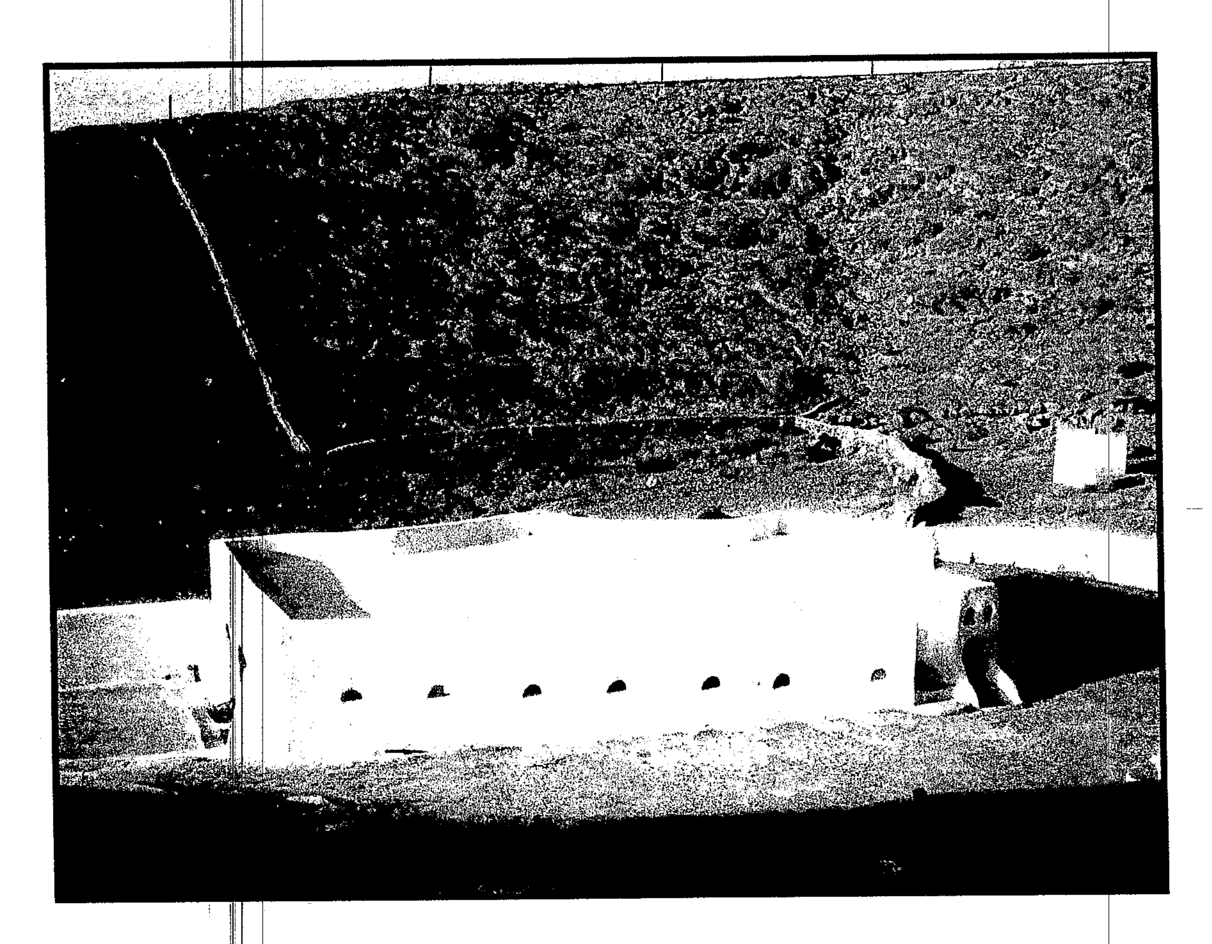
اللوحة رقم 35 : مدرسة الساسي ؛ منظر آخر داخلي يبرز جانبا من الفضاء المركزي. وبعض الكوّات المفتوحة على الجدران



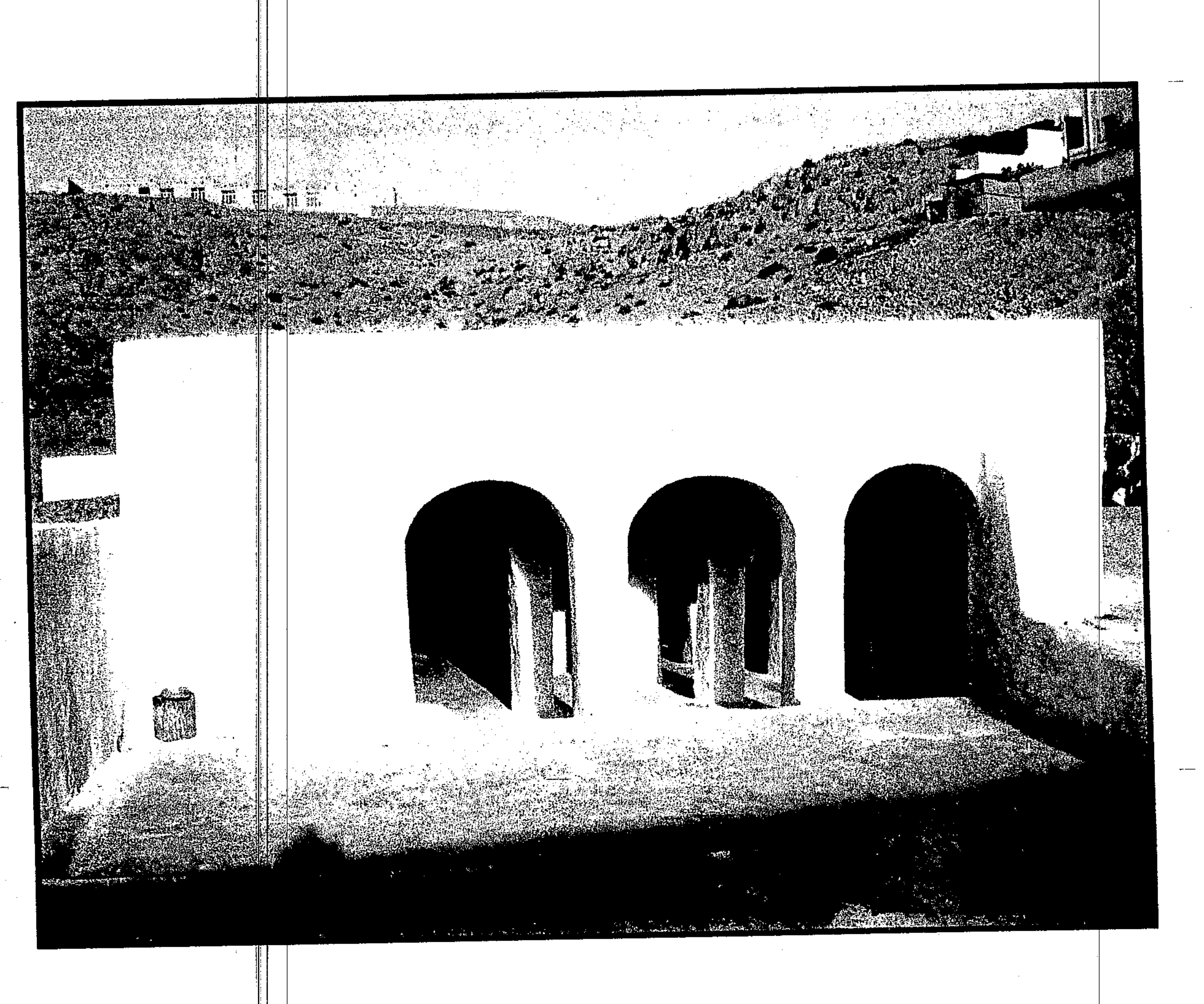
اللوحة رقم 36 : مدرسة الساسي ؛ تطهر الصورة الطابق العلوي ومكوّناته من الفضاء المكشوف والأجزاء المطلة عليه



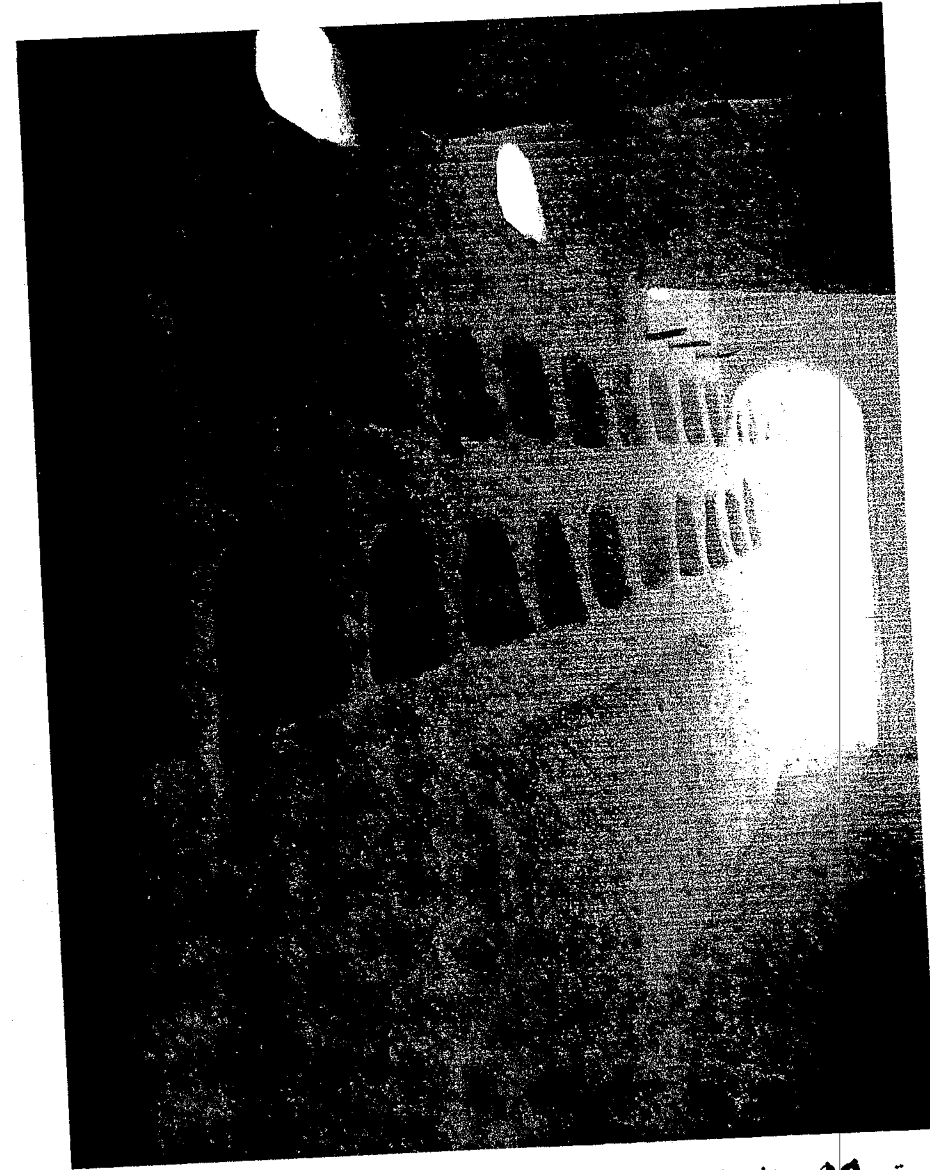
اللوحة رقم 37 : مسجد بريان ؛ مئذنة المسجد ، صورة ملتقطة من السطح.



اللوحة رقم 38 : المصلى الجنائزي عمي إبراهيم بالعطف ؛ منظر عام للمصلى



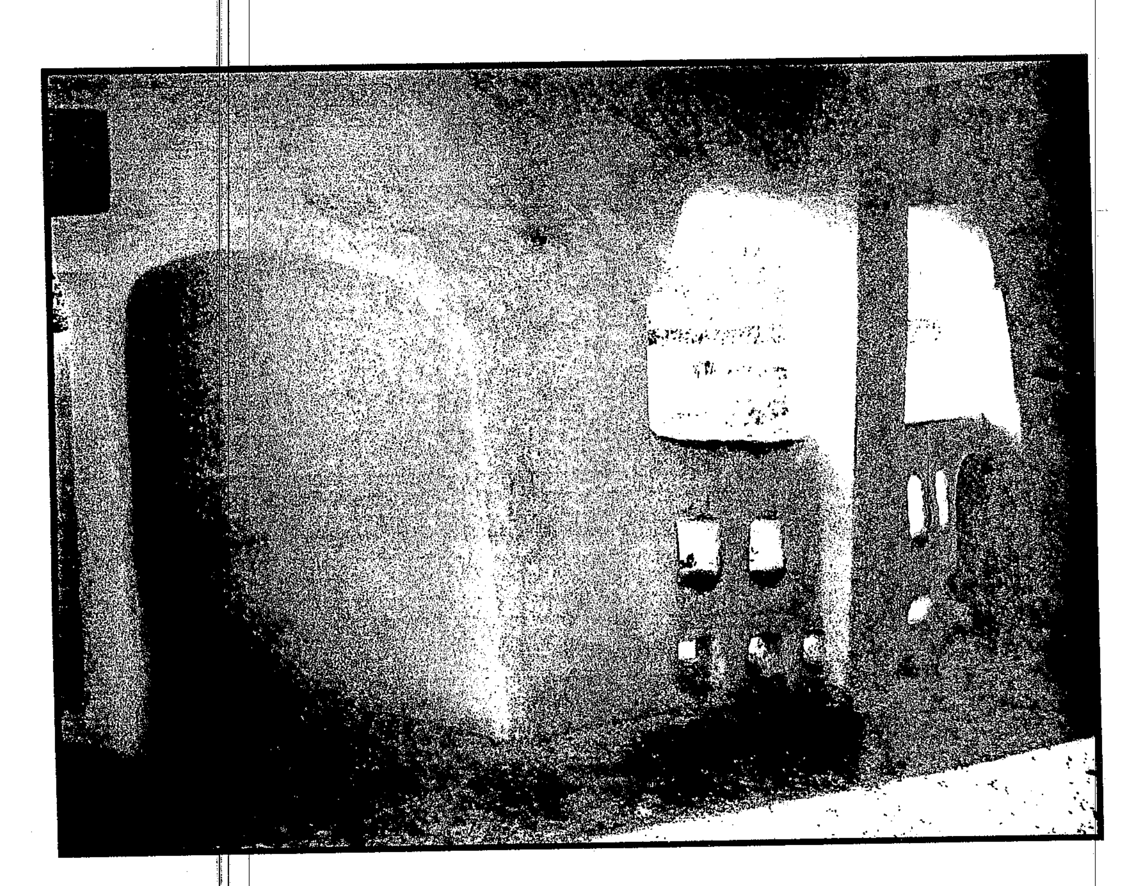
اللوحة رقم 39 : المصلى الجنائزي عمي إبراهيم بالعطف ؛ الواجهة الشمالية ، الغربية منظر خارجي للبائكة المطلة على الفضاء المكشوف



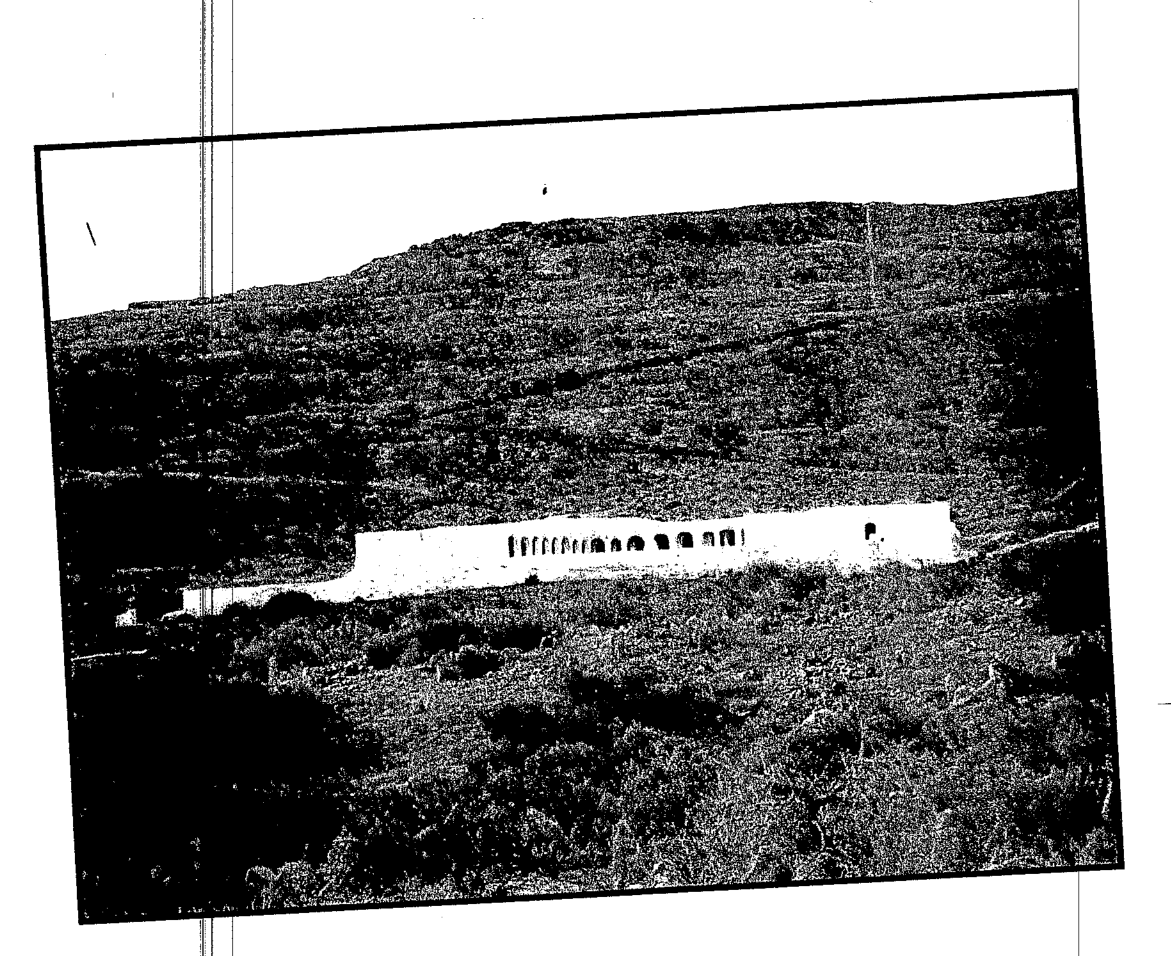
اللوحة رقم 10 : المصلى الجنائزي عمي إبراهيم ؛الواجهة المقابلة لجدار القبلة،
منظر من الداخل يظهر صفوف الكوّات .



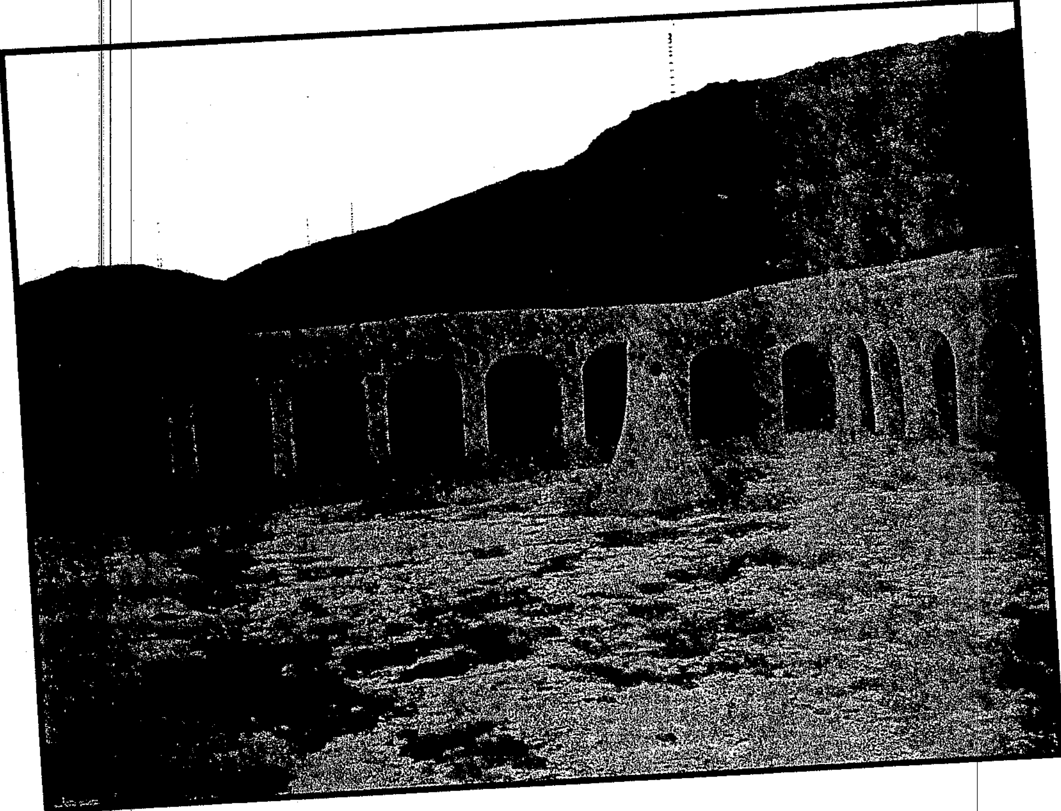
اللوحة رقم 41 : المصلى الجنائزي عمي إبراهيم ؛ الحجرة السفلى ، منظر يبين المحراب



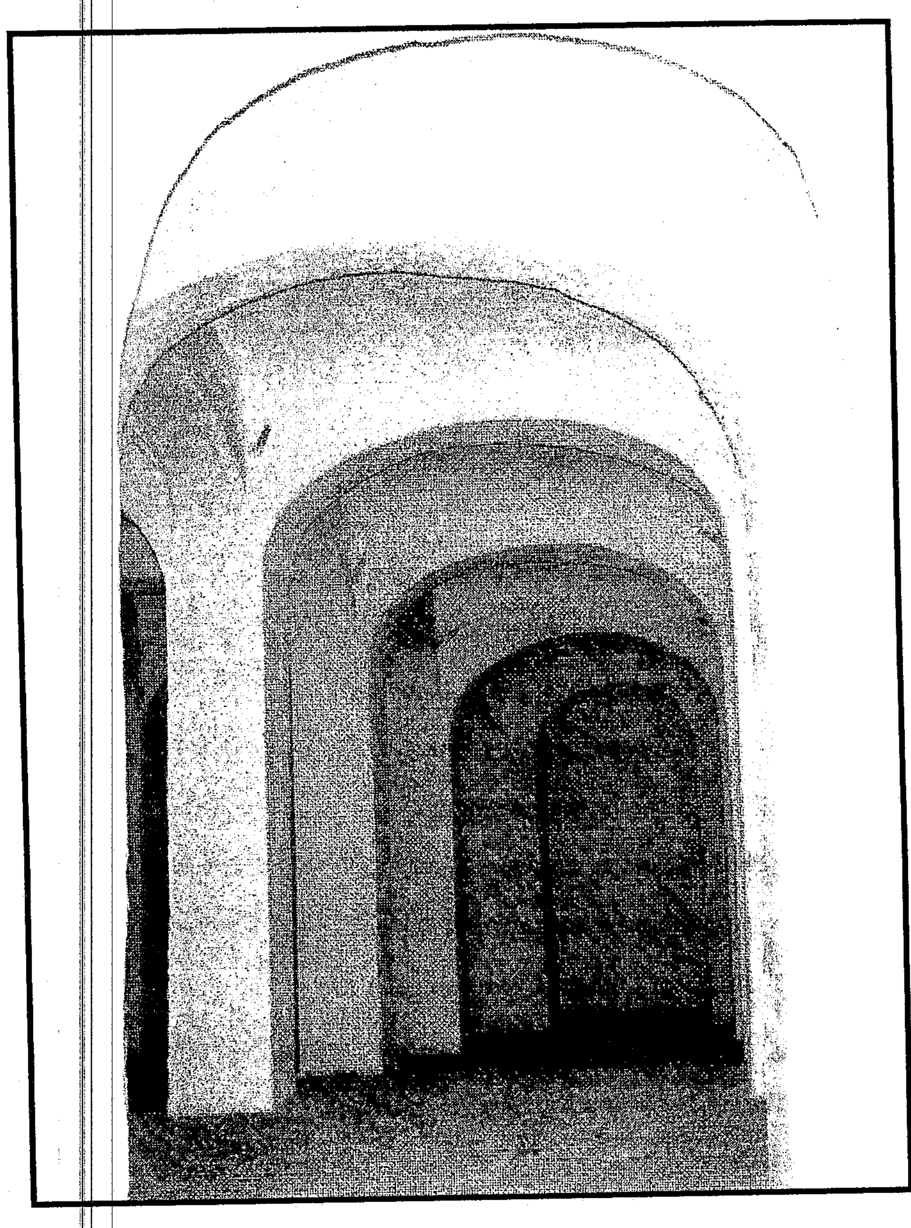
اللوحة رقم 42 : المصلى الجنائزي عمي إبراهيم ؛ جدار القبلة وفتحة المحراب



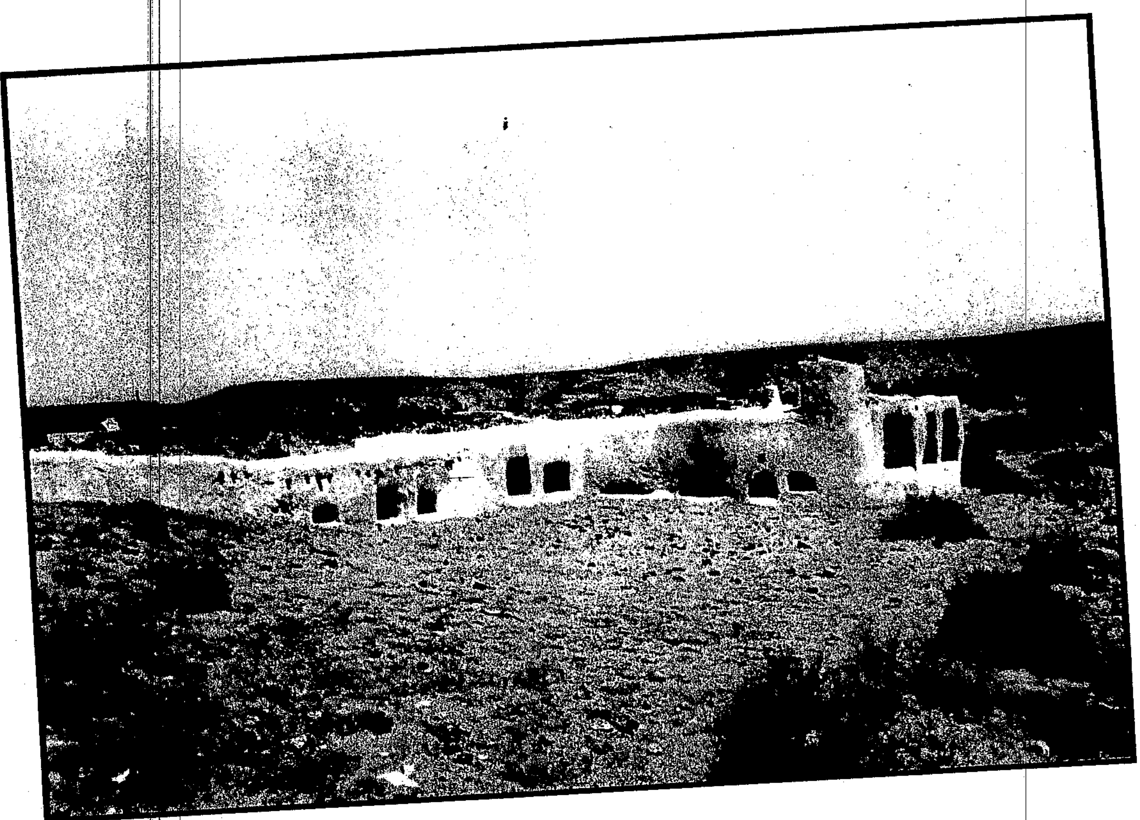
اللوحة رقم 43 : المصلى الجنائزي بامحمد ببني يزقن ؛ منظر عام للمصلى



اللوحة رقم 44 : المصلى الجنائزي بامحمد ببني يزقن ؛ منظر للبوائك المطلة على الفضاء المكشوف .



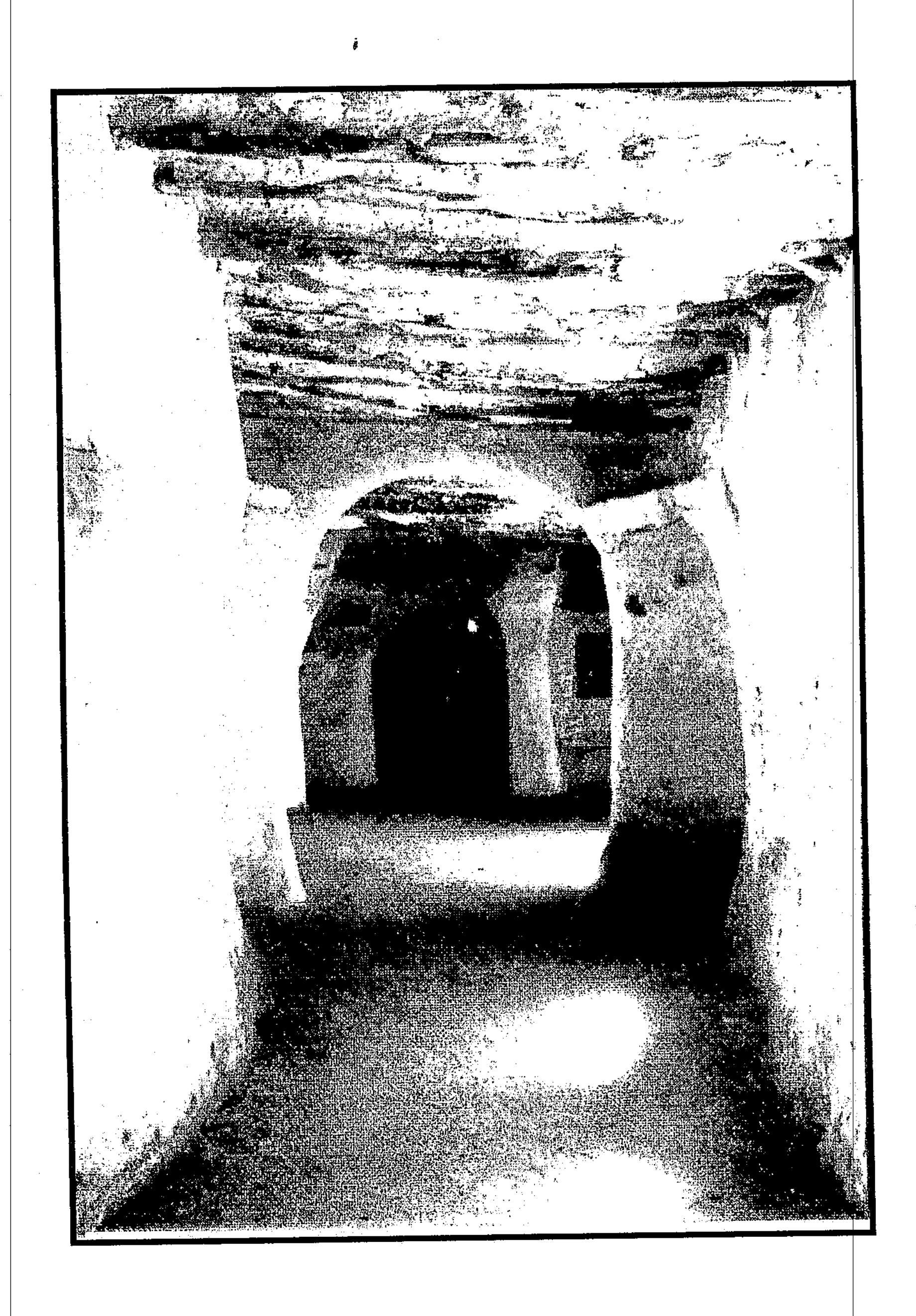
اللوحة رقم 45 : المصلى الجنائزي بامحمد ببني يزقن ؛ منظر داخل بيت الصلاة .



اللوحة رقم 46: المصلى الجنائزي عمي سعيد بغرداية ؛ منظر عام للمصلى



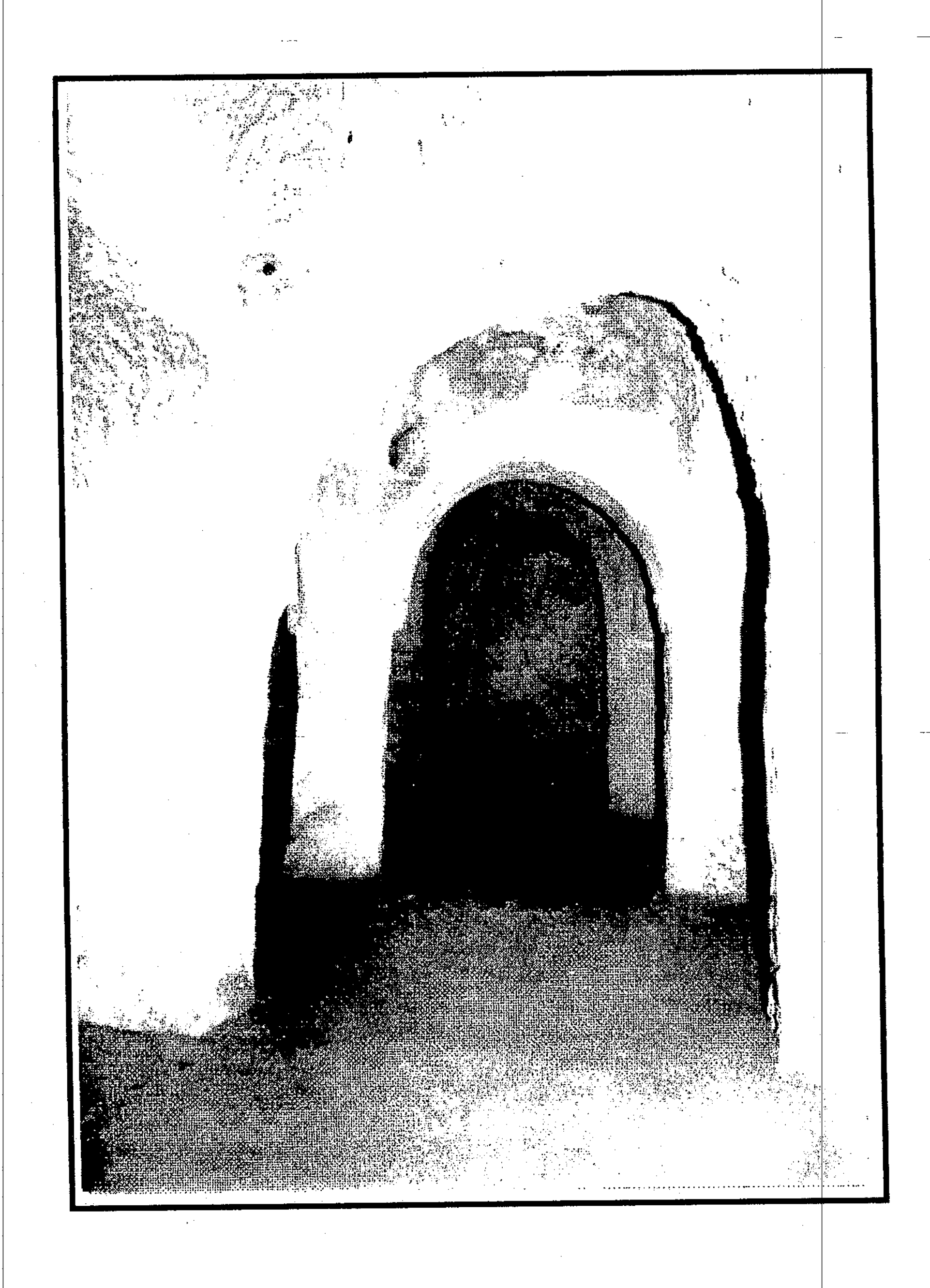
اللوحة رقم 47 : المصلى الجنائزي عمي سعيد بغرداية ؛ الفضاء الواسع داخل المصلى



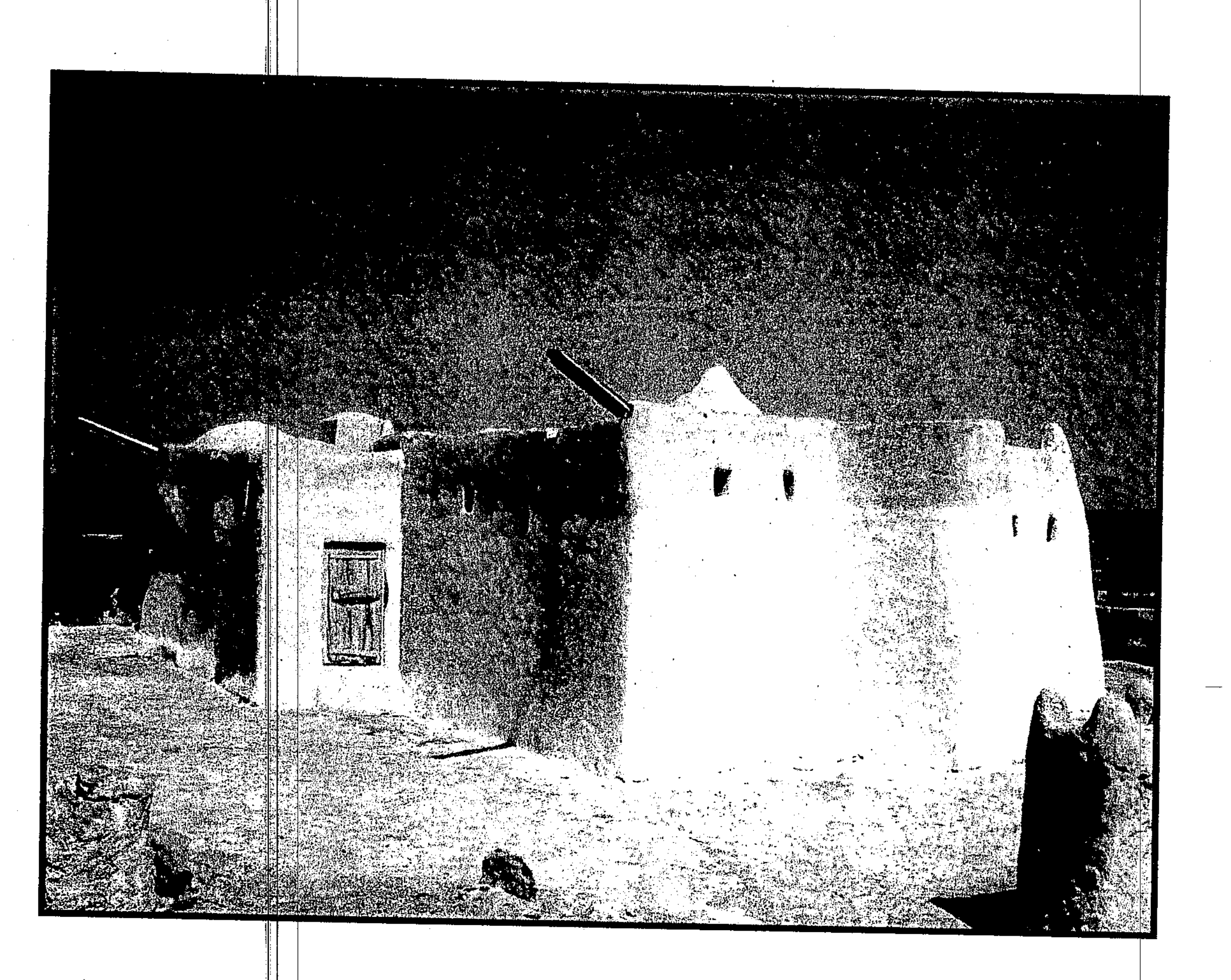
اللوحة رقم 48 : المصلى الجنائزي عمي سعيد بغرداية ؛ الممرّ المؤدي إلى الفضاء الواسع .



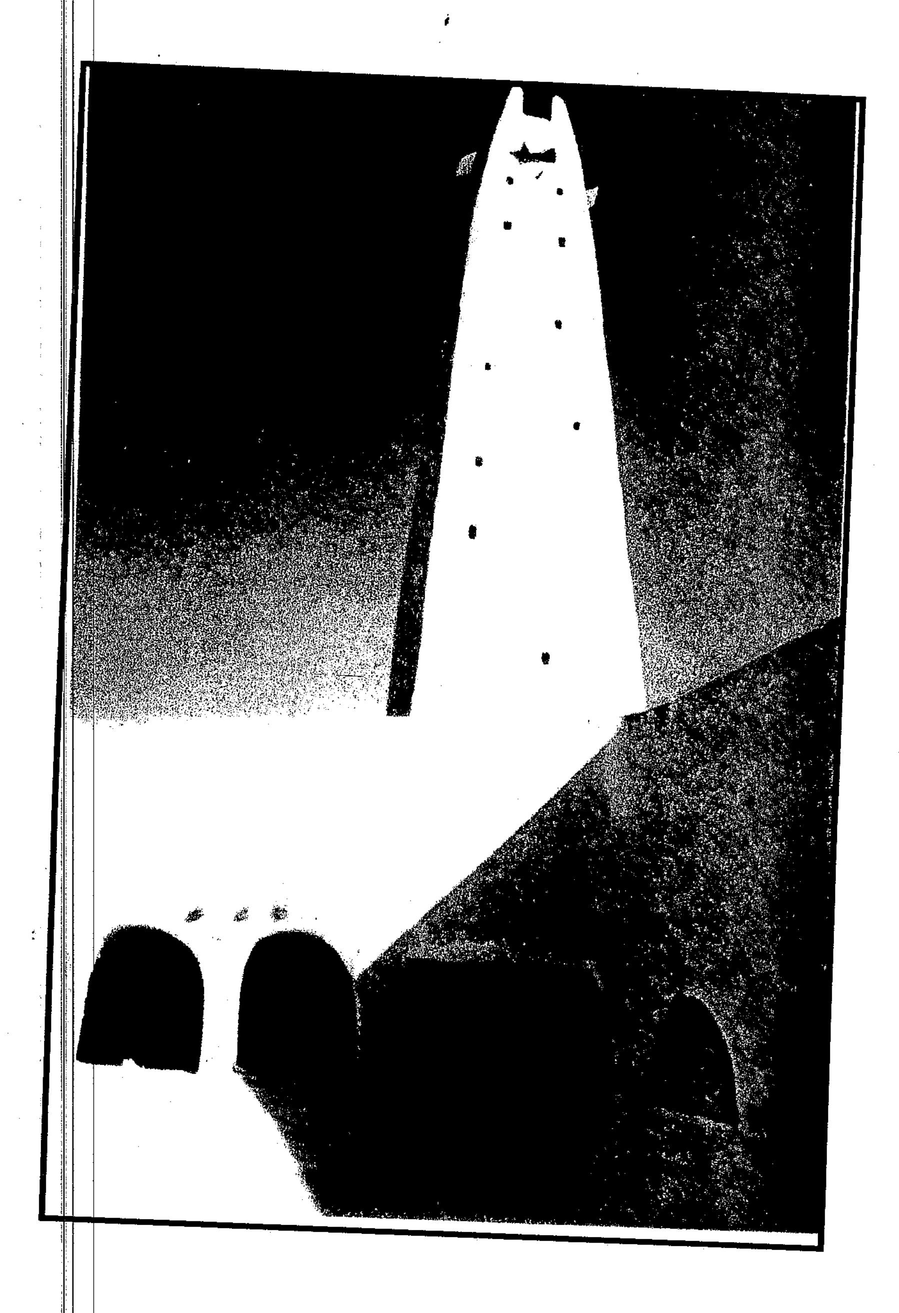
اللوحة رقم 49 : المصلى الجنائزي عمي سعيد بغرداية ؛ منظر لإحدى الأروقة المحيطة ببيت الصلاة



اللوحة رقم 50 : المصلى الجنائزي عمي سعيد ؛ فتحة المحراب داخل بيت الصلاة..



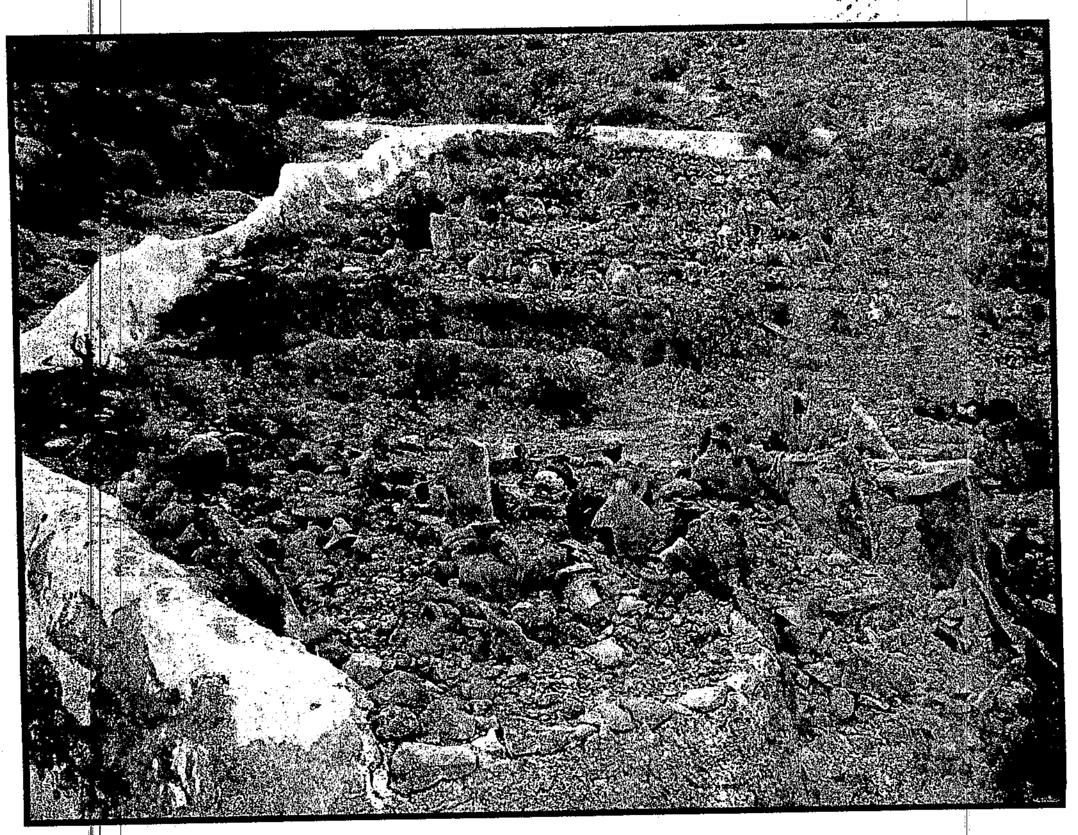
اللوحة 51 : المصلى الجنائزي بابه والجمة ؛ منظر عام من الخارج



اللوحة رقم 54 : مسجد بني يزقن ؛ السطح الثاني المشهور باسم تامنايت



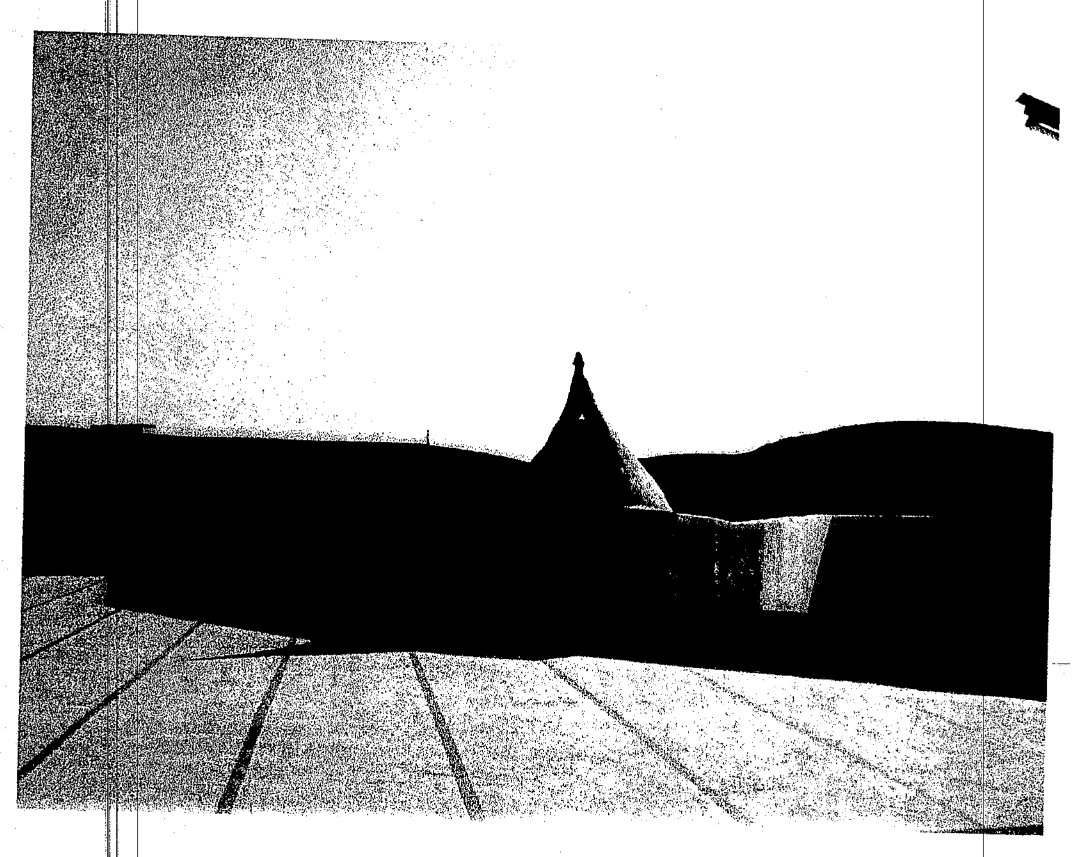
اللوحة رقم 52 : مقام الشيخ أبي مهدي عيسى ، منظر لمجموعة من المقابر
و الهيكل الذي يتوسطها



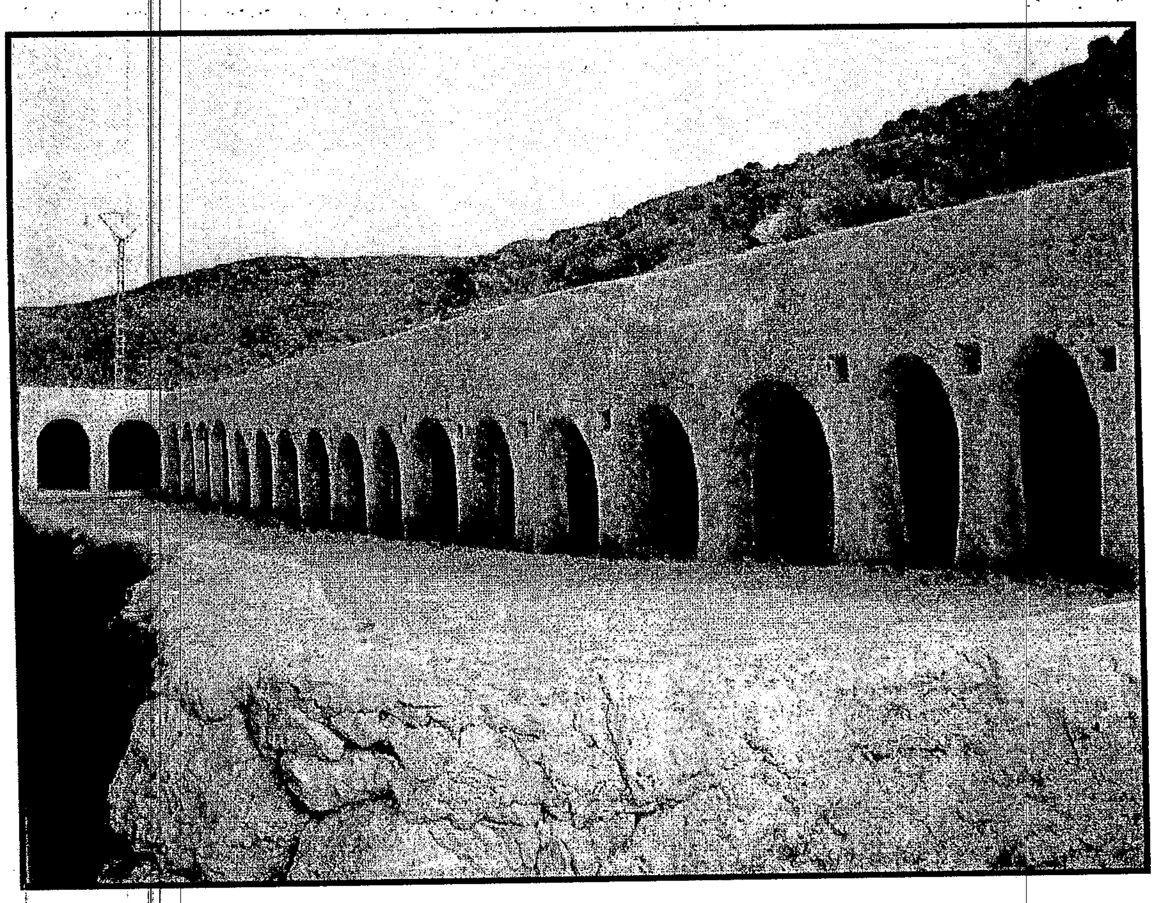
اللوحة رقم 53 : مقبرة بامحنمد ؛ منظر يبين الآنية الفخارية
المتناثرة فوق القبور



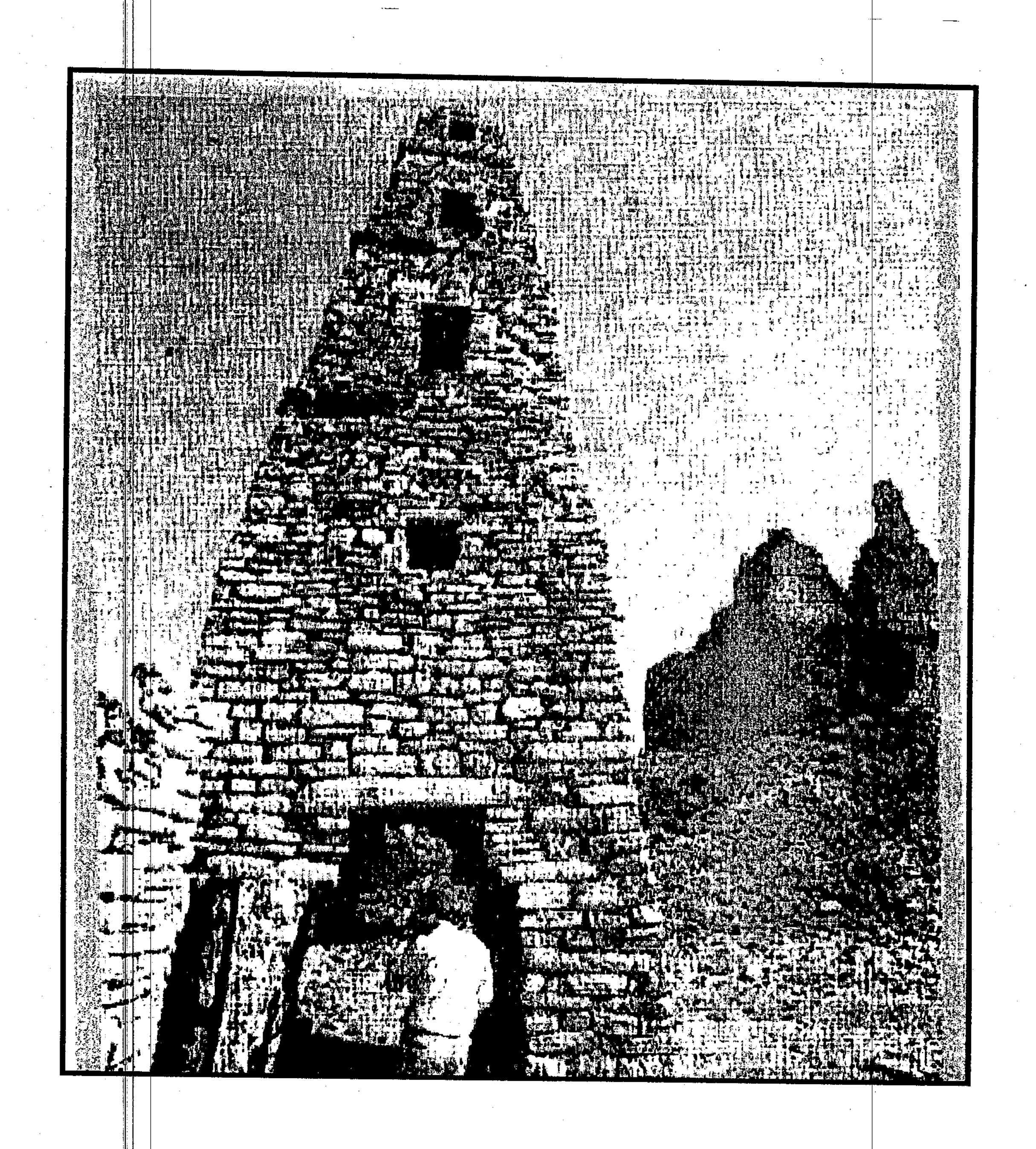
اللوحة رقم 55 : مسجد غرداية العتيق ؛ لوحة حجرية تحمل نصا كتابيا بجانب المحراب الأيمن في الصحن .



اللوحة رقم 56 : مسجد غرداية العتيق ؛ قبّة غرفة تسخين الماء

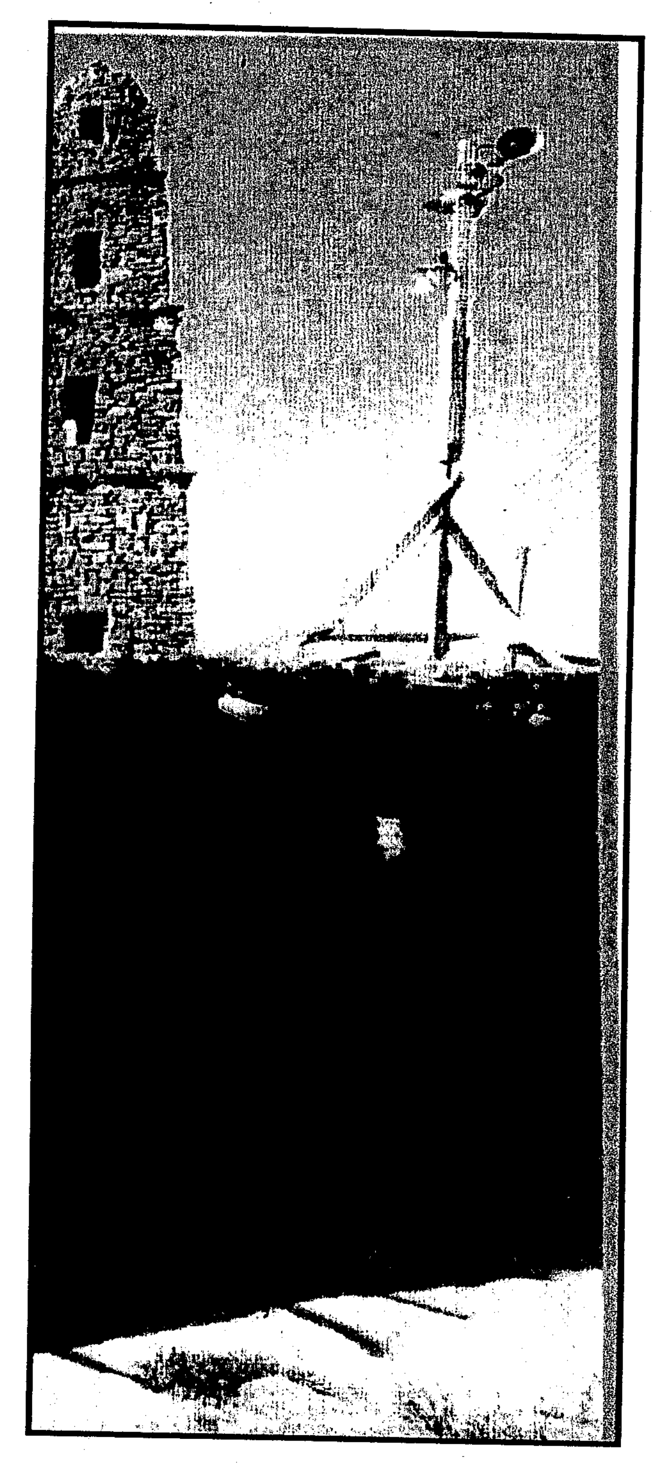


اللوحة رقم 57 المصلى الجنائزي الشيخ باسه ببني يزقن ؛ منظر للبوائك المفتوحة نحو الفضاء المكشوف .



اللوحة رقم 58 : دومة الجندل ؛ منظر لمئذنة جامع عمر بن الخطاب

عن / يوسف ابو عواد : نفس المرجع السابق، ص 20



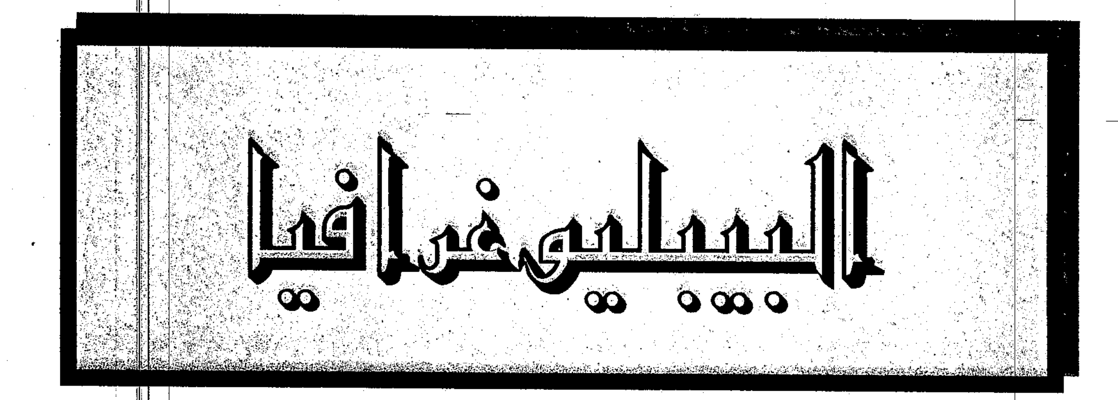
اللوحة رقم 59 : دومة الجندل ؛ منظر لجامع عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن / يوسف أبو عواد : نفس المرجع السابق ، ص : 20


فهارس
الأشكال واللوحات

فهرس الأشكال

فهرس اللوحات


البيبليوغرافيا

قائمة المصادر والمراجع

I – المصادر والمراجع العربية

- **القرآن الكريم؛ رواية ورش عن افمام نافع .**

1- إبراهيم أبو اليقظان : عنوان الحضارة فيما يتعلق بأحوال بلد القرارة ، مخ.

2- إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية ، ط : 2 ، جمعية التراث ، القرارة 1993.

3- إبراهيم زكرياء : فلسفة الفن ، دار مصر للطباعة ، القاهرة 1979 .

4- ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم : الكامل في التاريخ، ج :01 ، ط : 05 ، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1985 .

5- أحمد بن سعيد الشمّاخي : كتاب السير ، طبعة حجرية ، القاهرة 1884.

6- أحمد فكري : المسجد الجامع بالـــقيروان ، مطبعة المعارف ومكتبتها ، القاهرة 1965.

7- أسامة النحاس: عمارة الصحراء ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د. ت .

8- أوقطاي أصلان ابا : فنون الترك وعمائرهم ، تر أحمد محمد عيسى ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية استانبول 1987 .

9- إرنست كونيل : الفن الإسلامي ، تر : أحمد موسى ، دار صادر ، بيروت 1966 .

10- بشير الحاج موسى : سعيد بن علي بن يحي الخيري الجربي ، مخطوط مرقون ، غرداية 2000 .

11- بكير بن سعيد أوعشت : دراسات في الأصول الإباضية ، ط: 1 ، مطبعة البعث ، قسنطينة 1982 .

12- بكير بن سعيد أوعشت : وادي ميزاب في ظلّ الحضارة الإسلامية، دينيا، تاريخيا، اجتماعيا، المطبعة العربية، غرداية 1991

13- توفيق حمد عبد الجواد : تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، ج : 3 ، القاهرة 1970 ،

14- ثروت عكاشة : القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ، دار المعارف ، القاهرة 1981

15- جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، مدخل إلى التاريخ والفكر الإباضي من خلال تراجم لأكثر من ألف علم من أعلام المغرب الإسلامي منذ القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر ، مج : 2 ،3 ، 4 ، المطبعة العربية ، غرداية 1999.

16- حسن باشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، دار النهضة العربية ، القاهرة 1979 .

17- الحمد عبد القادر شيبة : فقه الإسلام شرح بلوغ المرام في جمع أدلة الأحكام للحافظ أبي حجر العسقلاني ، ج : 3 ، ط :2 ، مطابع المدينة ، الرياض ، د . ت.

18- خير الدين وائلي : المسجد في الإسلام ، أحكامه آدابه بدعه ، ط 4 ، المكتبة الإسلامية ، عمان 1998 .

19- رؤوف الأنصاري : عمارة المساجد ، ط : 1 ، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت 1996 .

20- رئيف مهنا ويسن بحر : نظريات العمارة ، الكتاب الأول ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1992.

21- أبو زكرياء يحي بن أبي بكر: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تر: عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس 1985.

22- زكي الدين عبد العظيم المنذري : مختصر مسلم ، ط 1 ، تح: محمد ناصر الدين الألباني ، قصر الكتاب ، البليدة 1411 هـــ .

23- زكي محمد حسن : في الفنون الإسلامية ، دار الرائد العربي ، بيروت 1981

24- سالم يعقوب : تاريخ جزيرة جربة، دار الجويني للنشر، تونس 1986.

25- سريل ألدريد : الفن المصري القديم ، تر : أحمد زهير ، وزارة الثقافة هيئة الآثار المصرية ، القاهرة 1990 .

26- سعاد ماهر : مساجد من السيرة النبوية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1987 .

27- سعيد بن علي بن يحي بن يدر بن سليمان بن عثمان الجربي: رسالة إلى عُمّان مخطوطة في مكتبة الشيخ صالح لعلي

28- أبو صالح الألفي : الفن الإسلامي ، أصوله ، فلسفته ، مدارسه ، ط: 2 ، دار المعارف بمصر ن القاهرة 1967 .

29- ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمّد الناصر، بحاز ابراهيم، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986 .

30- أبو الطاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي : قناطر الخيرات ، تصحيح وتعليق عبد الرحمان بكلي ط : 1 ، المطبعة العربية ، غرداية 1976.

31- أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب ، تح إبراهيم طلاي ، ج: 1 – 2 ، مطبعة البعث، قسنطينة، 1972.

32- عبد الرحمان بن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج : 7، دار العلم للجميع، بيروت، د.ت.

33- عبد الرحمان بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، دار العودة ، بيروت د . ت.

34- عبد المعطي محمد : الإبداع الفني وتذوق الفنون الجميلة ، دار المعرفة ا لجامعية ، الإسكندرية 1985 .

35- عفيف بهنسي : الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه ، دار الفكر ، القاهرة د.ت.

36- علي مسعودي البلوشي وآخرون موسوعة الآثار افسلامية في ليبيا ، ج : 2 ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،يوليو 1989 .

37- علي بن موسى ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافية، تح: اسماعيل العربي، ط : 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

38- علي يحي معمر : الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم، المطبعة العربية، غرداية 1985.

39- علي يحي معمر : الإباضية في موكب التاريخ، ج :2، الحلقة الرابعة ، المطبعة العربية ، غرداية 1984 .

40- علي يحي معمر: الإباضية مذهب إسلامي معتدل، بكير أحمد بن سعود السياسي، ط :3، المطبعة العربية ، غرداية، 1994.

41- عمرو بن مسعود الكباري أبو القاسم : الربيع ابن حبيب محدثا، المطبعة العربية، غرداية 1994.

42- عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ، مطابع دار الشعب، 1982.

43- عوض خليفات :الأصول التاريخية للفرقة الإباضية ،عمان – الأردن د . ت.

44- عوض خليفات: النّظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، ط :1 ، عمان، 1982 .

45- فرحات الجعبري : البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية ، ج :01، جمعية التراث، القرارة ، 1987.

46- فرحات الجعبري : نظام العزّابة عند الإباضية الوهبية في جربة ، المعهد القومي للآثار والفنون، المطبعة العصرية، تونس 1875 .

47- كمال الدين سامح : العمارة في صدر افسلانم ، دار نهضة الشرق للطباعة والنشر ، القاهرة 2000 .

48- محمد بن شامس البطاشي : سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب ، ج : 3 ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، د . ت .

49- أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي: كتاب شرح طلعة الشمس على الألفية مطبعة الموسوعات ، د . ت.

50- محمد القيسي : المساجد بين الاتباع والابتداع ، دار القلم ، الجزائر د . ت .

51- محمد محمد الكحلاوي عمائر الموحدين الدينية بالمغرب ، رسالة دكتوراة الدولة ، كلية علم الأثار ، جامعة القاهرة 1986 .

52- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، ج :1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1968 .

53- محمّد بن يوسف أطفيش : الرسالة الشافية، مخطوط بمكتبة الحاج صالح لعلي ببني يزقن.

54- محمد حمزة إسماعيل الحداد القباب في العمارة المصرية الإسلامية القبة المدفن ، نشأتها وتطورها حتى نهاية العصر المملوكي ، ط : 1 ، مكتبة الثقافة الدّينية ، القاهرة 1993 .

55- محمد حمزة إسماعيل الحداد : المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية ، مطبعة نهضة الشرق ، القاهرة 1995 .

56- محمّد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير، ج 3 ، ط :01، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1963 .

57- محمد ناصر الدين الألباني : أحكام الجنائز وبدعها ، دمشق 1968 .

58- محمود إبراهيم حسين : المآذن اليمنية دراسة أثرية فنية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة 1991 .

59- موسى لقبال : المغرب الإسلامي، ط : 1 ، مطبعة البعث، قسنطينة 1969.

60- نور الدين علي بن أحمد السّمهودي : الوفاء بأخبار دار المصطفى، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، ج : 2 دار الباز بمكة المكرمة 1981 .

61- يوسف الحاج سعيد : تاريخ بني مزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية ، غرداية 1992 .

II – الرسائل الجامعية :

1- رياض المرابط : جوامع ومساجد جزيرة جربة في العصرين الحفصي والمرادي دراسة أثرية وتاريخية ، رسالة دكتوراه ، جامعة تونس الأولى ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، قسم التاريخ ، تونس 1996 .

2- عبد الرحمان حسب الله الحاج أحمد : جماعات الخوارج في بلاد المغرب حتّى القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه في الآداب، كلية البنات جامعة، عين شمس، القاهرة، 1987.

3- عمر سليمان بوعصبانة : معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان ، رسالة ماجستير جامعة الجزائر ، المعهد الوطني لأصول الدين ، الجزائر 1992 .

4- الغوثي سيدي محمد بسنوسي : الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الدينية الإسلامية بالمغرب العربي ، رسالة دكتوراه دولة ، قسم الثقافة الشعبية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان 2000

5- مسعود مزهودي : الإباضية في المغرب منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة الهلاليين إلى بلاد المغرب، ج01 ، رسالة الماجستير، جامعة القاهرة ، كلية الآداب، قسم التاريخ، القاهرة، 1988 .

6- محمد التريكي وخالد البوزيدي : المعمار و الممارسة الاجتماعية ، ميزاب بين الماضي والحاضر ، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة ، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية ، تونس 1989 .

-7 نور الدين بن عبد الله : الحليّ التقليدية لطوارق الهقار دراسة فنية ، رسالة ماجستير: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، قسم الثقافة الشعبية ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان 2001 .

III - المجلات والدوريات :

- 1 - إحسان عباس : « المجتمع التاهرتي في العهد الرستمي »، مجلة العلم والإيمان، عدد31 و32 ، تونس 1972 ، ص : 60 – 80 .

- 2 إبراهيم بحاز : « الميزابيون المعتزلة - قراءة جديدة لنصوص قديمة -» مجلة الحياة، عدد 1 ، المطبعة العربية ، نشر جمعية التراث القرارة ، غرداية جانفي 1998 ، ص: 124 - 133.

- 3 محمد حمزة إسماعيل الحداد : « المصلّيات الجنائزية في العمارة المصرية العربية — دراسة أثرية — (تحليلية مقارنة) وثائقية تاريخية » مجلة كلية الآثار، عدد 8 ، مطبعة جامعة القاهرة القاهرة 2000 ص :145 - 244 .

— 4 يوسف أبو عواد : « دومة الجندل التاريخ والمارد (مدينة والتاريخ) » مجلة الفيصل ، عدد : 89 ، أوت 1989 ، ص : 20 - 29 .

- 5 وثيقة حول ترميم مسجد بنورة القديم من ديوان وادي مزاب .

IV– المراجع الأجنبية

1- A. Coyne : Le M'zab , Ed : Adolphe Jourdan , Alger 1879.

2- André Ravéreau : le M'zab une Leçon d'Architecture , Ed : Sindbad , Paris 1981.

3- Ara Altun :Ortaçag Turk Mimarisinin Anahtarı, Için bir Ozet Arkeoloji ve Sanat Yayınevi , Istanbul 1988.

4- C et P Donnadieu / H et J .M Didillon : Habiter le désert, Les Maisons Mozabites, 3é Ed, Ed Pierre Mardaga , Bruxelle 1986.

5- Charles Kleincknecht : Monographie de L 'Arrondissement de Ghardaia Ministère du Sahara Département d'Alger ,1960.

6- Dr Charles Amat : Le M'zab et les Mozabites , Ed Challamel et Cie , Paris 1888.

7- E. Masqueray : Formation des Cités Chez les Populations Sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djerdjera, Chaouia de l'Aourés, Beni_Mzab) ,Thèse lettres, Leroux, Paris 1886.

8- Elie Lambert : L'Art Musulman d'Occident des Origines à la Fin du XV^{é} Siècle , Société d'Edition d'Enseignement, Paris 1966.

9- Faik Reşit Unat : Hicri Tarihleri Miladi Tarihe Çevirme kılavusu , 6^{é} Ed ,Türk Tarih Kurumu Basımevi , Ankara 1988 .

10- Joël Aboonneau ; Préhistoire du M'zab , Thèse de 3éme Cycle en Archéologie, Paris I Sorbonne , 1983.

11- George Marçais ; L' Art Musulman , 1er Ed , Presse Universitaire de France , Paris 1962 .

12- José Gers : Au M'zab Désert dans le désert , Bruge : Librairie de l'œuvre Saint Charles , Paris 1936 .

13- Henri Terrasse : Kasbas Berbères de l'Atlas et des Oasis, Ed : des Horizons de France , Paris 1938

14- Henri Stierlin: l'Architecture de l Islam, Office du Livre , Fibourg 1979.

15- Lucien Golvin : Essai sur l'Architecture Religieuse Musulmane , T 3, Ed Klincksieck , Paris 1974.

16- Lucien Golvin : La Mosquée , Ses Origines , Sa Morphologie, Ses Divers Fonctions , Son Rôle dans la vie Musulmane plus Spécialement en Afrique du Nord , Institut d 'Etudes Supérieures Islamiques d'Alger Alger 1960 .

17- L. Millot : Recueil de Délibération des Djmaas du M'zab , Extrait de la R. d'Etudes Islamiques , Librairie Orientale , Paul Gautier , Paris 1930

18- Laibi Shaker : Soufisme et l'Art Visuel Iconographie du Sacré , l'Harmattan , Paris 1998.

19- Lieutenant D'Armignac : Le M'zab et le Pays du Chaamba , Baconnier, Alger 1934.

20- Manuelle Roche : Le M'zab , Arthaud , Paris 1970.

21- Marcel Mercier : La Civilisation Urbaine au M'zab , la Mystérieose Ghardaia , Ed P.A.G Sourbiron , Alger 1932.

22- Marth et Edmond Gouvion : Kharidjisme Monographie du M'zab ,Imprimerie vigie Marocaine , Casablanca, Paris, 1926.

23- Natascha Kubisch : «Espagne et Maroc (8^{é} - 15 ^{é}) Architecture» Art et Civilisation de l'Islam ,Konemann , Cologne , 2000 .

24- Pierre Roffo : Contribution à l'Etude de la Préhistoire du Sahara Septentrional, Ancienne Imprimerie ; Alger 1934.

25- Rachid Bourouiba : Apport de l'Algérie à l'Architecture Religieuse Arabo-Islamique , O . P. U ,Alger 1986 .

26- Robert Irwin : Le Monde Islamique , Trad Denis – Aemond Canak ,Ed Flammarion ,Hong Kong 1997.

27- Robin (Commandant) : Le M'zab et son Annexion à la France , Ed Typographie Adolphe Jourdan ,Alger 1884.

28- Ulya Vogt Göknil : Grands Courants de l'Architecture Islamique , Mosquée ,Trad : F et B Wauthier – Wurmser , Chêne , Lausanne 1975.

29- Ville : Exploration Géologique du Beni ; M'zab du Sahara et de la Région des Steppes de le Province d'Alger, Paris, 1872.

V- الأطروحات الأجنبية:

1- Baelhadj Marouf : Cezayir'de Merkezi Kubbeli Camiler – Osmanlı Dönemi –Thèse de Magister , Université d'Istanbul , Faculté des Lettres ,Département d'Histoire de l'Art ,Istanbul 1991 .

2- Willems Didier : Recherches sur Quelques Grandes Mosquées du M'zab et du Soudan Central , Paris 4 , Sorbonne , Thèse de D . E . A , Institut d'Histoire de l'Art et d'Archéologie , 1991 .

VI – المجلات والدوريات الأجنبية :

1 - A de C Motylinski : «Notes Historiques sur le M'zab ; Guerara depuis sa fondation » , In. R Africaine, O.P.U, Alger 1884 pp : 372 – 391 et pp : 401 – 447 .

2 - C.M. Vigouroux : << la Garde de Nuit à Ghardaia >>In Bull de Liaison Saharienne ,N° 9 , 05 / 1952 ,pp : 9 - 16 .

3 - J. Huguet : «Les Villes Mortes du M'zab » in Bull et Mémoires de la Société d ' Ethnographie ,1909 , pp : 583 - 590 .

4 - J. Huguet : «Le Pays du M'zab » in Bull de la Société de Géographie d'Algérie Imprimerie Typographique et Lithographique Sélion , Alger 1898 , 169 - 185 .

5 - Joseph Schacht : «Notes Mozabites » in Andalus , N° 22, Paris 1957 pp : 1 - 20.

6 - Joseph Schacht : « la Diffusion des Formes Architectural» In T.I.R.S , Paris 1957 , pp : 11 – 27 .

7 - Louis David : Les Mechaichs du M'zab , Beni- Isgen et ses Mechaichs , Manuscrit Dactylographié.

8 - Louis David : Les Mechaikhs du m'zab , Ghardaia , ses Mechaichs

9 - Louis Watin : << Les Tolbas du M'zab , 2é Partie Organisation Actuelle >>In Archives de la Direction du personnel des Territoire du Sud 1913 , pp : 1 – 19 .

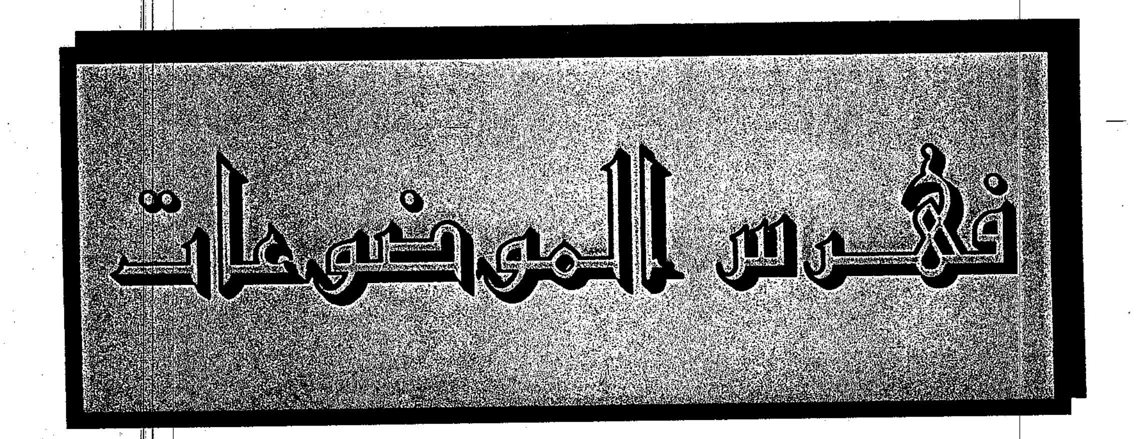
10 - M . Cauvet : «Les Marabouts Petits Monument Funéraires et Votifs du Nord de l'Afrique » In R . Africaine, T . 64 , Alger 1923 pp :274 – 328 et 448-521 .

11 - M. Zeys : << Voyage d'Alger au M'zab >> In Tour du Monde , Paris 1891 , pp : 289 – 320 .

12 - Marcel Mercier : « Notes Sur une Architecture Berbère Saharienne » , In Hespéris , Vol VIII 1928 , pp : 413 – 429 .

13

- Yves Bonet : <<Notes sur l'Architecture Religieuse du M'zab >>In Cahier des Arts et Techniques , n° : 6 Toulouse 1960-61.


فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الباب الثاني:

نماذج من العمارة الدينية الإباضية في مزاب

دراسة تاريخية وصفية

الباب الثالث:

العمارة الإباضية الدينية بوادي مزاب

دراسة تحليلية ومقارنة